



سورواقف

مجله ادبی



محمد علي رفاحي

رجال ومواقف

الكتاب الثاني

الجزء

رقم

الطبعة الأولى

أكتوبر سنة ١٩٧٧

القاهرة

تصدير

بقلم الأستاذ الجليل زكي المهندس

رحمه الله

لقد كان من أعز الأمنى التى تجيش فى صدرى ، أن أرى فى المكتبة العربية دراسة جادة ممتعة ، تعالج حياة كثير من زعماء مصر والعرب ، الذين سيطروا فى مشرقهم وفى مغربهم ، تاريخ الوطن العربى الحديث ، من علماء وساسة وقادة ورجال اعمال ، وأن تصور لنا هذه الدراسة ما عاناه هؤلاء العظماء من صعاب ، وما احتملوه من مشاق ، حتى وصلوا الى ما وصلوا اليه من عظمة وسؤدد ومجد ، فأننى اعتقد أن مثل هذه الدراسة ، هى أنفع الدراسات للباحثين والمؤرخين ، وأجدى على الشباب نفعا ، من كثير من الكتب التى يشغلون بها أوقات فراغهم .

أن كثيرا من شبابنا يشتهى النجاح من أيسر سبله ، ويتمنى الشهرة والمجد بغير ثمن ، ولكن مثل هذه الدراسة لحياة عظماء مصر والعرب ، خليفة بأن تبين للشباب ، أن النجاح وليد العمل الدائب الجاد ، وأن الحياة لا تعطى شيئا بلا مقابل .

ولقد عرفنا عن عظماء الغرب ، حرصهم الشديد على تدوين سيرهم فى حياتهم ، لتنتشر بعد وفاتهم ، حتى تكون نبراسا لبنى أوطانهم ، يوقظ من همهم ، ويقوى من أملهم ، وينير لهم الطريق فى مستقبل أيامهم .

ومما يحزن ، أن جل - أن لم يكن كل - عظمائنا لا يعنيه من حياتهم الحافلة ، سوى الدنيا العريضة التى يعيشون فى رحابها ، فلا يدون واحد منهم سيرته ، ولا يملأ على أحد أبنائه أو أحفاده ، تفاصيل تدرجه فى عمله حتى بلغ ذروة المجد والعلا . . . نعم لم يحفل واحد منهم بتاريخه أو بسيرته وبتاريخ وطنه فى عشرات السنين التى قضىها على أرضه قبل أن تضمه فى باطنها ، فانشأوا ، دون أن يدروا ، صعايا أمام المؤرخين لهذه الأمة العربية ولرجالها الأفاضل . . وهكذا رأينا كم تتطلب كتابة السير من نقص ، وكم تتطلب من تحرر ، وكم تتطلب من تنقيب مضمّن مرهق شاق .

اعود فاقول ، انه كان من أعز أمانى ، ان أجدر دراسة جادة ممتعة لحياة
عظماء مصر والعرب ، حتى وافانى ولدى وتلميذى وصديقى ، الأستاذ
محمد على رفاعى بكتابه هذا الذى اسماه ((رجال ومواقف)) ، فاذا هو
كتاب يحقق الأمنية التى تمتتها نفسى ، ويشفى غلة فى صدرى .

والصديق الأستاذ رفاعى ، صحافى قديم ، صادق الرواية ، وأديب
كبير عزيز المسادة ، وباحث محقق مدقق ، ولو أعنت نفسه وأرهقها ، فى
سبيل الوصول الى الحقيقة خالصة مبراة من الريب والشك . ولعل آخر
ما أذكره من إنتاجه التاريخى الأدبى ، كتابه النفيس ((الجامعة العربية
وقضايا التحرير)) فقد تحلى بالصدق والأمانة ، وبدقة التحسرى
والتنقيب .

وهذا الكتاب الذى أقدمه اليوم لقراء العربية ، هو جزء اول من
أجزاء سوف تصدر تباعا ان شاء الله ، يختص كل جزء منها بجملة من
السيرة ، لا ينظر فى جمعها معا الى صلة بذاتها ، بل على أنها قطعة من تاريخ
أمة واحدة هى الأمة العربية ، ثم على أنها قطعة من كفاح مشترك ، هو
الكفاح من أجل تحقيق أمانى الأمة العربية .

وهذا الجزء الأول يضم سيرا اربع ، لكافحين اربعة : منهم اثنان لهما
الصفة الحاكمة ، واثنان لهما الصفة الاجتماعية . أما عن الأولى فستقرأ
سيرة حاكمين عظيمين ، هما الأمير عبد الله السالم الصباح ، أمير الكويت
الراحل ، والملك محمد الخامس ، ملك المغرب السابق . وأما عن الثانية
فستقرأ فيها سيرة اجتماعيين ، أحدهما محمد على علوية باشا ، وثانيهما
الشيخ عبد العزيز جاویش .

وسير الحاكمين ، لا سيما فى هذه الظروف التى تحياها الأمة العربية ،
موزعة بين جهاد وجهاد : جهاد من أجل الشعب المحكوم ، وجهاد من أجل
الأمة العربية جمعاء ، اذ لا انفصال للجهاد الاول عن الجهاد الثانى ، وقد
أحسن المؤلف الحصيف فى الحديث عنهما كل الاحسان .

وسير الاجتماعيين ، أعنى المصلحين الاجتماعيين ، تتوزع أغراضا ، وهى
مع هذا التوزع ، تكاد تتصل هدفا . وما من مصلح اجتماعى يكاد لا يشارك
فى أغراض شتى ، مع تخصصه فى غرض بذاته . فلقد خص محمد على علويه
باشا نهجه الإصلاحى ، بمبادئ الإصلاح الاجتماعى ، وأن لم يبعد فى كثير
من مراحل حياته الطويلة عن ميدان السياسة . وخص الشيخ جاویش
نهجه الإصلاحى فى ميادين التربية والتعليم والدين ، وهو مع هذا ، قد
شارك بقلمه المجاهدين السياسيين ، محاربة المستعمر ومناهضته .

ولقد كانت صفة تلميذنا الأستاذ محمد على رفاعي ، الداب المتصل في أثر الحقائق ، يجمعها ويدرسها ويستوعبها ، ولكم تنبات له صغيرا - وهو بعد في دار العلوم - بما سينتهي اليه امره كبيرا ، وان هذا الاستيعاب ، وذلك الداب وراء التقصي ، لا بد ان ينتهيا بصاحبهما ، الى ان يكون ذلك المؤرخ الذي يزف لقراء أمته ، حصيلة ما جمع ، على نهط حق مدروس .

واني اذ اقدم هذه الصفحات ، اقدم صفحات صادقة مخلصه ، لا امت فيها ولا عوج ، ولا جور فيها عن القصد . . صفحات ديجتها براعة مؤرخ مخلص للحق ، مخلص للتاريخ . وما ازكى كاتبها وما كتب ، ولكني اترك تلك الصفحات الحافلة ، تحدث ، الى حديثها عن اصحابها ، حديثا آخري عن الذي خطها ، وعن نفسه في جمعها ، غير جائر ولا مائل ، ولا مصانع ولا مجامل .

وليس التوفر على مثل هذا العمل ، لا سيما اذا كان عدلا يتناول سيرا مليئة بالجهد ، مزدحمة بالنضال . . بالامر اليسير ، اذا كان مشروطا بتوخي الحق ، وابتغاء النصفة .

كان الله لك ايها التلميذ النجيب والأستاذ الجليل ، في عملك هذا ، الذي نرجو ان يكتمل ، كي يجتمع للقارئ العربي ، من سير ابطاله وعظمائه ، بهذا القلم الصادق ، صفحات ، يعيش على ما فيها من خير وهدى ، كريما ، عزيزا ، معتزا بعروبتة ، معتدا بارومته .

زكي المهندس

هذا الكتاب

بقلم الباحث المحقق

الأستاذ الكبير إبراهيم الأبياري

هذا كتاب جليل يترجم لأربعة من رجال اجلاء هم :

١ - عبد العزيز بن سعود .

٢ - سعد زغلول .

٣ - طلعت حرب .

٤ - عبد المجيد اللبان .

ولا أريد أن ادخل في تراجم هؤلاء الرجال الاجلاء ، فما أنا بمستطيع أن اضيف شيئا . فالكتاب راوية حجة ، ومؤرخ ثبت للقرن الذي نعيشه ، ثم هو الى هذا كله له نظرات جامعة ، وصلات موثقة .

والمؤرخ اذا كان معاصرا ، انضم الى ما وقع عليه غيره ، ما يقع عليه هو ، وانتهى من هذا وذاك ، الى تجربة ذاتية ، كان هو مالك زمامها .

من أجل هذا كان جل ما يكتبه المؤرخون المعاصرون عن أحداث معاصرة ، فيه الكثير من الحق ، وفيه الكثير من التجربة ، وفيه الكثير من الراي الصحيح ، أن برئوا من الهوى فيما يحكمون به على ما يشاهدون ، ولم يحملوا الأحداث غير ما تحتمل ، ثم اذا استوعبوا ولم يجتزئوا بما يتفق وميولهم ، صادقين عما لا يتفق وتلك الميول .

ومؤرخنا لا شك جد في الاستيعاب . ينبئك عن هذا كل ثبت وضعه بعد كل ترجمة أو بين سطورها ، فهو قد وفي كل ترجمة من هذه التراجم حقها من الاستيعاب ، ثم هو يعد هذا قد أضاف الى هذا الاستيعاب ما وقع عليه هو ، وحين اکتملت له المادة استوى له الحكم ، وما تجده - كما أرى - في حكم من الأحكام التي حكمها ، أملى عن هوى أو ميل . وقد كان بودى أن اسوق هنا حكما وحكما لادلل على ما أقول ، ولكن اسوق

الحكم وحده لا يكفي دليلاً ، بل لا بد من سوق ما قيل له وما قيل عنه ، وفي سوق هذا كله اكثر لا تتسع له مثل هذه الكلمة ، من أجل هذا اجتزىء بهذه الاشارة ، تاركاً للقارئ ان يقرأ الأحكام التي حكم بها مؤرخنا ، ما سيق لها وما سيق عنها ، وانا واثق انه منته الى ما انتهيت اليه في الحكم على المؤلف .

هذا ولن يفوتني ان اضيف ان في هذا القدر الذي ضمه المؤلف ، الى ما اخذه عن غيره ، غنية قل ان نظفر بمثلها الا عند مثله ، ممن لهم غرام بالجمع ، وتتبع الأحداث حيث تكون من مصادرها السليمة .

وانا مؤمن ان هذه التراجم الأربعة بما اجتمع فيها للمؤلف ، سوف تكون مرجع كل دارس ينشد الاخبار الجامعة أولا التي لا يند عنها شيء ، ثم ينشد الرأي السليم ثانيا .

ولقد عرفت المؤلف منذ مطلع شبابه ونحن طلبة في دار العلوم ، فأنست فيه هذه النزعات كلها ، وكأنه خلق ليكون بعد ، ذلك المؤرخ الملاحظ .

عرفته مفرماً بتقصي حقائق الأحداث السياسية والاجتماعية التي تجرى من حولنا . وكنا ونحن في مطلع حياتنا ، نعيش أحداثاً سياسية واجتماعية حافلة ، وكان منا من يشارك فيها بوجدانه ، ومنا من يشارك فيها بعقله ، ومنا من يشارك فيها بهذين معا ، وكان مؤلفنا من هؤلاء الذين شاركوا فيها بوجدانه وعقله ، وكان هؤلاء الجامعون للصفتين معا قلة قليلة ، وكان هو على رأس تلك القلة القليلة . لهذا ضاق بالتدريس ، لأن الانتظام في سلكه كان قيذا له يحول بينه وبين الحركة الحرة المطلقة ، يجري هنا وهناك ، يؤكد بعقله ما يحس به وجدانه . وكان لا بد له من أن يشهد الأمور ويقابل الرجال ، ولكنه كما قلت ، لا يعيش بوجدانه وحده ، ولكنه يعيش بعقله مع وجدانه ، فكان لا بد له من أن يرضى عقله بما يرضى به وجدانه .

من أجل هذا كنا نراه بيننا حجة ، وكنا نرجع اليه في الكثير من امرنا ، وكنا نجد عنده من العقل ، ما نقوم به وجداننا أو نضبطه .
وكم كنا نجلس اليه نستمتع ما يعز على أمثالنا معرفته ، وكم كان يقص علينا من أحداث السياسة والكبراء ، ما يصعب على أمثالنا بلوغه .

واخيراً أثر الصحافة على التدريس ، فلم يلج له باباً ، وسلك سبيله في ساحتها ، مكمل ما بدأه من سيره فيها وهو لا يزال طالباً ، وهكذا تركنا نمضي في سبيلنا في التدريس ، ومضي هو في سبيله ، فاذا نحن شيء ، واذا هو شيء آخر . . . واذا هو كما أراد لنفسه ، ذلك الصحافي الصادق ،

والراوية الحجة ، والمؤرخ الثبت . . . وإذا هو صاحب كتابين في تراجم الأبطال ، أحدهما صدر منذ حين غير بعيد ويضم جملة من أجلاء الرجال ، ثم هذا الكتاب الذى يضم جملة أخرى منهم ، وإذا الكتابان يدلان على جهد عظيم ، كان مطلع شبابه يدلنا على أنه سوف يكون صاحبه .

فحمدا لله اذ لم يكذبنى ظنى ، ولم يضلنى حدسى ، ورأيت محمدا الزميل القديم والصديق الحميم ، كما قدرت له : الراوية الحجة ، والمؤرخ الثبت .

ابراهيم الابيارى

١ - تفضل الأخ الكريم والزميل القديم والصديق الحميم ، الأستاذ الكبير ابراهيم الابيارى ، بكتابة هذه الكلمة الضافية ، مقدما بها الكتاب وصاحبه ، مما أشكره عليه أجزل الشكر ، وأحفظه له يدا بيضاء ، أضمها الى أياديه البيض - ولا يحصيها عد - التى قدمها للادب والتاريخ .

وابراهيم الابيارى هو قمة من قمم مدرسة تحقيق التراث العربى - وهم يعدون على أصابع اليد الواحدة - فقد حقق وحده نحو سستين كتابا من كتب هذا التراث ، فى مقدمتها « تجريد الأغاني » وشهد له بدقة البحث وفزارة العلم وسعة الاطلاع ، كبار أدباء العالم العربى ، قبل كبار أدباء مصر ، وفى مقدمتهم المرحوم الأمير مصطفى الشهابى رئيس المجمع العلمى العربى فى دمشق ، ثم المرحوم الدكتور طه حسين .

هذا عدا نحو أربعين مؤلفا فى الأدب العربى والتاريخ الإسلامى .

وكان الابيارى أول مدير لأول مركز ثقافى اسلامى أنشأته مصر فى مدريد ، فى الأربعينات ، فنجح فى ادارته نجاحا جعله كعبة الاسبانين ، ورسم له منهاج عمل ، هو الذى يسير عليه اليوم كل من يتولى امره .

وكان آخر عمل له « مستشار وزارة الثقافة والارشاد » وقاد غمر ادارتها الثقافية بفيض من علمه وأدبه .

ولعلى لا أذيع سرا اذا قلت انه صاحب رسائل نال بها بعض حكامنا درجة « الدكتوراه » ، ولم يخطوا فيها حرفا ، بل ولا صلة لدراستهم بموضوعها ، فان الذى اختاره هو ابراهيم ، وكان هو مؤلف الرسالة من ألفها الى يائها ، وكان الحاكم هو الفائز بدرجة الدكتوراه !!!

غفر الله لابراهيم ، ورضى عنه .

مقدمة المؤلف

عندما فكرت في وضع هذه السلسلة من الكتب التاريخية ، وعندما لفت الكتاب الأول منها ، متضمنا سير : الشيخ عبد الله السالم الصباح مؤسس دولة الكويت الحديثة . والملك محمد الخامس ملك المغرب الذي وقف مع شعبه مطالبا باستقلال بلاده ، وذاق في سبيل هذا الجهاد عذاب لنفى والتشريد ، فما لان جانبه ، وظل مكافحا مناضلا يده في يد الشعب حتى نال وطنه استقلاله . ومحمد على علوبة باشا المحامي المصري الكبير الذي لعب دورا خطيرا وهامسا على المسرح السياسى المصرى والمسرح العربى ، مناصرا قضية فلسطين منذ الثلاثينات ، مضحيا بماله وبراحته بوقته الثمين ، حتى قبضه الله اليه في عام ١٩٥٨ . والشيخ عبد العزيز جويش صاحب القلم الجبار في محاربة الاستعمار ، والمسلم الورع التقى ، المجاهد في منفاه الاختيارى ، والدائد عن الحق ، بعزيمة لا تهن لا تكل ...

اقول : عندما أصدرت الكتاب الأول من هذه السلسلة ، متضمنا سير هؤلاء الأبطال ، ما توقعت ان يلقى من الاقبال والاستحسان والرضا ، لاقى من القارئ العربى في مصر وفى غيرها من الاقطار العربية ، فقد غدت طبعته الأولى والثانية في اشهر قليلة لا تجاوز ثلاثة .

ولهذا أحمد الله وأشكره على هذا التوفيق ، واستزيدة عز وجل عون والرعاية ، حتى اكمل حلقات الكتاب العشر ، تضم كل حلقة سير أربعة من العظماء بحق ، الذين اشترطت على نفسى شرطين لكتابة تاريخهم : أول ان اكون قد عرفت من أورخ له واتصلت به وخبرته عن قرب ، الثانى ان يكون قد ترك أثرا في وطنه ، لا يمحوه الزمان ، ولا يبعده عن أذهان ، نسيان أى نسيان .

يضم هذا الكتاب الذى بين يديك : سيرة أربعة من الأبطال : أولهم ملك عبد العزيز آل سعود « أسطورة القرن العشرين » ، فقد غزا الرياض ربعين رجلا ، وأنشأ مملكة عظيمة ووطدها ، حتى غدت اليوم ، هى أولى بين زميلاتها في المحيطين العربى والاسلامى ، ولها صوت مسموع في

العالم . وثانيهم سعد زغلول وقد تحدثت عن تاريخه كمحام ، وكيف ارتفع بالمحاماة من العار الى الفخار ، وهي صفحة لم يقرأها انسان بعد ، عن هذا الزعيم العظيم . وثالثهم محمد طلعت حرب مؤسس بنك مصر وشركاته ، وواضع أساس الاستقلال الاقتصادى لمصر وللشرق العربى . ورابعهم الشيخ عبد المجيد اللبان زعيم الاسكندرية الذى أعاد اليها مصريتها بعد ما كانت ملكا للأجانب .

وفى تاريخى لهؤلاء الأبطال ، أبلل غاية الجهد ، فى ان أثبت للقارىء تاريخ وطن البطل منهم ، من خلال تاريخه هو ، لتكتمل الصورة أمام عينيه ، وليتعرف على الحياة التى كان يحياها هذا البطل ، ويحياها معه وطنه .

ولا أريد ان أصف ما لاقيت من عنت ومشقة فى كتابة تاريخ أبطالنا ، فهم لم يتركوا ما ينم على أعمالهم ، ولم يحدثوا قريبا منهم عما صنعوه لأوطانهم . لهذا رجعت الى مراجع كثيرة وعديدة ، حتى لقد قرأت فى سبيل تدوين تاريخ الملك عبد العزيز وحده ، نحو خمسين مرجعا . تصيدتها من هنا ومن هناك ، واخذت منها ما وثقت انه الصحيح لا مريه فيه ، لبعث تاريخى له ، مرجعا دقيقا يعتمد عليه الباحثون والدارسون .

هذا الى مذكرات شخصية لى ، عاونتنى فى عملى هذا أجل معاونة ، فلكل من هؤلاء الأبطال دور لى معه ، يتمثل فى المعرفة الشخصية أحيانا ، وفى القرب والصلة الوثيقة أحيانا أخرى .

ولقد كنت أود ان أضمن هذه المقدمة ، كلمة عن الصحافة والصحافيين والذين يتجرون باسم سعد ، بناسبة كتابتى فصلا عنه فى هذا الكتاب ، وعن « المدرسة الحديثة » التى أحدثوها فى الصحافة المصرية ، لأبين بالدليل القاطع ، وبالبرهان الساطع ، انها مدرسة تضليل وبهتان واثارة وتزييف ... مدرسة هدمت جميع المثل المقدسة فى الصحافة المصرية ، التى كانت تتوخاها ، قبل احترافهم لها واقحام أنفسهم على ميدانها . وساعدنى فى اثبات ضلال هذه « المدرسة الحديثة » وتضليلها ، رجلان فاضلان : أما أولهما فهو الصديق القديم الأستاذ الدكتور سيد محمد باشا ، أول رئيس لأول جمعية سرية لقتل الانجليز الفت فى سنة ١٩١٩ . مد الله فى عمره ، وهو اليوم ومن زمان بعيد رئيس لجنة الترجمة والتأليف والنشر . أما ثانيهما فهو قطب العروبة ، عبد الرحمن عزام باشا رحمه الله وطيب ثراه ، فقد أمدنى كل منهما بالدليل المادى على هذا التضليل .

ولقد كان يطلق على صحافة هذه المدرسة الحديثة ، « صحافة القصر » ، لأنها كانت تسبح بحمد ربه ، فأطلقت عليه ، دون جميع الصحف المحترمة الصادقة الأخرى ، « الملك الصالح » ، و « العامل الأول » ، بل لقد عهدت الى رسام عالمي هو « دافيد رايت » برسم لوحات لبعض أعضاء الأسرة المالكة ، تزين بها غلاف إحدى مجلاتها ، كما فعلت مثلاً في العدد ٨٤٦ الصادر من تلك المجلة في ١٠ يناير من عام ١٩٥١ ، وكتبت تحت الرسم : « صاحبة السمو الملكي الأميرة فائقة - بريشة الرسام العالمي « دافيد رايت » - رسمت بتكليف خاص من المجلة » وهي بهذا مزهوة فخورة .

وإذا « الملك الصالح » ، يصبح في نظر هذه « المدرسة الحديثة » ، بعد ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ ، الملك الفاجر الفاسد الفاسق العرييد ، ولم تدع رذيلة أو وصفا شائنا أو عارا تجلله به ، إلا تبرعت باغداقه عليه وعلى أسرته ، بل وعلى أحزاب مصر كلها .

كنت أود أن اكتب كلمة عن هؤلاء الضالين ، لكنني آثرت أن اترك امرهم الى كتاب اضعه الآن عن الصحافة المصرية ، بعد ما ظللت عاملاً في ساحتها المقدسة نصف قرن ، نزيهاً ، شريفاً ، صادقاً ، صريحاً ، معتزاً بكرامتي ، حفيظاً على كرامة صناعتي ، مما قد دفعني الى أن أرفض معاشاً استثنائياً شهرياً قدرته لجنة المعاشات الاستثنائية لثلاثين من قدامى الصحفيين ، وأنا منهم ، قدره ثلاثون جنيهاً فقط ، لأن في هذا التقدير الهزيل ، مهانة للصحافة ولي ، في الوقت الذي قدرت فيه هذه اللجنة لمثلثات ، مائة جنيهاً في الشهر ، وسخت الدولة على ٩٩ ضابطاً من ضباط الجيش ، منهم من اتهم في قضايا قلب نظام الحكم ، ومنهم من اتهم بتعذيب المواطنين حتى الموت ، فقررت لكل منهم مائة وخمسين جنيهاً في الشهر ، لهذا رفضت هذا المعاش المهيمن ، وأرسلت الى وزير التأمينات - منذ سنتين - أقول له : انني أرفض هذا المبلغ الحقير الضئيل ، ولتصدق به الدولة على يتيم أو فقير أو ذليل .

وكنت الوحيد من الثلاثين صحافياً الذي رفض هذا المعاش الاستثنائي لقد تخرج على يدي في نصف القرن هذا زملاء كرام يحتفلون اليوم مناصب قيادية في بعض الصحف ، ومنهم من كان نقيباً للصحافيين ، مما سأفصله في الكتاب ان شاء الله .

بل ان من هؤلاء القادة ، من عمل معي وهو طالب في المدارس الثانوية ، ومنهم من كان طالباً في الجامعة .

وسيكشف الكتاب عن سوءاته كثيرين ، وسيفضح خطيئسات كثيرين .
وسيسجل جهل كثيرين - وهؤلاء جميعا هم اليوم ملء السمع والبصر - مما
سيحدث دهشة وهزة بالفتين عند القارئ المصرى والقارئ العربى .
عندما تقع عين أحدهما على ما سأقدمه من دلائل مادية - من صنعهم هم
ومن أقلامهم هم - على مآثمهم ومنكراتهم وجهلهم ، فان السكوت عما
يجرى الآن فى جنبات من ساحة الصحافة المصرية ، هو ، فى نظرى ،
خيانة عظمى للرسالة المقدسة لهذه الصناعة الشريفة ، لأنه يطمس كثيرا من
الحق ، ويبرز كثيرا من الباطل ، مما يدع أبناء هذا البلد الأمين ، مخدوعين
مضللين ، جاهلين بما يجب أن يعرفوه من حقائق ، تزيف لهم عن عمد ،
حتى يشبوا وهم فى جهلهم يعمهون .

وهل هناك جريمة فى حق الوطن ، أخطر من العمل على تضليل أبنائه ،
والأخذ بأيديهم الى متاهات الزيف والبهتان ؟

* * *

لقد احتفلت فى هذا الأسبوع - الأسبوع الأخير من سبتمبر -
بانقضاء نصف قرن على اشتغالى بالصحافة ، وأنا والحمد لله ، لا أملك
دراجة ، لا سيارة فارهة ، ولا أملك دارا ، بل أسكن بالأجرة ، ولا أملك
جنيها واحدا فى مصرف ، مما لا يعرفه الصحافيون الناعمون فى هذا العهد .
زادهم الله من فضله .

أنا لا أزهى بماضى النقى المشرف ، ولا أفاخر مثلا باننى أنا الذى توليت
إصدار جريدة « المصرى » فى بدء انشائها فى أكتوبر من عام ١٩٣٦ ، فكانت
أول صحيفة مصرية حديثة التبويب ، حديثة الأسلوب ، حديثة الإخراج ،
تعنى بالخبر قبل المقال ، واستحدثت فيها أبوابا نقلتها عنها الصحف التى
صدرت بعدها مع مسخ وتضليل ، فكانت « المصرى » الرائدة الأولى للصحافة
المصرية اليومية الحديثة ، الى ان اغتيلت غدرا فى مارس سنة ١٩٥٤

ولست قائل هذا ، ولكن صاحبه هو الزميل والصديق القديم الأسناذ
حسين أبو الفتوح ، شقيق المرحوم الأستاذ محمود أبو الفتوح صاحب
« المصرى » ، وصاحب التاريخ المجيد فى خدمة القضية المصرية فى
ثورة ١٩١٩ ، حينما كان مع الوفد المصرى فى باريس ، وكان يقتر على
نفسه ، ويطلع مذكرات منه الى رؤساء وفود الدول فى مؤتمر الصلح ،
يشرح فيها قضية مصر ، وحققها فى الاستقلال والحرية ، حتى أفلس ،
وعاد ذات ليلة ، فاذا غرفتته موصدة ، وعليها ورقة من صاحبة المسكن ،

قالت له فيها : انها لن تفتح له الا اذا دفع اجرة الغرفة ، لانه تأخر كثيرا في دفعها ، فعاد الى الشارع ، وقضى ليلته نائما على الارصفة تحت وابل من المطر ، وبين عاصفة شديدة من الصقيع القاسى .

اقول : أن صاحب القول الذى رويته هو الأستاذ حسين أبو الفتح ، فضى به الى الصديق العزيز العلامة ، الأستاذ الدكتور ابراهيم صالح المستشار بمحكمة النقض اليوم ، فقد قال له :

— اذا كان محمود أبو الفتح ومحمد التابعى وكريم ثابت ، قد انشأوا « المصرى » بمالهم ، فان الذى انشأه وأصدره ووطده امام « الاهرام » العتيدة ، فى أقل من شهرين ، هو محمد على رفاعى ، بخبرته وجهوده واخلاصه لفنله ، وحسن ادارته لتحريره ، وسديد توجيهه لمعاونيه .

اننى اليوم قانع بحياتى التى احيها فى وطنى وكأننى غريب عنه ، لا اشعر بأحد ، ولا يشعر بى أحد ، اعكف على كتابة التاريخ ما وسعتنى كتابته ، وهذا فضل من الله عظيم ، فى هذا الزمان اللئيم .

لقد صدرت هذا الكتاب الثانى ، بكلمة طيبة تفضل بها على استاذى الجليل المرحوم الأستاذ زكى المهندس ، وكنت قد صدرت بها الكتاب الأول .

اما سبب تصديرى هذا الكتاب الثانى بها ، فهو تلبية لرغبة ابدائها لى ، رحمه الله ، ووعده بتحقيقها ، وهى أن تكون كلمته الطيبة هذه ، تصديرا لكل حلقة من هذا الكتاب ، ثم أوصانى بأن أحمل نسخة من كل كتاب من هذه السلسلة ، الى كريمته الفاضلة ، السيدة صفية المهندس مديرة الاذاعة ، أعزها الله وزادها من توفيقه .

وبعد : فانى لأمل ان اكون عند حسن ظن القارىء ، فيستمتع بقراءة تاريخ شائق لم يسبقنى اليه كاتب أو مؤرخ ، فان رضى عن صنيعى ، فقد تحقق أملى ، والا فقد ارضيت نفسى ، بما قدمت من سيرة عطرة خدمة للتاريخ ، وللأدب وللعلم وللأجيال القادمة .

محمد على رفاعى

(س)

موضوعات الكتاب

● الملك عبد العزيز آل سعود

اسطورة القرن العشرين ٥

● سعد زغلول المحامي والفلاح

سما بالمحامة من العار الى الفخار ١٣١

● محمد طلعت حرب باشا مؤسس بنك مصر

علم نفسه الاقتصاد ١٥٩

● الشيخ عبد المجيد اللبان زعيم الاسكندرية

اعاد اليها مصريتها ٢٤٧

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



الملاك عبدالعزيز آل سعود

أُطُورَةُ الْقَرْنِ الْعَشْرِينَ

أَقَامَ مَلَكًا عَمِيدًا
بِأَرْبَعِينَ رَجُلًا..

زَارَ مِصْرَ فَاحْتَفَى بِهِ
أَهْلُهَا احْتِفَاءً عَظِيمًا
فَبَكَى مِنْ فَرَحِهِ وَتَأَثَّرَ

« ما هذا الذي خلق من القلة كثرة ،
ومن الضعف قوة ، ومن الذل عزا ، ومن
الموت حياة ، وأخرج من الصحراء شريعة
كانت أعظم مثل في العظيمة والاحسان
والعلم والحضارة ؟ »

« فتسن ما استطعت ، وفكر ما قدرت
وقلب حوادث التاريخ كما تشاء ، فلن
تجد إلا شيئًا واحدًا ، وأمرًا فذا
.. لن تجد إلا سرًا يرجع
إليه كل ما عرفت .. وعمادا استقل بكل ما وصفت .. الإيمان المتين ،
والخلق الصالح .. »

« أن في ذلك لعبرة »

هذه كلمات صادقة قالها بعد درس وتأمل ، وتحليل وتبصر ، الدكتور
عبد الوهاب عزام ، في الصفحة الحادية والخمسين بعد المائة ، من كتابه
الفريد في نوعه « الأوابد » ، في فصل صغير عقده فيه ، اتخذ له عنوانا
« مدرسة الصحراء » .

والدكتور عبد الوهاب عزام من الأدباء المصريين العمالقة ، الذين درسوا
تاريخ العرب ، ماضيه وحاضره ، قديمه وحديثه ، ونالت الجزيرة العربية
من اهتمامه وبحوثه وتحرياته ، أعظم نصيب من جهوده ، لا سيما في الفترة
التي قضاها سفيرًا لمصر في جدة ، حتى لقد اخترق « الربع الخالي » في
محاولة منه لكشفه ، بعد ما أحجم عن هذه المحاولة كثير من الرحالة العالميين
والذين عرفوا الدكتور عبد الوهاب عزام ، شهدوا له بالصدق في الحديث ،
وبالتأني في الحكم ، وبالبعد عن المبالغة والخيال ، فكان واقعيا طوال حياته ،
فلم يقل : استأذا كان ، أم عميدا ، أم سفيرا ، أم رحالة ، إلا صدقا وحقا
وعدلا .

كان من عادة المغفور له محمد طلعت حرب باشا مؤسس بنك مصر
وشركائه ، أن يقيم مأدبة افطار في يوم من أيام شهر رمضان من كل عام ،

في داره الرحبة بالعباسية ، لجميع موظفي البنك ، ويدعو اليها من يشاء من خلائه ومن عملاء البنك ، فكانت جلستي في مأدبة ذلك العام - عام ١٩٣٨ - الى مأدبة جمعت الدكتور عبد الوهاب عزام ، واحدى خريجات الجامعة الجميلات ، ممن كان لهن اسم رنان ، في مجامع الادب وغير الادب ، في ذلك الزمان .

قالت الفتاة الجميلة : لا ادري ، ماقيمة رأى الملك ابن سعود في حل قضية معقدة كقضية فلسطين ، وهو رجل بدوى لم ينل من الثقافة والمعرفة والتجربة ، قسطا يؤهله للحكم الصائب ، ويوحى اليه بالرأى السديد ؟ كان هذا في عام ١٩٣٩ كما قلت ، حين دعت الحكومة البريطانية الى عقد مؤتمر في لندن يضم العرب واليهود ، للبحث عن حل لقضية فلسطين ، وشهده من الدول العربية ممثلون عن : مصر والعربية السعودية والعراق والاردن واليمن وزعماء فلسطين .

واسفر المؤتمر عن مشروع وضعت به الحكومة البريطانية « كتابا ابيض » كان الملك عبد العزيز اول من قبلوا به ، وحذا حذوه رئيس وزراء مصر محمد محمود باشا ، وجمال الحسينى عن زعماء فلسطين .

كان هذا الكتاب الابيض مثار نقاش وأخذ ورد في الصحف .

فماذا رد الدكتور عبد الوهاب على الفتاة الجامعية الجميلة ؟

قال لها في هدوء كعادته ، لكن بلهجة فيها نبرة استاذ يعاتب تلميذه على حكمه على الاشياء قبل الدرس والبحث والتمحيص :

- هل رأيت يا آنسة ؟ هل استمعت اليه في جدل او في نقاش او في بحث قضية ؟ انه بدوى لم يتعلم كما تقولين . نعم انه لكذلك ، لكن عقل هذا البدوى ، وسع خبرات الحياة كلها . . لقد ذاق مرها وحلوها . . وعاشر الخفير والامير . . والصغير والكبير . . والوضيع والرفيع ، فتعلم في مدرسة الحياة دروسا هي اعظم ما يمكن ان يتلقاه انسان ذكى واع حصيف . لقد بنى مملكة بأربعين رجلا فقط ، هي الآن - ولما يمض عليها احوام كثيرة - في الصف الاول بين مثيلاتها التى قامت من أكثر من قرن من الزمان .

ولم يرق هذا الدفاع الحق ، فتأثنا الجميلة ، فاصطنعت حركات من شفيتها ورأسها ، تشف عن تكذيبها له ، أو فى القليل ، عن مبالغة فى دفاعه عن ابن سعود . .

فما كان أسرع الى النهوض للانصراف غاضبا ، فعدوت خلفه أهديء من خاطره ، ولحنا صاحب الدار ، محمد طلعت حرب باشا ، من بعيد ، وهو جالس الى مائدته مع كبار من ضيوفه ، فأسرع يسد عليه الطريق ،

ودعاه الى الجلوس الى مائدته ، وقد استقبله الجالسون اليها جميعا وثوقا ،
ومنهم الوزير . والمسؤول الخطير ، والموظف الكبير (١)

فكيف بنى عبد العزيز بن سعود مملكته العتيدة بأربعين رجلا كما قال
الدكتور عزام ؟ وكيف ذاق مر الحياة وحلوها ؟ وما هي الدروس التي
لقنها له الحياة ، وما كان لمثله ان يعيها في مثل بيئته ؟

الحق ان حياة هذا الملك العربى ، حلقات متصلة من الوقائع والحروب ،
والبؤس والنعمى ، والفقر والغنى ، والشقاء والسعادة . فلو أنك تقصبتها

(١) ولد الدكتور عبد الوهاب عزام بالشوبك الغربى بمحافظة الجيزة فى عام ١٨٨٣ ،
ونشا نشأة دينية ، فحفظ القرآن الكريم فى صغره ، والتحق بالازهر ، ومنه انتقل الى
مدرسة القضاء الشرعى ، وخرج فيها فى عام ١٩٢٠ ، وكان أول دفعته فاختير مدرسا بها ،
وفى الوقت نفسه كان يدرس فى الجامعة المصرية القديمة ، فحصل منها على الليسانس
فى عام ١٩٢٣ ، واختير فى ذلك العام اماما فى مفوضية مصر فى لندن ، وهناك التحق بمدرسة
اللغات الشرفية بجامعة لندن ليدرس فيها الفارسية ، ونال منها فى عام ١٩٢٨ درجة
الماجستير من رسالة فى « العنوف عند فريد الدين العطار » . وعاد الى القاهرة ليعمل
مدرسا بالجامعة المصرية وقد حصل منها على الدكتوراه فى الادب الفارسى فى عام ١٩٣٢ ،
ثم عين استادا ورئيسا لقسم اللغة العربية واللغات الشرقية ، فعميدا لكلية الاداب فى
عام ١٩٤٥ .

وقد شغل مناصب سياسية هامة ، منها انه كان سفيرا فى باكستان ، ثم سفيرا فى المملكة
العربية السعودية .

ومن ترجماته من الفارسية : « بياض مشرق » و « ضرب الكليم » و « ديوان
الاسرار والرموز » لمحمد اقبال .

ومن مؤلفاته : « مدخل الشاهنامة العربية للبندارى » و « مهد العرب » و « محمد
امبال » و « موقع مكاذ » و « الشوارد » و « الاوابد » و « ذكرى ابي العليين من الف
عام » و « رحلات عبد الوهاب عزام » .

ومما حققه : « الشاهنامة » التى نقلها الى العربية ، و « ديوان المتنبى » و « مجالس
السلطان النورى » و « مجالس صاحب بن عباد » .

وقد حرس المجتمع اللغوية العربية الثلاثة على ضمه اليها ، فاختير عضوا مراسلا
بالمجمعين العلميين العربيين فى دمشق وفى بغداد ، واختير عضوا يجمع اللغة العربية
المصرى فى عام ١٩٤٦ .

وقد قال عنه الدكتور طه حسين فى حفل تأبينه فى سنة وفاته (١٩٥٩) : « بفضل
عبد الوهاب عزام استقر تدريس اللغة الفارسية واللغة التركية بجامعة القاهرة ،
وانتقل منها الى جامعات اخرى ومعاهد اخرى للتعليم . وبفضل عبد الوهاب عزام اخذنا
نعرف ادب الفرس ، ونعرف من آثارهم وامورهم شيئا غير قليل » .

وأردت أن تقف عليها سنة بسنة ، لأعيك تفصيك ، ولوجدت نفسك في مناهة لا أول لها ولا آخر .

لقد قرأت سيرته في أكثر من خمسين كتابا ومرجعا ، فوجدتني أمام متناقضات من الروايات . . كل كاتب اختار ما رأى - أو ظن - أنه الصحيح . . والحق أنهم جميعا يرهقون الباحث ، ويكدون ذهن القارئ ، ويفرقونه في تفاصيل لا شأن له بها ، وعدم ذكرهم لها لا يسئ إلى سيرة الرجل العطرة ، ولا يبخسه حقه ، أو ينزل به عن مكانته العالية بين الملوك المصلحين .

وسأجنبك ما لقيت ، وسأبتعد بك عن مزلق تزهلك في تتبع تاريخ عبيد العزيز الحافل ، معتمدا على مصادر أثق بصحتها ، وعلى مذكرات شخصية لي ، إلى جانب ما اخترت من المراجع والمؤلفات العديدة .

سأروى لك من تاريخه الجليل والخطير ، ثم نرى معا : كيف استطاع هذا الرجل العظيم ، أن يؤسس ملكه ويوطده على دعائم من الحق والهداية والخلق القويم ، والإيمان واليقين .

ولد عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود في مدينة الرياض في شهر ذي الحجة من عام ١٢٩٧ هـ (ديسمبر عام ١٨٨٠ م) في الوقت الذي دب فيه النزاع بين عميه : عبد الله بين فيصل وسعود بن فيصل ، وانتهى هذا النزاع - أو الصراع - بينهما ، بزوال دولة سعود التي أسسها وجعل عاصمتها « الدرعية » راعيها الأكبر محمد بن سعود ، بعد حروب ووقائع بينها وبين خصومها الذين خشوا اتساع رقعتها حتى شملت إمارة نجد كلها ، وبعد تزايد أتباعها وتكاثر أنصارها ، والتفافهم حول ما نادى به شيخ نجدى ، هو الشيخ محمد بن عبد الوهاب (١) ، في أوائل القرن الثامن عشر (حوالى عام ١٧٢٥) ، من الرجوع إلى الدين الحق ، والأخذ بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، وترك البدع والباطيل التي أدخلت على الإسلام وليست منه في شيء . . أي الحرص على أداء العبادات الشرعية كما وردت عن النبي عليه الصلاة والسلام ، بلا زيادة أو نقصان . . فلا لجوء في الشدة إلا إلى الله جل شأنه ، لا إلى الأولياء والأنبياء ، ولا رجوع إلى الأوثان ببناء قباب على القبور . . وغير هذا من البدع التي كانت شائعة في نجد ، وفي ما جاورها من الإمارات والمقاطعات .

(١) ولد في سنة ١٧٠٣ هـ وتوفي في سنة ١٧٩١ هـ .

اليك سورة مما كانت عليه نجد في تلك الايام ، كما صورها المؤرخ العربى « ابن غنام » في كتابه « روضة الافكار » ، لتقدر عظم الرسالة التى نهض بها محمد بن عبد الوهاب ، ولقى في سبيل نشرها وترسيخها ، العنت والارهاق ، كما لقيهما وبلقاها المصلحون ، من قبل ومن بعد ، ولتعرف اى خدمة جليلة اداها محمد بن سعود امير « الدرعية » للإسلام ، حين اواه ونصره واخذ بيده ووقف بجانبه . بل نستطيع ان نقول بلا حرج او مبالغة ، انه لولا ابن سعود ، ما كتب لدعوة هذا الشيخ النجدي ابن عبد الوهاب ، النجاح والديوع ، ولولا التقاء ابن عبد الوهاب وابن سعود ، لما كانت اليوم في الجزيرة العربية ، مملكة عزيرة الجانب ، رفيعة المكانة ، في الصف الاول من دول العالم العربى والعالم الاسلامى معا .

قال ابن غنام : « كان غالب الناس في نجد وفي الاحساء ، وفي غيرهما من البلدان العربية ، غارقين في الرجس . منهمكين في الشرك ، يتبعون ما زينت لهم الاهواء والشياطين ، وتركوا كتاب الله وسنة رسوله ، ولم يعباوا بالدين الصحيح ، لانه امرهم بالمعروف ونهاهم عن المنكر ، وهم لا يستطيعون ان ياتمروا بامرهم وينتهوا بنهيهم ، فنفسهم مرضى ، وعقائدهم فاسدة ، فمدلوا عن عبادة الله وحده ، الى عبادة الصالحين والاولياء ، وجدوا في الاستغاثة بهم في النوازل والخطوب ، واقبلوا عليهم يطلبون قضاء الحاجات والمطالب .

« واستغلق طبعهم ، وفقد ادراكهم وتمييزهم ، حتى اعتقدوا في الاحجار والاشجار انها تضر وتنفع ، ووهبوا اعمالا يعجز ان يقوم بها الادميون ، بل يعجز الانبياء والمرسلون . كما اعتقدوا فيها التصرف التام والحياة والقداسة ، فكانوا يأتونها في كل حين يتبركون بها ويتمسحون ، ويطلبون منها ما يريدون » ،

ثم اخذ ابن غنام يعدد بعض الامثلة على ما قال ، فاستطرد قائلا :
- « في بلدة « الفدا » ذكر النخل المعروف بـ « الفحال » ، يأتى اليه الرجال والنساء زرافات ووحدا ، ويفعلون عنده من الافعال المنكرة ، مالا يقبله الانسان ذو الضمير الحى ، والدوق السليم . . يرتكبون عنده المنكرات ، ويصلون له ويتبركون !! وتأتيه المرأة التى لم يتقدم اليها الخاطبون ، فتعانقه وتقول في بكاء ولوعة واحترق : « يا فحل الفحول : ارزقنى زوجا قبل الفحول » ، ثم تأخذ في اغواء بعض الشبان ، حتى اذا اصطادت واحدا منهم وتزوجت به ، خيل اليها ان ذلك من عمل فحل الفحول !!

« وفي » الدرعية « جبل بسفحه غار كبير ، يزعم الجهلاء انه لفتاة حسناء تدعى « بنت الأمير » يحجون اليه ويستغيثون بها ، اعتقادا منهم ان الفتاة من اولياء الله الصالحين ! وسبب هذا الاعتقاد الزائف ، ان « بنت الأمير » خرجت ذات يوم تقضى حاجة لها ، ولما كانت بالقرب من الجبل ، ابصر بها نفر من الشبان ، فاستهواه جمالها ، فاقترب منها يريد ان يعبت بشرفها ، ولكن الفتاة زاهدة تؤثر الموت على العار ، فدعت الله ان ينجيها من الفجرة الفاسقين ، وما اتمت دعاءها الحار الا وانفلق في الجبل غار ، دخلت فيه واعتصمت به !!!

« ويزعم الميطلون ان رجلا في « الخرج » أعمى ، كان يقطع الفيافي سيرا على قدميه ، من بلده الى « الدرعية » وغيرها ، والى اقاصى نجد ، من غير قائد ، لا يتعب ولا ينى ، ولا يصطدم بصخر أو شجر ، ولا يقع في هوة ، ولا يستطيع الحيوان المفترس الدنو منه ، ولا اللصوص أيضا ، مع انه كان ذا مال ، لانه كان يجمع الخراج والزكاة من الناس ، كما انه لا يتوه في الصحراء !! لماذا كل ذلك ؟ لانه من اولياء الله الصالحين ، الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ! حتى اذا مات عكفوا على قبره وعبدوه ، اعتقادا منهم انه ولي ، وهذه كلها من كراماته ، فلولا كرامته وولايته وصلاحه وتقواه ، لما استطاع ان يضرب في الصحراء ، من غير ان يضل ، ولا يناله اذى او ضرر » .

وقد كتب الاستاذ احمد أمين في كتابه « زعماء الاصلاح » وفي الصفحة العاشرة منه ، عن الشيخ محمد بن عبد الوهاب ودعوته ، فقال :

« وقد رأى - أى ابن عبد الوهاب - في الحجاز وفي رحلاته الى كثير من بلاد العالم الاسلامى ، ان التوحيد الذى هو مزية الاسلام الكبرى قد ضاع ودخله كثير من الفساد .

« فالتوحيد أساسه الاعتقاد بأن الله وحده هو خالق هذا العالم ، والمسيطر عليه ، وواضع قوانينه التى يسير عليها ، والمشرع له ، وليس فى الخلق من يشاركه فى خلقه ، ولا فى حكمه ، ولا من يعينه على تصريف أموره ، لانه تعالى ليس فى حاجة الى عون أحد مهما كان من المقربين اليه ، وهو بيده الحكم وحده ، وهو الذى بيده النفع والضرر وحده لا شريك له . فمعنى « لا اله الا الله » ، ليس فى الوجود ذو سلطة حقيقية تسير العالم وفقا لما وضع من قوانين ، الا هو . وليس فى الوجود من يستحق التعظيم والعبادة ، الا هو . وهذا هو محور القرآن : « قل يا أهل الكتاب تعالوا

الى كلمة سواء بيننا وبينكم ، الا نعبد الا الله ، ولا نشرك به شيئا ، ولا يتخذ بعضنا بعضا اربابا من دون الله ، فان تولوا ، فقولوا اشهدوا باننا مسلمون .

» ويظهر ان محمدا بن عبد الوهاب عرف ابن تيمية عن طريق دراسته الحنبلية . فاعجب به ، وعكف على كتبه ورسائله ، يكتبها ويدرسها . وفي المسحف البريطاني بعض رسائل لابن تيمية مكتوبة بخط ابن عبد الوهاب .

» ولانت دعوة ابن عبد الوهاب حربا على كل ما ابتدع بعد الاسلام الاول من عادات وتقاليد : فلا اجتماع لفراة مولد ، ولا احتساء بزيارة قبور ، ولا خروج للنساء وراء الجنائز ، ولا اقامة اذكار يتغنى بها ويرقص ، ولا تحمل يتبرك به ويتمسح ، ويحتفل به هذا الاحتفال الضخم ، وهو ليس غير احوال حنبية لا نضر ولا تنفع .

» دل هذا مخالف للاسلام الصحيح ، يجب ان يزال ، ويجب ان نعود الى الاسلام بسماعته الاولى وطهارته ونقاته ووحدانيته ، واتصال العبد بربه من غير واسطة ولا شريك . فلا اله الا الله ، معناها دل ذلك . والكتب المملوءة بالتوسلات ، كتب ضارة بالعقائد ، كدلائل الخيرات . وما في « البردة » من مثل قوله :

يا اكرم الخلق ما لي من الوذ به سواك ، عند حدوث الحادث العمم ونحو ذلك ، اقوال فاسدة كاذبة ، فلا التجاء الا الى الله ، ولا اعتماد في الدنيا والآخرة الا عليه .

» لقد كان محمد بن عبد الوهاب ومن نحا نحوه ، يرون ان ضعف المسلمين اليوم ، وسقوط نفسيهم ، ليس له سبب الا العقيدة . فقد كانت العقيدة الاسلامية في اول عهدها صافية نقية من اى شرك ، وكانت « لا اله الا الله » معناها السمو بالنفس عن الاحجار والاثوان ، وعبادة العظماء ، وعدم الخوف من الموت في سبيل الحق .

» لم ينظر محمد بن عبد الوهاب الى المدنية الحديثة وموقف المسلمين منها ، ولم يتجه في اصلاحه الى الحياة المادية ، وانما اتجه الى العقيدة وحدها فعنده ان العقيدة والروح هما الاساس ، وهما القلب ، ان صلحا ، صلح كل شيء ، وان فسدا ، فسد كل شيء .

وكتب الدكتور طه حسين عن هذه الدعوة الوهابية ، خلال بحث له من « الحياة الادبية في جزيرة العرب » ، فقال كما ورد في كتاب « آل سعود » مؤلفه الاستاذ احمد على ، في الصفحة الرابعة والعشرين منه :

« ... على أن الباحث عن الحياة العقلية والأدبية في جزيرة العرب ، لا يستطيع أن يهمل حركة عنيفة ، نشأت فيها في أثناء القرن الثامن عشر ، فلفتت إليها العالم الحديث في الشرق والغرب ، واضطر أن يهتم بأمورها . . . هذه الحركة هي حركة الوهابيين التي أحدثها محمد بن عبد الوهاب ، شيخ من شيوخ نجد ، نشأ في بيت علم وفقه وقضاء ، فسخط عليه الناس ، وانتشر مذهب ، فانقسموا فيه قسمين ، فكان له أنصار ، وكان له خصوم ، وتعرضت حياته آخر الأمر للخطر ، فأخذ يعرض نفسه على الأمراء ورؤساء العشائر ، ليجيروه ويحموا دعوته ، حتى انتهى به الأمر إلى « الدرعية » ، وهناك عرض نفسه على أميرها محمد بن سعود ، فأجاره وبايعه على المعونة والنصرة . ومن ذلك اليوم أصبح المذهب الجديد مذهباً رسمياً يعتمد على سياسية تؤيده وتحميه ، بل تنشره في أقطار نجد ، بالدعوة اللينة حيناً ، وبالسيوف والحرب في أكثر الأحيان .

« وعن هذا التحالف بين الدين والسياسة ، نشأت في جزيرة العرب دولة سياسية عظم أمرها واشتد خطرها ، حتى أشفق منها الترك أشد الأشفاق فقاوموها ما وسعتهم المقاومة ، فلما لم يفلحوا استعانوا بالمصريين ، وكان أمرهم إذ ذاك إلى محمد علي الكبير ، فنجح المصريون في إضعاف هذه الحركة وإزالة هذه الدولة الجديدة ، ورد أمراتها إلى ما كانوا عليه من قبل .

« ولا بد من وقفة قصيرة عند هذا المذهب الجديد ، لنعرف ما هو ، وما مبلغ تأثيره في الحياة العقلية العربية ، في هذا العصر الحديث .

« أن هذا المذهب جديد وقديم معاً : جديد بالنسبة للمعاصرين ، ولكنه قديم في حقيقة الأمر ، لأنه ليس إلا الدعوة القوية إلى الإسلام الخالص النقي المطهر من كل شوائب الشرك والوثنية . هو الدعوة إلى الإسلام ، كما جاء به النبي خالصاً لله وحده ، ملغياً كل واسطة بين الله والناس . هو أحياء للإسلام ونظهير له مما أصابه من نتائج الجهل ، ومن نتائج الاختلاط بغير العرب ، حتى أصبح الدين اسماً لا معنى له ، فأراد ابن عبد الوهاب أن يجعل من هؤلاء الأعراب الجفاة المشركين ، قوماً مسلمين حقاً ، على نحو ما فعل النبي بأهل الحجاز منذ أكثر من أحد عشر قرناً .

« أن الذي يعنينا من هذا المذهب ، أثره في الحياة العقلية والأدبية عند العرب ، وقد كان هذا الأثر عظيماً خطيراً من نواح مختلفة : فهو قد أيقظ النفس العربية ، ووضع امامها مثلاً أعلى ، أحبتة وجاهدت في سبيله بالسيوف والقلم وباللسان . وهو قد لفت المسلمين جميعاً إلى جزيرة العرب . »

وقال الأستاذ عباس محمود العقاد عن هذه الدعوة ، في كتابه « الاسلام في القرن العشرين » :

— « ظاهر من سيرة الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، انه لقي في رسالته عنثا ، فاشتد كما يشتد من يدعو غير سميع . ومن العنت اطباق الناس على الجهل ، والتوسل بما لا يضر ولا ينفع ، والنماس المصالح بغير اسبابها . واثيان المسالك من غير ابوابها . وقد جاء على البادية زمان كانوا يتكلمون فيه على التعاويل والتمايم واضاليل المشعوذين والمنجمين ، ويدعون السعى من وجوهه ، توسلا باباطيل السحرة والدجالين . حتى الاستسقاء ودفع الوباء . فكان حقا على الدعاة ان يصرفوهم عن هذه الجهالة . وكان من اثر الدعوة الوهابية ، انها صرفتهم عن ألوان من البدع والخرافات . »

فلنكتف بهذا القدر من الحديث عن ابن عبد الوهاب ودعوته ، لنمضي في سبيلنا . .

بسبب الدفاع عن الدين الحق من خلال هذه الدعوة ، ويسبب الحرب الأهلية بين أبناء سعود وحفده ، ضاعت الدولة التي انشاها محمد بن سعود في نجد وجعل عاصمتها « الدرعية » كما رايت ثم اتسعت رقعتها من بعده ، فشملت الاحساء والرياض ، ودانت لهم نجد كلها ، وامتد نفوذهم الى عسير ، والى عمان ، والى مكة ، واشتبكوا في حروب ضارية مع والى مصر محمد على الكبير ، ومع ابنيه طوسون وابراهيم بأمر من الحكومة العثمانية ، خشية امتداد نفوذها الى ولاياتها ، وهزمهم المصريون ، ثم اتردوها منهم في عهد حفيد من آل سعود ، ثم ولى الرياض في عام ١٣٠٦ هـ الأمير عبد الرحمن — والد الملك عبد العزيز — فاستمرت الحرب بينه وبين آل الرشيد نحو عامين اى الى عام ١٠٣٨ هـ (١٨٩٠ م) حتى كانت بينهما موقعة فاصلة في « المليدة » هزم فيها عبد الرحمن ، بعد أن طوى ابن الرشيد نجدا بلدا بعد آخر ، فخضعت له كلها ، ووجد عبد الرحمن ان حياته في الرياض في ظل حكام كانوا عمالا لوالده بالأمس ، مستحيلة ، فغادرها في العام التالي (١٣٠٩) الى الاحساء ، ثم الى قطر ، ثم الى البحرين ثم الى الكويت ، فاستقر فيها مع أسرته ، في حمى الشيخ مبارك الصباح .

واذ هو في الاحساء ، اوعزت الحكومة العثمانية الى واليها عليها ، عاكف باشا ، ان يفوضه في عودته ، فارسل اليه والى ، الدكتور زخور عازار اللبناني الجنسية ، فعرض عليه :

- ١ - ان يكون اميرا على الرياض .
 - ٢ - ان يكون تحت ولاية الحكومة العثمانية .
 - ٣ - ان يعترف بسيادة الباب العالي عليه .
 - ٤ - ان يدفع شيئا من المال ، كالخراج ، اعلانا لخضوعه .
 - ٥ - ان تتعهد الدولة العثمانية بحمايته ، وباعطائه المال والسلاح .
- فرفض الامام عبد الرحمن هذه الشروط بكبرياء وابداء ، فقد رأى من الخيانة أن يركن الى اجنبى ، وان يقبل منه المساعدة التى تقيدته وتقيده بلاده ، فان العربى المخلص لامته ولوطنه ، ربما يكون عدوا لآخيه ، لكنه اراء الاجنبى الدخيل ، يد قوية واحدة مع يده (١) .

لقد عانى عبد الرحمن وأسرته ، وفى مقدمتهم أبناء عبد العزيز ومحمد وابن أخيه عبد الله بن جلوى ، من الشدة والحاجة والعسر ، مالا يطيق عليها صبرا ، الا كل ذى قلب كبير عامر بالايمان . . انه ظل شهورا مشردا فى بقاع نجد ، مستثيرا عشائرها وقبائلها ضد آل الرشيد ، فكانت جميعها تصرفه عنها ، وترده عن مضاربها فى لباقة بعد حسن لقاء ! فلم يجد من يسعه الا قبائل « المرة » - بضم الميم وتشديد الراء - فى الربع الخالى ، وهى المنطقة الممتدة فى القسم الشرقى من شبه الجزيرة ، لا يجرؤ على ارتيادها الا من كان بها خبيرا . وهى فى الوقت نفسه لا تصلح لاقامة طويلة ، فغادرها متنقلا بين الاحساء وقطر والبحرين ، واخيرا ألقى عصاه فى الكويت ، واستقر به النوى فيها .

كان عبد العزيز - وقد أشرف على سن الشباب - يتحدث عن الأيام السود التى قضاها فى « المرة » مع أسرته ، مزهوا مبتهجا ! وكان سامعوه من الكويتيين يتسمون ابتسامات الاعجاب والتعجب وهم يستمعون اليه ، فان أفراد قبائل « المرة » فى نظره شياطين مردة ، تتراءى أخيلتهم فى جوف الصحراء . ومنطقتهم التى يعيشون فيها ليس فيها ماء يصلح للشرب ، وما فى آبارها من الماء شحيح مالح مر المذاق لا يصلح لشرب الحيوان . وهى لا يتجاوزون حدود موطنهم الا مرة واحدة فى العام ، يزحفون فى خلالها الى واحات النخيل فى « جبرين » بالشمال الشرقى من الربع الخالى ، فيجنون الثمار ، ويتزودون منها بمؤونة العام كله ، وهناك يستقبلون التجار الوافدين اليهم من نجد والاحساء ، لمقايضتهم على الجمال والجلود ، مقابل القليل مما يحتاجون اليه فى حياتهم من سلاح وعتاد وقماش ، مكتفين من الملابس بالقليل الذى يستر أجسادهم التى ألفت حر الصيف وقر الشتاء ،

(١) كتاب « صقر الجزيرة » للاستاذ احمد عبد الغفور عطار - الجزء الاول -

ثم ينسحبون الى موطنهم السحيق ، فيتوزعون جماعات تضرب خيامها حول بئر أو مستنقع آسن ، يروون ظمأ الجمال ، ويستندرون النوق ، ليتركوها بعد ذلك تطوف بالمناطق كما تشاء بين كثبان الرمال ، باحثة عن غذاء لها ، وهيئات أن تجده ، ثم تعود بعد خمسة أيام أو ستة من تلقاء نفسها ، الى موارد المياه لترتوى من جديد . أما البشر من « المرة » فيروون ظمأهم بحلب النوق ، ويتغذون بالبلح ، وبما يقتنصونه من الحيوانات كالارانب وغيرها ، فاذا نفذ العشب ، رحلوا الى منطقة أخرى ، وهكذا . . رعاية الماشية من شأن النساء ، والصيد وغزو الجيران الذين هم أسعد منهم حالا ، عمل الرجال . . هذه هي الحياة التي كان يحيها قبائل « المرة » ، وشاركهم فيها - بعد العز والسلطان - الامام عبد الرحمن واسرته المكنوبة .

روى عبد العزيز وهو يافع ، انه اضطر الى المساهمة في « عملية جراحية » خطيرة لواحد من أفراد هذه القبائل ، اثر اصابته برمح في معدته ، فارسلوا بضعة رجال يبحثون في الصحراء عن نوع كبير من النمل ، له فكان غليظان ، فعادوا معهم نحو ثلاثين نملة ، وشرع « الجراح » العجوز في اجراء العملية ، بعد ما مدد الجريح على الرمال حتى لا تبدو منه حركة ما ، ثم اذابوا كمية من زبد الجمل في وعاء أضمرت تحته النار ، وكشف « الجراح » عن موضع الإصابة ، وهو يتمتم بالتعاون ، بينما كان على عبد العزيز أن يطرد الذباب بقطعة من الجلد يلوح بها في الهواء باستمرار ، وكان على أخيه محمد وعلى ابن جلوى ، أن يمسكا بالجريح الذي كان يتلوى من الألم ، دون أن تصدر عنه آهة أو أنة . أما « الجراح » فقد صب بعض الزبد المغلى على الجرح ، ثم شق بطن الجريح بطعنة واحدة ، ومد يده فأخرج المعدة من جوفه وتناولها لعبد العزيز ، الذي كان عليه في الوقت نفسه ، أن يضغط على طرفي الجرح ليقترب بينهما ، بينما كان آخر يقدم الى « الجراح » نملة بعد أخرى ، يجعل كل واحدة منها تعض طرفي الجرح بفكيها ، ثم يهرس جسمها بابهامه ، فيظل الفك والراس مساغطة على الطرفين ، وعندئذ تبدأ عملية « الخياطة » في الجرح الى أن تنتهي فيقل جدار البطن بعض الاشواك الكبيرة ، ويعصب الزبد فوقه من جديد ، ثم يضمده بقطعة من القماش . وقد شفى المصاب تماما بعد أسابيع ، وأصبح فبما بعد من اتباع عبد العزيز ، ورئيسا لحرسه الخاص (١) .

هي دروس من الصبر والعزم ، تلقاها عبد العزيز من حياته بين أولئك القوم الذين وصفت لك حياتهم ، فالف قسوة الطبيعة ، واعتاد تحمل الجوع والعطش ، ولزمته المشقة ، وصحبه عذاب الآلام الحرمان والتشريد .

(١) كتاب « عبد العزيز » للمستتر داکوورت فون ميکوش - ترجمة الدكتور أمين

ولكنه الى هذا العذاب وتلك المشقة ، حلق ركوب الخيل والجمال في جوف الصحراء ، وتعلم من القوم الكر والفر والهجوم والدفاع ، بعد ما اشترك معهم في بعض غزواتهم ، وعرف مسالك الصحراء ومجاهلها ومتاهاتها وما يصلح للمأوى منها ، فاكتمل له من هذا كله ، ومن حياته المتواضعة مع والده في الكويت ، بدنانير يسيرة كانت تجريها عليهم الحكومة العثمانية ، وبعضون مشكور من الشيخ مبارك الصباح ، شيخ الكويت . . من هذا كله ، اكتملت له عقلية ناضجة ، وبنية قوية صلبة ، ساعدته على الصمود في وجه حدثان الزمان .

واذا كانت هذه الحياة الخشنة قد سلحته بسلاح حاد ، فان اباه كان قد سلحه بسلاح حاد آخر ، هو سلاح الدين الحق والحرص عليه ، فقد عهد به والده الى فقيه « الخزرج » ليلقنه القرآن الكريم ، وبعد أن اتمه قبل ان يبلغ العاشرة ، اسلمه الى عالم من اسرة ابن عبد الوهاب ، ليلقنه علوم الدين الصحيح ويفقهه فيها ، فأتقن علوم التوحيد والتفسير والتاريخ والآداب . زيادة على هذا كان والده يحرص على مرافقته له في مجالس أصدقائه واشراكه معهم في المحاوراة الدائرة بينهم ، ليعتاد الصراحة والجرأة في الحديث وبلغ من حرصه على أن ينشئ ابنه النشأة الحسنة التي يريد لها ، متحلياً بالشجاعة والاقدام ، أنه كان يشركه في بعض حروبه ، فقد صحبه معه في معركة بينه وبين ابن الرشيد ، وكانت سن عبد العزيز لم تجاوز الثانية عشرة بعد ، فاعتلى جملاً ومن خلفه أحد عبيده ، واستطاع أن يقتل برمح محارباً من الأعداء . .

وفي جميع هذه الصحبة ، كان الامام عبد الرحمن يفدى في ابنه عبد العزيز الروح الدينية ، ويفرس في قلبه حب التضحية والجهاد في سبيل اعلاء كلمة الله ، ويذكره بالعهد الذي تم بين جده محمد ابن سعود وبين الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، من العمل على نشر عقيدة السلف ، والتمسك بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم .

سلاح جديد آخر ، تسليح به عبد العزيز وهو في الكويت ، هو سلاح الامام بطرف من سياسة الدول الغربية . . فقد كان الشيخ مبارك الصباح معجباً بالأمير الشريد عبد العزيز ، مقدراً ذكائه وفطنته ، فقربه اليه وأدناه منه ، وأجلسه الى يمينه في مجلسه اليومي الحافل ، الذي جرت التقاليد في بعض الامارات العربية على عقده في ضحى كل يوم ، ليسمع الأمير او الحاكم من رعاياه شكاياتهم ، فيقضى فيها بنفسه قبل ان يفض مجلسه . فكان

الكويتيون يرون هذا الفتى طويل القامة عريض المنكبين الى يمين أميرهم ،
فيسألون : من هذا الفتى ؟ فيجيبه الجواب : له ابن سعود .

وهكذا عرف واشتهر ..

وكان عبد العزيز حريصا كل الحرص على ألا يفوته مجلس من هذه
المجالس ، فيظل مستمعا صامتا ، مفكرا متأملا . ومن هذه المجالس عرف
بعض الأوربيين من القناصل ووكلاء الشركات ، جاؤوا لاستقصاء أمر أو
استكمال معلومات عنه ، وكان مبارك من تاحيته يتيح الفرصة للأمير الصغير
حضور جلسات خاصة يناقش فيها أمور أمارته ، جلت أم صفرت ، وكان
أهمها يوم ذاك ، صراعا بين الألمان والروس ، يريد كل فريق أن يمكن نفسه
من الكويت .

كان الألمان في مفاوضات مستمرة مع الترك ، ليمدوا خطا حديديا تجاريا
يصل خط الأناضول ببغداد ، مارا عبر البلاد العربية حتى الخليج العربي ،
حيث ينفذ الى البحر ، ولما كانت البصرة الواقعة عند ملتقى دجلة والفرات
غير صالحة لجعلها الميناء الذي ينتهى عنده الخط ، فقد وقع اختيارهم على
الكويت لتكون نهاية هذا المشروع الضخم .

أما الروس فكاثوا - في محاولتهم الوصول الى منفذ على البحر في أية
بقعة كانت - قد أخذوا يوسعون مناطق نفوذهم في إيران ، فوضعوا أقدامهم
على الساحل الإيراني حتى الخليج العربي ، واتخذوا منها قاعدة لعدد من
بوارجهم الحربية ، مظهرًا لسيطرتهم وقوتهم . وفي الوقت نفسه وضعوا
مشروعها لخط حديدي يمتد من الكويت عبر البلاد العربية الى البحر المتوسط ،
أو بعبارة أوضح ، الى المنطقة التي كانت محط آمال الانجليز (١) .

قال الأستاذ أحمد عبد الغفور عطار في كتابه « صقر الجزيرة » في
الصفحة ١١٩ من الجزء الأول :

« .. قال الألمان ، وقال الروس . ولكن الشيخ مبارك ينظر من كذب
ضاحكا مستهزئا ، حقا عن كل دقيق وجليل ، ويهوى ولده عبد العزيز - كما
كان يدعو - تقلبات السياسة وأحاييلها ، وما ينجم عنها من الخصومة
والشقاق بين الحكومات ، ويقفه على ما يدور بين الدول من أجل المصلحة ،
والوسائل التي اتبعها في تفريق كلماتها ، وإيقاعها في الورطات ، وجعل اليأس
بينها شديدا ، أضعافا لقواهم حتى يسود ، بعد أن يضرب بعضها ببعض ،

(١) المصدر السابق - ص ٣٩ .

وهو آمن بعيد عن الأذى . فتعلم عبد العزيز كثيرا من المبادئ السياسية ، وحذق لغتها المرنة ووسائلها المختلفة وأساليبها المتنوعة ، وتسنى له الاتصال بممثلي الدول والتحدث اليهم والاحتكاك بهم ، فأنكشف له الزيف والصحيح ، والردىء والجيد ، وعرف الحلول الصحيحة لكثير من المشاكل ، ومن ثم تدرج في طريق الكمال ، وكانت عبقريته الباكورة الناضجة ، تعينه أجمل العون على ادراك الأمور ادراكا صحيحا ، وفهما فهما جيدا .

ولكن ، هل أنسى فتانا الطموح الذكى ، ما لقيه في سنى التشرذم من شقاء وبلاء في رحيله من بلد الى بلد ، حتى أوى مع أسرته أخيرا الى الكويت . . . هل أنساه ما يجده في الكويت من تقدير أميرها مبارك الصباح له وتقريبه منه ، وعيشة الكفاف التى يعيشها مع آله ، بعد نفاذ المال وذهاب العز والجاء . . هل أنساه كل هذا ، مسقط رأسه « الرياض » ؟

لقد سألته مرة الشيخ عيسى آل خليفة حاكم البحرين في ذلك الاوان :

— أمقامك في قطر خير ، أم مقامك في البحرين ؟

فأجابه على الفور بصراحة اليافع طيب السريرة ، خالص النية ، صادق الضمير :

— لا هنا ولا هناك . . .

قال الشيخ متعجبا : اذن أين المقام الخير ؟

قال : الرياض ، الرياض خير مقاما . . .

ان روح العلا ، ونزعة الامارة والسلطان تغليان في صدره ، وانه ليعبد الساعات والليالى والايام ، بعد أحد عشر عاما في المنفى الاختياري ، منتظرا ذلك اليوم الذى يعيد فيه الى أسرته مجدها وعزها وسلطانها . . كثيرا ما شوهد على شواطئ الكويت وحيدا مفكرا . وفيه يفكر الا في الوطن السليب وطن آبائه وأجداده ؟

لقد كان يحدث أصدقاءه من الكويتيين أحاديث ملؤها العزم والتصميم ، وكان يسرع الى حيث تحط القوافل رحالها ، قادمة من جوف الصحراء ، ليتزود من أصحابها بما يريد من أخبار ومعلومات . . لقد كان مشهورا في الكويت كلها بالدكاء والجد ، تحوطه مهابة ويجف به وقار ، وهو لم يبلغ العشرين بعد ، أضسفتها عليه قامته المسرفة في الطول ، حتى لتبلغ المترين أو أقل قليلا ، ولهذا كثيرا ماتفوق على قرنائه من الكويتيين في الألعاب

الرياضية التي ألفها البدو ، فاذا فرغوا من اللعب ، عاد الشاب الفارع الى تفكيره ، وسرح ببصره في الفضاء وكأنه يسأل مولاه في علاه :

— متى أعود الى الرياض ؟

وفجأة حانت الساعة المرجوة ، وحل اليوم المرتقب . .
لقد أغرت الحكومة العثمانية ابن الرشيد ، بالشيخ مبارك شيخ الكويت ،
لانه مكن للانجليز من السيطرة على امارته ، بعقد معاهدة مع الحكومة
البريطانية — معاهدة ١٨٩٩ — على غرار المعاهدات أو الاتفاقيات التي مقدها
مع شيوخ امارات الخليج . وكان ابن الرشيد يحلم بالاستيلاء على الكويت ،
لأن فيه دعما لامارته في نجد ، فتصبح اماره قوية تستندها الحكومة المركزية
وهي الحكومة العثمانية ، وعندئذ — اذا تحقق حلمه — يرحل عنها الامام
عبد الرحمن وأسرته ، فيفقد آل سعود آخر أمل لهم في المحاولة للعودة الى
سلطانهم الذي أخذ منهم قسرا .

وبدا ابن الرشيد يجهز جيشا كبيرا من قبائل « شمر » المتمرسين
بالحرب وبالقتال ، لهذه المهمة الخطيرة . وعلم مبارك الصباح بالامر ، فسخط
من خزانته المليئة بالذهب ، على بعض القبائل المجاورة ، وفي مقدمتها قبيلة
« العجمان » كثيرة العدد ، الضاربة بين نجد والكويت ، وقد عرفت بتمرد
ها على كل حاكم لا ييسط لها يده ، وباستعدادها الدائم للقتال مع من يجيد
البدل ويمنيها بالفنيمة النفيسة . كذلك استمال الشيخ مبارك قبيلتي
« الضفير » و « المنتفق » الضاربتين في الشمال نحو الفرات ، وبعض القبائل
التي عرف كرهها الشديد لآل الرشيد ، ثم رأى أن يشرك معه آل سعود ،
فاذا انتصر على ابن الرشيد ، عادوا الى امارتهم . . وجار صديق حليف
مثلهم ، خير وآمن من جار سوء شرير كابن الرشيد ، صنيعه الترك في المنطقة
العربية .

كان دور عبد العزيز في هذه المعركة ، هو ان يقود جماعة تمتطي النوق
السريعة ، لاثارة أهل نجد والاستيلاء على الرياض اذا أمكن ، مهددا بذلك
ابن الرشيد من الخلف . . اذن لقد قربت ساعة العمر التي ظل يترقبها ويحلم
بها ، الساعة التي يعود فيها الى الرياض منتصرا ، مجددا ما انقضى من عز
مندثر .

... والتحم الجيشان في « الصريف » — بين « حائل » عاصمة ابن الرشيد
وبين الكويت — واقتتل الفريقان اقتتالا ضاريا ، أسفر في نهايته عن انتصار
ابن الرشيد ، لان قبيلة « العجمان » خذلت مبارك ، وجدت في الفرار عند

ما رأت الرؤوس تتطاير في الهواء ، وتبعتها القبائل المرتزقة ، فلم يكن امام مبارك وعبد الرحمن الا الانسحاب الى الكويت ، بما بقي معهما من الجيش الذي اصطنعه مبارك بماله وذهبه .

اما عبد العزيز فقد استطاع ان ينفذ بتلك الجماعة التي تقدمها ، الى داخل نجد ، واستقبل بترحيب من القبائل التي مربها في طريقه ، وأعلنوا له استعدادهم للانقضاء على ابن الرشيد ، ثم أخذ يدنو من العاصمة ، من الرياض ، وليس فيها سوى حامية ضعيفة يمكن قهرها . الا ان انباء معركة « الصريف » وانتصار ابن الرشيد فيها ، عمت أنحاء نجد ، فاستبد الخوف والفرع بالجماعات التي كانت قد انضمت الى عبد العزيز ، ورات اتقاء لعقوبة ابن الرشيد ، اعتفالى عبد العزيز وتسليمه اليه . الا ان الله جل شأنه ، كان معه ، فلم يدره فردا ، فأنجاه منهم ، وعاد الى الكويت ، جائعا ، مهلهل الثياب (١) .

انقضى عام على واقعة « الصريف » ، والألم يعتصر فؤاد عبد العزيز ، والأمل يزين له المستقبل الباسم الزاهر ، رغم ما لقي ويلقى من قسوة الدهر ، انه مؤمن بالله الايمان كله ، مؤمن بحق آله في العودة الى وطنهم الايمان كله . . مستحيل ان يززع هذا الايمان الرأسخ الوطيد ، أو ينال منه ، « سحابة صيف عما قليل تقشع » .

كان لعبد العزيز شقيقة تحتل من قلبه مكانة سامية ، وأدرك أنها تشاركه الآلام وآماله ، فأسر اليها انه معتزم ان يعيد الكرة لغزو الرياض ، فشدت من عزمه ، ودعت الله أن يكون معه في معركته القابلة ، معركة الحق والعدل . فلما فاتح أباه في الأمر ، حاول أن يثنيه عنه ، مسميا اقدامه عليه «مغامرة» لا تحمد عقباها . . فلما وجده هاقدا العزم ، دعا له بالتوفيق والنصر . . . لكن الأمير الفتى خاوى الوفاض ، ليس معه سلاح ولا مال ، فكيف السبيل اليهما ؟

ولى وجهه شطر مبارك الصباح ، واستعان به فاعانه . . زوده بثلاثين بندقية وبأربعين جملا ، فحمد الله واستنصره ، وبدأ مسيرة الغزو بهذه المعونة المباركية ، وبأربعين رجلا اختارهم من أسرته ومن هوالها .

وسار على بركة الله ، في ليلة ظلماء من ليالى نهاية عام ١٩٠٢ م . . طواهم ظلام الصحراء ، ومر بمضارب قبيلة « العجمان » فهاجمها ، واستولى على

(١) المصدر السابق - ص ٥٠ .

ما عندها من مؤن ، انتقاما منها لخدلاتها مبارك في معركته مع ابن الرشيد ،
ووصل الى مضارب قبيلة «شمر» انصار ابن الرشيد ، فهاجمها وادبها ،
واستمر في تقدمه حتى اقترب من « حائل » ، بعد ان نشر الرعب والدعر
والفرع في القبائل التي مر بها ، بل وفي القوافل التي كانت معتزمة اتخاذ
طريقها الى هدفها .

وعبثا حاولت عيون ابن الرشيد وأرصاده ان تصل اليه ، فقد تعلم من
قبائل « المرة » الكثير عن حرب الصحراء ، وبوسائل الاحتماء في اخايدها
وكهوفها ، بل وفي رمالها اذا لزم الامر !!

على العكس ، انضمت اليه قبائل « سبيع » و « بنى مرة » و « السهول »
وغيرها ، انتصارا له من جهة ، ومن جهة ، أخرى وهي الأهم ، ابتغاء الفهم
والكسب من الفنائم ! فلما وصل الى « حرص » كان جيشه مؤلفا من نحو
الف وخمسمائة مقاتل ، مضوا يغيرون على القبائل المجاورة الموالية لابن
الرشيد ، كقبائل « مطير » و « الدواسر » و « قحطان » ، غانمين ما عندها من
زاد وعتاد ، ثم يعودون الى الاحساء حيث اتخذوا من بطاحها مستقرا ومقاما .

فماذا يفعل ابن الرشيد ؟

لجأ الى حلفائه الترك ، واجيا منهم ان يفلقوا الاحساء - وهي ولاية
تركية - في وجه هذا الغازي الشاب الذي اقض مضجعه واقلق راحته .

فلبوا الرجاء ، فلم يعد عبد العزيز يستطيع اجتياز حدودها كما كان
يؤمل . . وانتظر الامير الفتى شبوب الثورة التي كان يرجوها من النجديين
على ابن الرشيد ، ولكنهم وقفوا منه موقفا سلبيا غير مبالين به وبحركته ،
فمالهم وله ، وهم مطمئنون الى حياتهم التي يحيونها ، فلا يهم اذن ، احكمهم
ابن الرشيد او ابن سعود !!

وتحرك ابن الرشيد ، فشدد الحراسة في الطرق والدروب ، واقام في كل
قرية حامية مسلحة من سكانها ، فاذا لم يقبلوا الفها من جنوده ، واطلقوا
جواسيسه يرقبون حركات عبد العزيز ويتنسمون اخباره ، ثم خصص جائزة
مالية كبيرة لمن ياتيه برأسه . .

وسدت المنافذ في وجه عبد العزيز ، والمؤونة في نقصان ، وهذا الجيش
الذي جمعه من القبائل الساعية الى الغنيمة أولا واقبل كل شيء ، بدأ يتفرقا
ويتسلل افراده ، مخلفينه وحده في الصحراء ، فلم يبق معه غير المؤمنين به
وبما أقدم عليه ، اولئك هم الاربعون رجلا الذين غادر بهم الكويت . . وهل
بهؤلاء الاربعين يمكن غزو الرياض ؟

لقد طال الوقت به ، وهو في مكانه هذا ، وعلى حاله السيئة هذه ، أيعود
إلى الكويت مرة أخرى ، فيشمت العدو ، ويسىء إلى سمعة آله الأمجاد ؟

فقيم كان الخروج ؟ ولم كانت المفامرة اذن ؟

لا . . . لن يكون . وفيما هو كذلك مع رفاقه ، أقبل عليهم فارسان
موفدان من أبيه اليه ، يحملان رسالة يرجو منه فيها أن يعود سالما ، ما دام لم
يأذن الله أن يعود منتصرا غانما . .

وغشيه هم ويأس . أيعصى والده ويمضى فيما استعان الله عليه ، أو
يطيعه ويعود حزين القلب مهبط الجناح ، خافض الرأس ذلة وانكسارا ؟

مرة أخرى : لا ، لن أعود إلى الكويت ، سامضى في طريقى إلى غزو
الرياض . . قولا لوالدى اننى منقلد ما عزمت عليه ، فليدع الله أن يقف
بجانبى .

وما أن غاب الفارسان عن الأعين ، حتى جهز عبد العزيز رفاقه للمسير ،
قوصلوا بعد ثلاثة أيام إلى واحة « جبرين » في أطراف الربع الخالى ، حيث
يقوم بضعة أكواخ من الطين ، يقطنها قليل من البدو لحراسة النخيل الذى
تملكه قبيلة « المرة » فى الواحة ، وهى منطقة يعرفها عبد العزيز خير المعرفة ،
حينما سكنها مضطرا مع أسرته ، قبيل رحيلهم إلى الكويت .

وفكر فى حيلة يضل بها ابن الرشيد ، فتظاهر بالخصام دب بينه وبين
أخيه محمد وابن عمه ابن جلوى ، وزادوا فمثلوا أن هذا الخصام اشتد
بينهم ، حتى دفعهم إلى التلويح لبعضهم بعضا بالسيوف ، ثم تفرقوا ، كل
منهم مع فريق من الأربعين رجلا ، بعد ما اتفقوا على الاجتماع فى مكان معين
قريب من هذا المكان الذى مثلوا فيه الخصام أمام أهل الواحة . وشاع نبأ
الخصام ، وإن الجمع قد تفرق من حول عبد العزيز ، فتخلى عنه أخوه وابن
عمه ، وبقي وحده طريق الصحراء بائسا بائسا .

ونجحت الحيلة ، وابتهج ابن الرشيد بما سمع عن أفول نجم خصمه
الشاب العنيد ، فشرح الحاميات المسلحة التى كان قد أقامها فى القرى ،
واستعاد من بعضها جنوده إلى عاصمته « حائل » . . وظل عبد العزيز مع
رجالته خمسين يوما حيث هم ، فى أشق أنواع الحياة ، فلا غذاء لاحدهم سوى
تمر أو تمرتين فى اليوم ، فإذا ساق اليهم الحظ السعيد غزالا أو أرنبيا ،
اقتنصوه وأكلوا لحمه نيئا ، حتى لا توجه نار الوقود الانظار إلى مكانهم .
وبعد هذه الأيام الخمسين السوء ، اتفقوا على أن يبدأوا غزوتهم بمهاجمة حاكم

المدينة ، فيقتلوه ، فاذا سال دمه امام أعين جنوده في حامية حصنها ، سلموا صاغرين مدحورين . . بعد هذا يصبح احتلال المدينة نفسها أمرا هينا ، لا عسر فيه ولا مشقة .

واخذ الغزاة القلائل في السرى ، وغاب القمر في طيات السحب ، ودنا عبد العزيز ورفاقه من الرياض ، ولم يبق بينهم وبينها سوى ساعات قليلة ، وهم يغذون السير فرحين مستبشرين متهللى الأسارير ، وكأنهم لم يلقوا في مسيرتهم الشاقة هذه عنتا ولا رهقا ، واستقبلوا عيد الفطر (شوال عام ١٣١٩ هـ - ١٩٠٢ م) حول بئر ، فلبثوا عندها للراحة ، ليتبلغوا ببعض من التمر ولحم غزال نىء ، ثم واصلوا السير الى بئر « ضلع الشعب » ، حيث تبدأ واحة من النخيل ممتدة مسيرة ساعة ونصف ساعة الى ضواحي الرياض ، وعندها أبقي عبد العزيز الجمال في حراسة عشرين رجلا ، أمرهم بالالحاق به اذا أرسل في طلبهم ، فان لم يرسل اليهم بعد أربع وعشرين ساعة من مغادرته لهم ، فليعودوا الى الكويت ليبلغوا والده انه : إما قتل أو أسر .

وعلى الاقدام سار عبد العزيز مع العشرين رجلا الباقين الى نهاية واحة النخيل ، وفي الطريق اقتطعوا جذع نخلة ليتسلقوا عليه سور المدينة ، ومضى مع ابن عمه وستة من الرفاق ، خلفا زملاءهم بقيادة اخيه محمد ، لكي يحميهم عند الاقتضاء ، فاذا انقطعت أخباره عنه الى صباح اليوم التالى ، فليعد هو الآخر الى الكويت .

. . وانصت عبد العزيز ، فلم يسمع صوتا لسائر ، سوى صوت الحراس وهم ينادون بعضهم بعضا ، حتى لا تأخذ أحدهم غفوة تحول بينه وبين اداء واجبه ، فاذا اطمأن هؤلاء الحراس الى يقظتهم جميعا ، لاذوا بالصمت والدفاع فقد كانت الليلة من ليالى ديسمبر القارصة أوى فيها الأهالى الى دورهم هربا من البرد الشديد ، مما زاد في اطمئنان عبد العزيز ، فتسلق ومن معه سور المدينة في غفلة من الحراس والسكان الدافئين ، فلم يشعر بهم أحد ، وساروا حذرين مخترقين مسالك المدينة ودروبها ، حتى وقف بهم امام منزل صغير في نهاية درب صغير ، طرق بابه ، فسمعوا صوت امرأة هلعة جزع ، تسأل :

— من الطارق في هذه الساعة المتأخرة من الليل ؟

فقال عبد العزيز : نحن من رجال الأمير عجلان ، نريد شراء أبقار منك . . .

فأجابت المرأة من الداخل : اذهب من هنا ، فليس في البيت بقى .
انت تريد الفساد ، ولا تريد أبقارا . . .

فقال : لا والله ...

قالت : اهذا وقت بيع وشراء ؟ أبعد منتصف الليل تطوف بالحي طواف من يريد أمرا تكرا مغلغا بالبيع والشراء ؟ اذهب يا رجل ..
قال لها عبد العزيز بحزم : أريد صاحب الدار وكفى ، وليأتني الآن ،
فاذا لم يطع ، فأتني أخشى أن يقتله الأمير صباح غد ...

... وفتح الباب بعد هنيهة من التردد ، عن رجل زنجى ... انه
« جويسر » العبد السابق من عبيد آل سعود ، وقد أعتقه الامام
عبد الرحمن قبل أن يغادر الرياض ، وعرف العبد سيده ، ففتح له
ولرافقيه الباب عن آخره ، ليأجوه الى داخل البيت وسط سرور أهل
الرجل وذويه ، وعلم منه عبد العزيز ما أراد من معلومات عن حاكم المدينة
« عجلان » ، ثم غادروا الدار متسلقين سطحها الى أسطح الدور المجاورة ،
حتى ساقطتهم أقدامهم الى دار مجاورة لدار الحاكم ، فهبطوا اليها ،
واوثقوا ساكنيها العجوزين بالحبال ، وأغلقوا دونهما الباب ، ثم تسلقوا
جدارها الى سطح دار الحاكم ... وبحذر ، وبهدوء ، شديدين ، هبطوا
الى فنائنها مغافلين الحراس ، فأوثقوهم أيضا بعد ماكموا أفواههم
وحبسوهم في حجرة قصية ، وعندئذ سمعوا لفظا وهممة صادرين من
غرفة قريبة ، فاقتحمها عبد العزيز وابن عمه ، فاذا هما في غرفة نوم قد
تمدد في سريرها امرأتان ، هما « قطبة » زوجة عجلان وأختها ، فطمأنهما
أن لا خطر عليهما اذا هما لزمنا الصمت . وعلم من الزوجة أن زوجها
يبيت في الحصن المواجه للدار ، وأنه يغادره اليها قبيل الشروق بلحظات ،
ثم أغلق الباب عليهما وعلى الباقيات من النساء في الدار ، وأرسل في طلب
أخيه محمد ومن معه من الرجال ، واقتربوا جميعا فنساء دار الحاكم في
انتظاره للقضاء عليه ، بعد ساعات قليلة قضاهما المتربصون في تناول قليل
من زادهم ، وفي احتساء قهوتهم ، والكل يقظ الحواس لأى لمسة أو همسة
خشية الفجاءة ...

وعلا صوت المؤذن في المدينة داعيا الى صلاة الفجر ، فأم عبد العزيز
رفاقه ، واتموا صلاتهم ، ورددوا أديعتهم ، وتلا كل منهم ما تيسر من آى
الذكر الحكيم ، وصحت المدينة ، واستيقظ أهلها ، وأرسلت الشمس
خيوطا ذهبية من أشعتها ، فهب رجالنا وقوا متأهبين وقد سلوا سيوفهم
خلف باب الدار ، وهو مواجه لباب الخضن ، يفصل بينهما ممر طويل
اتخذ مربضا لخيول الحاكم ، اعتاد أن يتمتع عينيه بمنظرها وهو يتريض فيه

برهة ، ثم يدلف الى زوجته ليوقظها ويتناول معها قهوة الصباح وطعام الافطار ... بعدئذ يمضى الى عمله .

اليوم ، هو الرابع من شوال من عام ١٣١٩ . وفي أول لحظات من نهاره فتح حارس الحصن كوة صغيرة في الباب الكبير ، خرج منها عجلان متجها الى مربض الخيل ، فاسرع اليه عبد العزيز والسيف في يمينه ، ومن حوله رجاله يبغون قتله ، لكنه عدا طالبا النجاة في الحصن من الكوة التى خرج منها ، فجذبه عبد العزيز من قدميه ، وعاجله ابن جلوى بطعنة من خنجر فاخطاه وجاوزه الى الباب فاستقر فيه ، ولا يزال في مكانه الى اليوم ، رمزا للذكرى يوم الغزو المقدس ... لكن عجلان القوى ، افلت من يدى عبد العزيز ونفذ كالسهم الى الداخل ، فأطلق عليه حينئذ ابن جلوى - وهو من أشهر الرماة - رصاصة جندلته ، وسقط يتخبط في دمه ، فأجهز عليه ، وفصل رأسه عن جسده ، وترك جثته نهبا للذباب والطير .

في هذه الاثناء ، اوفى هذه اللحظات الخاطفة ، دارت معركة بالرصاص بين الغزاة وبين حراس الحصن ، قتل فيها بعض هؤلاء ، وأسر الباقون ، ثم ضربت أعناقهم من بعد ...

وبعث عبد العزيز مناديه ، ليعلم في الناس الخبر العظيم ، فوقف على منصة عالية في سوق المدينة ، وصاح مبشرا :

- الحكم الله ، ثم لعبد العزيز بن عبد الرحمن بين الفيصل السعود وذهلت الرياض ، وهى بين مصدقة ومكذبة ، ثم سادها البشر وظلمتها البهجة ، وهرعت الوفود الى منقلدهم من حكم الطاغية عجلان ، يمطرون وجهه بالقبل الدالة على اخلاصهم لآل سعود ، ويعلنون بيعته لهم ، يسالمون من سالمه ، ويعادون من عاداه ، وهم بينهم بقامته المديدة ، يملأ عطفه الزهو بالحق ، وتنطق أساريره بشكر الله عز وجل .

ثم تحدث اليهم ، فحضرهم على الخير والصلاح والصبر ، ونصحهم بالا يقتلوا عدوا جاء مستسلما ، ولا يؤذوا الشيوخ والنساء والأطفال ، وحذرهم من انتهاك الحرمات ، وسفك الدم بغير حق .

وفي المساء أشعلوا النار أمام الدور ، وفي الميادين نحروا الدبائح ، قرى للضيوف الذين جاؤوا مهنتين من القرى المجاورة ، وأضاءت المدينة كلها المصابيح والشموع ، فبدت قطعة من نور وهاج .

ان ذلك اليوم المشهود الأغفر ، يوم ٢ من ديسمبر من عام ١٩٠٢ الذى دخل فيه عبد العزيز الرياض غازيا ، هو السطر الاول فى تاريخ هذا الرجل العظيم ، كما يعتبر غزو الرياض ، حجر الاساس فى بناء هذه المملكة العتيدة التى أسسها على تقوى من الله ووضوان .

الا يعد هذا العمل فى الأساطير التى نقرأها فى كتب الاولين ، من الرواة والمحدثين ، من الرومان واللاتين ؟

ولو شئت أن أتابع تاريخ هذا الغازى الفريد فى نوعه ، يوما بيوم ، لأضانى التبع . فليترفق بى القارئ ، وليتقبل منى مشكورا ، أن أجمل له فتوحاته ، حتى دان له الحجاز كله ، وأصبح « ملك الحجاز ونجد وملحقاتهما » ، ثم « ملك المملكة العربية السعودية » .

فى تلك السنة التى فتح فيها الرياض ، فتح « شقراء » و « ترمداء » و « الروضة » وسائر مدن سدير .

وفى السنة التالية فتح « عنيزة » و « بريدة » وسائر مدن القصيم . وفى سنة ١٣٢٢ هـ (١٩٠٥ م) كانت معركة « البكيرية » و « الشنانة » .

وفى ١٨ صفر سنة ١٣٢٥ هـ (١٤ ابريل سنة ١٩٠٨ م) قتل عبد العزيز ابن الرشيد أقوى خصم له ولأسرته .

وفى ٥ جمادى الاولى سنة ١٣٣١ (١٢ ابريل سنة ١٩١٣) احتل الأحساء .

وفى ٢٥ شعبان سنة ١٣٣٧ (١٩١٩) كانت معركة « تربة » المشهورة التى قضى فيها على جيش الملك حسين بن على ملك الحجاز ، وكان بقيادة ابنه الأمير عبد الله (الملك عبد الله ملك شرق الأردن فيما بعد) .

وفى ٢٩ صفر سنة ١٣٤٠ (٢ نوفمبر سنة ١٩٢٢) ، سقطت « حائل » آخر معاقل آل الرشيد ، وبهذا دانت نجد كلها لعبد العزيز بن سعود . وفى ٧ صفر سنة ١٣٤٣ (سنة ١٩٢٤) استولى على الطائف ، قاعدة حكومة الشريف حسين .

وفى ١٧ ربيع الاول سنة ١٣٤٣ (١٦ أكتوبر سنة ١٩٢٤) احتل جيشه من « الإخوان » مكة المكرمة سلما ، بعد أن جلت عنها الحكومة الهاشمية .

وفى ٥ ديسمبر سنة ١٩٢٥ ، استولى على المدينة المنورة .

وفي ٢٣ من الشهر نفسه ، استولى على جده . . .

وبهذا انتهى حكم الشريف حسين وبنيه من الحجاز .

من هذه الفتوح ، أود أن أخص بالذكر ، فتحه الأحساء ، فمنه يتضح كيف كان عبد العزيز يقبل التحدي من المتكبرين المتجبرين ، وكيف كان مسيحاته وتعالى ينصره عليهم ، لأنه يدفع عن حق ، وهم يدفعون عن باطل . لقد اشتهر إقليم الأحساء بالخصب والنماء وجودة مزروعاته ، وغزارة عيون مائه القريبة من سطح الأرض ، ولكنه كان مصدر اضطراب وقلق لما حوله من الإمارات ، اذ كان وكرا للصوص وقطاع الطرق ينهبون أموال التجار ، ويفتصبون بضائع القوافل ، ويقتلون أصحابها والمرافقين لها . ومع أن الإقليم ولاية تركية ، إلا أن حكامه من الترك كانوا ضعافا لا سلطان لهم ، ولا حول ولا قوة ، بينما جيران سكان الأحساء من أهل نجد ينعمون بالطمأنينة والأمن .

وعلم جمال باشا السفاح ، الوالي التركي على بغداد ، أن ابن سعود ينوي أمرا للأحساء ، وهي في منطقة نفوذه ، فأرسل إليه ليوفد مندوبا عنه لمفاوضته فيما يريد من هذا الإقليم ، فأوفد ابن سعود مندوبه ، وإذا بجمال السفاح يبادره بقوله :

— ان ابن سعود لا يعرف مقامه ، فاذا كان لا يقبل ما تعرضه عليه الحكومة التركية ، فان باستطاعتي اختراق بلاد نجد من الشمال إلى الجنوب بطابورين فقط ! !

وعاد المندوب لينقل إلى عبد العزيز ما سمع من المفرور المتجبر ، جمال السفاح ، فقال له ابن سعود :

— لا عليك . . انتظر . سوف تؤدبه باذن الله .

ثم كتب إلى وكيله في بغداد ، عبد اللطيف المنديل باشا ، رسالة كلفه إبلاغها إلى جمال ، وقد قال له فيها :

— سنقصر لكم الطريق ان شاء الله قريبا .

وقد تم له بعد ذلك فتح الأحساء (١) .

كذلك حينما أرسل إلى الشريف حسين في مكة ، يدعوهُ إلى الاتفاق على الحدود بين نجد والحجاز ، في رسالة مؤدبة مهذبة ، خاطبه فيها كما يخاطب الابن أباه ، أرسل إليه حسين يقول له :

(١) كتاب « صقر الجزيرة » للاستاذ عبدالغفور مطار - الجزء الاول - ص ٢٥٢ .

— يا ابن سعود : انك بكتابتك هذه ، اما أن تكون سكرانا أو مجنونا .
لا تعلم لاي أمر قمنا ، وای غرض نبغى ؟

وحفظها له ابن سعود ، وتحداه ، حتى اجلاه وأجلى أسرته كلها
عن الحجاز .

أعود الى فاتح الرياض بقلة من الرجال ، لا بجيش لجب ، ولا بعتاد .
وهيب ، فاقول انه أرسل الى أبيه والى أسرته في الكويت ، فلحقوا به ،
ولم يقبل الأب ما عرضه عليه الابن البار ، من تولى الامارة ، فأصبح عبد
العزیز أميرها ، لكنه ما كان لينفذ أو يبرم أمرا الا بعد مشورة
أبيه الجليل .

كان يقول من والده : « انه كان يعاملنى كأننى أنا الوالد وهو الولد »
وما رأيت قط معاملة كهذه بين الآباء والأبناء .

وكما كان يوم ٢ ديسمبر من عام ١٩٠٢ ، يوم دخل عبد العزيز مدينة
الرياض مستردا لها ، يوما تاريخيا لن ينسى ، فان يوم ٥ ديسمبر من عام
١٩٢٥ (٤ جمادى الثانية سنة ١٣٤٤) ، يوم غادر الشريف على ابن
الشريف حسين ، جدة مستسلما لعبد العزيز ، ومسلما المدينة له ، ليكمل
له بذلك احتلال الحجاز كله . . . ان هذا اليوم هو الآخر ، يوم تاريخى .
لن ينسى . . . لقد حاصر عبد العزيز يومذاك جدة حصارا شديدا ، ولم
يشأ مهاجمتها حرصا على أرواح ساكنيها من الأجانب ، ووجد الشريف
على نفسه في مأزق شديد : فالأرزاق عن المدينة ممنوعة ، ورواتب الجند
موقوفه . فأرسل وسطاء الى عبد العزيز ليحملوه على المفاوضة في صلح .
يرضى كلا منهما : أرسل أمين الريحاني الكاتب اللبناني المشهور ، والمستر
فيلبي وكان لا يزال تاجرا في جدة ، وطالب النقيب باشا من أعيان العراق .
ثم حسين الغوينى التاجر اللبناني الكبير ، وقد أصبح بعد ذلك رئيسا
لوزراء لبنان عدة مرات . . .

فقال عبد العزيز للريحاني — وهو مسيحي — بصراحة :

— ان المشكلة اسلامية ، ولا يحلها غير المسلمين .

وقال للتاجر فيلبي :

— ليس من المصلحة أن تكون وسيطا في هذه المسألة الاسلامية .

وقال للنقيب باشا :

— لا فائدة من الوساطة . على الشريف على أن يتخلى عن جده .

وقال مثل هذا للحاج حسين العويني .

لكن الشريف علي لم يياس ، فأرسل الى عبد العزيز وزير خارجيته
قواد الخطيب باشا ، فوجد من الفاتح المعتز بنفسه ، المؤمل في نصر من الله ،
ناصراراً على أن يغادر الشريف جدة ، فليس هناك مفر من تخليه عنها .
كان عبد العزيز قد أرسل وهو محاصر مكة المكرمة ، رسالة الى
الشريف ، قال له فيها :

— ان الحرمين الشريفين ليسا ملكا لأحد ، لكن الاشراف ، وعلى
الاخص والدكم ، اعتبروا الحجاز ملكا خاصا . ولقد عانى المسلمون جميعا
وأهل نجد خاصة ، الأمرين من سوء معاملته . نحن لا نريد الا تحرير
الحجاز للمسلمين وللعالم الاسلامي (١) .

فأرسل اليه الشريف علي يطلب « جلاء النجديين عن الاراضي الحجازية
المحتلة ، والا فنستردها بالسيف ، وانا مضطر الى الاصطلاء بنار الحربية
بلا شفقة ولا رحمة » .

فرد عليه عبد العزيز قائلا في تواضع :

— « اذا كنتم تحبون السلام وحقق الدماء ، فاخلوا الحجاز ، وانتظروا
حكم العالم الاسلامي ، فان اختاركم او اختار غيركم ، فنحن نقبل حكمه
بكل ارياح . اما اذا بقيتم في ارض الحجاز ، فان مسؤولية ما يقع من
الحوادث ، تقع على غيرنا » ...

وأخيرا لم يجد الشريف علي الا ان يوسط الانجليز ، عليهم يفلحون مع
هذا الغازي العنيد . فدعا اليه المستر جوردون نائب المعتمد البريطاني في
جده ، وأبلغه رغبته في توسطه بينه وبين عبد العزيز في التسليم ، لكن
بشروط ، هي :

١ — اعلان عفو عام عن الموظفين الملكيين والعسكريين والاشراف ، وكل من
والى الحكومة الحجازية — حكومة أبيه — أو ناصرها من الملثمين
وأهل القبائل ، وتأمين ارواحهم وأموالهم .

٢ — ترحيل جميع الضباط والجنود الذين جيء بهم من الاقطار العربية
الى اوطانهم ، مع تأمين نفقاتهم ومصاريف سفرهم ، وأن يوزع عليهم
خمسة آلاف جنيه ، مكافأة لهم ، بنسبة معتدلة .

(١) كتاب « الملك العادل » للسيد عبد الحميد الخطيب — ص ٧٩ .

٣ - تأمين سائر الموظفين على وظائفهم ، وعدم اخراج أحد منهم من عمله .
الا بجنحة أو بسبب معقول .

٤ - سريان الشروط السابقة على جميع السكان والموظفين والضباط .
والجنود الموجودين في ينبع ، ما عدا المكافاة النقدية فانهم لا يدخلون فيها .

٥ - الاحتفاظ بممتلكات العائلة الهاشمية في الحجاز ، لأصحاب الحقوق .
فيها ، وعدم الاعتداء عليها أو مصادرتها .

واستقبل الفاتح المنتصر ، المستر جوردون ، وقبل الشروط مرجحة بها ، لأنه انسان أولا ، ولأنه ثانيا ، ليس فيها ما يخالف خلقه ومبادئه وتقاليده التي ورثها عن أجداده ولقنها له أبوه . وأقر معاهدة التسليم ، بعد ما وقعها المهزوم الشريف على ، في أول جمادى الثانية . وفي اليوم الرابع منه ، وصلت البارجة البريطانية « كورن فلاور » ، فحملته إلى العراق ، لينزل ضيفا على أخيه فيصل .

أما عبد العزيز فقد قصد الى جدة ، ودخلها وسط اطلاق المدافع ، يظله العلم النجدي ، واستقبل قناصل دول بريطانيا وروسيا وفرنسا وإيطاليا وهولندا ومصر وإيران . وقد ناب عنهم قنصل إيطاليا - وكان يجيد العربية - في تهنئته بنصره ، وشكره على حقن الدماء ، بقبوله تسليم الشريف على المدينة بلا حرب أو قتال .

وكذلك ملك عبد العزيز الحجاز جميعه . . .

وبعد ظهر يوم الجمعة ٨ يناير ١٩٢٦ ، أقيمت حفلة بيعته على الحجاز ، في مكة أمام باب الصفا ، فألقيت خطبة التهنئة والترحيب بين يديه ، ورفع اليه المواطنون بيعتهم مكتوبة وموقعة من أعيانهم ، وفيها :

« بسم الله الرحمن الرحيم

« الحمد لله وحده ، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده ، نبأ بعك يا عظمة السلطان عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل السعود ، على أن تكون ملكا على الحجاز ، على كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، وما عليه الصحابة ، رضوان الله عليهم ، والسلف الصالح ، والأئمة الأربعة رحمهم الله ، وأن يكون الحجاز للحجازيين ، وأهله هم الذين يقومون بإدارة شؤونه ، وأن تكون مكة المكرمة عاصمة الحجاز ، والحجاز جميعه تحت رعاية الله ، ثم رعايتكم » .

فكتب في نهاء هذه البيعة :

« بسم الله الرحمن الرحيم

« من عبد العزيز بن عبد الرحمن آل فيصل ، الى اخواننا الموقعين
أسماءهم :

« سلام عليكم وبعد ، فقد أجبناكم الى ما طلبتم ، ونسأله سبحانه
او تعالى ، المعونة والتوفيق للجميع » .

ثم رد على الخطباء بكلمة ضمنها المبادئ التي اعتزم السير على هداها ،
هو ورعاياه معا ، فقال :

— أسمع خطباءكم يقولون : هذا امام عادل ، وهذا كذا ، وهذا كذا...
فكل رجل مهما بلغ من المنازل العلياء ، اذا لم يخش الله ويطلبه
مرضاته ، فلا اثر له ولا لعمله . فمتى تركنا الشهوات وهجرنا المحرمات ،
وعبدنا الله على بصيرة ، لا قينا الخير كله . وهل جاء البلاء للناس الا من
اتباع الشهوات ، شهوات النفوس التي فيها خراب الدين والدنيا ؟ لذلك
ادعوكم الى الدين ، والى اتباع آثار السلف الصالح ، واتخاذ الصراحة في
القول ، والاخلاص في العمل ، وترك الرياء والملق ... فمتى اتفق العلماء
والأمراء على أن يستتر كل منهم على الآخر ، فيمنح الأمير الرواتب ،
والعلماء يدلسون ويتملقون ، ضاعت أمور الناس ، وفقدنا ، والعياذ بالله ،
الآخرة والأولى .

« لم يفسد الممالك الا الملوك وأحفادهم وخدامهم ، والعلماء واعوانهم ،
واننى ، والله ، لا أود أن أكون منهم .

« ان التمدن الذي فيه حفظ ديننا وأعراضنا وشرفنا ، مرجحاً به
وأهلاً . أما التمدن الذي يؤذينا في ديننا وأعراضنا وشرفنا ، فوالله لن
نرضخ له ، ولن نعمل به ، ولو قطعت منا الرقاب .

« أيها الاخوان : انى أحمد الله الذي جمع الشمل وأمن الاوطان ، وان
لكم على ، عهد الله وميثاقه ، اننى أنصح لكم ، كما أنصح لنفسي ولأولادى ،
وأحبكم في الله ، وأعادىكم فيه » .

وفي مساء اليوم نفسه ، ألفت « هيئة التأسيس » لبحث المسائل
الأربع التالية :

١ - وضع اسم لرئيس حكومة الحجاز .

٢ - وضع ترتيب لتحديد العلاقة بين نجد والحجاز .

٣ - تعيين شكل الحكومة ، والبحث في الموقف الذي يجب أن يكون دوليا .

٤ - تعيين شكل العلم والنقود .

فاتفقوا على أن يلقب رئيس حكومة الحجاز بـ « ملك الحجاز وسلطان نجد وملحقاتهما » .

ونشرت جريدة « أم القرى » - المعبرة عن رأى الحكومة - النظام السياسى ، أو « دستور الحجاز » الذى أصدره عبد العزيز فى ٢١ صفر سنة ١٣٤٥ (٢٩ أغسطس سنة ١٩٢٦) ، الخصة فيما يلى :

القسم الأول - مملكة الحجاز بحدودها المعروفة ، هى وحدة غير قابلة للتجزؤ ، وهى مملكة دستورية اسلامية ، لها استقلالها الداخلى والخارجى ، وعاصمتها مكة ، ولغتها الرسمية العربية .

القسم الثانى - تلقى مقاليد ادارة المملكة الى جلالة عبد العزيز الاول فجل عبد الرحمن آل فيصل آل سعود . ويجب عليه أن يحترم الشريعة الاسلامية ، بمزاولة اوامر ونواهي كتابه تعالى (القرآن) والسنة ، وعادات الصحابة والسلف الصالح .

ويعين جلالتة نائبه العام والمديرين ورؤساء الخطط فى الدولة ، ويكون موظفو المصالح المختلفة مسؤولين تجاه النائب العام ، ويكون الملك مرجعه .
القسم الثالث - تشتمل خطط الدولة على ستة اقسام هى : الاديان ، والداخلية ، والشؤون الخارجية ، والمالية ، المعارف ، والجيش .

ويدخل فى قسم الداخلية : الأمن العام ، والبريد ، والبرق ، والصحة والبلديات ، والأشغال العامة ، والتجارة ، والزراعة ، والصنائع ، والمعادن ، وجميع المؤسسات الخاصة . ويكون النائب العام مرجع هذا القسم .

وتنشأ ادارة الحج برياسة النائب العام ، وهى تتناول مديرى الخطط يعاونهم أشخاص اكفاء يعينهم الملك فيما بعد . ولهذه الادارة سلطة تامة للاهتمام بجميع الشؤون المتعلقة بالحجاج وبالحج . ويضع النائب العام قراراتها موضع الاجراء ، بعد موافقة الملك عليها .

ويحتوى قسم الشؤون الخارجية على أربع ادارات : سياسية ، وادارية ، وقنصلية ، وقضائية . ويكون الملك مرجعه رأسا . الا أن الادارتين الادارية والقنصلية ، تتلقيان التعليمات من النائب العام .

ويتألف قسم المالية من أربع إدارات : المالية ، والودائع ، ودخل الحكومة ، ورسوم الجمارك . وتكون جميعها مرتبطة بالنائب العام .

ولا يكون في قسم المعارف إلا إدارة واحدة ، يكون مرجعها النائب العام . وسيوضع فيما بعد برنامج التعليم ، ويوضع موضع الاجراء . ويكون التعليم الأولى مجانيا في جميع المملكة .

القسم الرابع - ينشأ في العاصمة مجلس كبير (مجلس الشورى) يتألف من النائب العام ومستشاريه ، ومن ستة اعيان اكفاء يعينهم الملك . ومن خصائص هذا المجلس أن يجتمع مرة في كل اسبوع ، وأكثر من مرة إذا اقتضى الأمر ذلك ، برئاسة النائب العام أو أحد مستشاريه ، ويصدر قراراته بأكثرية الأصوات . ويمكن أن يحضر مدير الخطط مباحثاته حين يكون البحث ذاترا على مصالح خططهم . وتصبح قراراته مرجعية الاجراء ، بعد موافقة الملك عليها .

ويكون في كل من جدة والمدينة مجلس إدارة يتألف من القائم مقام ومعاونيه ومديرى المصالح المحلية وأربعة من الدوات المحليين ، يعينهم الملك ، وتكون له الوظائف نفسها التى للمجلس الكبير . ويعين أعضاء المجلس لسنة واحدة .

ويكون لكل ناحية ، ولكل قرية ، ولكل قبيلة ، مجلس يعنى بالشؤون المحلية ، ويتألف من الموظفين ، ومن الدوات المعينين .

القسم الخامس - يتألف تفتيش المالية العام من رئيس وثلاثة أعضاء يعينهم الملك ، ويكون مرجعهم النائب العام ، وتكون لهم السيطرة على مالية الدولة ، ولا يعمل شئ من دون ترخيص منهم ، ما عدا القرارات الملكية (١) .

وتتابعت الحوادث ، وتوالت السنون والأعوام ، فرأى عقلاء البلاد أن هناك نقصا يجب تداركه ، هو في تسمية الملك نفسه ، فلا حجاز ، ولا نجد ، ولا ملحقات ، أمام أمة واحدة ، دينها واحد ، متفقة في العادات والتقاليد والمناسازع والأهواء والأمانى ، فالجتماع أقطاب الأمة في مكة ، وأبرقوا الى الملك ، برغبتها بجميع طوائفها ، في توحيدها ، فأجابهم بموافقته على هذه الرغبة النبيلة الوطنية ، وأصدر مرسوما في ١٧ جمادى الأولى سنة ١٣٥١ (١٨ سبتمبر سنة ١٩٣٢) باطلاق اسم « المملكة العربية

(١) كتاب « الاسلام وآسيا أمام الطامع الأوروبية » للكاتب الفرنسى اوجين يونغ - ص ١٩١ .

السعودية « على جميع أجزاء الوطن فيشمها جميعا ، على أن ينفذ اطلاق هذا الاسم الجديد بعد أربعة أيام من صدور المرسوم ، أى من يوم ٢٣ سبتمبر .

وفي اليوم نفسه أمر الملك باجتماع مجلس الشورى لاختيار من يصلح لولاية العهد ، فاجتمع في ١١ مايو سنة ١٩٣٣ ، واصدر قراره في هذا الشأن ، وقد جاء به :

« أما بعد ، فان حضرة صاحب الجلالة مليكنا العادل الموفق ، الناصر للسنة ، قامع البدعة ، عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل آل سعود ، ملك المملكة العربية السعودية ، أيده الله وأمد في عمره ، وأدام تأييده ، ونصره ووفقه الى طاعته ورضائه ... رأى بعين الحكمة الساهرة على راحة رعاياه ، والعاملة على تثبيت دعائم هذا الملك العربى الوطيد ، وتشييد أركانه ، وإدامة تنسلسله ، أن يجيب طلب رعاياه ، ويوافق على تعيين شكل واضح ثابت لولاية العهد ، كما ورد في أمره الكريم الصادر في ١٧ جمادى الأولى سنة ١٣٥١ هـ الموافق ١٨ سبتمبر سنة ١٩٣٢ م ، وأن يعقد البيعة لولاية العهد ، على من كان مستجمعا للشروط الشرعية المرعية . هذا ولما كان حضرة صاحب السمو الملكى الأمير سعود ، النجل الأكبر لحضرة صاحب الجلالة ، قد تحلى بكافة الأوصاف الشرعية الواجب توفرها فيمن يخلف ولى الأمر ، أمد الله في عمره ، وقد اشتهرت عدالته وصفاته الممتازة بين الجميع ، فأننا ، عملا بالمأثور من المبايعات ، نبايعه وليا لعهد المملكة العربية السعودية ، نبايعه على السمع والطاعة على كتاب الله وسنة رسوله . وقد أخذنا هذه البيعة على أنفسنا لسموه ، وعلقناها بأعناقنا ، ونشهد الله على ذلك ، وهو خير الشاهدين » (١) .

وظل عبد العزيز هو الحامل عبء تسيير دفة الأمور في مملكته الفتية ، حتى كان يوم ٩ أكتوبر من عام ١٩٥٣ - أى قبل انتقاله الى الرفيق الأعلى بنحو شهر - فرأى أن يأخذ الحكم في المملكة بمبدأ المسؤولية الوزارية فأصدر في هذا اليوم مرسوما تشريعيًا جاء في مادته الأولى :

١ - « يؤلف مجلس وزراء تحت رئاسة ولدنا الأمير سعود ولى عهد المملكة والقائد الأعلى للقوات المسلحة . ويتألف المجلس من جميع وزراء

(١) كتاب « الملك العادل » للسيد عبد الحميد الخطيب - الجزء الثانى - ص ١٥ .

الدولة المكلفين بإرادة ملكية بإدارة شؤون الوزارات المعطاة لهم ، للنظر في شؤون الدولة خارجية كانت أم داخلية ، ليقرر بشأنها ما يراه موافقا لمصلحة البلاد لأجل عرضه علينا (٢) .

فلندع « ملك المملكة العربية السعودية » آخذا في تنظيم شؤون الحكم في مملكته ، ولنر آثاره في مجالات شتى ، وهي آثار ناطقة بإيمانه بما يعتقد ، إيمانا سنده الدين القويم ، والخلق الكريم .

لقد ظل ابن سعود عدة سنوات في عزلة تامة عن العالم الخارجى ، لكن دخوله الاحساء والقطيف ، جعله يشرف على الخليج العربى ، ومنه بدأ اتصاله بالبريطانيين ، فعقدوا معه معاهدة في ٢٦ ديسمبر سنة ١٩١٥ على غرار معاهداتهم مع أمراء الخليج ، ثم الفيت في ١٧ سبتمبر ١٩٢٧ ، وحلت محلها « معاهدة جدة » وفيها اعتراف من « بريطانيا العظمى » - يومذاك - باستقلاله ، وهذا نصها :

« جلالة ملك بريطانيا العظمى وايرلندا والممتلكات البريطانية فيما وراء البحار وامبراطور الهند ، فريق أول .

(٢) في سنة ١٩٣٠ أصدر عبد العزيز أمرا الى نجله الثانى الامير فيصل بتولى الشؤون الخارجية للدولة ، فظل يمارسها حتى بوبع ملكا في ٢٧ جمادى الثانية سنة ١٣٨٤ - ٢ نولمبر سنة ١٩٦٤ ، فوجه الى العلماء والامراء والحضور في حفل كبير اقيم احتفالا بمبايعته ، كلمة قال فيها عن سياسة الدولة الخارجية :

- « . . . ولسنا في حاجة الى تكرار الاساس الذى تسير عليه سياستنا الخارجية ، فنحن منذ اسس هذه الدولة بانيتها ، وواضع اساس نهضتها ، المغفور له الملك عبد العزيز ، قد اثبتنا في المجال الدولى ايماننا بالسلام العالى ، ورغبنا في تدميمه وتقويته ونشره في ربوع العالم . وكنا ولا نزال نفعل ذلك بوحي من تعاليم ديننا وثقاليدنا العربية الاصيلية . واننا نؤيد في سبيل ذلك نزع السلاح وتجنب البشرية مخاطر الاسلحة الفتاكة . وندعو الى حرية تقرير المصير لكل الشعوب ، وحل المنازعات الدولية بالوسائل السلمية المرتكزة على الحق والعدل .

« ومن اهداف سياستنا الخارجية المعروفة ، التعاون الى اقصى الحدود مع الدول العربية الشقيقة ، وتنفيذ مقررات مؤتمرات القمة العربية ، والسعى الى تحرير جميع اجزاء الوطن العربى التى لا تزال تحت نير الاستعمار ، والسير مع الدول الاسلامية في كل ما يحقق للمسلمين عزتهم ورفعة شأنهم ، ونؤيد ميثاق جامعة الدول العربية وندعمه ونسند ، ونؤيد ميثاق هيئة الامم المتحدة ، ومقررات مؤتمر باندونج ودول عدم الانحياز » - كتاب « فيصل العظيم » للاستاذ امين سعيد - ص ٩١ .

« وجلالة ملك الحجاز ونجد وملحقاتهما ، فريق ثان . »

« يرغبان في توطيد دعائم العلاقات الودية بينهما وضمان مصالحهما .
وقد قررا عقد معاهدة ودية واتفاق ، وعينا مفاوضين لهذه الغاية .
فصاحب الجلالة البريطانية عين السر جلبرت فلكنهايم كلايتون ، وجلالة
ملك الحجاز ونجد وملحقاتهما عين صاحب السمو الملكي الأمير فيصل بن
عبد العزيز نجله ونائبه في الحجاز .

« وبعد ما فحص سمو الأمير فيصل بن عبد العزيز والسر جلبرت
فلكنهايم كلايتون أوراقهما الرسمية ، المخول اليهما بموجبها تفويض تام ،
ووجداها قانونية ، اتفقا على المواد الآتية نصها :

« المادة الأولى : يعترف صاحب الجلالة البريطانية باستقلال بلاد
صاحب الجلالة ملك الحجاز ونجد وملحقاتهما ، استقلالا تاما مطلقا .

« المادة الثانية : بين صاحب الجلالة البريطانية وجلالة ملك الحجاز
ونجد وملحقاتهما ، سلام وصداقة ، وكل من المتعاقدين الساميين يعاهد
على المحافظة على حسن العلاقات بالآخر ، وعلى بذل الجهود بكل ما لديه
من الوسائل لكي لا يدع بلاده تستعمل قاعدة لأعمال غير شرعية ، وموجهة
لبلبلة السلام والسكينة في بلاد الآخر .

« المادة الثالثة : يعاهد جلالة ملك الحجاز ونجد وملحقاتهما على المحافظة
على الحجاج المسلمين الذين من الرعايا البريطانيين ، أو من المسمولين
بحمايتهم ، ويسهل لهم الوسائل التي يتمتع بمثلها الحجاج الآخرون ،
ويصرح بأنهم سيكونون راعين في حمى الأمان ، هم ومقتنياتهم في أثناء
اقامتهم في الحجاز .

« المادة الرابعة : يوافق جلالة ملك الحجاز ونجد وملحقاتهما على أن
أموال الحجاج المذكورين الذين يلقون منيتهم في بلاده ولا يكون لهم فيها وكلاء
شرعيون ، ترسل الى المعتمد البريطاني في جدة ، أو الى أى موظف كان ،
يفوض اليه. المعتمد المشار اليه تسلم هذه الأموال ، بحيث يعاهد هذا
الموظف على تسليمها للورثة الشرعيين للحجاج المتوفين ، مع الاحتفاظ
بعدم تسليم هذه الأموال الى المعتمد البريطاني ، الا بعد انتهاء المعاملات
المطلوب أنهاؤها في المحاكم ذات الاختصاص ، وبعد دفع الرسوم المنصوص
عنها في أنظمة الحجاز ونجد .

« المادة الخامسة : يعترف صاحب الجلالة البريطانية بالجنسية
الحجازية والنجدية لجميع رعايا جلالة ملك الحجاز ونجد وملحقاتهما ،

حين يكونون في بلاد صاحب الجلالة البريطانية ، أو في البلدان المشمولة بحماية جلالته . ويعترف أيضا جلالة ملك الحجاز ونجد وملحقاتهما بالجنسية البريطانية لجميع رعايا صاحب الجلالة البريطانية وجميع الذين يتمتعون بحماية جلالته ، حين يكونون في بلاد جلالة ملك الحجاز ونجد وملحقاتهما ، إذ أن من المقرر أن مبادئ الحق الدولي المعمول بها بين الحكومات المستقلة ، تكون محترمة .

« المادة السادسة : يعاهد جلالة ملك الحجاز ونجد وملحقاتهما على المحافظة على العلاقات الودية والسلامية ببلاد الكويت والبحرين وسواحل عمان ، فان لحكومة صاحب الجلالة البريطانية ، علاقات بها تقررت في معاهدات .

« المادة السابعة : يعاهد جلالة ملك الحجاز ونجد وملحقاتهما على التعاون مع صاحب الجلالة البريطانية ، بكل ما لديه من الوسائل ، لالقاء النخاسة .

« المادة الثامنة : يصادق كل من الفريقين الساميين على هذه المعاهدة ، ويتم تبادل المصادقة حالما يستطيع ذلك ، وتصبح مرعية الاجراء حين يتم تبادل المصادقة ، وتظل معمولا بها سبع سنين تبتدىء من تاريخها ، واذا لم يشعر أحد الفريقين المتعاقدين الساميين ، الآخر ، قبل انقضاء السنين السبع المذكورة بستة أشهر ، بنيته على الغاء المعاهدة ، بقيت هذه المعاهدة مرعية الاجراء ، ولا يعتبر انتهاء مدتها قبل انقضاء ستة أشهر على تاريخ اشعار أحد الفريقين الآخر ، برغبته في فسخها .

« المادة التاسعة : يبطل عمل المعاهدة المعقودة بين صاحب الجلالة ، البريطانية ، وجلالة ملك الحجاز ونجد وملحقاتهما (حين كان سلطان نجد والبلاد التابعة لها في ذلك العهد) في ٢٦ ديسمبر سنة ١٩١٥ ، من تاريخ المصادقة على هذه المعاهدة .

« المادة العاشرة : حررت هذه المعاهدة باللغتين : الانجليزية والعربية ، باعتبار النصين قانونين . واذا وقع خلاف على تأويل شيء من نصوص هذه المعاهدة ، اعتبر النص الانجليزي حاسما للخلاف .

« المادة الحادية عشرة : تعرف هذه المعاهدة باسم « معاهدة جدة »

« وفقت في جدة في يوم الجمعة : ٢ مايو سنة ١٩٢٧ م الموافق لليوم الثامن عشر من ذي القعدة سنة ١٣٤٥ هـ » .

التوقيع

جلبرت فلكنهام كلايتون فيصل عبد العزيز السعود

ومع هذا فإنه الى سنة ١٩٣٢ لم يكن للملك عبد العزيز وزير مفوض في لندن .

ولم ينشئ علاقة دبلوماسية مع أمريكا الا في ٤ مايو سنة ١٩٣١ .
الملك فؤاد في مصر لم يعترف به ، ولم تعترف مصر به الا بعد وفاة ملكها في عام ١٩٣٦ .

فلماذا لم يعترف الملك فؤاد به ؟

كان فؤاد متتبعا خطوات عبد العزيز ، وجلا من أن ينادى بنفسه خليفة للمسلمين أو ملكا عليهم ، كما فعل الشريف حسين من قبل في آخر أيامه في الحجاز ، وفؤاد يمهّد الطريق ليصبح صاحب هذا اللقب ، بعد إلغاء تركيا الخلافة .

وعبد العزيز لا مطمح له الا اخراج شعبه من الظلمات الى النور ، وتوفير وسائل العيش الكريمة ، ثم هو يرجو الخير للعرب أجمعين ، ويمد يد المودة الى جيرانه من الملوك والأمراء .

فلا يريد أن يكون خليفة للمسلمين ، أو ملكا عليهم .

وما أن افتتح أول برلمان مصري في ١٥ مارس من عام ١٩٢٤ ، حتى أرسل برقية الى ملك مصر يهنئه فيها بالعهد الجديد السعيد ، ولم يكتف بهذا بل أرسل الطبيب المصري الدكتور عبد الهادي خليل طبيب النكية المصرية ، بحمل تحياته الى الملك فؤاد ، مع رجاء ، أن ينظر ملك مصر الى الحجاز الذي يعاني من عسر شديد ، فيرسل الى اهله « شيئا » من أوقاف الحرمين الشريفين لاعانة المستحقين من أهلها . . وعاد الرسول من القاهرة ، يحمل اطيب الأمانى وأجزل الشكر ، والهواء يصفر في حقيبتة !!

فاذا بايع الحجازيون عبد العزيز ملكا على الحجاز في ٨ يناير من عام ١٩٢٦ ، غضب فؤاد ، لأن في هذا نقضا لعهد قطعه عبد العزيز على نفسه ، بأنه سيدعو المسلمين الى مؤتمر يقررون فيه مصير الحجاز ونوع الحكم فيه .

لكن عبد العزيز يقول في برقية منه الى رسوله في مصر : « ان اليهود المتكررة منا للعالم الاسلامي لم نخالفها ، ودعونا العالم الاسلامي دعوات عامة ودعوات خاصة متكررة ، فلم يصل اليها جواب من احد في تلبية دعوتنا . . ان اهل الحجاز قاموا قومة رجل واحد يلزموننا قبول البيعة ، فطلبنا منهم التريث الى ان يجمع المسلمون امرهم ، فاجابونا : انك اعطيتنا الحرية في اختيار حاكم لنا ، وهذا حق لنا لا يشاركنا فيه احد ، ونحن لا نبغى بك بديلا . ومع ذلك توقفنا قليلا عن الجواب ، فبلغ اهل نجد توقفي ، فقامت قيامتهم على ، واصلنوني ان حربهم في الحجاز لم تكن الا لحفظ استقلال الحجاز ، ومنع اى تدخل اجنبى فيه ، لتكون كلمة الله هي العليا ، وليعمل في هذه البلاد بشرع وسنة الله ورسوله ، ولتأمين الطريق ، ولنع الالحاد من الحجاز » .

في تلك الايام عقد في القاهرة « المؤتمر الاسلامي العام للخلافة » ، في اليوم الاول من ذى القعدة من عام ١٣٤٤ م - مايو سنة ١٩٢٦ ، للنظر في امر الخلافة ، وتولى رياسته شيخ الازهر الشيخ محمد ابو الفضل الجيزاوى رحمه الله ، فلم يلب عبد العزيز الدعوة اليه ، فلم يرسل اليه مندوبا .

فشل المؤتمر وانفض ، مؤجلا جلساته الى اجل غير مسمى ، لان مندوبى الاقطار الاسلامية التى لبثت الدعوة اليه ، لم تقتنع بكفاءة الملك فؤاد في تحمل اعباء الخلافة - وكان قد بث الدعوة لاسنادها اليه - ولان - كما قال بعضهم يومذاك - خليفة المسلمين يجب ان يكون مستقلا استقلالا تاما ، والملك فؤاد تربع على عرشه بمساعدة الانجليز ، وبلادهم محتلة بجنودهم ، فكيف يكون خليفة للمسلمين ؟

ياذل المسلمين اذا أصبح فؤاد خليفة . . قالها لى يومها المرحوم الشيخ على سرور الزنكلونى من كبار علماء الازهر ، وكان من أشد المعارضين للدعوة الى ان يكون فؤاد خليفة للمسلمين .

وقد ظهر في تلك الآونة كتاب لقاض شرعى جليل ، هو المرحوم الشيخ على عبد الرازق عنوانه « الاسلام وأصول الحكم » اثبت فيه أن الخلافة ليست من أصول الحكم في الاسلام ، فحوكم امام هيئة من كبار العلماء ، وجردوه من شهادة العالمية ، وعزل من وظيفته ، وأحدث هذا الحكم الجائر هزة في الوزارة القائمة بالحكم (١) ، ولا أرى داعيا للافاضة في موضوع

(١) في ٣ مارس سنة ١٩٤٧ تولى الشيخ على عبد الرازق وزارة الاوقاف في وزارة محمود فهمى النقراشى باشا الثانية وانعم عليه برتبة الباشوية .

قضية هذا الكتاب ، فليس هنا مجالها ، إنما هذه إشارة عابرة ، أردت أن أسجل بها أن علماء دين من المصريين ، كانوا ضد الدفوة الى أن يكون فؤاد خليفة للمسلمين ، الى جانب مندوبى الأقطار الاسلامية .

ومن طريف ما يروى فى هذا الصدد - موضوع الخلافة - ما ذكره الشيخ حافظ وهبة فى كتابه « خمسون عاما فى جزيرة العرب » وفى الصفحة ١٣٦ منه عن مقابلته الملك فؤاد فى ذلك الحين ، وقد كان رسول عبد العزيز ، للتفاوض فى جميع ما يتعلق بشؤون الحج وتسهيل وسائله للحجاج المصريين ، وكانت المقابلة قبيل عقد مؤتمر الخلافة المشار اليه . قال حافظ وهبة :

« وصلت الى مصر ، فقابلت الملك فؤاد فى ١٩ ديسمبر سنة ١٩٢٥ ، وأبلغته بما حملنى سلطان نجد - لم يكن عبد العزيز قد بوع ملكا على الحجاز بعد - من أطيب الامانى والامال لملك مصر وشعب مصر ، وأنه يمد يده للتعاون مع اخيه ملك مصر ، وأنه اذا كان ملك مصر يرغب فى تحمل أعباء الخلافة ، فسلطان نجد يسره أن يرى ملك مصر خليفة للمسلمين ، اذ وافق المسلمون على ذلك ، وهو أول من يوافق على ذلك ، كزعيم من زعماء المسلمين .

« فارتاح الملك فؤاد لذلك ، وقال : « انى لا أرغب فى الخلافة ، فقد عرضها على سعد باشا - يقصد سعد زغلول - ولكنى رفضت » !! ثم اشار الى جميع ملوك وبلاطين المسلمين ، وغمز كل واحد منهم بما يبعده عن الخلافة ، أما لتشيعه كشاه ايران وامام اليمن ، وأما لانه وهابى ، أى متطرف . - يقصد الملك عبد العزيز - فكان هذا منه إشارة خفية الى أنه أحق ملوك المسلمين بالخلافة » .

كل ما فعله هذا المؤتمر الذى عقد بالقاهرة لينصب الملك فؤاد خليفة على المسلمين ، ففشل ، هو أنه أرسل برقية الى عصبة الأمم - مثل هيئة الأمم المتحدة اليوم - والى الحكومة الفرنسية ، والى صحافة العالم ، قال فيها :

« تلقى مؤتمر الخلافة الاسلامى العام المعقود فى القاهرة برئاسة شيخ الأزهر ، برقيات تنبئ عن الفظائع المرتكبة فى الشام عاصمة الخلفاء الأمويين ، ومدينة الاسلام الرابعة المقدسة ، فقد حرق فى المساجد ، وذبح الأبرياء ، شيوخا ونساء واولادا .

« وعليه قرر المؤتمر أن يحتج على هذه الفظائع لمصبة الأمم، وللحكومة الفرنسية، وللراى العام فى العالم أجمع، وأن يطلب باسم الانسانية انصاف سوريا الشهيدة، المستنجدة بالعالم كله » .

* * *

بعد أن بويع عبد العزيز ملكا على الحجاز، تعهد بعقد مؤتمر فى مكة ليقرر فيه المؤتمر نوع حكومة الحجاز، وأسس استقلالها السياسى والاقتصادى والعسكرى، « على أن يكون استقلالها الادارى تحت اشراف العالم الاسلامى، ليطمئن الى صحة قولنا : اننا لا نقصد بانقاذ الحجاز والتسلط عليه، المعنى الذى كان معهودا فيه » .

وامام هذه البيعة، عدل عن عقد المؤتمر : « واضطرت الى قبول البيعة، ولم أر لى عنها أية مندوحة، لاننا آل سعود، لسنا ملوكا مستبدين، ولا حكاما شخصيين، بل نحن فى بلادنا مقيدون بأحكام الشرع، وبرأى اهل الحل والعقد. ولم تكن تلك الدعوة الشخصية الى عقد المؤتمر بعذر شرعى يبيح لى مخالفتهم، واذا أنا خالفتهم بغير حجة شرعية يقبلونها، فانهم لا يطيعوننى، وفى ذلك من الفساد مالا يخفى » .

ثم عاد ورأى الدعوة الى عقد مؤتمر ثان، دعا اليه الحكومات الاسلامية: « على اننى رأيت أن قبول البيعة، والعمل مع اهل البلاد بمقتضاها، لا بمقتضى القلب والقوة، لا يمنعنى من الاستفادة من رأى اهل العلم والبصيرة من العالم الاسلامى، لذلك وجهت الدعوة الثانية الى عقد هذا المؤتمر » .

ثم استرسل فى رسالته الى المؤتمرين قائلا :

— « انكم تشاهدون بأعينكم، وتسمعون بأذانكم، ممن سبقكم الى هذه الديار للحج والزيارة، أن الأمن العام فى جميع بلاد الحجاز، حتى بين الحرمين الشريفين، بدرجة الكمال التى لم يعرف مثلها ولا ما يقرب منها منذ قرون كثيرة، بل لا يوجد ما يفوقها فى أرقى ممالك الدنيا نظاما وقوة، والله الفضل والمنة. ففى بحبوحة هذا الأمن والحرية التى لا تتقيد الا بأحكام الشرع، أدعوكم الى الائتثار والتشاور فى كل ما ترون من مصالح الحجاز الدينية والعمرانية (١) » .

(١) من معالم الملك عبد العزيز التى يتحدث عنها العالم باعجاب، استقرار الأمن فى مملكته، مما ليس له مثيل فى العالم. وسرى القارىء فى صفحات قادمة ارهابا فى هذا الموضوع .

- وقد اجتمع هذا المؤتمر في يوم ٢٦ من ذى القعدة من عام ١٣٤٤ ،
وعقد اثنتى عشرة جلسة لم يتفق فيها المجتمعون على شيء ، وبدأ بعض
الوفود في الاستعداد للعودة الى بلادهم ، فوجه الملك اليهم بيانا قال لهم فيه :
- ١ - « ايها الاخوان : ارجو الا تضيع الفرصة الباقية ، قبل ان تستفيد
البلاد المقدسة منكم ، حتى يجيء الحج القادم ، وقد شعر المسلمون
الوافدون انكم قمتم بواجبكم نحو هذه البلاد . وبهذه المناسبة أقدم لكم
خطتنا السياسية لهذه البلاد ، لترشدونا ان أخطانا ، وتؤيدونا ان أصبنا :
- ١ - اننا لا نقبل أى تدخل أجنبي في هذه البلاد الطاهرة ايا كان نوعه .
- ٢ - اننا لا نقبل امتيازاً لأحد دون أحد ، بل جميع الوافدين لهذه البلاد
يجب ان يخضعوا للشريعة الاسلامية .
- ٣ - ان بلاد الحجاز يجب ان يوضع لها نظام حيادى خاص ، لا تحارب
- بكسر الراء - ولا تحارب - بفتحها - ويجب ان يضمن هذا الحياد
جميع الحكومات الاسلامية المستقلة .
- ٤ - النظر في مسائل الصدقات والمبرات من سائر الاقطار الاسلامية ،
ووجوه صرقها وانتفاع البلاد المقدسة منها » .
- بعد هذا البيان ، عقد المؤتمر ست جلسات أخرى ، دون ان يصلوا
الى رأى حاسم فيما وضعه الملك أمامهم من خطته السياسية .
- وانفض المؤتمر دون الوصول الى رأى في نوع الحكم في بلاد الحجاز ،
فاصبح عبد العزيز السيد المطاع ، في هذه البقاع ، مؤيداً من الحجازيين
الذين بايعوه طائعين مختارين .

اعل من أروع آثار قيام عبد العزيز بغزوته المباركة للحجاز ، هو أن
يرغب الشعب الأعزل من السلاح ، الى ملكه في التنازل عن عرشه ، مما
لم يحدث في العالم العربى من قبل ، بل ولم يحدث من بعد الى اليوم ،
فلا يسمع الملك الا تلبية الرغبة « بكل ارتياح » .

حدث هذا عندما ذاع خبر تراجع جيش الشريف حسين الى « بازان »
وتصميم الرجل على مقاتلة جيش ابن سعود في شوارع مكة ، وحول جدران
الكعبة اذا اضطر اليها ، كما قال في برقية منه الى معتمده في مصر السيد
عبد الملك الخطيب : « قابل المندوب السامى الانجليزى ، وأبلغه اننا نعتبر

اعتداء ابن سعود علينا ، هو من جانب الانجليز ، واني سأتولى الدفاع بنفسى عن مكة ، ولو حول جدران الكعبة ، وأحملهم مسؤولية ذلك امام العالم الاسلامى .

وذاخ خبر هذه البرقية وشاع حتى وصل الى مكة ، قدب الذعر فى نفوس اهلها ، وتملكهم رعب وخوف وهلع ، وشرعوا فى الهرب الى جدة . أما اغنياؤهم فكانت قبلتهم : مصر ومصوع واسمرة وسوريا والملايو والجزائر وبور سودان . وهكذا استفحل الامر وتفاقم ، ولم يبق فى مكة من ذوى الجاه واليسار ، سوى عدد يسير جدا آثروا البقاء الى جانب مواطنيهم يشجعونهم على المقام فى البلد المقدس ، فلا يتركونه هكذا خرابا يبابا . والف بعض اعيان جدة « الحزب الوطنى الحجازى » ، وعقدوا ، ومنهم بعض كبار الموظفين ، عدة اجتماعات امتدت عشرات الساعات ، تدارسوا فيها الامر من جميع وجوهه ، وانتهوا الى ان يرسلوا البرقية التالية الى الملك حسين فى مكة فى ٤ ربيع الأول سنة ١٣٤٣ :

« صاحب الجلالة المعظم : بما ان الشعب الحجازى بانجمعه واقع الان فى الفوضى العامة بعد فناء الجيش المدافع ، وعجز الحكومة عن صون الأرواح والأموال ، وبما ان الحرمين الشريفين خاصة ، وعموم البلاد مستهدفة لكارثة قريية ساحقة ، وبما ان الحجاز بلد مقدس يعنى امره جميع المسلمين ، . لذلك قررت الامة نهائيا طلب تنازل الشريف حسين ، وتنصيب ابنه الشريف على ، ملكا على الحجاز فقط ، مقيدا بدستور ومجلسين وطنيين . فنرجو التكرم بتنفيذ هذه الرغبة ، لتضيفوا هذه المكرمة الى سابق خدماتكم للاسلام والامة » .

فرد عليهم فى اليوم نفسه بالبرقية التالية :

« جدة - الحزب الوطنى الحجازى

« لا بأس ، قبلنا التنازل بكل ارتياح ، اذ ليس لنا رغبة الا فى سكينه البلاد وراحتها وسعادتها . فالآن عينوا لى مأمورين من هنا يتسلمون البلاد بكل سرعة ونحن نتوجه فى الحال . اذا تأخرتم ووقع حادث فأنتم المسؤولون ، والاشراف عندكم كثيرون ، فارسلوا واحدا منهم أو من سواهم . وعلاوة على هذا ، اذا قبل منكم « على » الأمر ، فعينوه رأسا » .

وارسل الى معتمده فى القاهرة ، عبد الملك الخطيب ، برقية قال له فيها :

« إن أصحابك (يعني الانجليز !!) لم يرضهم أن أكون على الملك ،
ورغبوا في تعيين ابننا علي ، فلا بأس . اعتمدوا ما يأتاكم منه (١) » .
لقد عز عليه أن يعترف بأن شعبه هو الذي طلب اليه التنحي لمصلحة
الوطن ، فعزاه الى الانجليز !!

وبعدها سافر الى العقبة ، مخلفا البلاد وراءه لابنه علي ، عله يستطيع
الصلح مع عبد العزيز ، والابقاء على الحجاز في أيدي الاشراف ، فرفض
عبد العزيز مثل هذا الصلح اذ كان أساسه أن يتوارث أبناء الملك حسين ،
حكم الحجاز ، وكان ما كان من تسليمه للفاتح المنتصر في يوم ٥ ديسمبر
سنة ١٩٢٥ ورحيله الى العراق كما سبق القول .

لقد نال حسين الدل في نهاية عمره ، وما كان أغناه عنه ، لو أصاح
السمع وأطاع عبد العزيز من أول الأمر ، اذن لشعبه تشييعا كريما .

أي ذل وأية مهانة أشد واقسى ، من أن يجيء اليه وهو في العقبة -
بعد ما أهملت « عصابة الأمم » استغاثته بها - في صباح يوم ١٦ يونيو
سنة ١٩٢٥ ، قائد المدرعة البريطانية « دلهي » ويأمره بالاستعداد للسفر
غدا الى الجهة التي اختيرت له ، فاذا ابي فستتخذ معه تدابير أخرى
لترحيله ، فطلب أن تسير المدرعة به الى حيفا أو يافا ، ليقتضى في أيهما
بقية عمره ، فرفضت لندن طلبه ، « وعليه أن يسافر الى قبرص » .

عندئذ قال حسين : « أنا مستعد للسفر الى المريخ اذا أرادت بريطانيا،
وما دامت تريد ارسالي الى قبرص ، فأنا لا أعارض ، لأن المسألة مسألة
قوة ، لكنني أطلب امهالي يومين اثنين ، أعد نفسي فيهما للسفر » .

فرفض قائد المدرعة ، فطلب أن يسافر على باخرته العربية « الرقمتين » ،
فرفض القائد كذلك . وسافر حسين من غده الى قبرص ، وعلى المدرعة
البريطانية « دلهي » ، كما أراد الانجليز له .

ومما لا تنساه له مصر في أيام حكمه ، أنه منع حجاجها من أداء الفريضة
المقدسة ، ومنع البعثة الطبية المصرية من أداء واجبها الانساني نحو الحجيج،
ورفع اسم ملك مصر من على كسوة الكعبة .

وما اتبعه مع الحجاج المصريين ، اتبعه مع سائر الحجاج من جميع
بقاعهم ، وفي مقدمتهم النجديون ، بعد موقعة « تربة » حتى أسخطهم

(١) كتاب « الملك العادل » للسيد عبدالحميد الخطيب - الجزء الثاني - ص ٥٦ .

عليه ، غفر الله له ، فقد كان حاكما اتبع هواه فأضله ، ولم يستعن بمن حوله ليستشيرهم ، ويشركهم معه في إدارة البلاد .

فهل كان عبد العزيز حاكما ديكتاتوريا هو الآخر ، حتى استقام له الامر ؟ .

لو قال مؤرخ بهذا ، لكان مزيفا للتاريخ مضلا ..

لقد كان من خصائص عبد العزيز ، انه لم يكن مستبدا برأيه ، لانه كان مؤمنا بالشورى ، مقدرا نفعها للمحكومين ، مطبقا في هذا ما جاء بالقرآن الكريم : « وأمرهم شورى بينهم » ، ناهجا نهج الرسول الكريم ، عليه الصلاة والسلام .

اننا نراه قبل الاقدام على فتح الاحساء ، يستشير أولى الحل والعقد ونراه قبل دخول مكة ، يعقد مجلسا للعلماء لاستفتاءهم في امر هذا الدخول ، فيقولون له : لا يجوز دخول الحرم الشريف بقصد القتال . فظل حائرا ، حتى افتحمها قائدا جيشه : ساطان بن بجاد ، وخالد بن لؤى ، سلما لا حربا ، في يوم ١٦ اكتوبر سنة ١٩٢٤ م (١٧ ربيع الاول سنة ١٣٤٣ هـ) ، فدخلها محرما دخول العبد الخاضع ، لا الملك الفائح ، واستقبله أهلها مرحبين ، مهللين ، مكبرين ، وبايعوه .

ثم نراه يؤلف مجالس استشارية في سائر المدن الهامة (« قراياتها نافذة على الحكام الاداريين ، بما لا يتعارض مع الدين » ويقول لهم : « تجدون بعض الحكومات تؤلف مجالس استشارية ، لكن كثيرا منها يكون وهميا ، تؤلف ليقال ان هناك مجالس وهيئات للشورى ، والحقيقة ان العمل والرأى لواحد فقط ، في حين انه ينسب الى المجموع كذبا وزورا . اما انا فلا أريد مثل هذه المجالس الوهمية ، أريد مجلسا حقيقيا ، يجتمع فيه اعضاؤه ، باذلين جهدهم لتحري المصلحة العامة . لا أريد أوهاما ، انما أريد حقائق » .

ثم هو رجل لا يفرض رأيه على أحد ..

عند ما دخل مكة المكرمة ، خطب في أهلها ، فقال :

— « ان الأمور كلها بيد الله ، وان الله قد ضرب الأمثال في القرآن ، ولم يترك شيئا لتأديبنا الا ذكره في كتابه . ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، الذي من احبه فقد أحب الله ، ومن أطاعه فقد أطاع الله ، يأخذ نفسه بأداب القرآن الذي نزل به أمين السماء جبريل ، على أمين

الأرض محمد صلى الله عليه وسلم . ولا أظن مسلما عنده ذرة من عقل ، وعرف ما جاء في كتاب الله ، الا قدر هذه الآداب حق قدرها ، ورأى أن الخير كل الخير في اتباع الهدى الحكيم . وانتم تعلمون أن نبينا محمدا عليه الصلاة والسلام ، ما جاء الا ليدلنا على طريق الخير ، ويبين لنا السبيل الأقوم .

« لقد أشاع الترك عنا كثيرا ، وقالوا في جملة ما افتروه علينا ، اننا لا نصلى على محمد ، واننا نعد الصلاة عليه شركا بالله . نعوذ بالله ، نعوذ بالله من ذلك . . او ليست الصلاة على محمد صلى الله عليه وسلم ، ركنا من أركان الصلاة لا تتم الا بها ؟ ويقولون اننا ننكر شفاعته محمد صلى الله عليه وسلم يوم القيامة . معاذ الله أن نقول هذا ، وانما نطلب من الله أن يشفع فينا نبينا « من ذا الذي يشفع عنده الا بأذنه » ، بل ندعو الله أن يشفع فينا الولد الصغير ، ونقول : « اللهم اجعله فرطا لأبويه ، وشفيعا مجابا » ، ولا نطلب الشفاعة من الطفل .

« وأما محبة الأولياء والصالحين ، فمن ذا الذي يبغضهم منا ؟
« فان كان هذا مقبولا عندكم فتعالوا نتبايع على كتاب الله وسنة رسوله ، وسنة الخلفاء الراشدين من بعده » .

فصاح الحاضرون : كلنا نبايع ، كلنا نبايع . .
فقال لهم عبد العزيز : قولوا لنا بصريح القول : ما عندكم ؟
قالوا : ما عندنا غير هذا . .
فقال : اعيلدكم بالله من التقية . لا تكتموننا شيئا .
فقال أحد العلماء : اننا نريد أن نجتمع بعلماء نجد ، فنتباحث في الأصول والفروع ، ونقرر ما نتفق عليه ان شاء الله .
قال عبد العزيز على الفور مبتهجا مسرورا : جميل . .
قال العالم : اذا أردنا المناظرة مع علماء نجد ، فيقتضى أن يعرف كل منا طبيعة الآخر ، حتى اذا أقيمت الحجة عليه ، أذعن بدون سخط أو غضب .

قال عبد العزيز : ما دام المرجع كتاب الله ، فلا سخط ولا غضب .
واجتمع علماء مكة وعلماء نجد ، وتباحثوا في الأصول والفروع كما قال العالم المكي ، فتبين أن ما يدعو اليه « الوهابيون » ، هو الحق الذي دعا اليه كافة الأئمة ، وصرحت به جميع المذاهب ، وانتهوا الى :

- ١ - أن عقيدة السلف الصالح أسلم ، وهى التى يجب أن تتبع .
- ٢ - أن أركان الاسلام الخمسة معروفة ، فمن جحد ركنا من هذه الأركان ، فهو كافر يستتاب ، فاما تاب والا قتل .
- ٣ - أن دعاء غير الله لجلب المنافع ودفع المضار ، وعبادة غير الله ، ولو بقصد التقرب من الله ، كفر .
- ٤ - أن البناء على القبور ، واتخاذ السرج عليها ، واقامة الصلاة فيها ، بدعة محرمة فى الشرع .
- ٥ - أن من يسأل الله بإجاء أحد من خلقه ، مبتدع ، مرتكب جرما .
وأصدر العلماء من الفريقين بيانا ذيلوه بأسمائهم جميعا ، قالوا فيه أن كل ما يذاع عن الوهابيين ، ما هو الا مجرد دعاية لا نصيب لها من الصحة وقد اخترعه المفرضون بقصد تفريق الكلمة ، وتمزيق شمل العرب .
- ثم وجه عبد العزيز بيانا الى اهل الحجاز أعلن فيه الفاية من مجيئه الى وطنهم ، وأوضح الخطة التى يريد أن تسير فى ضوءها البلاد المقدسة المنهاج نفسه ، اتبعه فى المدينة المنورة بعد استسلامها ، فقد وجه شيخ قضااتها ، الشيخ عبد الله بن بليهد ، باسم عبد العزيز ، الى علمائها بعض الاسئلة ليجيبوا عنها ، وهى :

« بسم الله الرحمن الرحيم »

« ما قول علماء المدينة المنورة ، زادهم الله فهما وعلماء ، فى البناء على القبور واتخاذها مساجد ؟ هل هو جائز أم لا ؟ وإذا كان غير جائز ، بل ممنوع منهى عنه نهيا شديدا ، فهل يجب هدمها ومنع الصلاة عندها أم لا ؟ وإذا كان البناء فى أرض مسبلة كالبقيع ، وهو مانع من الانتفاع بالمقدار المبني عليه ، فهل هو غصب ، يجب رفعه لما فيه من ظلم المستحقين ومنعهم استحقاقهم ، أم لا ؟ وما يفعله الجهال عند الأضرحة من التمسح بها ودعائها مع الله ، والتقرب بالدبح والنذر لها ، وإيقاد السرج عليها ، هل هو جائز أم لا ؟ وما يفعل عند حجرة النبى صلى الله عليه وسلم من التوجيه اليها عند الدعاء وغيره ، والطواف بها وتقيلها والتمسح بها ، وكذلك ما يفعل فى المسجد الشريف من الترقيم والتذكير بين الأذان والاقامة ، وقبل الفجر ويوم الجمعة ، هل هو مشروع أم لا ؟ »

« أفتونا ماجورين ، وبينوا لنا الادلة المستند اليها . »

« لا زلت ملجأ للمستفيدين » .

بماذا اجاب علماء المدينة المنورة ؟

قالوا : « اما البناء على القبور فهو ممنوع ، اجماعا لصحة الاحاديث الواردة في منعه ، ولهذا أفتى كثير من العلماء بوجوب هدمه ، مستنديين في ذلك الى حديث على رضى الله عنه ، اذ قال لأبى الهياج : « الا ابعثك على ما بعثنى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ أن لا تدع تمثالا الا طمسته ، ولا قبراً مشرفا الا سويته » رواه مسلم .

« وأما اتخاذ القبور مساجد والصلاة فيها ، فممنوع مطلقا ، وإيقاد السرج عليها ممنوع أيضا ، لحديث ابن عباس : « لعن الله زائرات القبور والمتخذين عليها المساجد والسرج » رواه أهل السنن .

« وأما ما يفعله الجهال عند الأضرحة من التمسح بها والتقرب لها بالذبح والنذر ودعاء أهلها مع الله ، فهو حرام ممنوع شرعا ، لا يجوز فعله أصلا .

« وأما التوجه الى حجرة النبی صلى الله عليه وسلم عند الدعاء ، فالأولى منعه كما هو معروف من معتمدات كتب المذهب ، ولأن أفضل الجهات جهة القبلة . وأما الطواف بها والتمسح بها وتقبيلها ، فهو ممنوع مطلقا . وأما ما يفعل من التذكير والترخيم والتسليم في الأوقات المذكورة فهو محدث .

« هذا ما وصل الى فهمنا السقيم ، وفوق كل ذی علم عليم » .

والرجل العظيم حريص على أن يكون عمله في وضع النهار ، لا تشوبه شائبة أو تعلق به ريبة ، فقد خشي أن يقال أن فتوى علماء المدينة المنورة ، كانت بضغط منه أو تأثير ، لهذا أبرق الى وزارة الداخلية المصرية يرجو استفتاء علماء الأزهر ، في أمر زيارة القبور والتمسح بها وتقبيل أحجارها ، وشرب الدخان ، وسماع الموسيقى .

فأرسلت اليه بردهم في ١٢ مايو سنة ١٩٢٦ ، وقد جاء به :

« ... أما ما يتعلق بزيارة القبور ، فنقول انها مندوب اليها شرعا ، لقوله صلى الله عليه وسلم : كنت نهينكم عن زيارة القبور ، إلا فزوروها . وكان صلى الله عليه وسلم يزور قبور المسلمين بقيق الفرقد ، ويقول : « السلام عليكم دار قوم مؤمنين ، وأنا ان شاء الله بكم لاحقون . أسأل الله لي ولكم العافية » . وكان يزور شهداء أحد على رأس كل حول

ويقول : « السلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار » . وتقل عن القهستاني ما نصه : قال في الأحياء : والمستحب في زيارة القبور أن يقف مستدبر القبلة ، مستقبلا وجه الميت وأن يسلم ، ولا يمسه القبر ولا يقبله ولا يمسه . وبين الفقهاء جملة مما يكره عند زيارة القبور ، ثم أجملوا ذلك بقولهم : « وكذا كل ما لم يعهد من فعل السنة » ، وهي قاعدة كلية ينبغى تطبيقها على أى فعل لم يعهد في السنة ، وقد مثلوا له بالمس والتقبيل . ومعلوم أنه لم يعهد من فعل السنة ، الطواف بغير الكعبة .

« أما ما يتعلق بشرب الدخان ، فنقول : أنه لم يكن موجودا في عهد النبي صلى الله عليه وسلم ، ولا في عهد خلفائه الراشدين ، ولا في عهد الصحابة والتابعين لهم بإحسان ، ولا في زمن الأئمة المجتهدين ، وإنما حدث في القرون الأخيرة ، واختلف العلماء فيه اختلافا كثيرا . فمنهم من قال بحرمة ، عملا بحديث أحمد ، المروى عن أم سلمة رضى الله تعالى عنها : « نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن كل مسكر ومفتر » وقال أنه ان لم يكن مسكرا كان مفترا » . وجنحوا مع هذا الى نهى ولى الأمر عنه . والقواعد الفقهية تقضى بأن ولى الأمر لو نهى عن مباح لمصلحة دينية ، حرم . ومنهم من ذهب الى أنه مكروه ، نظرا لما فيه من الضرر الظاهر للأبدان وإضاعة الأموال . ومنهم من لا يرى أنه مفتر فقال بإباحته ، أخذا بالقاعدة العامة ، وهى ان الأصل في الأشياء الإباحة أو التوقف ، ورد على من قال بالحرمة أو بالكراهة ، بأنهما حكمان شرعيان لا يشبان إلا بدليل ولم يوجد . والذي يظهر أن أعدل الأقوال ، هو القول بالكراهة ، فينبغى تركه ، وعدم الإصرار على تعاطيه ، فان الإصرار على الصفائر ، يقلبها كبائر .

« وأما الموسيقى فتحكمها من جهة الإيقاع والاستماع ، حكم اللهو واللعب ، وهو الكراهة التحريمية . فان فقهاءنا نصوا على كراهة كل لهو ، كالرقص والسخرية والتصفيق وضرب الأوتار من الطنبور والبربط والرباب والقانون والمزمار والصنج والبوق ، فانها كلها مكروهة تحريما ، ولم يستثن من ذلك إلا ضرب الدف في الأعراس والأعياد الدينية ، والا ملاعبة الرجل زوجته ، وتأديبه لفرسه ، ومناضلته لقوسه » .

وقد أمضى هذه الفتوى الشيخ محمد أبو الفضل الجيزاوى شيخ الجامع الأزهر ، والشيخ عبد الرحمن قراعة مفتى الديار المصرية .

وبعد :

فلنقرأ معا صفحات مشرقة من تاريخ هذا الملك العظيم .

انه لما يزين تاريخ عبد العزيز ويشرفه ، ويضعه في المكان الاسمى بين ملوك العرب ورؤسائهم ، موقفه الفريد الخالد من قضية فلسطين . فقد اتسم بالاخلاص لها ، وبالحرص على هذه الارض الحبيبة السلبية ان تعود الى اهلها ، وان يطرد منها اولئك الصهيونيون الافاقون الذين اغتصبوها منهم ، بعون من الانجليز ومن الاميركيين معا . لقد كان صريحا كل الصراحة في لقاءاته مع زعمي هاتين الدولتين الكبيرتين اللتين اعانتا اللصوص الباغين ، على سرقة وطن وتشريد شعبه ، في عصر تناديان فيه بأنهما نصيرتا الحق والعدل ، وما أبعدهما عنهما .

كان أول تصريح للملك عبد العزيز عن فلسطين ، هو ما نشرته له مجلة « العالمين » الانجليزية ، وترجمته جريدة « المصرى » ونشرته في يوم ٨ نوفمبر من عام ١٩٣٨ ، قال فيه :

— « ان « تصريح بلفور » أعظم ظلم ارتكبه بريطانيا . وهل يمكن تصور كارثة أعظم من أخذ أراضي العرب ومساكنهم غصبا وتسليمها الى آخرين ؟ وكيف تلوم أوروبا ، ألمانيا وغيرها على اخراج اليهود من اوطانهم ، حيث هم أقلية ، ولا تلوم نفسها على السعى في اخراج العرب من بلادهم ليسكنها اليهود ؟ أما من جهة وعود الانجليز للعرب وعهدهم لهم ، فانهم لم يعطوهم أرضا جديدة سوى أرضهم ومساكن آبائهم وأجدادهم من قبلهم . وقد استوطن العرب تلك الاراضى بعد أخذها من الرومانيين ، مئات السنين ، من غير منازع لهم في حقوق ملكيتها . »

فلما سألته محرر المجلة :

— « وماذا تكون خطتك اذا قررت بريطانيا تقسيم فلسطين ، وانشأت دولة يهودية ، وطلبت اليك الاعتراف بها ؟ »

أجابته : « الجواب عن ذلك بسيط ظاهر . ان العرب كثير ، والاسلام ذو عدد . واذا أبى العرب الاعتراف بالدولة اليهودية ، فبالطبع انا معهم ومنهم . واذا اتفقوا على هذا الاعتراف ، فاننى أبقي وحدى على رأيي ، وهو عدم الاعتراف بها . وكل أحد يعلم تمام العلم أن عملا مثل هذا — أى الاعتراف — لا يطابق ديني ، ولا هو يلائم الموقف الذى أجدنى فيه . »

أرايت الصراحة الصادقة التي يواجه بها عبد العزيز اخوانه ملوك العرب ورؤساءهم ؟ انه سيبقى وحده بعيدا عنهم ، اذا هم اعترفوا بالدولة اليهودية ، اذا قامت ...

فاذا حملت برقيات وكالات الأنباء العالمية أن الحكومة الأميركية موافقة على تقسيم فلسطين ، أرسل في يوم ٢٨ نوفمبر سنة ١٩٣٨ ، الى رئيسها روزفلت يقول له :

« لقد ظهر لنا من البيان الذي نشر عن موقف أميركا ، أن قضية فلسطين قد نظر اليها من وجهة نظر واحدة ، هي وجهة النظر الصهيونية ، وأهملت وجهات نظر العرب . وقد رأينا من آثار الدعاية الصهيونية واسعة النطاق ، أن الشعب الأميركي الديمقراطي ، وقد ضل تضليلا عظيما ، أدى الى اعتبار مناصرة الصهيونية على سحق العرب في فلسطين ، عملا انسانيا ، في حين أن مثل ذلك ظلم فادح ، موجه ضد شعب آمن مستوطن في بلاده ، كان ولا يزال يثق بعدالة الرأي العام الديمقراطي في العالم عامة ، وفي أميركا خاصة » .

وبعد تفنيد من جلالته لآراء بعض الصهيونيين ومشايعهم ، ختم رسالته بقوله :

« أن عرب فلسطين بافخامة الرئيس ، ومن ورائهم سائر العرب ، بل وسائر العالم الاسلامي ، يطالبون بحقوقهم ، ويدافعون عن بلادهم ، ضد دخلاء عليهم وعليها . ومن المستحيل اقرار السلام في فلسطين ، ما لم ينل العرب حقوقهم ، ويتأكدوا أن بلادهم لن تعطى لشعب غريب أفاق ، تختلف مبادئه وأغراضه وأخلاقه ، عنه كل الاختلاف » .

وفي ٢٩ مارس من عام ١٩٤٣ ، زار مندوب مجلة « لايف » الأميركية ، الملك عبد العزيز ، مستطلعا رأيه في قضية فلسطين ، فقال له :

« أحب أن تطلعوا على ما عندي في هذا الموضوع لتوضحوه للشعب الأميركي الصديق ليفهم الحقيقة :

« أولا : اننى لا أعلم أن لليهود أمرا يبرر مطالبتهم بفلسطين ، لأن فلسطين كانت من قبل البعثة الحميدية بقرون ، لبنى اسرائيل ، وقد تسلط عليهم الرومان في ذلك الوقت وقتلوهم وشتتوا شملهم ، ولم يبق أثر لحكومتهم فيها ، ثم استولى العرب عليها من الرومان وملكوها من ألف وثلاثمائة سنة وكسور ، وهى من ذلك الوقت بيد المسلمين . ومن هذا يظهر أنه ليس لليهود حق في دعواهم هذه ، لأن جميع بلدان العالم تقلبت عليها شعوب تملكها وصارت وطننا لهم لا منازع لهم فيه ، فلو أردنا تطبيق

نظرية اليهود ، لوجب على كثير من شعوب العالم المستقرة أن ترحل من بلادها ، وفلسطين من ضمن هذه البلاد .

« ثانيا : ان تشبث اليهود بهذه البلاد خطأ ، لأن في ذلك ظلما للعرب وللمسلمين ، ولأنه يورث الفتن والقتال بين المسلمين وأصدقائهم الحلفاء . واذا كان اليهود مضطرين الى محل يسكنونه ، فان بلاد أوربا وأميركا وغيرها أوسع وأخصب من فلسطين ، وأنتم لمصالحهم . أما سكان فلسطين القدامى من اليهود ، فمن رأى أن يتفق العرب مع أصدقائهم لحفظ مصالحهم ، على شرط ألا يعمل اليهود أعمالا تنشأ منها مشاغبة وفتن لا تكون في صالح الجميع ، وأن يعطوا ضمانا بكفالة الحلفاء ، ألا يسعوا في شراء أملاك العرب ، التي هي حياتهم ، بما لهم من قدرة بالأموال الطائلة ، لأجل تنفيذ مقاصدهم ، لأن في ذلك ضياعا ومضرة لأهل فلسطين ، ويسبب لهم الفقر والاضمحلال . »

ولما نشبت الحرب العالمية الثانية في ٣ سبتمبر سنة ١٩٣٩ ، حاول هتلر زعيم ألمانيا وموسوليني زعيم إيطاليا ، أن يجذبا اليهما ، وأن يضمهما الى صفهما ، وأن يعلن الحرب على الحلفاء ، باذلين له وعدهما « الصادق » بأنه بعد النصر - أي نصرهما على أعدائهما الحلفاء - سينصبانه ملكا على العرب أجمعين !

لكن الرجل العظيم يرد رسلهما على أعقابهم خاسرين ، مؤكدا لهم أن مصلحة شعبه ووطنه أمانة في عنقه وفي ذمته ، فهي فوق كل شيء ، ولا يعنيه أن يكون ملك العرب أجمعين ، إنما الذي يعنيه أن يجنب شعبه ووطنه ويلات هذه الحرب ، ولن يتحقق هذا إلا بحياده بين الفريقين المتحاربين . ذلك ان الأسطول الانجليزى يمد بلاده بالمؤن ، فاذا ضرب عليه حصارا لمصلحة الألمان والطلليان ، أمات بلاده من الجوع والحرمان . واذا وقف هذا الأسطول الانجليزى دون وصول الحجاج الى جدة لأداء فريضة الحج ، فعلى أى مورد يعيش أهل الحجاز (١) ؟

(١) لقد اعترف الملك عبد العزيز بفضل بريطانيا على بلاده في أثناء تلك الحرب في خطاب القاه في وفود كبار الحجاج في مأدبة أقامها لهم في ١٤ ديسمبر سنة ١٩٤٥ ، فقال : « اننا لنذكر مع الشكر للحكومة البريطانية ما بذلته من المساعدات ، ولولا الله ، لم مساعدة الحكومة البريطانية بالمؤن والأزراق ، لما أمكن ان يجد المسلمون هذا الرخاء في هذا الوادى غرب ذى الزرع . واولقارنا حال هذه البلاد في الحرب الحاضرة ، وحالها في الحرب العالمية الاولى ، لوجدنا الفرق كبيرا جدا . وهذا من فضل الله . ومن لم يشكر الناس لم يشكر الله » .

لقد صارح مبعوثي هتلر وموسولينى والحلفاء بحياده هذا ، وعبثا حاول الحلفاء معه ما حاوله هتلر وصاحبه ، فرفض طلبهم اليه ان يعلن الحرب عليهما ، ولم ينجح معه مندوبو رئيس الولايات المتحدة الأمريكية روزفلت ، عندما زاروه فى الرياض ، فى اقناعه بالتخلي عن حياده ، وظل متمسكا برأيه السديد هذا ، فمنع كل دعاية أجنبية تتسالى الى بلاده ، وأمر باحراق منشورات هذه الدعاية ومجلاتها فور وصولها الى جدة ايا كان مصدرها . هذا من ناحية . ومن الناحية الأخرى ، رفض عودة وزير ألمانيا المفوض « الدكتور جويا » الى جدة لاستئناف عمله ، بعد اعلان الحرب ، وقد كان غائبا عنها يومها .

لكن روزفلت وتشرشل - رئيس الوزارة البريطانية طوال سنوات الحرب - عندما قابلاه فى مصر - كما سيحىء - فاتحاه فى أمر اعلانه الحرب على ألمانيا وإيطاليا واليابان - وكانت الحرب قد أوشكت أن تضع أوزارها - وأفهماه ان من شروط الانضمام الى هيئة الأمم المتحدة التى ستنشأ عقب انتهاء الحرب ، اعلان الحرب على هذه الدول الثلاث - دول المحور - فأصدر بلاغا رسميا عقب عودته من لقائهما فى مصر ، الى جدة ، هذا نصه :
— —

— « ان الحكومة العربية السعودية أصبحت ابتداء من أول مارس سنة ١٩٤٥ ، فى حالة حرب مع ألمانيا وإيطاليا واليابان ، وذلك باستثناء الأماكن المقدسة ، فهى لا تزال على حيادها ، لا تحارب ولا تحارب » .

فلما عقد مندوبو الدول التى أعلنت الحرب على دول المحور بجانب الحلفاء ، اجتماعا فى « ليك سكس » بسان فرانسيسكو فى ٢٥ أبريل سنة ١٩٤٥ ، لوضع ميثاق هيئة الأمم المتحدة ، كان سمو الأمير فيصل رئيس وفد بلاده فى الاجتماع .

ومما يذكر بهذه المناسبة ان الملك عبد العزيز رفض الانضمام الى « عصبة الأمم » التى انشئت بعد الحرب العالمية الأولى ، عندما زين له بعض مستشاريه الانضمام اليها ، لايمانه بعدم فاعليتها .

لقد قدر له الانجليز والأميركيون حياده ، المغلف بالتعاطف مع بريطانيا وأمريكا وحلفائهما ، وان لم يظهره على الملأ ، فرغب رئيس الولايات المتحدة الأمريكية ، المستر روزفلت ، والمستر تشرشل رئيس الوزارة البريطانية ، فى أن يتعرفا على هذا الرجل الفريد ، ذى الراى السديد ، وأن يقفا على رأيه فى قضية فلسطين ، وأعربا له عن رغبتهما هذه ، فلباهما لهما دون تردد .

وللمرة الثانية يركب البحر في حياته (فقد ركب في المرة الاولى حينما جمع الانجليز بينه وبين الملك فيصل الاول ملك العراق على ظهر البارجة « لوين » في سنة ١٩٣٠ ، في محاولة منهم لتسوية أزمة الحدود بين بلديهما ، ولتسليم الناصر فيصل الدويش الى ابن سعود) اذ ارسل اليه روزفلت المدمرة الاميركية « اوجست » لتقله من ميناء جدة الى مياه البحيرات المرة في قناة السويس ، حيث كان ينتظره في الطراوة الاميركية « كوفيرى » في ١٤ فبراير سنة ١٩٤٥ . . . ووصل الملك ، واستقبله مضيفه استقبالا عظيما ، واعجب الرئيس الاميركى بالملك العربى اعجابا لا حد له ، فقال له :

— اننى ارى اليوم اكثر مما سمعت . لقد كنت اود أن اجتمع بك قبل اليوم .

وبدأ الحديث ، في جو يسوده الصديق والصراحة ، وتناولا ما بين بلديهما من روابط ، ثم تناولا قضية فلسطين ، فدلل عبد العزيز على عدالتها ، فسأله روزفلت النصيحة فيما يراه بشأن هجرة اليهود الذين جلوا عن اوطانهم في اوربا ، فقال له على الفور :

— يعود هؤلاء اليهود المبعدين عن بلادهم ، ليعيشوا في البلدان التى اخرجوا منها . اما اليهود الذين دمرت اوطانهم تدميرا تاما ، والذين لا تواتيهم الفرص لان يعودوا للعيش فى احضانها ، فيجب أن يمنحوا اماكن يعيشون فيها ، فى اراضى دول المحور التى اضطهدتهم .

ومما قاله الملك لروزفلت يومذاك :

— ان العرب يختارون الموت على أن يسلموا بلادهم لليهود ، وان أمل العرب قائم على كلمة الشرف التى قالها الحلفاء لهم .

فقال روزفلت انه يود أن يؤكد لجلالته انه لن يقدم على عمل أى شىء يساعد به اليهود ضد العرب ، وانه لن يتحرك اية حركة عدائية ضدهم . وانتهى اللقاء ، وصدر عنه بلاغ سعودى نوه بالموضوعات التى بحثت فيه .

وركب الملك سيارة مصرية فارهة من سيارات القصر الملكى كانت بانتظاره ، وسط موكب حافل من راكبى الموتوسيكلات ، ميمما شطر الفيوم ، ليجتمع بالزعيم البريطانى تشرشل ، فى فندق « اوبرج الفيوم » .

وفي اليوم التالي لوصوله - يوم الجمعة ١٦ فبراير سنة ١٩٤٥ -
زاره الملك فاروق وبصحبته عبد الرحمن عزام بك (كان يومذاك سفيراً
بوزارة الخارجية ، ثم اختير أميناً للجامعة العربية عند قيامها بعد أسابيع ،
وانعم عليه برتبة الباشوية) واجتمع بهما اجتماعاً طويلاً بحثوا فيه شؤوننا
شتى وسجل بلاغ رسمي سعودي ، هذا الاجتماع أيضاً .

وفي غد - السبت - اجتمع الملك بالمستر تشرشل اجتماعاً طويلاً ،
دار فيه معظم الحديث عن قضية فلسطين ورأى جلالته فيها .

بدأ تشرشل حديثه بقوله :

- الا تعلمون جلالتكم اننى اول واضع للسياسة الفلسطينية ، بايجاد
وطن قومي لليهود ؟

فقال الملك : لا اعلم ، ولكن الذى أعلمه هو ان فلسطين وطن عربى ،
وانه ليس لليهود حق فى سلخ جزء من الوطن العربى ليكون وطناً لهم . لهم
ان يسكنوا كمواطنين مسلمين ، لا طامعين ، ولقد عاشوا قروناً طويلة تحت
كنف العرب والمسلمين فى اسبانيا ، وفى شمال افريقيا .

قال تشرشل : انا لا اقصد ان تكون فلسطين لليهود ، ولكنى اقصد
ايجاد وطن لليهود فى فلسطين .

فاندفع الملك مبيناً له خطر وجود اليهود فى الشرق الأوسط ، فان
أطماعهم لا حد لها ، وسيكونون مثار شغب وفساد فى ربوعه ، « واننا
نعلم ان معظم اليهود الذين يفدون على فلسطين ، شيوعيون » .

وصدر بلاغ رسمي سعودي كذلك عن هذا اللقاء ، بعد ان عاد الملك
الى وطنه .

لكن عبد العزيز ، لم يشأ ان يقتصر اقتناعه لروزفلت على الحديث
الذى تبادلاه فى مياه البحيرات المرة ، فأرسل اليه رسالة تاريخية فى ١٠
مارس سنة ١٩٤٥ ، أى بعد أقل من شهر من لقائهما ، بسط له فيها
تاريخ فلسطين ، ممهداً له بتذكيره « بحق صريح قائم منذ عرف التاريخ ،
ويراد الآن القضاء على هذا الحق ، بظلم لم يسجل له التاريخ مثيلاً
ولا نظيراً ، ذلك هو حق العرب فى فلسطين ، الذى يريد دعاة اليهودية
الصهيونية غمطه وازالته ، بشتى وسائلهم التى اخترعوها وبيتوها ،

وعملوا لها في أنحاء العالم من الدعايات الكاذبة ، وعملوا في فلسطين من المظالم ، وأعدوا العدوان على العرب ما أعدوا ، مما علم بعضهم الناس ، وبقي الكثير منه تحت طي الخفاء . وهم يعدون العدة لخلق شكل نازي فاشستي بين سمع الديمقراطية وبصرها ، وفي وسط بلاد العرب ، بل في قلب بلاد العرب ، وفي قلب الشرق الذي اخلص العمل لقضية الحالفاء في هذه الظروف الحرجة .

« ان حق الحياة لكل شعب في موطنه الذي يعيش فيه ، حق طبيعي ، ضمنته الحقوق الطبيعية ، واقترته مبادئ الانسانية ، واعلنه الحالفاء في ميثاق الأطلنطي ، وفي مناسبات متعددة . والحق الطبيعي للعرب في فلسطين لا يحتاج الى بيانات ، فقد ذكرت غير مرة لفخامة الرئيس روزفلت وللحكومة البريطانية ، في عدة مناسبات ، ان العرب هم سكان فلسطين منى اقدم عصور التاريخ ، وكانوا سادتها ، والادوية السائدة فيها في كل العصور . واننا نشير اشارة موجزة الى هذا التاريخ ، القديم والحديث ، لفلسطين حتى اليوم ، لينبين ان دعوى الصهيونية في فلسطين ، لا تقوم على أساس تاريخي صحيح ... »

« يتبدى تاريخ فلسطين المعروف ، من سنة ٣٥٠٠ قبل الميلاد ، وأول من توطن فيها الكنعانيون ، وهم قبيلة عربية نزحت من جزيرة العرب ، وكانت مساكنهم الاولى في منخفضات الأرض ، ولهذا سموا كنعانيين . وفي سنة ٢٠٠٠ قبل الميلاد ، هاجر من العراق بقيادة النبي ابراهيم ، فريق من اليهود ، واقاموا في فلسطين ، ثم هاجروا الى مصر ، بسبب المجاعات ، حيث استعبدتهم الفراعنة ، ونال اليهود مشردن فيها ، الى أن انقذهم النبي موسى من غربتهم ، وعاد بهم الى أرض كنعان . من طريق الجنوب الشرقي ، في زمن رمسيس الثاني سنة ١٢٠٠ ، أو ابنه منفتاح سنة ١٢٢٥ قبل الميلاد .

« واذا سلمنا بنص التوراة ، وجدنا ان قائد اليهود الذي فزع فلسطين ، كان يشوع بن نون ، وهو الذي عبر بجيشه واحتل أريحا من الكنعانيين ، بقسوة شديدة ووحشية ، يدل عليها قوله لجيشه : « احرقوا كل ما في المدينة ، واقتلوا كل رجل وامرأة وكل طفل وكل شيخ ، حتى البقر والغنم ، بحد السيف ، واحرقوا المدينة بالنار وكل ما فيها » (يشوع ١٦ - ٢١ - ٢٤) .

« وقد انقسم اليهود بعد ذلك الى مملكتين : مملكة اسرائيل وقصبتها « السامرة » (نابلس) ودامت ٢٥ سنة ، ثم سقطت في يد « شلمنصر » ملك اشور سنة ٧٢٢ قبل الميلاد ، وسبى شعبها الى مملكته . ثم مملكة يهوذا وقصبتها « اورشليم » (القدس) ودامت ١٣٠ سنة بعد انقراض مملكة اسرائيل ، ثم أبيدت بيد « بنوخذاصر » ملك بابل ، الذي احرق المدينة والهيكل بالنار ، وسبى الشعب الى بابل سنة ٥٨٠ قبل الميلاد ، ودام السبى البابلي مدة سبعين سنة ، ثم عاد اليهود الى فلسطين بأمر « قوش » ملك الفرس . وتلا ذلك ، الفتح اليوناني بقيادة اسكندر المقدوني في سنة ٣٣٢ قبل الميلاد ، ودام حكمه في فلسطين مدة ٢٧٢ سنة . وجاء بعده الفتح الروماني سنة ٦٣ قبل الميلاد بقيادة « بومبي » ، ودام حكم الرومان في فلسطين مدة ٧٠٠ سنة . وفي سنة ٦٣٧ ميلادية احتل العرب فلسطين ، ودام حكمهم فيها ٨٨٠ سنة متواصلة . وكانت وصية الخليفة للفاتح : لا تخونوا ولا تغدروا ، ولا تغلوا ولا تمثلوا ، ولا تقتلوا طفلا ولا شيخا كبيرا ، ولا تعتروا نخلا وتحرقوه ، ولا تقطعوا شجرة مثمرة ، ولا تدبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيرا . وسوف تمرن باناس قد فرغوا انفسهم في الصوامع ، فدعوهما وما فرغوا له انفسهم » . وقد ذكر هذا ابن الأثير المؤرخ المشهور .

« ثم انتقل الحكم في فلسطين الى الأتراك سنة ١٥١٧ ميلادية ، في زمن السلطان سليم الأول ، وظلت في حوزتهم مدة ٤٠٠ سنة ، وكان العرب سكانها ، وكانوا شركاء مع الأتراك في حكمها وفي ادارتها . وفي سنة ١٩١٨ احتلها البريطانيون ، ولا يزالون فيها الى الآن .

« ذلك تاريخ فلسطين العربية ، يدل على أن العرب أول سكانها ، سكنوها ٣٥٠٠ قبل الميلاد ، واستمر سكانهم فيها بعد الميلاد الى اليوم ، وحكموها وحدهم مع الأتراك ١٣٠٠ سنة تقريبا . أما اليهود فلم تتجاوز مدة حكمهم المتقطع فيها ٣٨٠ سنة ، وكلها اقامات متفرقة مشوشة ، ومن سنة ٣٢٢ قبل الميلاد ، لم يكن لليهود في فلسطين أي وجود أو حكم ، الى ان دخلتها القوات البريطانية في سنة ١٩١٨ .

« ومعنى هذا أن اليهود منذ ألفين ومائتي سنة ، لم يكن لهم في فلسطين عدد ولا نفوذ . ولما دخلها البريطانيون لم يكن عددهم يزيد على ثمانين الفا ، كانوا يعيشون في رغد وهناء ورخاء ، مع سكان البلاد الأصليين من العرب . ولهذا ، فاليهود لم يكونوا الا دخلاء على فلسطين في حقب متفرقة من الزمان ، ثم اخرجوا منها منذ أكثر من ألفي سنة .

« أما الحقوق الثابتة للعرب في فلسطين ، فتستند :

١ - الى حق الاسـتيطان الذى استمرت مدته منذ سنة ٣٥٠٠ قبل الميلاد ، ولم يخرجوا منها في يوم من الايام .

٢ - والى الحق الطبيعى في الحياة

٣ - والى وجود مقدسات لهم فيها

٤ - والى أن العرب ليسوا دخلاء على فلسطين ، ولا يراد جلب أحد منهم من أطراف العمورة لاسكانه فيها

« أما اليهود فان دعواهم التاريخية هي مغالطة ، ثم ان حكمهم القصير في فترات متقطعة كما ذكرنا لا يمنحهم اى حق في ادعائهم انهم اصحاب البلاد ، لان احتلال بلد ما ، ثم الخروج منه ، لا يخلو اى شعب ادعاء ملكية ذلك البلد والمطالبة به ، وتاريخ العالم ملئ بمثل هذه الامثال .

« ان حل قضية اليهود المضطهدين في العالم ، تختلف عن قضية الصهيونية الجائرة . فان ايجاد اماكن لليهود المشتتين يمكن ان يتعاون عليه جميع العالم ، وفلسطين قد تحملت قسما فوق طاقتها . اما نقل هؤلاء المشتتين ووضعهم في بلاد آهلة بسكانها ، والقضاء على اهلها الاصليين ، فامر لا مثيل له في تاريخ البشرية .

« واننا نوضح بصراحة ، ان مساعدة الصهيونية في فلسطين ، لا يعنى خطرا يهدد فلسطين وحدها ، بل انه خطر يهدد سائر البلاد العربية . وقد اقام الصهيونيون الحججة الناصعة على ما ينوون في فلسطين ، وفي سائر البلاد المجاورة ، بتأليفهم تشكيلات عسكرية خطيرة . ومن الخطا ان يقال ان هذا عمل شرذمة متطرفة منهم ، وانه قوبل باستنكار من جمعياتهم وهيئاتهم . وانا نقول : ان اعمال الصهيونيين في فلسطين وفي خارجها ، صادرة عن برنامج متفق عليه ، ومرضى عنه من سائر اليهودية الصهيونية ، وقد بدأ هؤلاء اعمالهم المنكرة بالامحاء الى الحكومة التى احسنت اليهم وآوتهم ، وهى الحكومة البريطانية ، فاعلنت جمعياتهم الحرب على بريطانيا ، وألفت لهذا فرقا عسكرية خطيرة ، تملك في فلسطين في الوقت الحاضر ، كل ما تحتاج اليه من الاسلحة والمعدات الحربية ، ثم قام افرادها بشتى الاعتداءات على الامنين ، كان من افظعها الاعتداء على الرجل القل ،

الذى كان ممتلئاً بالحب وبالخير لصالح المجتمع ، وكان من أشد من يعطفون على اليهودية المضطهدة ، وهو « اللورد موين » (١) . ومما يدل على أن فعلتهم المنكرة كانت مؤيدة من مجموع اليهود ، المظاهر والمساعى التى قام بها رجال الصهيونية فى كل مكان ، فى طلب تخفيف العقوبة عن المجرمين ، ليحجروا على أمثالها .

« فهذه أفعالهم مع الحكومة التى أحسنت اليهم كل الاحسان ، فكيف يكون الحال اذا أعينوا على تحقيق أغراضهم ، وأصبحت فلسطين بلدا خالصا لهم ، يفعلون فيها وفي جاراتها ما يريدون ؟

(١) يشير جلالته الى حادث كان له دوى عظيم فى مصر وفى العالم كله . ذلك انه فى الساعة الواحدة والرابع من بعد ظهر يوم ١٦ نوفمبر من عام ١٩٤٤ ، اطلق شابان يهوديان الرصاص على اللورد والتر موين ، وزير الدولة البريطانى فى الشرق الاوسط ، وهو بهم إحتفاد فى سيارته فى حديقة داره بشارع حسن سبرى بالزمالك ، فأسابا سائق السيارة فسقط قتيل . أما اللورد فقد اسبى فى صدره وفى عنقه ، فنقل الى مستشفى الانجلو اميركان لاسعافه ، لكنه توفى فى الساعة ٣٠ : ٩ من مساء اليوم نفسه ، وهرب القاتلان بعجلتهما (بسكليت) . لكن دون سبب من حرس الوزارات سودانى الجنسية ، اسمه الامين محمد هبى الله فى الرابعة والعشرين من عمره ، سمع بالحادث وهو فى نقطة بوليس الجزيرة ، فانطلق يركض وراء القاتلين ، مسترشدا من المارة عن الطريق التى سلكها فى هربهما ، واستطاع اللحاق بهما عند كوبرى بولاق ، ونبش عليهما بمساعدة جندى المرور وعامل نظافة بعد ما تبادل معهما اطلاق النار ، محاولين قتله ، وساقهما الى قسم بولاق .

وعندما بدأ التحقيق معهما بإشراف عبد الرحمن الطوير باشا النائب العام ، امتنع عن الاجابة من أى سؤال وجه اليهما ، قائلين انهما ان يتكلما الا امام المحكمة عند محاكمتهما . لكن رجال البوليس الانجليز فى محافظة القاهرة استطاعوا حملهما على الكلام . فقالا انهما من المحاربين فى سبيل حرية اسرائيل ، وانهما تسلا الى مصر من فلسطين ، وارتكبا جريمتهما تنفيذا لتعليمات من هيئة ارهابية يتبعانها . وقال احدهما واسمه « الياهو بنسورى » من تل ابيب : ان سبب القتل سياسى ، وانهما ارسلتا من فلسطين بأمر خاص ، هو قتل اللورد موين .

وقال الثانى واسمه « الياهو حكيم » من حيفا : اننا لا نحارب الحكومة الانجليزية فى فلسطين لانها حكومة سيئة فقط ، فانها فى الواقع حكومة سيئة جدا ، لكن الواقع انها حكومة غريبة من فلسطين ، ولنا الحق فى أن نحاربها ، ولهذا لم نضع فى حسابنا اذا كان اللورد موين رجلا طيبا او غير طيب ، لكننا اعتبرناه ممثل الحكومة البريطانية الذى يحكم الشرق الاوسط ، وهو لهذا مسؤول عن سوء الحكم ، وعما هو حاصل فى فلسطين .

فلما سألته المحقق : هل تعتقد ان قتل اللورد موين يؤثر فى الحكومة الانجليزية او برهبا ، حتى تغير سياستها بالنسبة اليكم ؟

« لو ترك الأمر بين العرب وبين هؤلاء المعتدين ، لربما هان ، ولكنهم محميون من قبل الحكومة البريطانية صديقة العرب !! فاليهودية الصهيونية لم تراع حرمة هذه الحماية ، بل قامت بتدبير حبال الشر ، وبدأتها ببريطانيا ، وأذرت العرب بعد بريطانيا ، بمثلها وبأشد منها . فإذا كانت الحكومة المتحالفة التي تشعر العرب بصداقتها ، تريد أن تشعل نار الحرب والدماء بين العرب واليهود ، فان تأييد الصهيونية سيوصل الى هذه النتيجة . وان أخشى ما تخشاه البلاد العربية من الصهيونية ، هو :

١ - أن يقوموا بسلسلة من المذابح بينهم وبين العرب .

٢ - أن تكون اليهودية الصهيونية من أكبر العوامل في افساد ما بين العرب والحلفاء . وأقرب دليل على ذلك ، قضية اليهوديين في مقتل « اللورد موين » في مصر .

قال : المسألة ليست تغيير سياسة ، انما نحن نريد من الحكومة الانجليزية ان تترك فلسطين بالمرّة ، تترك اورشليم (القدس) واتضح في التحقيق ان الجماعة التي يتبعانها هي جماعة « شترن » ، وهو اسم ارهاي اسرائيلي انشأها وظل رئيسا لها ، حتى قتله ضابط بريطاني اسمه مورتون .

وقد استغرق التحقيق معهما الى يوم ٢٠ ديسمبر ، أي شهرا ونصف شهر ، واستغرق من الصفحات ١٢٨ صفحة . وفي هذا اليوم اصدر النائب العام قراره باتهامهما بقتل اللورد موين وقتل سائق سيارته الاومباشي « آرثر مولر » ، عمدا مع سبق الاصرار والترصد ، وبالشروع في قتل الكونستابل الامن محمد عبد الله ، وخاب اثر الجريمة لسبب لا دخل لارادتهما فيه ، وهو عدم احكام الرماية .

وفي يوم ٢٢ يناير سنة ١٩٤٥ عقدت محكمة الجنايات برئاسة محمود منصور بك لمحاكمتهم ، وندب للدفاع عن أولهما توفيق دوس باشا وعبد الفتاح السيد ، ومن ثانيهما المحاميان حسن حسنى بك وحسن الجداوى .

وبعد المرافعة والدفاع ، أصدرت حكمها بمعاقبة كل منهما بالاعدام ، وفي يوم ٢ مارس صدق رئيس الوزراء محمود فهمى النقراشي باشا - بوصفه الحاكم العسكري العام - على الحكم ، وقد نفذ فيهما بعد يومين .

نعود الى اللورد موين فنقول ان رئيس الوزراء ذهب الى السفارة البريطانية معزيا فيه . وفي اليوم التالي شيع جثمانه في جنازة عسكرية مصرية انجليزية مهيبّة ، وابشبه ثرشل رئيس الوزارة البريطانية في مجلس العموم ، وأشاد بمصر وببوليسها .

وطلبت الوزارة ترقية الكونستابل الى « كونستابل ممتاز » ، فرأى الملك فاروق ان يرقى الى رتبة « ملازم ثان » ملاوة على منحه نوط الواجب الذهبى .

وتبرع النبيل عباس حليم - من الاسرة المالكة - بمائة جنيه ، مفتتحا بها اكتنفا شعبيا لكافة الكونستابل الشجاع ، وانهالت التبرعات عليه تقديرا لشجاعته وبسالته .

٢ - أن تمتد مطامع اليهود الى غير فلسطين ، فان ما أعدوه من العدة ، يدل على أنهم ينوون العدوان على جيرانها من البلاد العربية .

٤ - ألا يجدوا مانعاً للاتفاق مع أى جهة قد تكون معادية للحلفاء وللعرب ، لتنفيذ هذا العدوان ، وقد بدأوا بعدوانهم على بريطانيا ، وهم تحت حمايتها ورحمتها . . . هذا لو تصورنا استقلالهم في مكان ما في فلسطين .

« لا شك ان هذه أمور ينبغي أخذها بعين الاعتبار ، في اقرار السلام في العالم ، عندما ينظر في قضية فلسطين . فضلاً عن أن حشد اليهود في فلسطين لا يستند الى حجة تاريخية ، ولا الى حق طبيعي ، وأنه ظلم مطلق ، فهو في الوقت نفسه يشكل خطراً على العرب وعلى الشرق الأوسط .

« وصفوة القول : ان تكوين دولة يهودية بفلسطين ، سيكون ضربة قاضية على كيان العرب ، ومهدداً للسلام باستمرار ، لأنه لا بد أن يسود الاضطراب بين اليهود والعرب ، فاذا نفذ سبر العرب في يوم من الأيام ، ويئسوا من مستقبلهم ، فإنهم سيضطرون للدفاع عن أنفسهم ، وعن أجيالهم المقبلة ، ازاء العدوان عليهم ، وهذا بلا شك لم يخطر ببال الحلفاء العاملين على سيادة السلم واحترام الحقوق . ولا شك في أنهم لا يرضون بهذه المقلقة لسلام الشرق الأوسط .

« وما كنت أريد في هذا المعترك العظيم ، ان أشغل فخامتكم ورجال حكومتكم العاملين في هذه الحرب العظمى بهذا الموضوع . وكنت أنشئ - وأنا واثق من انصاف العرب من قبل الحلفاء - ان يستمر سكوت العرب الى نهاية الحرب ، اولا ما نراه من قيام هذه الفئة الصهيونية اليهودية بكل عمل مثير مزعج ، غير مقدرين الظروف الحربية ومشاغلي الحلفاء ، حق قدرهما ، عامين للتأثير في الحلفاء بكل انواع الضغط ، ليحمارهم على اتخاذ خطة ضد العرب ، تختلف عما أعلنه الحلفاء من مبادئ الحق العدل .

« لذلك أردت بيان حق العرب في فلسطين على حقيقته ، لدحض الحجج الواهية التي تدعيها هذه الشريحة من اليهودية الصهيونية ، دفعاً لعدوانهم ، وبياناً للحقائق ، حتى يكون الحلفاء على علم كامل بحق العرب في بلادهم ، وبلاد آبائهم واجدادهم ، فلا يسمح لليهود أن ينتهزوا فرصة سكوت العرب ، ورغبتهم في عدم التسويز على الحلفاء في الظروف الحاضرة ، فيأخذوا من الحلفاء ما لا حق لهم فيه .

« وكل ما نرجوه ، هو أن يكون الحلفاء على علم بحق العرب ، ليمنع ذلك تقدم اليهود في أي أمر جديد ، يعتبر خطرا على العرب ، وعلى مستقبلهم في سائر أوطانهم ، ويكون العرب مطمئنين من العدل والانصاف في بلادهم (١) » .

لقد تعمدت نشر نص هذه الرسالة المسهبة التاريخية ، متجاوزا عن طولها ، لأن فيها كل شيء عن فلسطين : تاريخ مفصل ، دفاع حار ، حق مؤيد بالدليل والبرهان ، حقائق تنبأ بها عبد العزيز ، حدثت في حياته ، وحدثت بعد ذهابه الى مولاة . فهي رسالة شاملة ، أو هي دراسة مستفيضة عن فلسطين وقضيتها وحق شعبها ، لم يسبقه اليها رئيس عربي

رد روزفلت على عبد العزيز برسالة أكد فيها ما سبق أن قاله له من أنه لن يقدم على عمل فيه ضرر للعرب

قال روزفلت في رسالته وقد بعث بها في ٥ ابريل سنة ١٩٤٥ :
« الصديق الطيب العظيم

» تلقيت الرسالة التي بعثتموها جلالتم الى بتاريخ ١٠ مارس سنة ١٩٤٥ ، والتي أشرت فيها الى قضية فلسطين ، واهتمام العرب المستمر بسير التطورات التي تؤثر في تلك البلاد

« اننى مفتبط لأن جلالتم انتهزتم هذه الفرصة لتوجيه انتباهي الى آرائكم في هذه القضية . وقد منحت عظيم الانتباه الى البيانات التي ضمنتموها كتابكم . واني أيضا ملئء الخاطر بالمحادثات التي لا تنسى ، التي جرت بيننا منذ أمد غير بعيد ، والتي في أثنائها تهيأت لي الفرصة لأدرك أي اثر حي لأراء جلالتم في هذه القضية

« تتذكرون جلالتم انه في مناسبات سابقة ، أبلغتكم موقف الحكومة الاميركية تجاه فلسطين ، وأوضحت رغبتنا بأن لا يتخذ قرار فيما يختص بالوضع الأساسي في تلك البلاد ، بدون استشارة تامة مع كل من العرب واليهود . ولا شك أن جلالتم، تتذكرون أيضا أنه في خلال محادثائنا الأخيرة ، أكدت لكم أنني لن اتخذ أي عمل — بصفتي رئيسا للفرع التنفيذي لهذه الحكومة — يتضح انه عدائي للشعب العربي

(١) كتاب « الملك المعادل » للسيد عبد الحميد الخطيب — الجزء الاول — ص

« وانه لما يسرنى أن أجدد لجلالتكم التأكيدات التى تلقيتموها
جلالتكم سابقا بخصوص موقف حكومتى ، وموقفى كرئيس للسلطة
التنفيذية ، فيما يتعلق بقضية فلسطين ، وان أعلمكم أن سياسة هذه
الحكومة غير متغيرة » .

لكن الموت عاجله فى ١٢ أبريل ، أى بعد أسبوع من إرساله رده على
الملك عبد العزيز ، فلم يعيش حتى يرى العرب : أكان صادقا فيما قطعه
على نفسه من عهد للملك العربى ، من انه لن يقدم على عمل فيه عدا
للعرب ، أم أنه كان خادعا ، كما خدع العرب قبله ، رئيس أميركى سابق
له ، هو الرئيس ولسون ، بمبادئه الأربعة عشر التى نصت المادة الثانية
عشرة منها ، على حق الشعوب فى الحرية والسيادة وتقرير مصيرها
بنفسها ، فلم ينل شعب عربى واحد بعد الحرب العالمية الأولى ، التى
أعلن ولسون مبادئه هذه قبيل نهايتها ، استقلاله وحرية ، بل كان
عونا لحلفائه على استمرار استعمارها ، واحتلالهم للشعوب والأقطار
التي شقيت بهم

وأقرب مثل على ذلك ما صنعه ولسون نفسه مع الوفد المصرى
برئاسة سعد زغلول باشا ، فقد سافر الى باريس فى أبريل سنة ١٩١٩
ليقبله ويشرح له عدالة مطالب مصر وحققها فى الاستقلال ، وقدرتها على
حكم نفسها بيد أبنائها ، بعد تضحياتها الجليلة بجانب الحلفاء ، حتى
لقد استشهد من شعبها فى تلك الحرب ٢٠٠.٠٠٠ مصرى ، قاتلوا مع
الحلفاء ، دفاعا عن الحرية التى خنقها خصومهم الألمان والطيان والترك !!
فماذا صنع ولسون صاحب تلك المبادئ الخادعة ، للوفد المصرى ؟
اعتذر عن عدم مقابلة الوفد ، مجاملة للانجليز ، ثم فاجأ الوفد
ومصر كلها فى الشهر نفسه ، بأنه يؤيد احتلال انجلترا مصر ، ووضعها
تحت حمايتها ، تنفيذا لما أعلنته الحكومة الانجليزية يوم اعلان الحرب
فى ٤ أغسطس سنة ١٩١٤ . . . !!

بعد وفاة روزفلت ، عرف انه كان قد اتفق مع الحكومة البريطانية
على إرسال لجنة تحقيق أميركية بريطانية الى الدول العربية ، لمقابلة
ملوكها وزعمائها ، للوقوف على آرائهم فى هذه القضية الخطيرة ، قضية
فلسطين ، واقتراح حل لها ، ثم ترفع ما تجمعه من آراء الى الحكومتين . .
وصلت اللجنة الى الرياض فى ١٩ مارس ١٩٤٦ لمقابلة الملك
عبد العزيز ، وكانت مؤلفة من السرجون سنجلتون رئيسا ، والميجور
ماتنجهام بولور والمستر باسكتر ، عضوين

قال لهم جلالتهم في أثناء المناقشة : ان امر فلسطين يهمه كثيرا ،
لانه عربى مسلم قبل كل شىء ، والعربى للعربى والمسلم للمسلم .

ثم :

— ان قضية الصهيونية في فلسطين تهم المسلمين والعرب ، والعداوة
بين المسلمين واليهود ليست وليدة عهد جديد ، انما هى نتيجة عداوة
قديم يرجع الى آلاف السنين

— ان اليهود أعداؤنا في كل مكان ، وهم في كل بقعة يأتون اليها
يفسدون ويعملون ضد مصلحتنا .. ثم قال : وانى لعلى يقين :

أولا : من ان اليهود الصهيونيين لا يدخرون وسعا في احداث
الاختلافات بين العرب ، وبين كل من صديقتيهم بريطانيا وأميركا .
وهذا ما يتجنبه العرب ولا يريدونه

ثانيا : من أن هجرة اليهود اذا استمرت على ما هى عليه ، وتوسعت
أماكهم في فلسطين ، فسيكونون خطرا على العرب كافة ، لان لديهم جميع
الوسائل لامدادهم بالأسلحة وبالمال وبغيرهما . ولا شك في أنهم
سيستعملون هذا ضد العرب ، وهو في الوقت نفسه احراج للبريطانيين .
والدليل على هذا ما رايتموه في زيارتكم فلسطين : كيف رايتم حال العرب
وحال اليهود ؟ هل رايتم اليهود في ترفهم ومساكنهم وسلاحهم وأموالهم
وقوتهم ؟ وهل رايتم أصحاب البلاد الشرعيين وما هم عليه من الفقر
والعوز ؟ ألم يصرح لكم اليهود بأنهم أصحاب زراعات وأمالك ، وانهم
يعملون ويصالحون ، على تقيض ما يفعله « هؤلاء الأشقياء » ويعنون
بهم العرب ؟

وأردف جلالتهم : اذا رأت اللجنة أن تسأل عن أسباب ذلك شرحتها
لها . انها تتلخص في جملة واحدة ، هى أن العرب هبوا للدفاع عن
بلادهم ، وللمطالبة بحقوقهم ، ولاستعادة ما سلب منهم ، فكيف يتسنى
لهم مباراة اليهود ، وهم ما بين مصلوب على أعواد المشانق ، وسجين
وشريد وطريد ؟ كيف يتسنى لهم أن يتقدموا وهذه حالهم ، بينما اليهود
تسهل لهم جميع الوسائل ؟ وكلما تكلم العرب مطالبين بحقوقهم ،
لا يجدون من يعينهم على أمرهم أو يسمع شكواهم . أما اليهود فانهم على
مراى ومسمع منكم أيها الانجليز ، يقتلون جنودكم وكبراءكم ، ويحاربونكم
بشتى الأساليب ، وانتم لا تجيبونهم الا باطلاق الرصاص في الهواء ، كان
لم يكن بينكم وبينهم حساب !!!

بعد هذا القول الحق الصريح ، رد رئيس اللجنة ردا عجيبا مضحكا
تقال :

— ان الانجليز متساهلون كثيرا ، وهذا ما يجعل الناس يطمعون فيهم !!
فأفحمه الملك بقوله :

— ان التساهل في بعض الأحيان والأحوال ، يجعل الخطر أعظم ،
والبلية أعم . واضرب لكم مثلا بانسان تحلق فوق رأسه الطائرات ويده
مغلولة وخالية من السلاح ، وانسان آخر يده طليقة وقابضة على السلاح ،
فهل يتساوى الرجلان ؟ تلك هي حال العرب واليهود في فلسطين . اننى
منذ أوجدنى الله ، وصرت أسعى لاستعادة ملك آبائى وأجدادى ، ما عرفت
من الدول غير بريطانيا — وكانت صديقتى — رايت منها ما سرنى ، ورات
منى ما سرها . ولما نشبت الحرب أيدت سياستها وسياسة حلفائها ،
وثوقا منى بأن هذا فى مصلحتى وفى مصلحة العرب جميعا . لهذا كانت
الحكومة البريطانية ، ولا تزال ، راغبة فى أن أسعى للتوفيق بينها وبين
العرب ، منذ بدأت الحرب وحتى انتهائها ، اتقاء لحدوث المشكلات بينها
وبينهم . وكنت أبذل ما فى وسعى لاقتناع اخوانى العرب ، وانصحهم
بالا يجعلوا سبيلا لحدوث اختلاف بينهم وبين بريطانيا ، لأن أعداء الحلفاء
هم أعداء العرب ، ويجب علينا الصبر والتروى . ولقد بلغ بى الأمر اننى
تحدثت بهذا أمام جمع من المسلمين فى مكة المكرمة ، ونصحتهم بأن يكونوا الى
جانب بريطانيا وحلفائها ، لأنها صديقتهم ، وتدافع فى حربها عن حقوقهم
ومصالحهم ، وأن لا يدعوها فى حرج من أمرها . وعلى اثر ذلك تلقى علماؤنا
كتبا ورسائل من علماء المسلمين ، ينتقدون فيها موقفى ، وفاتحنى العلماء
بما تلقوا من شتى الاقطار الاسلامية ، وقالوا لى : انهم لا يتعرضون للمسائل
السياسية ، ولكنهم أعربوا عن عجبهم من معاضدتي لبريطانيا ، فى الوقت
الذى تؤوى هى فيه اليهود ، وتوليهم على فلسطين . فأوضحت لهم الاخطار
التي تستهدف لها اوطاننا اذا انتصر أعداء بريطانيا عليها . فقالوا : هل
تضمن اذا انتصرت بريطانيا ، تعدل عن تأييد اليهود ، ولا تؤويهم فى بلادنا ،
وان تعامل العرب فى فلسطين بالعدل ؟ فأجبتهم : انا لا أضمن لكم ان تفعل
بريطانيا هذا أو ذاك ، ولكن ما أعرفه عن بريطانيا ووعودها التي قطعتها
على نفسها ، هو انه اذا لم يقم العرب بأعمال ضدها ، فانها ستعاملهم
بالانصاف

واستمر الملك فى حديثه لأعضاء اللجنة :

— وأذكر لكم أمرا واقعا ، وهو أن الوزير البريطاني المفوض في جدة ، زارني بعد انتهاء الحرب بمدة وجيزة ، وقال لي : ان حكومتى ترى أن حركات اليهود الحاضرة ، ربما كانت من حظ العرب ، فكلما ازدادت حركاتهم ، انكشفت نياتهم ! ورجا منى أن أبذل جهدى لدى العرب لالتزام الهدوء ، واقنعنى بأن هذا خير لمصلحتهم . فلم ادخر وسعا في هذا السبيل ، الى ان وصلنا الى الموقف الذى نقفه اليوم

لقد وقعت الآن في مأزق خطير امام شعبى وجماعى ، وامام العرب والمسلمين . فاذا كانت بريطانيا تريد أن تعدل عن الحق الواضح ، وأن تذهب وعودها في الهواء ، فليس أمامى الا أن أقول للمسلمين : دونكم نفسى ، اقتلونى ، أو انزلونى عن الملك ، لأننى مستحق هذا ، وأنا الذى جنيت عليكم ، وثبطت عزمكم وهمتكم

هذه هى حقيقة موقفى شرحتها لكم بوضوح ، ثم :
— اليهود اليوم قوتهم بالدينار ، ونحن حجتنا بحقنا في فلسطين ، حجة شرعية . بلاد أخذناها من الرومان بالسيف ، قاتلنا دونها وملكنها بعد أن سفكت دماء زكية منا وعزيرة علينا ، فكيف يجيء إلينا تاجر ويأخذها بالفلوس ؟ ليس هذا من الانصاف فى شيء

— لقد تحدثت مع الرئيس روزفلت حديثا طويلا فى قضية فلسطين ، سجلت خلاصته فى محضر خاص ، وشهد حديثنا الوزير الأمريكى المفوض فى جدة ، وأطلعت المستر تشرشل على حديثى مع روزفلت ، وعلى الوعد الذى وعدنى به ، فوعد هو الآخر بأن ينهض بالواجب من ناحيته فى مساعدة العرب وعدم الاجحاف بحقوقهم . لقد كان روزفلت يسعى ليجاد مكان لايواء اليهود ، وكان مقتنعا بأن فلسطين لا تصلح أن تكون مأوى لهم ، وأن فى بلاد أوروبا متسعا لهم ، اذ يمكنهم الإقامة فى الأماكن التى خلت من الذين ابعدوا من اليهود بسبب الحرب

— الموت خير لنا من قبول هجرة اليهود ، وكل جهادنا لمنع هجرة اليهود الى فلسطين ، حتى لا يتركوا أراضيها

— اذا أرادت بريطانيا أن تحافظ على صلاتها الحسنة بالعرب ، فلتقف الهجرة فى الحال ، ولتمنع بيع الاراضى ، فان هذين الأمرين هما أساس المشكلات ومنبع الاضطرابات ، ولتعتقد مؤتمرا من رؤساء العرب والبريطانيين والأميركيين ، يتفق على الطريقة التى تضمن الراحة والطمانينة فى فلسطين ، ويزيل ما هنالك من خلاف ، حتى يحل محله السلام

— اننا نرى رئيس الولايات المتحدة الأميركية ، المستر ترومان ، يعلن — وتأثيره في هذا الصراع التاريخي معروف — ويطلب دخول مائة ألف يهودى الى فلسطين الضيقة ، باسم الانسانية والرحمة على حساب العرب الضعفاء ، بينما لا يقبل هو في الوقت نفسه ، في وطنه اميركا الواسعة الغنية ، الا دخول ٣٩ ألف نسمة ! !

— احب ان تكونوا على يقين من انه اذا استمرت هذه السياسة ، سياسة استمرار الهجرة وبيع الاراضى ومنع العرب من حقوقهم الطبيعية التى وعدوا بالمحافظة عليها ، فان الحكومتين البريطانية والاميركية ، لا تستهدفان لنقمة العرب وحدهم فحسب ، بل انهما ستستهدفان لنقمة كل من يقول : لا اله الا الله محمد رسول الله ، من عرب وعجم وهند وسند وصين ، وكل مسلم على وجه الكرة الأرضية في مشرق الارض ومغربها وشمالها وجنوبها . والصهيونيون لا يهمهم مصلحة بريطانيا ، ولا مصلحة اميركا ، ولا مصلحة العرب ، لانه لا يهمهم الا مصلحة انفسهم . ولو قوى اليهود في هذا المكان الدقيق وصارت لهم دولة ، فمن السهل عليهم ان يكونوا في جانب أى قوة تعادى بريطانيا واميركا ، لأن الدين يقاتلون البريطانيين الذين احسنوا اليهم وآووهم ، وقاموا في وجوههم في أيام الحرب ، من السهل عليهم ان ينقلبوا عليهم ويتنكروا لهم في اخرج من هذه الاوقات .

واخيرا زود الملك اعضاء اللجنة بمذكرة اضافية في الموضوع

اننى اظيل في تسجيل رأى الملك عبد العزيز في قضية فلسطين ، لأن دفاعه عنها كلما واثته الفرصة ، هذا الدفاع الصادق الحار ، مفخرة من مفاخره . ولا اذكر ملكا عربيا أو رئيسا عربيا في عصره أو بعد عصره ، بذل ما بذله من حجج في سبيل قضية فلسطين ، أو جاهر برأيه مثله صريحا . عاليا ، لأصدقائه من البريطانيين والاميركيين ، محذرا اياهم من عاقبة تأييدهم لليهود الصهيونيين . وليتهم نقلوا آراءه ، ووعوا تحذيره ، اذن لما وصل الحال بهم وبنا الى هذا الموقف السوء .

لم يكتف الملك بهذا ، بل ارسل الى المستر ترومان الرئيس الجديد الجديد للولايات المتحدة الاميركية ، ونصير الصهيونية الأولى ، رسالة في ٢٧ سبتمبر سنة ١٩٤٦ ، قال له فيها :

— « ان الصداقة التى تربط بلادى ببلاد الولايات المتحدة الاميركية ، والصداقة التى تأسست بينى وبين الرئيس الراحل ، الرئيس روزفلت ،

والصداقة التي تجددت بيني وبينكم ، تجعلني شديد الحرص في المحافظة على هذه الصداقة وتفديتها ، والعمل على تقويتها بجميع الوسائل الممكنة ، ولهذا تجدونني الح والكر في كل مناسبة أشعر فيها بما يخل بصداقة الولايات المتحدة مع بلادى ومع سائر البلاد العربية ، لكى أزيل ما يمكن أن يعرقل هذا الصفاء

« ولقد كتبت للراحل العظيم ولفخامتكم عن حقيقة الموقف في فلسطين والحق الطبيعى للعرب فيها ، وأنه يرجع الى آلاف السنين ، وأن اليهود ليسوا الا فرقة ظالمة باغية معتدية : اعتدت في اول الامر باسم الانسانية ، ثم أخذت تظهر عدوانها الصريح بالقوة والجبروت والطغيان ، مما ليس يخاف على فخامتكم ، وعلى شعب الولايات المتحدة . أضف الى هذا اطماعهم التي بيتوها ، ليس لفلسطين وحدها ، بل لسائر البلاد العربية المجاورة ، ومنها أماكن في بلادنا المقدسة ... »

« لقد دهشت للاذاعات الاخيرة التي تسبب تصريحاً لفخامتكم ، بدعوى تأييد اليهود في فلسطين وتأمين هجرتهم اليها ، بما يؤثر على الوضع الحاضر ، خلافاً للتعهدات السابقة . »

« وزاد في دهشتى أن التصريح الذى نسب أخيراً الى فخامتكم ، يتناقض مع البيان الذى طلبت مفوضية الولايات المتحدة الأمريكية في جدة من وزارة خارجيتنا ، أن ينشر في جريدة « أم القرى » على أنه صادر من البيت الأبيض في ١٦ أغسطس سنة ١٩٤٦ ، وهو صريح في أن حكومة الولايات المتحدة لم تتقيد بأية فكرة من جانبها لحل مشكلة فلسطين ، وأظهرتم أملككم بحلها بواسطة المحادثات بين الحكومة البريطانية وبين وزراء خارجية الدول العربية ، وبين الحكومة البريطانية والفريق الثالث ، وأظهرتم فخامتكم رغبتكم في اتخاذ تسهيلات في الولايات المتحدة لآواء المشردين وفي جملتهم اليهود . ولذلك كانت دهشتى عظيمة حين اطلعنى على البيان الأخير الذى نسب الى فخامتكم ، مما جعلنى أشك في صحة نسبته اليكم ، لأنه يتناقض مع وعود حكومة الولايات المتحدة ، والتصريح الذى صدر في ١٦ أغسطس سنة ١٩٤٦ من البيت الأبيض . »

« وانى لعلى يقين من أن شعب الولايات المتحدة الذى بذل دمه وماله في مقاومة العدوان الفاشم ، لا يمكن أن يسمح بهذا العدوان الصهيونى على بلد عربى صديق ، لم يقترب ذنباً غير ايمانه بمبادئ العدل والانصاف

التي قاتلت من أجلها الأمم المتحدة ، وكان من أركانها الولايات المتحدة ،
وكان لفخامتكم - بعد سلفكم العظيم - المجهود العظيم في هذا السبيل .
» ورغبة منى في المحافظة على صداقة العرب والشرق مع الولايات
المتحدة ، أوضحت لفخامتكم بهذا البيان ، الظلم الذي يمكن أن يحقق
بالعرب اذا بدلت أى مساعدات لهذا العدوان الصهيونى .

» وانى لعلى يقين كذلك ، من أن فخامتكم ومن ورائكم شعب الولايات
المتحدة ، لا يمكن أن يقبل أن يدعو للحق والعدل والانصاف ، ويحارب من
أجل اقرار هذه المبادئ النبيلة في سائر انحاء الأرض ، ثم يمنع هذا
الحق والعدل والانصاف عن العرب في بلادهم فلسطين التي ورثوها عن
آبائهم وأجدادهم منذ العصور القديمة .

وفي ٢٩ نوفمبر سنة ١٩٤٧ وافقت هيئة الأمم المتحدة على مشروع
بتقسيم فلسطين ، فوقف رئيس وفد المملكة العربية السعودية الأمير
فيصل ، على منبر الهيئة ليقول في حزم :

- « لقد أتينا الى الجمعية العامة للهيئة ، يملؤنا الأمل بأن الدول
الكبرى والصغرى على السواء ، توجه قصارى جهدها لرفع المستوى
الأخلاقي . لقد أتينا الى هنا ملؤنا الأمل بأن جميع الأمم ستستخدم وتؤكد
حقوق الانسان والعدالة ، وبأن هذه المنظمة ستكون أداة لتحقيق الأمن
والسلام الدوليين . وفي الوقت نفسه كان يحدونا الأمل بأن المنظمة ستكون
عبارة عن أساس قوى لتحقيق التفاهم المشترك بين جميع الشعوب .

» لقد تعهدنا أمام الله والتاريخ ، بأن ننفذ الميثاق باخلاص وبحسن
نية ، وبذلك نحترم حقوق الانسان ، وندفع كل عدوان . ولكن للأسف ،
فان قرار اليوم قد هدم الميثاق وجميع المواثيق التي سبقته .

» لقد شعرنا ، كما شعر الآخرون ، بالضغط الذي جرى على عدة
مندوبين في هذه المنظمة ، من قبل بعض الدول الكبرى ، ليكون تصويتهم
في صالح مشروع التقسيم . ولهذه الأسباب فان المملكة العربية السعودية
تود أن تسجل في هذه المناسبة التاريخية ، بأنها لا تعتبر نفسها ملزمة
بالقرار الذي تبنته الجمعية العامة اليوم ، وبأنها تحتفظ لنفسها بكامل
الحق في حرية التصرف ، بالطريقة التي تراها ملائمة لمبادئ الحق
والعدالة .

» ان حكومتى تلقى كامل المسؤولية على الأطراف التي عاقت كل
وسائل التفاهم والتعاون .

ثم صرح سموه يومذاك أيضا للصحافيين ، وهو غاضب ، قائلا :
- « هناك أمر واحد لا سبيل الى فهمه أو تسويغه ، ذلك هو تدخل
حكومة الولايات المتحدة في مسألة فلسطين وتأييدها الصهيونيين . كما أنه
لا يمكن فهم الصمت الذي تلوذ به ازاء اعتداء الصهيونيين وأساليبهم
الارهابية .

« فإذا كانت البواعث الانسانية هي التي تدفع الولايات المتحدة الى
هذه السياسة ، فلم لا تفتح أبوابها للاجئين البؤساء ، وهي أغنى وأوسع
وحابا من فلسطين ، التي اكتظت وابتليت بأولئك المعتدين الغرباء ؟

« وماذا سيكون موقف الولايات المتحدة وشعبها ، اذا جاء برلمان
احدى الدول الأجنبية ، وأقر قانونا بفتح الأبواب - أبواب الولايات
المتحدة - أمام هجرة اليهود ، لاجئين وغير لاجئين ، لا لشيء ، الا لأن
الولايات المتحدة ، رغبة ، في امكانها استيعاب الملايين ؟

« الا تنهض الحكومة الأميركية والشعب الأميركي في هذه الحالة ،
وينددان بمثل هذا التدخل ؟

« وما خطب ميشاق الاطلنطى وميثاق هيئة الأمم المتحدة ؟ ان المداد
الذي كتبت به موادهما لم يجف بعد ...

« اننا نرى مندوب الولايات المتحدة يحاول اثارة العالم كله من أجل
المسألة اليونانية (١) ، فما ظنه بفلسطين ؟ هل نسي مبادئ الميثاق أم أنه
ينكرها ؟

(١) عندما ضمت إيطاليا البانيا إليها في نهاية سنة ١٩٣٩ عقب نشوب الحرب العالمية
الثانية ، أعلنت بريطانيا ضمانها لاستقلال اليونان ، وصدت اليونان الحملة التي شنتها
عليها إيطاليا من الأراضي الالبانية ، لكنها لم تستطع مقاومة الغزو الألماني في أوائل سنة
١٩٤١ الذي انتهى في أواخر مايو من السنة نفسها الى احتلال الألمان جميع الأراضي
اليونانية وكذلك جزيرة كريت ، وهرب ملك اليونان الى مصر فأقام فيها لاجئا . وفي
أواخر سنة ١٩٤٤ انسحبت الجيوش الألمانية من الأراضي اليونانية وحلت محلها الجيوش
الانجليزية ، وأقامت إنجلترا مجلس وصاية على العرش برئاسة رئيس الكنيسة .

وفي ديسمبر ١٩٤٤ وفي يناير ١٩٤٥ قامت اضطرابات شيوعية في اليونان . وفي أبريل
١٩٤٦ جرت فيها انتخابات حرة ، بعد استقرار الحالة فيها نوعا ما ، أسفرت عن
إعادة الملك جورج الثاني الى عرشه ، لكنه توفي بعد الشهر في عام ١٩٤٧ وخلفه أخوه
الملك بول الاول . الا أن حرب العصابات والاضطرابات الشيوعية اشتعلت مرة أخرى
في البلاد واتسع نطاقها ، مما دفع الولايات المتحدة الأميركية الى امداد الحكومة اليونانية
بالأسلحة ، وبالعتاد الحربي ، للتغلب على هذه العصابات الشيوعية ، وقد أمكن
التغلب عليها فعلا في النهاية بعد قتال مرير .

« انى لأعجب لشعب يمتنع الهجرة الى بلده ، ولكنه يفرضها على بلد غيره » .

وأمر الملك عبد العزيز وفده في هذه الهيئة العالمية السلبية ، بمغادرة نيويورك حالا ، والسفر الى القاهرة للاشتراك في اجتماع طارئ لمجلس الجامعة العربية . ثم دعا وزير أميركا المفوض في جدة ، الى مقابلته في الرياض ، وأعرب له عن استيائه من موقف بلاده . ثم استصدر فتوى شرعية في ٢٧ محرم سنة ١٣٦٧ من علماء مملكته وقضااتها ، بوجوب الجهاد على المسلمين جميعا ، ضد اليهود المعتدين على فلسطين . فما أن نشرت الفتوى ، حتى هب الشعب في المملكة نائرا لفلسطين ، وقصد نوابه - أعضاء مجلس الشورى - الى القصر الملكي في جدة ، وقابلوا ولي العهد الأمير سعود ، ومرضوا عليه استعداد الأمة لبدل النفس والنفس في سبيل فلسطين ، تحت لواء المملكة العربية السعودية .. فقال لهم :

« اننا مهتمون بقضية فلسطين أكثر من كل أحد ، ونحن جادون في انقاذها ، وقد تعودنا العمل في صمت ، وأن تكون أعمالنا أكثر من أقوالنا ، كما تشهد بذلك سيرتنا ، متأسين في هذه الخطة بالسلف الصالح . وأؤكد لكم اننا لا نود أن نكلف أحدا من سكان هذه البلاد المقدسة بشيء ، واننا مستعدون لانقاذ فلسطين بأموالنا وبارواحنا ، متكلين على الله الذي نستمد العون منه وحده » .

وآلف مجلس الشورى لجانا لجمع التبرعات من الشعب لصالح عرب فلسطين ، فجمع في اليوم الأول ١٠٤١.٣٩١ ريالاً سعودياً ، عدا حلى النساء التى تبرعن بها ، والسيارات والمؤن التى قدمها اصحابها ، وأرسلت الدفعة الأولى من هذه التبرعات في أوائل شهر ربيع الأول سنة ١٣٦٧ ، وقدرها مائة ألف جنيه ومليون ليرة سورية ، الى الجامعة العربية ، لتتولى ارسالها الى عرب فلسطين . وأرسلت دفعة مماثلة في الشهر التالى .

وسافر كثير من شباب المملكة على نفقتهم الخاصة الى فلسطين ، للانضمام الى أهلها في الدفاع عن وطنهم ، فآلفوا نحو ثمانين فى المائة من « فرقة اليرموك » ، أهم فرق المقاومة فى تلك السنة .

فلما قرر العرب أن يدخلوا بجيوشهم فلسطين فى ١٥ مايو سنة ١٩٤٨ ، كان جيش الملك عبد العزيز فى مقدمتها ، وأرسل جلالته الى الملك فاروق ملك مصر ، كتابا قال له فيه :

« حضرة صاحب الجلالة الأخ الملك فاروق! حفظه الله .

« فى الوقت الذى تتقدم فيه جيوش جلالته وجيوش الدول العربية لانقاذ فلسطين ، أضرع الى الله أن يؤيد هذه الجيوش بنصر من عنده ، وأن يثبت أقدام المجاهدين فى سبيله . وانى اذ أحمد الله الذى ألف بين قلوبنا للجهاد فى سبيله ، أحمدته تعالى على ما وفق اليه جيش مصر الظافر بأذن الله ، سائلين الله أن يتابع نصره الذى وعد به عباده المؤمنين .»

« وانه يسرنى - كما اعتقد انه يسر جلالته - أن يكون سير الجيش السعودى ، فى الجهة التى يسير فيها الجيش المصرى . والله يعلم أننا جميعا لم نكن باغين ولا معتدين ، ولكننا نسير لدفع العدوان ، « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا ، وإن الله على نصرهم لقدير » .

« حفظكم الله وأبقاكم » .

وكما كان عبد العزيز مجاهدا فى سبيل فلسطين ، حبا لها واعزازا لأرضها ، واجلالا للمسجد الأقصى المشرفة به على أرضها ، وتقديرا منه لشعبها ، كان محبا لمصر وأهلها ، حريصا على حسن العلاقات بينه وبين ملكها ، وبين شعبه وشعبها ، مع أن الملك فؤاد لم يعترف به ملكا على الحجاز ، الى أن استأثرت به رحمة الله فى ٢٨ أبريل من عام ١٩٣٦ . وقد أرسل الى فؤاد عدة رسائل فى ظروف شتى ، فلم يجب على واحدة منها ، كما قال الشيخ حافظ وهبه فى كتابه « خمسون عاما فى جزيرة العرب » وفى الصفحة ١٤٦ منه .

ومما زاد فى سوء العلاقة بين عبد العزيز وفؤاد ، حادث المحمل المصرى الذى حدث فى ذى الحجة من عام ١٣٤٤ . فقد وصل ركب المحمل الى جدة ومنها الى مكة ، فاستقر فى مكانه ، وزاره الملك مع ابنائه وحاشيته مرحبا . وفى الثامن من ذى الحجة سار المحمل من مكة الى منى فى طريقه الى عرفات . وفى منى كان « الاخوان » من أهل نجد يملأون الوادى بخيلهم ، فظنوا أن المحمل صنم يعبد المصريون ، ثم فوجئوا بالبوق ينفخ فيه بعض رجال المحمل لدموة الجنود الى التجمع للمسير ، فقال « الاخوان » عن صوت البوق انه صوت الشيطان ، فأخذوا يرمون المحمل ورجالهم بالحجارة وهم يهتفون ويكبرون ، فلم يسمع أمير الحج المصرى اللواء محمود عزمى بأشأ رحمه الله ، الا أن يأمر جنوده باطلاق المدافع عليهم . وانهال الرصاص فى الوادى ، فأرسل الملك نجله الأمير

فيصل ليهدىء « الاخوان » فلم يستطع ، وتفاقم الخطب ، فصار اليهم عبد العزيز غير مبال بالرصاص يسقط يمينا وشمالا في الليل البهيم ، معرضا حياته للخطر ، فناشد « الاخوان » قائلا لهم : « اذكركم الله في هذا الموقف . اذكركم دينكم . اذكركم حميتكم الاسلامية وشيبتكم العربية . ان حجاج بيت الله ضيوفنا ، وهم في وجوهنا ، فلا تمدوا اليهم يدا بأذى . اننى سأقف امام ركب هذا المحمل ، وأعلموا اننى لا ارضى أن تمتد اليه يد بسوء ، وفي عنقى دم يجرى » .

وهذا « الاخوان » بعد أن قتل من رجالهم خمسة وعشرون ، وفقدوا اربعين بعيرا . ولم يصب من المصريين سوى جنديين ، أحدهما أصيب بحجر في أنفه ، والثاني برصاصة في سراه .

وسار المحمل الى عرفات ، ومنها عاد الى منى فالى مكة ، ثم الى جدة ، في طريق عودته الى مصر .

من ذلك اليوم منع الملك فؤاد ارسال المحمل وكسوة الكعبة والصدقات التى كانت تغلبها أوقاف الحرمين الشريفين ، وظل هذا المنع نحو عشر سنوات ، حتى حلت سنة ١٩٣٦ ، وفيها توفى الملك فؤاد كما ذكرت ، وتولت الحكم « وزارة الشعب » برئاسة مصطفى النحاس باشا ، طيب الله ثراه ، فسعى في تحسين العلاقات بين البلدين ، فأرسل في ١٨ نوفمبر سنة ١٩٣٦ (٤ رمضان سنة ١٣٥٥) ، عدة كتب الى فؤاد حمزه بك وكيل الخارجية السعودية ، قال في أولها ان الحكومة المصرية اعترفت ارسال الكسوة الخاصة بالكعبة المشرفة من الموسم القادم للحج ، « وسيقوم المحمل المرافق لهذه الكسوة من القاهرة في الوقت الذى كان معتادا أن يقوم فيه ، وعند وصولهما الى جدة ، يستقر المحمل فيها ، وتتوجه الكسوة الى مكة حيث توضع على الكعبة بالاحتفال اللائق بكرامة المكان ، وبمقام الجالس على عرش الحجاز . وسيطرز على الكسوة اشارة الى أنها اهديت الى الكعبة المشرفة ، في عهد حضرة صاحب الجلالة الملك عبد العزيز آل سعود ، ملك المملكة العربية السعودية » .

وقال في ثانيها : « ان حكومة مصر تعتزم اتخاذ التدابير اللازمة لاعادة صرف الصدقات لفقراء الحجاز ، ولاستئناف صرف غلة أوقاف الحرمين الشريفين في الأراضى المقدسة ، وذلك ابتداء من موسم الحج القادم . وستعين الحكومة المصرية من يتولى الاشراف على صرف الصدقات التى ترسلها ، وهى تعتزم أن تنفق من الأموال التى كانت تخصصها للصدقات ،

ومن فاضل غلة الأوقاف المذكورة ، في حدود القواعد الشرعية لعمارة الحرمين الشريفين واصلاح المرافق المتصلة بهما ، وستبلغ الحكومة المصرية الحكومة السعودية ، ما تضعه من البرامج لأعمال العمارة والاصلاح في حينه ، تمهيدا لاتفاق الحكومتين على التصميمات الخاصة بتلك الأعمال .

وكذلك عادت المياه الى مجاريها بين الدولتين ، « واسترجعت مصر ما كان لها من شرف كسوة البيت الحرام الذي تغطها عليه جميع دول الاسلام » ، واستطاعت أن تساهم في خدمة البلد الأمين ، بتعليم جمهرة من أبنائه مختلف العلوم والمعارف ، وبما قامت به من مساعدة الملكة العربية السعودية في مختلف النواحي ، وصرف ما لديها من أوقاف الحرمين في أنفع طرقها « (١) » .

وقبل يوم ٨ أكتوبر من عام ١٩٤٤ - وفيه اتفقت الدول العربية المستقلة على انشاء « جامعة الدول العربية » وأصدروا « بروتوكول الاسكندرية » حيث اجتمع مندوبوها متضمنا هذا الاتفاق - بدأ التردد على عبد العزيز في الانضمام الى هذه الجامعة ، فسافر اليه عبد الرحمن عزام بك - السفير بوزارة الخارجية يومذاك - مستغلا تقدير الملك العربي له واعزازه ، فاقنعه بالانضمام ، ورأى الفرصة سانحة ليدبر لقاء بين الملكين : عبد العزيز وفاروق ، لتوثيق العلاقة بين بلديهما .

وقد تم هذا اللقاء فعلا في سفح جبل « رضوى » . ولندع جريدة « أم القرى » الناطقة باسم الحكومة السعودية ، تصف هذا اللقاء ، فقالت تحت عنوان : « اجتماع رضوى التاريخي » :

- « سجل التاريخ حادثا من أروع حوادثه ، وذكرى من أجمل ذكرياته . ففي الساعة الخامسة - حسب التوقيت العربي - من صباح الأربعاء ١٠ صفر سنة ١٣٦٤ هـ (٢٤ يناير سنة ١٩٤٥ م) ، التقى الملكان الأخوان : حضرة صاحب الجلالة الملك فاروق ، وحضرة صاحب الجلالة الملك عبد العزيز ، على صعيد الأرض المقدسة ، وعلى مرأى من جبل رضوى الشامخ ، فتعانقا ، وكان ذلك رمزا لما بينهما من محبة ، وما بين شعبيهما من اخاء . وانه لتحقيق بالمسلمين جميعا أن يفتبطوا بلقاء ملكين عظيمين من ملوكهم في الأرض المقدسة ، كما أن العرب في المشرق والمغرب ، سيستقبلون بهذا اللقاء عهدا من التعاون والاتحاد والعزة .

(١) كتاب « الملك عادل » للسيد عبد الحميد الخطيب - الجزء الاول - ص ٢٥٦ .

« لقد تجلت الاخوة الاسلامية والرابطة العربية بأجلى مظاهرها في الاجتماعات المتبادلة ، وفي الأحاديث الودية المتعددة بين صاحبى الجلالة الملكين العظيمين في المخيم الملكى في سفوح رضوى . وقد ترك حضرة صاحب الجلالة الملك فاروق المخيم الملكى بعد ظهر يوم الخميس ، قاصدا المدينة المنورة لزيارة المسجد النبوى وأداء فريضة الجمعة في حرمة المبارك » .

وعاد فاروق من المدينة المنورة ، ووجه الدعوة الى عبد العزيز لزيارة مصر ، فقبلها ، على أن يحدد موعدها فيما بعد ، وركب يخته الملكى « فخر البحار » تحرسه الطوافة « فوزية » في طريقه الى السويس ، بعد أن أهدى الى عبد العزيز قلادة محمد على الكبير ، وتلقى من جلالته سيفاً وخنجراً مرصعين بالجواهر والحجارة الكريمة ، وتبادلا علمى بلديهما ، ومزا للصدقة المتينة التى تربط بين الأسرتين المالكتين ، وبين الشعبين الشقيقين ، برباط الود الوثيق .

لكن قدر للملك عبد العزيز أن يزور مصر بعد هذا اللقاء بقليل ، إذ سافر اليها ليلقى روزفلت وتشرشل كما سبق القول ، وزاره فاروق في فندق « أوبرج الفيوم » مكررا دعوته الى زيارة مصر زيارة رسمية .

وقد ذاع يومئذ في المحافل السياسية في القاهرة ، أن اجتماع « رضوى » كان تمهيدا قام به فاروق لاجتماع الزعيمين الغربيين بالملك العربى الخطير .

ولعله من حق التاريخ على أن اذيع سرا أفضى الى به يومذاك الاتفاق كريم ثابت - وقد كان زميلى في جريدة « المقطم » لعدة سنوات ، مندوبا لها في الدوائر الرسمية العليا ، مصرية وغير مصرية ، قبل أن يختاره الملك مستشارا صحافيا له في مايو سنة ١٩٤٦ ، وقبل أن ينعم عليه برتبة الباشوية ، وقد صاحب الملك في رحلته الى « رضوى » - فقال ان الملك عبد العزيز اقترح على الملك فاروق ، أن تقوم وحدة بين الدولتين ، على أن تكون الولاية من بعده في السعودية لأولاده بهذا الترتيب : سعود ثم فيصل ثم خالد ثم محمد . فوعده فاروق ببحث الاقتراح ، ثم طواه للزمان .

لقد حان أوان تلبية عبد العزيز دعوة أخيه فاروقا ، فاختار لها شهر يناير من عام ١٩٤٦ ، أى بعد نحو عام من لقاء « رضوى » .

ففى عصر يوم الاثنين السابع من هذا الشهر ، غادر الملك عبد العزيز تنفرا جدة ، ميمما وجهه شطر مصر ، باليخت الملكى المصرى « المحروسة » ،

تحرسه الطوافتان « فاروق » و « فوزية » ، ومعه تسعة عشر من أنجاله .
الأمراء ورجال حاشيته ، ويعشة شرف مصرية برياسة مراد محسن باشا .
ناظر الخاصة الملكية ، ظلت في معيته حتى انتهاء الزيارة بعد أسبوعين .

وقبل ظهر الخميس العاشر من يناير ، وصل اليخت الى ميناء بورج
قوفيق ، حيث جرى الاستقبال العظيم للضيف العربي العظيم .

لقد كنت واحدا من خمسة من الصحفيين ، دعاهم القصر الملكي .
ليسعدوا بالاشتراك في هذا الاستقبال ، وبصحبة الضيف الكبير في القطار
الملكى من السويس الى القاهرة ، وكنا جميعا بالملابس الرسمية .
« الرندجوت » - كما كان جميع المستقبلين - وكتبت يومئذ وصفا في جريدة .
الكتلة الوفدية « التى كان يصدرها المرحوم مكرم عبيد باشا ، وكتبت
مشرفا على تحريرها ، قلت فيه ، وقد نشر في صباح يوم ١١ يناير :
- « سمعت مصر أمس بوصول ضيفها في رعاية الله ، فاستقبلته
استقبالا دل على ما تكنه من حب له وتقدير ، وتبارى أبناؤها الكرام في
الترحيب بالعاقل العربى مباراة كريمة ، فكل انسان أراد أن يعرب للضيف
الخطير عما تنطوى عليه جوانحه من اعزاز له وتكريم ، بل ود كل منهم
لو استأثر بهذا الشرف ، فلم يسمع الضيف سوى الهمسات العالية .
المفداة .

« لقد كان استقبال مصر ومليكتها امس الملك العربى عبد العزيز ، آية
جديدة ناطقة بقوة الجامعة العربية ، وبرهاننا منيرا على ما يسود البلاد
العربية جميعا من وثام واخاء ، وود وولاء .

« فمن لم يشهد هذا الاستقبال الرائع العظيم الجليل ، فقد فاتته
شئ كثير في حياته . وهل في مصر من لم يشهده ؟ لقد حرص كبارؤها
وساداتها وشيوخها وشبابها ونسائها ورجالها ، وعمالها وطلبتها ، وكل
طبقة فيها ، على أن يشهدوا هذا اليوم الخالد .

« ان الواصف ليحтар كيف يبدأ وصفه . . . ابدأه من عرض البحر
وقد خرج اهل السويس في الزوارق لتحية الضيف الرابض في اليخت على
بعد ساعة من الميناء ؟ أم يبدأه من السويس وقد أقفرت دورها وعماراتها ،
وازدحم بساكنيها طريق القطار الملكى ، حتى لم تصبح العين ترى غير كتل
بشرية متراسة ، وجسوم تتدافع وتتراحم ، وأكف تصفق حتى يكاد الدم
يتفجر منها ، وحناجر ارتفعت منها الأصوات بالدعاء الى الله أن يحفظ
الضيف والمضيف ، وأن يرعى الشرق وأهله برعايته ، في ظل هذين
الفرقدين النيرين .

« أم يسدا الواصف وصفه من القاهرة عاصمة مصر ، حيث اجتمع
بقيها أهلها لاستقبال ضيفها ؟

« لم اعتد المبالغة ، بل انى لأنقر من المبالغة ، ولكن ما رأيت أمس من
السويس الى عابدين ، يزيد على المبالغة ، لأنه كان فوق ما كان منتظرا .

« لقد استقبلت مصر قبل اليوم ملوكا كثيرين شهدنا الحفاوة بهم ،
والترحيب بمقدمهم ... فرأينا قدوم ملك الأفغان (أمان الله خان) وملك
الطليان (فيكتور عمانوئيل) ، وغيرهما ، فلم نر يوما كعشر ما رأيناه
أمس ، ولعل السبب هو الايمان أولا بتضافر الجامعة العربية ، ففيه قوة
لها ولشعوب أعضائها ، والاعتزاز ثانيا بملك غيور مخلص للعرب وللعروبة .
هو أسد الجزيرة وصقر العرب ، عبد العزيز آل سعود .

« ولقد عرفنا من أسرار الضيف العزيز ، مبلغ تأثيره من استقبال
مصر له ، حتى لقد رأيت والله الدموع تترقرق في عينيه ثلاث مرات :

« الأولى : عندما عانق أخاه الفاروق على اليخت « المحروسة » .

« الثانية : عندما شهد استقبال الزقازيق له استقبالا فائق الحد
والتصور .

« الثالثة : عندما توسطت به المركبة الملكية ميدان محطة القاهرة ،
أذ حجبت جسوم الناس مباني الميدان ومعالمه

« ووددت والله لو كان لى شرف المثول بين يديه لأفضى الى مسمعه :
« أيها العاهل العظيم والضيف الكريم :

« ان أبناء هذا الوادى يحبون من يحبه ملكهم ، وان الملك فاروق
يحبك ، فوجب علينا حبك والولاء لك .

« وان أبناء هذا الوادى الأمين ، يحبون كل عربى مخلص للعرب
ولقضيتهم ، وهم ، يا طويل العمر ، يعرفون عنك ورأوا منك ، الاخلاص
للعرب ولقضيتهم فى شتى المناسبات ، فما بالكم اذا كان هذا العربى صقر
الحجاز ، وهابطا علينا عزيزا كريما ، من مهبط الوحي الأمين ؟

« يا صاحب المدينة المنورة ، ويا ساكن مكة المكرمة :

« ان المصريين ليتفساءلون خيرا بربارتك ، ففى عطفيك نفحة من الرسول ، وعبق من روضته الشريفة ، عليه الف صلاة وسلام » (١) .

انما اردت فقط أن أسجل « عينة » من وصف روعة استقبال الملك فى الصحافة فى ذلك اليوم ... لقد استغرق هذا الوصف صفحة ونصف صفحة من الجريدة التى كنت أمثلها .

ووصل الملك ، وعانقه فاروق ، وصحبه فى القطار الملكى الى القاهرة ، ومن محطاتها الى قصر عابدين ، ثم الى قصر الزعفران - تشغله الآن ادارة جامعة عين شمس - حيث نزل جلالة الضيف على الرحب والسعة ، عزيزا كريما ، مع ابنائه الأمراء ، أما رجال الحاشية فقد نزلوا فى فندق الكونتنتال .

لقد ظل الملك فى ضيافة فاروق ثلاثة عشر يوما ، زار فيها بعض المدن والمنشآت الهامة ، واجتمع فى اثنائها الملكان اجتماعات « مفلة » - على حد تعبير صحافة اليوم - تحدثا فيها عن وجوب دعم الجامعة العربية ، وعن مستقبل الشعوب العربية ، وضرورة تضافرها وتأزرها لتقوى وتنهض ، وعما يجب عمله لنصرة عرب فلسطين .

فى اليوم التالى ، صلى الملك الجمعة فى الجامع الأزهر ، فالتقى الشيخ مصطفى عبد الرازق باشا شيخ الأزهر رحمه الله - وكان اماما للمصلين - حديثا دينيا فى حضرتها بدأه بقوله :

- « منذ خمسمائة عام ،لقى العلامة المشهور جلال الدين السيوطى ، أول درس دينى له ، بحضور قاضى القضاة والأفاضل فى عهده . وقد عثرت على موضوع هذا الدرس فى دار الكتب الأزهرية ، فى مجموعة من خط السيوطى نفسه ، وهو تفسير أول آية من سورة الفتح « انا فتحنا لك فتحا مبينا ، ليفقر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ، وليتم نعمته عليك ، ويهديك صراطا مستقيما ، وينصرك الله نصرا عزيزا » . قرأته

(١) مرة أخرى سعدت بالقرب من الملك عبد العزيز ، كانت فى صيف سنة ١٩٥٣ ، إذ كنت عضوا فى بعثة الحج التى كانت برئاسة السيد اللواء محمد نجيب أول رئيس للجمهورية المصرية ، فقد رونا الملك فى الطائف حيث كان يقيم فى قصر الأمير فيصل ، وبعثنا الى العشاء على مائدة ، وكان الملك فى أيامه الأخيرة ، وقد وقف ابنائه الأمراء حوله ، وهو متصدر المائدة مع ضيفه اللواء نجيب ، فإذا أعرب عن رغبته فى شئ ، ساقبوا الى طلبتها سرورين مبتهجين .. كان هذا فى أغسطس من ذلك العام ، وبعدها بنحو ثلاثة أشهر ، اختاره الله الى جواره الكريم ، فى شهر نوفمبر

من المناسب لهذه الفرصة السعيدة التي جمعت بين ملكين عظيمين صالحين من ملوك الاسلام ، في هذا المسجد ، أن أحيى أثرا من آثار عالم أزهري جليل ، له في خدمة الاسلام والعلم أحسن الأثر . ومن حسن الطالع أن هذا الدرس يتناول تفسير هذه الآية الكريمة ، التي وعد الله نبيه عليه السلام فتحا مبينا ونصرا عزيزا . وفي بعض الأحاديث أن النبي عليه الصلاة والسلام ، لما أنزلت عليه هذه الآية ، قال : لقد أنزلت على آية هي أحب الى من الدنيا وما فيها .

وفي اليوم التالي زار الضيف ومضيفه جامعة فؤاد الاول (القاهرة فيما بعد) ، فرحب بهما ترحيبا جميلا ، محمود فهمى النقراشي باشا رئيس الوزراء ووزير المعارف بالنيابة ، رحمه الله ، وفخر مصر المرحوم الدكتور على مصطفى مشرفة مدير الجامعة بالنيابة . وقدمت الى الملكين مداليات تذكارية ، ومطبوعات وبحوث جامعة .

ثم زار الضيف ميدان سباق الخيل ، ثم شهد عرضا للجيش المصرى أقيم في ساحة واسعة بسكة السويس - القاهرة . ولبنى دعوة الى الغداء من السفير البريطانى ، وزار منطقة الأهرام ، والقناطر الخيرية . وفي غده لبنى دعوة وزير الخارجية الى الغداء ، وبعد انتهائه عرض عليه فيلم سينمائى عن رحلته وزياراته في القاهرة ، وكان هذا أول فيلم سينمائى يراه الملك السعودى في حياته .

وفي اليوم السادس من زيارته ، زار دار البرلمان المصرى ، فالتقى بين يديه المرحوم الدكتور محمد حسين هيكل باشا رئيس مجلس الشيوخ ، كلمة قال فيها :

« لا غرو أن تنبض قلوبنا ، وتهتز جوانحنا بهذا الشعور الفياض ، اكبارا واجلالا اضيف مصر العظيم ، وضيف ملكها المحبوب . وان هذا الشعور لتمليه عاطفة صادقة ، وتقدير سام ، لمجيد فعالكم وعظيم حكمتكم . ويمليه كذلك عرفان بالجميل لفضلكم وكرمكم واکرامكم . فقد يسر الله لكثيرين من أعضاء برلماننا ان يؤدوا فرض الله بحج بيته ، وزيارة قبر نبيه عليه الصلاة والسلام ، فكان لهم من جميل رعايتكم باكرام وفادتهم ، وبما أحاطتهم به حكومتكم من أسباب العناية والطمأنينة والأمن ، ما ألهمهم السنتهم بشكرهم ثناء عليكم . ثم انهم رأوا في أرجاء الحجاز كله من مظاهر التقدم والعمران ، ما جعلهم يحمدون الله على ما أفاءه على بيته الحرام ، وعلى الأرض الاسلامية المقدسة من فضل ، بسامى حكمتكم وحسن توجهكم . أما ولكم هذا الدين في أعناقنا وأعناق المسلمين جميعا ، فلن يؤدي ما تفيض

به قلوبنا حفاوة بكم واجلالا لكم ، الا بعض حقكم على كل مسلم ، أينما وجد
من بقاع الأرض »

وفي اليوم التالي زار مقر الجامعة العربية - وكانت حديثة النشأة -
في قصر المناسترلى بالروضة على شاطئ النيل ، حيث أقام عبد الرحمن
عزام باشا أمين الجامعة مائدة غداء للملكين ، دعى اليها الأمراء والنبلاء
والوزراء وزجال السلك الدبلوماسي . وقد نضدت في قاعاتها الكبرى سبع
موائد للمدعوين ، رمزا للدول السبع التي قامت عليها الجامعة ، في صدر
كل مائدة منها ممثل لأحدى هذه الدول .

فاذا رفعت الموائد ، وحان موعد صلاة العصر ، نهض الملك العربي
العظيم ، وأذن للصلاة بنفسه ، ثم ام المصلين . فلما قضيت الصلاة ، انتقل
مع فاروق والمدعوين الى ساحة القصر ، فشهدوا عرضا من فرسان العرب ،
بجيادهم وطبولهم .

ثملقى عزام باشا بين يدي الملكين كلمة قال فيها :

- « ان من الفأل الحسن والبشرى السعيدة ، أن يكون اختفال
الجامعة بكما في هذا المكان التاريخي . فهنا بجانب هذه الدار ، مقياس
النيل ، وهو من أقدم آثار العرب في هذه البلاد ، اذ يرجع تاريخه الى
القرن الثاني الهجري . وقد بقي هذا المقياس دليلا على عدلهم وحرصهم
على أن تقوم أمور الدولة على شريعة بينة وميزان مستقيم ، فاعترف لهم
المؤرخون بأنهم كانوا من اسبق الأمم الى تحكيم القانون ، وتقديس الشرائع
والعدل

» وعلى مرأى من دار الجامعة نحو الشرق ، مدينة الفسطاط ، أول
حاضرة للعرب في مصر ، وفيها جامع الفتح ، الجامع العتيق الذي بنياه
عمرو بن العاص ، فبقى عصورا كثيرة معهدا من معاهد العرب العلمية

» يا صاحبي الجلالة : ستبقى ذكرى هذا الاجتماع ماثلة في نفوس
العرب ، مؤثرة في تاريخهم ، ويبقى « شارع الملك عبد العزيز آل سعود »
في هذه الجزيرة ، يحمل اسمه الكريم ، مذكرا بزيارته المباركة للجامعة
العربية ، تلك الزيارة التي جاءت اثر زيارة ملك مصر العظيم للمملكة العربية
السعودية ، والتي سن بها الفاروق سنة حسنة ، تتوالى بها أن شاء الله ،
زيارات ملوك العرب ورؤسائهم لبعضهم بعضا ، ولدار الجامعة .

» ان العرب مقاصد جليلة كريمة ، يريدونها لخيرهم ولخير الناس
جميعا . يريدون الحرية والسلام والتعاون ، حتى يدركوا الغاية العظيمة

« التي تليق بهم . وان زعامتكما لمن أقوى الأسباب الى النجاح وادراك الغاية »

وفي الطريق الى السيارة ، قال الملك الضيف لعزام باشا :

« ان مصير هذه الجامعة ، موكول الى ارادة العرب اجمعين ، واستقرارها مقيد باستقرار الايمان بها في خواطر الأمم التي تتألف منها . فاذا علمت هذه الأمم أنها نافعة لها صالحة لهدايتها ، فهي مستمرة مستقرة ، وهي بفضل هذا الايمان تقاوم ما يعترضها من عقبات وحوائل »

وفي نهاية الزيارة لدار الجامعة ،لقى النقراشي باشا رئيس الوزراء على المدعويين بيان الملكين عن هذه الزيارة ، وقد جاء به :

« ان من دواعي سرورنا العظيم ، ان يكون اجتماعنا في هذا المكان التاريخي ، وفي الدار الجديدة لجامعة الدول العربية ، تلك الجامعة التي كان من حظنا وحظ اخواننا ملوك العرب وامرائهم ورؤسائهم ، ان يضعوا أسسها ، وان يرعوها ويقيموها على دعائم من التعاون والتكافل لخير العرب ولخير البشرية كافة ، ويستجيبوا بذلك لرغبات الشعوب العربية وآمالها » نحن نرغب في ان تضرب جامعتنا دائما للناس جميعا ، المثل في تعاون صادق بين جماعة من الدول ، متضافرة على سلامتها المشتركة ، ومتكافلة في صون حريتها واستقلالها . ونحن واثقون ان جامعتنا وهي تؤدي هذه الرسالة بين العرب ، لا تريد علوا واستكبارا على أمة أخرى . بل نرى ان من أسس مقاصدنا ومقاصدها ، التعاون مع أمم الأرض كلها ، على البر والحق والعدل والسلم الدائم . ونحن كذلك نشق بأن جامعتنا التي تربأ بنفسها عن كل تفكير في العدوان على غيرها ، تحرص كل الحرص على ان تدافع عن الحق والعدل والحرية .

« ولم يكن المجهود العظيم الذي يبذله ملوك العرب وامرائهم ورؤسائهم وحكوماتهم وشعوبهم لنصرة عرب فلسطين ، الا تحقيقا لمبادئ الحق والعدل .

ونحن نشارك المسلمين والعرب جميعا في ايمانهم بأن فلسطين بلاد عربية ، وان من حق اهلها وحق المسلمين والعرب معهم ، ان تبقى عربية كما كانت دائما

« واننا لنقدر كل التقدير ، ما يرمى اليه ميثاق الجامعة العربية ، من ان يكون لكل قطر عربي حقه الواضح في تقرير مصيره ، والتمتع بحريته الكاملة

« ويسعدنا أن تسير الاقطار العربية بخطى ثابتة نحو الوحدة ، وتضع من النظم ما يريد في التقارب بينها واحكام صلاتها ، ويؤدي الى تبادل المنافع والخيرات ، لتسعد جميع طبقات الأمة العربية بعيش أرغد ، وتنعم بالثمرات الكثيرة التي وهبها الله سبحانه ارضهم وبلادهم . ونحن واثقون كل الثقة من أن الشعوب العربية التي تتمثل آمالها في جامعة الدول العربية ، لا تريد الا الملس والحق والاخاء ، وانها ستتهدى بسيرة اسلافها ، فتحقق المثل العليا التي يوحىها اليها تاريخ العرب ونهضتهم العظيمة ، ودعوتهم للمساواة العامة بين الشعوب والطوائف والافراد ، فتتعاون جامعتنا مع المؤسسات الدولية التي تقيمها الأمم المتحدة ، لتحقيق حرية البشر والعدل والاخاء ، فتكفل للحضارة الانسانية سيرا موفقا في ظلال سلم دائم »

ثم زار الملك عبد العزيز مزارع الملك فاروق في انشاص بالشرقية « وبعدها زار الاسكندرية ، وعاد الى القاهرة ، فاستقبل في قصر الزعفران لفيفا من كبار الصحفيين ، فقال لهم :

— « لقد وددت لو طالت اقامتي في مصر ، فلقد أحببتها ، وأحببت اهلها حبا جما ، لا يعادله الا حبي لجلالة أخى الفاروق .

« أن الاكرام الذي أكرمني به أخى الملك فاروق وشعبه الكريم ، لا انساه مدى الحياة ، ولن ينساه آل سعود ، مهما تعاقبت الاجيال والسنون

« وفي الحق أنه ما من شيء يستطيع الانسان ان يعمل على ظهر الأرض ، ترحيبا وحفاوة وتكريما ، الا وقد عمل لى في مصر ، التي لقيت فيها اخا عزيزا ، وملكا كريما محبوبا ، وتردد صدى حب شعبه له ، فيما شهدناه من حفاوته البالغة بنا .

« لقد كنا نسمع عن مصر كثيرا ، ولكن الذى رأيناه فيها ، فاق كل ما كنا نتصوره عنها . رأينا نهضة ورقيا وتقدما في جميع نواحي الحياة ، ورأينا شعبا متقدما في الزراعة والصناعة والعلوم والفنون ، فهو قدوة العرب وموضع آمالهم

« وان اجتماع هذه الأمة العربية من اقطارها المختلفة مع مصر ، هو علامة باذن الله على التوفيق ، وعلى بلوغ آمالها ، ووصولها الى المكان اللائق بها

« ووصيتى الى العرب ، أن يلتفتوا حول جامعتهم العربية ، وان يحلوا مشاكلهم فيما بينهم ، وان يستعينوا بها على نشر العرفان والرقى . فيمة يعود بالخير على جميع الأمم العربية والاسلامية »

وختم جلالته حديثه اليهم بقوله :

— « اننى أعود الى وطنى ، مفعم القلب باكرم الذكريات واحبها الى نفسى ، عن اخى فاروق وشعبه وبلاده ، بل شعبى وبلادى . فما مصر والمملكة العربية السعودية غير بلد واحد وشعب واحد ، ان بعدت بينهم الشقة ، فقد جمعت بينهم أواصر الاخوة والمحبة والمودة ، تلك الأواصر الوثيقة التى لن تنفصم على الأيام ، عراها ، والتى تبقى خالدة تالدة ، بعون الله ، وبفضل فاروق الموفق ، المرموق بعناية الله »

ثم أهدى الى كل منا صورته موقعا عليها باسمه الكريم ، بعد عبارة « من الواصل بالودود عبد العزيز السعود »

وما زلت محتفظا بهذه الصورة الكريمة ، معتزا بها فخورا .

وكذلك مضت هذه الزيارة ، والضيف العظيم مأخوذ بما أحيط به من تكريم وحفاوة . وغادر السويس بعد ظهر يوم ٢٢ يناير ، مودعا من فاروق ومن شعبه ، ومن أمراء مصر وكبرائها وعلمائها ، كما استقبل ، بل بأدور وافخم . ورافقته بعثة الشرف المصرية الى جدة ، بعد ما أهدى هدايا نفيسة الى كبار المسؤولين والعاملين ، قدر ثمنها بمائتى ألف جنيه ، فكلها موشاة بالذهب وبالحجارة الكريمة وبالقصب المذهب . كما تبرع بعشرات الألوف من الجنيهاات للجمعيات الخيرية ولرجال البوليس الذين ندبوا لحراسته ، ولموظفى قصر الزعفران .

لقد صعد الى سطح اليخت ، وهو فى طريق عودته به الى وطنه الغالى ، وكان ما يزال فى مائة السويس ، وأجال بصره فى فضاء مصر ، ليشبع ناظره منه ، ثم التفت الى الأستاذ عباس محمود العقاد عضو بعثة الشرف ، وكان واقفا بجواره ، وقال له ولزملائه أعضاء البعثة :

— « بالرغم من أن الهواء شديد بين القاهرة والسويس ، فقد حرصت على أن أقف فى شرفة القطار الملكى طول الطريق . فدعانى النقراشى باشا الى دخول الصالون حذرا من هذا الهواء الشديد ، فقلت له : أريد ان أشبع عينى بكل شبر من أرض مصر »

ثم قال : « يخيلى الى أن سبعة عشر مليون مصرى (تعداد سكان مصر فى تلك السنة ١٩٤٦) خرجوا لتحييتى . ليتنى أستطيع أن أحيى كل مصرى » .. ودمعت عيناه من شدة التأثر ..

فلما عاد الى جدة ، وجه الى شعبه رسالة كريمة هذا نصها :

— « بسم الله الرحمن الرحيم . شعبى العزيز :

« أحمد الله اليكم اذ اعود اليكم من بلاد ، هي بلادى وبلادكم ، مصر العزيزة ، بعد ان لا قيت فيها من جلالة أخى العظيم الملك فاروق ، وحكومته وشعبه ، فى كل شبر مشيت فيه من أرض الكنانة ، من الحفاوة والاكرام ، ما لا يحيط به الوصف ، ولا يفى بحقه وافر الشكر . فقد كانت قلوبهم تتكلم قبل السنتهم ، بما تكنه لى ولبلادكم من حب ، لا يماثله الا ما اشعر به من حب عميق لأخى الفاروق ، ولبلاده ، وما استشعره فى قلوبكم من حب لجلالته ولبلاده .

« ولقد افتتح أخى الفاروق حصن الاخاء ، تحت ظلال رضوى ، وتوج الله ذلك الاخاء ، بمودة لا انفصام لها بمشيئة الله . ومن فضل الله علينا جميعا ، ان كانت كلمتنا فى هذه الزيارة والتي قبلها ، مجتمعة على مواصلة جهودنا فى سبيل تأييد جامعة الدول العربية ، وبدل كل مرتخص وغال ، فى تأييد التضامن بين سائر دول الجامعة بالقلب والروح لما فيه خيرها ، بل لما فيه الخير لسائر البلاد الاسلامية والعربية . وسنستمر على هذه السياسة بمشيئة الله ما حيينا ، وسنورثها بنينا ، حتى يشعر العربى فى كل موطن يمر به من بلاد العرب ، انه يسير فى موطنه ، ويعتز فى كل موطن من تلك المواطن ، بما يعتز به فى وطنه وبلاده .

« شعبى العزيز :

« ليس البيان بمسعف فى وصف مالاقيت فى مملكة أخى الفاروق . لقد كنت أشعر ان جيش مصر العربى هو جيشكم ، وجيشكم هو جيش مصر ، وحضارة مصر هي حضارتكم ، وحضارتكم هي حضارة مصر ، والجيشان والحضارتان ، جند للعرب ، وركن من أركان حضارتهم . بهذه الروح فتح أخى الملك فاروق ، العهد بيننا وبينه ، وبهذه الروح استقبلنى أخى الفاروق وحكومته وشعبه ، وبهذه الروح أعود اليكم .

« ليس لى ، وانتم تستقبلوننى ، وأنا استقبل البيت الحرام ، الا ان ادعو الله أن يحفظ للكنانة مليكها ، وأن يبلغها مناها من الهناء والسعادة ، وأن يجمع بفضله قلوب ملوك العرب ورؤسائهم وأمرائهم ، لما فيه العز والخير ، وأن يجزى الله عنا ، اخواننا واخوانكم فى مصر ، خير الجزاء ، فقد احاطونى بقلوبهم ، وغمرونى بكرمهم . وما راء كمن سمعا »

وقد اصدرت مصلحة البريد المصرية ، طابع من فئات مختلفة تذكارا للزيارة ، زينتها بصورة الملك العربى الجليل .

وفى منتصف مارس سنة ١٩٤٧ احتفلت كلية البوليس المصرية بعيدها الذهبى سنة ١٩٤٧ فأقامت حفلا فى دار الأوبرا الملكية شهدته مندوب عن

الملك فاروق ، خطب فيه طالب سعودي ، اسمه عبد الحليم محمد حمزة ، فقال :

« حضرة صاحب السعادة مندوب حضرة صاحب الجلالة ملك مصر المعظم :

« انه لمن سابغ الشرف ، ورائع التوفيق الشخصي ، أن أقف موقفي هذا بين يدي سعادتكم ، نيابة عن زملائي الطلبة السعوديين بكلية البوليس الملكية ، في مناسبة رائعة ، وحفل بهيج ، وعيد ذهبي

« لقد أوفدنا جلالة مليكنا عبد العزيز آل سعود الى مصر العزيزة ، مع لفيف من زملائنا ، لنقبس نور العلم والمعرفة ، من نبع العلم والعرفان . ولأول مرة التحقت بعثة سعودية من ثلاثة طلبة بكلية البوليس الملكية ، لتدرس أحدث الأساليب البوليسية في حفظ الأمن والنظام ، فجننا جميعا من بلد عربي ، الى شقيق عربي ، وتركنا أهلا لنحل عند أهل . فأى جسد سعيد ، وأية فرصة كريمة أسعدتنا بأن نستظل بكنف جلالة ملك مصر ، وفي رحاب هذا البلد المحبوب ، ففازت بعثتنا برعاية جلالة مليكنا عبد العزيز آل سعود ، معززة برعاية جلالة الفاروق

« واليوم ، اذ تحتفل كليتنا بمرور خمسين عاما على انشائها ، يسعدنا أن نشترك مع زملائنا في الابتهاج بما ظفرت به من توفيق في أداء رسالتها ، أداء يبعث الثقة في اطراد تقدمها ، وتحقيقها للمثل التي كرست الجهود من أجلها ، والآمال التي هلقت عليها

« حيا الله المليكين العربيين ، جلالة الملك فاروق الاول ، وجلالة الملك عبد العزيز آل سعود ، وهيا للبلاد العربية ما تنشد من مجد وسؤدد »

كم تألم ، رحمه الله ، لما كان يصيب مصر في سياستها وسيادتها واستقلالها ، وما كان أسرع الى وقوفه بجانبها ، يشد من أزرها ، وينافح عن كرامتها ، ويدود عن حرمتها . . قبل تبادل الزيارة بينه وبين ملكها

يقول الشيخ حافظ وهبة في كتابه « خمسون عاما في جزيرة العرب » وفي الصفحة الثالثة والسبعين بعد المائة :

« تألم أشد الألم يوم هجم السفير البريطاني على قصر عابدين في يوم ٤ فبراير سنة ١٩٤٢ ، واعتبر هذا العمل حماقة كبرى من بريطانيا ، فهي اهانة لمصر في شخص مليكها ، وكان من مساعيه غير الظاهرة ، ان تقل السفير البريطاني من مصر » (١)

من حلقات سلسلة مساعيه الصادقة ، ما صنعه في عام ١٩٤٧ ، يوم اشتد الخلاف بين مصر وبريطانيا بشأن مستقبل السودان ، مما دفع مصر الى اللجوء الى مجلس الأمن . فقد أمر ولي عهده الامير سعود ، بالاتصال بوزارة الخارجية البريطانية ، سعيا الى تخفيف حدة التوتر بينهما ، وبغية الوصول الى حل يمكن أن يكون مقبولا من الحكومتين . وفي الوقت نفسه ، أرسل الى سفيره في لندن في ١٦ صفر سنة ١٣٧١ ، برقية جاء بها :

(١) في أواخر أيام وزارة حسين سرى باشا في يناير سنة ١٩٤٢ ، اشتدت أزمة التميمين في البلاد ، حتى كان الأهالي اذا راوا مركبة تحمل خبرا ، هرموا اليها ونهبوا ما تحمل ، أما الموسرون فقد وجدوا في البطاطس والمكرونة بديلا !!

واقترنت هذه الأزمة ، بأزمة سياسية حادة ، إذ فوجئت السلطات البريطانية بالمظاهرات تعم أرجاء العاصمة ، ويهتف فيها المتظاهرون هتافات عدائية ضد بريطانيا وحلفائها ، منادين « الى الامام يا روميل .. تقدم يا روميل » وكان الامان بقيادة الجنرال روميل يتقدمون زاحفين على مصر من غربها ، من ناحية ليبيا .

فاضطربت أعصاب الانجليز ، وألقت الزمام من يد الوزارة ، فاستقال سرى باشا في ٢ فبراير سنة ١٩٤٢ . ورأى الانجليز أن من الخير لهم ولحلفائهم ، أن تكون في الحكم وزارة وطنية تسيطر على هذه الجماهير المقلقة لإراحتهم ولأمنهم . فلما السفير البريطاني اللورد كيلرن ، رئيس الديوان الملكي أحمد حسين باشا ، وسلمه اندارا الى الملك هذا نصه : « اذا لم أسمع قبل الساعة السادسة - أي مساء ٤ فبراير - أن مصطفى النحاس باشا قد دعى لتأليف الوزارة ، فإن جلالة الملك فاروق يجب أن يتحمل ما يترتب على ذلك من نتائج » . فلما الملك الزعماء ورؤساء الاحزاب ليشاورهم ، فاتفقوا على الاحتجاج على هذا الانذار ، قائلين : « ان في توجيه التبليغ البريطاني ، اعتداء على استقلال البلاد ، ومساسا بمعاهدة الصداقة (أي معاهدة ١٩٣٦) ولا يسع الملك أن يقبل ما يمس استقلال البلاد ، ويخل بأحكام المعاهدة » وحمل رئيس الديوان هذا الاحتجاج الى السفير البريطاني ، لرفضه وقال انه سيحضر لمقابلة جلالة الملك في الساعة التاسعة مساء . وقبل وصوله جاءت دبابات بريطانية مسلحة بالدافع وحاصرت قصر عابدين ، ووصل السفير وبصحبه « الجنرال ستون » قائد القوات البريطانية في مصر وبعض الضباط البريطانيين مسلحين بمسدساتهم . واجتمع السفير والقائد بالملك بحضور رئيس الديوان ، وقدم اليه ورقة بالتنسازل من عرشه ، او يدعو النحاس باشا الى تأليف الوزارة ، وانصرفا مع ضباطهم .

— « ان الموقف بينهم — اى بين انجلترا ومصر — محزن . ونعتقد انه هم يكن احد متأثرا ومتأسفا من هذا الموقف اكثر منا ، لاننا نقدر مخاطر ذلك على الجميع ، اكثر مما يقدره اى انسان آخر . ولذلك كان ، ولا يزال ، قلقنا عظيما . ولا يخفف من حدة هذا القلق ، الا شعورنا برجاحة العقل البريطانى ، ووطننا الحسن بالمستر ايدن وبحكمته ، للوصول الى التفاهم مع المصريين . ويحسن ان يكون المستر ايدن واثقا من اننا ما ادخرنا جهدا فى بذل كل ما يمكن من العمل مع اخواننا المصريين . ولكننا — كما يعلم — لا نحب الاعلان عن مساعيها . وزيادة على ذلك ، فانه اذا بدا لنا اى شىء او طريق يسهل الامر بينهم وبين مصر ، فسننتهزه ونخبرهم . ولكن كل ما ننتظره الآن ، هو بذل مساعى الحكومة البريطانية مع الحكومة الاميركية ، للوصول الى تفاهم مع المصريين . ونحب ان يكون واضحا ، اننا سبق ان ايدنا مصر فى الجامعة العربية فى مطالبها القومية ، ولا يمكن التخلف عن هذا التأييد ، لان هذا يخل بصفوف الدول العربية . وتأيدنا لمصر يجمع الكلمة ويساعد على السير مجتمعين فى حل مشاكل الشرق ، لان كل ما يهمنا هو قطع الطريق على الدعاية الشيوعية وعلى الشيوعيين فى البلاد العربية . هذا ما ينبغى ان نخبر به المستر ايدن ، فنحن وسائر الدول العربية على تأييد مصر ، فى الحاضر والمستقبل .

ودعا الملك الزعماء ورؤساء الاحزاب للتشاور مرة اخرى . وفى اجتماعهم هذا ، كلف النحاس باشا بتأليف الوزارة ، لاعتد برشدة ، فالح عليه الملك فقبل ، وعندئذ كلفه ان يذهب الى دار السفارة البريطانية ليبلغ السفير ، نيا قبوله التكليف .

وفى اليوم التالى (٥ لبرابر) ارسل النحاس باشا الى السفير كتابا قال له فيه : « كلفت بمهمة تأليف الوزارة ، وقيلت هذا التكليف الذى صدر من جلالة الملك ، بما له من الحقوق الدستورية . وليكن مفهوما ان الاساس الذى قبلت عليه هذه المهمة ، هو ان لا المعاهدة البريطانية المصرية ، ولا مركز مصر كدولة مستقلة ذات سيادة ، يسمحان للحليفة بالتدخل فى شؤون مصر الداخلية ، وبخاصة فى تأليف الوزارات او تغييرها ، وانى آمل ان تتفضلوا بتأييد ما فى خطابى هذا من المعانى » .

فرد السفير عليه بكتاب قال فيه : « لى الشرف ان اؤيد وجهة النظر التى عبر عنها خطاب رفعتكم المرسل منكم بتاريخ اليوم . وانى اؤكد لرفعتكم ان سياسة الحكومة البريطانية قائمة على تحقيق التعاون باخلاص مع حكومة مصر ، كدولة مستقلة ، وحليفة فى تنفيذ المعاهدة المصرية البريطانية ، من غير اى تدخل فى شؤون مصر الداخلية ، ولا فى تأليف الحكومات او تغييرها » .

« ونود ان تذكروا له كذلك ، اننا نعلق اكبر الامل عليهم ، وعلى
أصدقائنا وأصدقائهم الأميركيين ، في حل مشاكل الشرق الأوسط ،
وبالأخص مسألة مصر التي يتوقف عليها كل الأمور ، لأنه يجب ألا يعالط
أنفسنا . فانه ما دام هذا الشغب وهذا الاختلاف في مركز مثل مصر ،
تعلمون اهميته في الشرق الأوسط ، فان الاستقرار لا يمكن ان يكون . ان
الشعوب اليوم غيرها بالامس في كل البلدان ، وان العدو الالد السوفيتي ،
يفقدى كل شعور العداء ضد الغربيين . فالحكمة الرشيدة هي الا يكونوا عوناً
مع العدو ، حتى لا يفلت الزمام ، وتضيع الفرصة . ونحن نعتقد انه اذا
استعملت بريطانيا حكمتها واناتها المعهودتين ، مع مصر ، فلن يستعصى عليها
الامر ، وستحمد هي نفسها هذه السياسة الرشيدة » (١)

* * *

مما لن ينسى للملك عبد العزيز ، توفيقه في توطيد الأمن في ارجاء مملكته
الشاسعة ، فساد سكانها الاطمئنان على أموالهم وعلى ارواحهم ، وأصبح
هذا الأمن الشامل الذي يظل المملكة ، حديث العالم أجمع ، لا العالم الاسلامي
أو العربي وحدهما ، فانه لم يتوفر لأقطار أخرى من أقطار المعمورة .

(١) في يوم ٨ يوليو سنة ١٩٤٧ ، أرسل محمود فهمي النقراشي باشا رئيس الوزراء
ووزير الخارجية ، « هريضة دعوى الى مجلس الأمن » ، الى المتر تريجنى لى السكرتير
العام لهيئة الأمم المتحدة ، يطلب فيها ادراج موضوع النزاع بين مصر وبريطانيا بشأن
السودان في جدول أعمال مجلس الأمن . فعند المجلس يوم ٥ أغسطس لنظر هذه
النزاع ، وفيه اتقى النقراشي باشا خطباء اندد فيه بمماثلة بريطانيا في وعودها بالجلال
من وادي النيل ، وقال : اننا لم نعد نعيش في ظلمات القرن التاسع عشر ، بل نحن نحيا
في عالم اليوم ، عالم الميثاق ، في عالم الأمن الجماعي ، في عالم يرنو الى النظام والسلم ،
في خال لا يطبق مغامرات التوسع والاستعمار .

لرد عليه ممثل بريطانيا السر الكسندر كادوجان ، ردا حوى حججا واهية . فرد
عليه النقراشي باشا في جلسة عقدت في يوم ١١ أغسطس ردا شديدا قال في خلاله : « ان
بريطانيا كانت حجر عثرة في سبيل استقلالنا وتقدمنا الوطني في المائة عام الاخيرة » . ولم
يسكت كادوجان ، فوقف النقراشي في يوم ١٣ أغسطس ليقول : « ان مصر ترجو ان تحبه
حياتها كما تريد ، طليقة من تلك اليد الحديدية التي يبطش بها غزاة عتاة » وفي
يوم ٢٢ أغسطس ناقش الامم المتحدة النزاع ، وقدم الوفد البرازيلي مشروعا لا ينصف
مصر ، فرفضه النقراشي . وفي يوم ٢٦ قدم الوفد الاسترالي مشروعا آخر معدلا لمشروع
البرازيل ، ولكنه لا يختلف عنه اجمالا وظلما ، فرفضه أيضا . وفي يوم ٢٨ اتقى بيانه
الاخير ، وقد ضمنه تنفيذ لرد جديد من السر كادوجان ، وطلب من المجلس : « الا
يضع نفسه في موقف الحرج ، بأن يقرر ان هذا النزاع من شأن استمراره تهديد السلم ،
ثم لا يتخذ خطوة ايجابية انسانية للاخذ بناصر مصر ، التي تقف أمامكم قريسة لغزو
دولة استعمارية عاتية » .

وها نحن نقرا ونسمع في كل يوم ، عديدا من جرائم السرقات الخطيرة ، وجرائم القتل ، وجرائم الجنس ، وجرائم من كل نوع ولون ، الا السعودية ، فان السرقات فيها لا وجود لها ، وجميع الجرائم الاخرى ، هي كذلك لا وجود لها . وما حدث للمفقور له الملك فيصل من اعتداء ائيم على حياته في ٥ مارس من العام الماضي (١٩٧٥) ، هو حادث فردي ، كما تبين من التحقيق مع المتهم الائيم ، لم يحدث مثله من عشرات السنين .

مرد هذا الامن كله ، الى نهج واحد ، سار عليه الملك عبد العزيز ، فائمه الثمر المرجو ، وهو تطبيق احكام الشريعة الاسلامية تطبيقا عادلا ، لا يفرق بين الامير والخفير ، ولا بين الكبير والصغير

نشرت جريدة « المقطم » - وكانت احدي جريدتين يوميتين كبيرتين في القاهرة ، والثانية « الاهرام » - في يوم ٨ يناير سنة ١٩٣٠ كلمة لاحد محرريها قال فيها : « سئل قاضي « ينبع » في تلك السنة : ما نوع القضايا التي تعرض امامكم ؟ فقال : لقد زالت من امامنا قضايا الجنايات والسرقات وما اليها ، بعد ما دخل الملك ابن سعود الحجاز ، ونفذ احكام الشريعة الاسلامية في اولئك المجرمين الاثمين ، وصارت القضايا مقتصرة على خلافات يسيرة بين التجار » .

ثم مضى المحرر في كلمته فقال : « ان المسلمين في اقطار الارض قاطبة ، يذكرون اليوم البون الشاسع بين مهدين ، عهد الفوضى التي سادت الحجاز ، وجعلت جماعات من المجرمين المسلحين يسيطرون على الارض المقدسة ، فيفرضون على الحجاج ارادتهم ، ويحصلون منهم ما يشاؤون من اتاوات وضرائب . . يذكرون ذلك العهد البغيض ، وما انقلب اليه الحال اليوم ، بفعل جلالة الملك عبد العزيز آل سعود ، ومراعاته لاحكام الشريعة الاسلامية ، من انزال ابلغ العقاب بالدين تحدثهم انفسهم بالثمر والعصيان والاعتداء على الحجاج ، حتى سكنت كل نامة فلا تسمع الا هذوا وسلاما ، وصار اولئك الطفاة العتاة ، يسألون الناس رقدهم وعطاءهم ، ولا بجرؤ الواحد منهم ان يمد يده الى سيارة الحاج ، ولو سارت في جبح الظلام ، بل ولا القرب منها مطلقا ، فاذا اعطوا شيئا فرحوا ، واذا لم يعطوا قنعوا من الغنيمة بالاياب ، خشية ما يتهدهم من عقاب ، اذا هم حاولوا السرقة او الاعتداء .

« لقد اتاح هذا الامن للمسلمين ، أداء فريضة الحج بنفس مطمئنة ، بعد ما كان الحاج لا يسافر الا بعد ان يكتب وصيته ، ويودع اهله واصدقائه »

ونشرت « المقطم » أيضا في ٢٧ من المحرم من عام ١٣٥٧ كلمة للاستاذ محيي الدين رضا المحرر بها - رحمه الله - قال فيها بعد استقبال الملك عبد العزيز له :

« لقد نوهت بالامن الضارب في مملكة الحجاز ، بفضل ما يبدية جلالته من حزم وشدة ، في معاملة من تحدثهم انفسهم بالعبث ، وذكرت لجلالته ان سيارة تعطلت بي في طريق مكة ، فتمت الليل في الصحراء ، كنت فيها في امان وراحة ، لا يفوقهما ما اشعر به ، وأنا في داري المقفلة الأبواب ، وقلت ان هذا الامن لا تحلم به دول أوربا واميركا ذات الاستعداد الهائل . فلم يزد على ان قال : ان هذا كله من فضل الله عز وجل ، وليس عبد العزيز له :

وقد قرأت في كتاب «الرحلة الحجازية» للمرحوم محمد لبيب البتانوني بك وصفا سجل فيه مراحل سفر الخديو عباس حلمي الثاني خديوى مصر ، الى الحجاز لأداء الفريضة - وكان ممن صحبوه فيها في ذى الحجة سنة ١٣٢٧ - ديسمبر سنة ١٩٠٩ - وضمنه مشاهدات وتعليقات اجتماعية وتاريخية واقتصادية . فقل في الصفحة الثانية والثلاثين :

« لما صعد الخطيب - خطيب الحرم الشريف - المنبر ، صعد معه احد الاغوات ، وجلس على الدرجة التى تلى قدميه ، وهذا بلا شك عادة قديمة كانت للمحافظة على الخطيب في أثناء اشتغاله بالقاء الخطبة ، حتى لا تتسرب اليه يد اليمه »

وقال في الصفحة الستين :

« ويتخلف عن الحج كثير من اهل مكة ، ويطعمون بها ، للمحافظة على ديارهم من اللصوص الذين يكثرون في هذه الآونة ، فيقضون ليلهم سهرا ، بين اطلاق بنادقهم من كل الجهات ، اعلانا بانهم يقظون لكل من يقصدهم بسوء »

وقال في الصحيفة الثانية والثمانين بعد المائة :

« ووقت تحميل القافلة وتنزيلها ، تكثر السرقات من الحمالة ، وهم سائقو الجمال ، انفسهم . وقد يتفق جمالك مع جمال آخر ، فيحضر في الوقت الذى يهلك فيه بصراخه وبصياحه ، في حين ينقض الآخر على عفشك ويسرق منه ما تصل اليه يده ، حتى اذا هدا روعك ، شعرت بما نقص من

متنامك ، وهنالك يكثر الصياح ، فيقول واحد : خرجى - أى حقيبتى -
ويقول آخر : ملابسى . وغيره يصيح : لحافى ! وهكذا . وبعد هرج ومرج
من غير فائدة يسكت الصائحون ، شاكين أمرهم الى الله ، ويشتغلون بتجهيز
شؤونهم . ثم يستمعون الاعراب يتصايحون ، هذا يقول : الحطب الحطب .
وآخر يقول : الماء الماء وهكذا ، وما هم غير سارقين ما وصلت اليه
أيديهم ، ويفرون من حيث لا يشعر بهم أحد

« وبعد العشاء ينام الحجاج ، ويتناوبون السهر على حراسة عفشهم ،
ومن سهر منهم رأته على الدوام يصرخ بكلمات الاضطراب والانزعاج ،
كقولهم : « شايك » ! أو « ابغدا » ! أو « لا تقترب » ! وهكذا . والحجاج
يقضون حاجتهم بين رحالهم فى الغالب ، ومن ابتعد عنها لا بد أن يكون معه
أنيس يحرسه عند اشتغاله بنفسه ، والا فانه لا يحرم واحدا من الاعراب
ينقض عليه ، ويضربه فى رأسه بمصا يابسة قصيرة ، ضربة تخمد معها
انفاسه ثم « يسلحه » من ملابسه ، فاذا استغيبه صحابه ، قاموا للبحث
عنه ، فيجدونه فاقدوا الحياة ، فيوارونه التراب على حاله هذه ، واما فاقدوا
الشعور فيأخذونه ويقومون بشأنه . وقليل ما ينجو المجنى عليه من هذه
الضربة .

« وقد يقطع الحمالة بعض الجمال من القافلة فى أثناء سيرها ،
ويتظاهرون باصلاح حملها ، حتى اذا ابتعدت القافلة عنهم ، أوقعوا بركابها ،
وهم يستغيثون ولا يغاثون ، وسلبوهم متاعهم ، وكثيرا ما يجهزون عليهم ،
وفرون بجمالهم الى حيث ارادوا »

الكاتب والاديب والصحافى المصرى ذائع الصيت ، المرحوم الأستاذ
ابراهيم عبد القادر المازنى ، دعى مع لفيف من الصحافيين المصريين الى
الاشتراك فى الاحتفال بأول عيد لجلوس الملك فى عام ١٩٣٠ . فلما عاد وضع
كتابا جعل عنوانه : « رحلة الى الحجاز » ، اقتطف منه ما قاله عن الأمن
الشامل فى الحجاز ، بأسلوبه الفكاه الذى اشتهر به

قال فى الصحيفة العشرين ، بعد نزولهم الى ميناء « ينبع » :

« ركبنا زورقا الى المدينة ، وهى صغيرة فقيرة ، وبها مساجد
كثيرة ، أشهرها مساجد : ابن عطاء ، والخضر ، والسنوسى . وأهلها وكلاء
للتجار أو عمال لهم ، وليس فيها زرع ولا ضرع . وبها آلة لتصفية ماء
البحر للشرب . فاستقبلنا القائمقام الشيخ مصطفى الخطيب ، وهو من
أهلها ، وكان عاملا عليها فى عهد الحسين ، لم تنحه الحكومة السعودية ،

نرفقا منها عن حماقات العزل والتأمر . وانحدرنا الى المدينة نطوف فيها الى ان يخرج الامير والناس من صلاة الظهر ، فمررنا بالسوق ، وهى حارة ضيقة مسطحة ، على جانبيها الدكاكين ، فيها صنوف شتى من العطارة والبقول والمنسوجات والخبز والأسماك والجراد ، ولم يكن فى الدكاكين احد لأنه كان وقت الصلاة ، وكان الطريق غاصا بالاطفل ، يمشون وراءنا ويحفون بنا ، فى خرق ممزقة ، ومراقع لا تكاد تستر شيئا . فتساءلت : ماذا يحمى هذه المتاجر ان يسرق منها هؤلاء الغلمان الفقراء ؟ فقليل لى : لا خوف منهم ، لأنه ما من احد يجرؤ ان يسرق شيئا . . »

وفى صفحة ٤٦ وصف بيتا متعدد الابواب و « السلام » مما استغربه ، فقال : « . . وواستغربت كثرة الأبواب للبيت الواحد وتعدد السلام ، فقد تكون صاعدا فى وديعة الله وحفظه ، فاذا أمامك سلمان ، يذهب كل منهما فى ناحية ، فلا تدرى ايهما تأخذ ، هذا أو ذاك ؟ وخطر لى فى اول الامر ان سلما يؤدى الى حجرات الرجال ، وان الآخر يفضى الى مساكن السيدات ، ولكن خطر لى ايضا ان الاكثار من السلام المضلة والابواب المحيرة ، قد يكون اثرا من أيام القلق وعدم الاطمئنان ، أيام كان الناس يهاجمون فى دورهم على غرة ، ويكر عليهم المعتدون وهم آمنون فى سربهم ، فلا يبعد ان يكون الناس قد آثروا فى الأصل هذا الطراز المحير ، ليتسنى لهم ان يجدوا لهم والدويهم مخرجا أو مهربا ، اذا اقتحم عليهم الدار عدو . . »

وقال فى صفحة ٥٤ :

— « والأغنياء هناك — أى فى الحجاز — لا يدعون الفقر ، ولا يكتمون مالهم ، وان كانوا لا يضايقون الناس بمظاهر البلخ . والتجارة سوق رائجة مع الشرق والغرب ، والأحاديث صريحة ، والالسة طليقة ، وفى هذا دلالة على الاطمئنان . وقد كان الناس على ما علمت فى العهد السابق ، يخفون أموالهم ، ويتظاهرون بالمتربة ورقة الحال ، خوفا من الابتزاز ، أو الاقتراض الذى هو فى حكم الاغتصاب والمصادرة . أما الآن ، فيقول لى بعض الأصدقاء : ان الحكومة فى آخر العام قد تقفر خزائنها ، فتحتاج الى المال ، فتقترض من الأعيان ، حتى اذا جاء موسم الحج ، ردت اليهم ما أقرضوها ، بلا ربا . »

« وقد سألنا فى طريقنا الى مكة سائق السيارة ، وهو شاب كان أحد أفراد الفرقة الموسيقية فى جيش الحسين ، ان يحدثنا عن الفرق بين العهدين ، فكان جوابه : ان الأمن مستتب على أحسن حال ، وأنه ما من أحد يجرؤ ان يسرق أو يمد يده الى شيء فى الطريق »

وقال في صفحة ٦٧ ، بأسلوبه الشائق :

« سيدكرنى الحجاز دائما بان عصاى قطعت الطريق بين جدة ومكة، قطعته ساعة كاملة لا تنقص دقيقة بل ولا ثانية ، وردت الناس من الجانبين، ووقفتم صفين من الناحيتين ، متقابلين ، على أقدامهم ، الا من شاء أن يضرب في طريق آخر ، ويسير على نهج جديد .

« وشرح ذلك : انه في اليوم الثالث تغدينا عند الشيخ الطويل ، صاحب « شركة الفناعة للسيارات » . وقد كان على عهد الملك حسين مديرا للجمارك، وكان صاحب مال وفير ، فأتى عليه الاقتراض منه ، ولم ينقله الا انقراض حكم الحسين وابنه على ، ومجىء العهد السعودى بالأمن والطمأنينة وحرية التجارة ، فاتجر بالسيارات ، وعاد فوقف على رجليه

« وكان من المقرر أن نركب الى مكة بعد الفداء مباشرة ، ولكن الاكل طال، والألوان تعددت ، فنسينا مكة ، وذهلنا عن كل شيء ، وأخيرا قمنا من المسائدة آسفين متلفتين متلكئين ! وذهبنا الى بيوتنا ، فخلعنا ثيابنا ، ونضونا كل ما على اجسامنا ، ولفقمناها - أعنى اجسامنا - في مشامل كالبشكير غير مخيطة ، حتى أقدامنا خلعنا احاديثها واعتضنا منها « السباعيات » ، وهى نعال لها سبعة سيور من الجلد ، تدخل في بعضها الأصابع ، ويلتف البعض حول المفاصل ، ورمينا طرايشنا ، ثم جمعنا ثيابنا في الحقائب ، وتوكلنا على الله .

« وركبنا سيارة لا أدري من أى طراز هى ، وانما الذى أدريه انها كانت فخمة جديدة ، وانها لم تخرج الا في يومنا ذاك . وقلنا للسائق : سر على بركة الله ، وبقوة البنزين الذى خلقه الله ، وأعلم أننا سنتعشى عند سمو الأمير في قصر جلالة الملك باذن الله ، وان عليك ان تبلقنا مكة قبل موعد هذا العشاء بوقت يكفى للطواف والسعى ، ثم ارتداء الثياب .

« فقال : الله معنا . ان السيارة جديدة ، وليس في وسعى أن أسرع بها لئلا تتلف

« فقلنا : فلتتلف ، فان موعد الأمير لا يمكن ارجاؤه

« وما زلنا نلح عليه ونحاوره ونداوره ، حتى أطلقها ومضى بسرعة خمسين كيلو مترا ، وجزنا اول محطة في الطريق ، ومضينا نبغى الثانية ، واذا به يطل ثم يقف ويلتفت الينا ويقول :

« حريق .. انزلوا ..

« ففتحت الباب من ناحيتى وأسرعت فنزلت . ويظهر أن عصاى التى لم أعن بها من فرط الفزع ، سقطت الى الأرض . وصار فى وسعنا بعد أن بعدنا عن السيارة ، أن ننظر اليها ، وأن نرى الدخان صاعدا من بين عجلاتها ، والسائق يهيل عليها الرمل عوضا عن الماء . فانقطع الدخان وشرع يعالجها ، وكانت سيارتان قد أدركتنا ، ونزل زملاؤنا ووقفنا نتحدث ، واقترح رياض أفندى المصور أن يرسمنا ونحن محرمون (كان رياض المصور هذا ، واسمه كاملا رياض شحاته ، مصور الملك فيما بعد) .

« ولا اظيل . ركبنا السيارة ، واستأنفنا السير على مهل ، وانسييت العصا ، لأن الخوف من احتراق السيارة صرفنى عنها ، وجعلت وكدى طول الطريق ، أن أخرج وجهى من نافذة السيارة ، وأنظر الى العجلة من ناحيتى ، وأن أشم ، لعل دخانا. صاعدا فائبه السائق

« والطريق الى مكة طريقان : واحد للسيارات ، والآخر للجمال ، وقد عدت خمسين جملا فى قافلة ، وكانت تحمل بضائع شتى فى الصناديق والأكياس أو الفرائر ، وليس معها سوى طفل واحد ، هو كل حرس هذه القافلة المقرية

« وبلغنا « الشميسة » قبل الغروب بدقائق ، واستقبلنا وفد طويل عريض من مكة ، جاء ليرحب بنا ويحتفى بمقدمنا . وبينما نحن نتحدث ، دعى مدير الشرطة أو لا أدري من هو ، الى التلفون ، فاستأذن وذهب ، ثم عاد ليسأل :

« هل لأحدكم عصا ؟

« فقلت : نعم ، انا لى عصا ، ولكنها والله فى السيارة تركتها فيها ، لأنى لا أدري هل يجوز أو لا يجوز ، أن يحمل المحرم عصا ..

« قال : ما أوصافها ؟

« قلت : وما شأنك أنت بالله ؟ هى عصا والسلام

« قال : لا لا لا ، لقد وجدت عصا فى الطريق قرب « الرغبة » فقطعت على الناس السبيل ..

« فضحكت وقلت : أؤكد لك أن عصاى تحترم القانون ، ولا تخرج على النظام ، ولا تعرف قطع الطريق !! ..

« فلم يجد حتى باتسامه ، وضاعت على التكتة في هذا البلد الجاد ،
« وقال أبحث عنها من فضلك ، فإن الطريق مقطوع ، ولا أحد يروح
ولا أحد يقدو .

« فهرولت في مشاملى الى السيارة ، فلم أجد العصا ، وقلت له :
« هى عصاى قاطعة الطريق ، فاسمح لى أن اعتذر بالنيابة عنها !
« فمضى عنى الى التلفون ، وخفت أن يأخذونى بها ، ويجزوني بما
صنعت ، فان للقوم هنا شريعة غير القانون المدنى ، فعدوت وراءه ، وأسرت
اليه وهو يتكلم فى التلفون :
« اذكر من فضلك أن الله تعالى يقول فى كتابه المنزل : « ولا تزر وازرة
وزر أخرى »

« فلم يزد على أن التفت الى وقال :
« هل نردها الى جدة ، أو ندرلك بها فى مكة ؟
« فقلت : لست أريدها والله ، فانها فاجرة كما ترى ، وأخشى أن
ينزو برأسها خاطر آخر . أفلا يمكن دفنها فى الرمال مثلا ؟
« فقال للتلفون لا لى : أرسلها مع الشرطة الى الضيافة
« فصحت به : لا لا ، ردها الى جدة من فضلك ، فحسبى ما صنعت !
« فقال لمخاطبه فى التلفون : بل ردها الى بيت العوينى فى جدة
« ولست مبالغا فيما رويت عن عصاى ، وما صنعت . فقد كنا فى
الطريق اذا بلغنا محطة واحتاج السائق الى ماء يبرد به جوف السيارة
الذى يغلى ، يصبح بأحد الواقفين : هات ماء ! فلا يتحرك ، ولا يدنو منا ،
بل يقول وهو واقف فى مكانه : تفضل ! فينزل السائق ويجيء منه بما يريد ،
وقد سألنا عن سر هذه الجفوة وقلة الدوق ، فقليل لنا : بل عو الخوف
من أن يدنو الغريب من السيارة ، فيتفق لسوء الحظ أن يضيع شيء من
الأدوات ، أو مما تحمل السيارة ، فيتهم الرجل بالسرقة ، وجزاء السارق
هنا قطع اليد . وقد أمن ابن سعود الناس على أرواحهم وأموالهم بشيئين :
بقطع يد السارق ، وبما يسمونه « التصبيحة »

« فأما السرقة وقطع اليد ، فأمرهما ظاهر لا يحتاج الى بيان ، وقد
قسا ابن السعود فى أول الأمر ليزجر اللصوص ، حتى لقد حكوا لى أن
رجلا جاءه بكيس فيه بن ، وقال له : هذا كيس بن وجدته فى الطريق ..

« فسأله : ومن ادراك ان فيه بنا ؟ جسسته او فتحتة او نظرت فيه ؟
ولو وجدت فيه مالا بدلا من البن ، لأخفيته ولم تظهره ، ولم تسع به الى ؟
كلا .. حتى الجس لا يجوز . اقطعوا يده .. »

« ومن اجل ذلك يقع الناس على الشيء في الطريق ، فلا يقربونه ابدا .
بل بلغ من ازدجارهم ، انهم ربما مالوا الى طريق آخر ، غير الذي فيه
هذا الشيء المطروح ، حتى يمر شرطى فيحمله ويبحث عن صاحبه ، أو
يمروا هم بالشرطى فيبلغوه ، واذا لم يقفوا على صاحبه ، نشروا في « أم
القرى » اعلانا تحت عنوان « لقطات »

اما « التصبيحة » فشيء آخر : تكون هناك عشيرة صرت بالسطو ،
فينذرهما ابن السعود مرة ثم أخرى وثالثة ، فان كفت وتركت الناس
آمنين ، واستقامت على الهدى ، فيها والله الحمد . والا همس في اذن واحد
من قواد جيشه « ان يصبحها » . فيذهب الرجل في فرقة من الجيش من
غير ان يفضى الى احد بغايته ومقصده ، ويتجنب في طريقه الى العشيرة
مواضع الماء ، ويضرب بجيشه في الصحراء التي لا تطوها قدم ، ليظل امره
خافيا وغايته مكتومة ، ويقع على العشيرة في الفجر ، فيصلى بجيشه ، ثم
يطلق عليها رجاله ، فيصبحونها وهم يصيحون :

« هبت هبوب الجنة ، أين انت يا باغيها . خيالة للتوحيد اخوان من
اطاع الله .. فلا يبقون ولا يذرون

« ولم يصبح ابن السعود سوى عشيرة واحدة قرب المدينة مد دخل
الحجاز ، لأن الأمر بعد ذلك لم يحوجه الى « تصبيحة » أخرى »

وقال المازنى في صفحة ٦٦ :

« .. ولم أر في الحجاز امرأة ولا بائعا متجولا ولا شيخا هما يقوم على
الراحتين ، ولا جنازة ميت . ولعلى لم أر مقعدا أو سطيحا أو كسيحا ،
لأنى لم أبفهم حيث يكونون . ولكنهم على كل حال لا يرون في الطرقات
وعلى أبواب المساجد وأفاريز الشوارع . ولكنى استغربت ان اقضى ستة
أيام في الحجاز ، فلا تقع عيني على جنازة ميت ، ولا أسمع ان واحدا ملأ
هذه العاجلة وآثر عليها الآجلة . ولا أدري ماذا يغرى الناس هناك بالبقاء ،
ويجب اليهم الدنيا وهى بلاقع ، على حين يستطيعون ان ينتقلوا في طرفة
عين ، الى الفردوس وقصوره وحوره وولدانه وانهاره من لبن وعسل
وخمر !!! »

وكتب أمين الريحاني - فيلسوف لبنان او فيلسوف « الفريكة » مسقط رأسه - في كتابه « ملوك العرب » فصلا عنوانه « أساس الملك » قال فيه :

« العدل أساس الملك ، ومن العدل ما كان يعجب ، ومنه ما كان يرعب ويخيف . وقد شاهدت من مظهره في بلاد نجد ، ما لم اشاهده في البلاد العربية كلها . بل ما وجدت خارج نجد بلادا تتمثل فيها هذه الحكمة « العدل أساس الملك » ذلك التمثيل الصحيح الشامل ، ذلك التمثيل المعجب المرعب معا . عدل ابن سعود كلمة تسمعا في البحر وفي البر ، وفي طريقك الى نجد قبل أن تصل اليها . كلمة يرددها الركبان في كل مكان يحكمه سلطان نجد ، من الاحساء الى تهامة ، ومن الربع الخالي الى الحوف ، وما عدل ابن سعود غير الشرع ، غير عدل النبي ، أضف اليه قسوة في بعض الأحكام الاجتماعية ، اشتهر بها المذهب الوهابي

« العدل أساس الملك ، والأمن أول مظهر من مظاهر العدل . وفي نجد اليوم من الأمن ، ما لاتجده في بلاد الانتداب السعيدة ، بل في البلاد المتمدنية ، لا يظنني القاريء مبالغا بما أقول ، ولست على ما أقول مستشهدا بنفسي ، مع أن رحلتى النجدية استمرت خمسة أشهر ، قطعت في اثناها الدهناء مرتين : جنوبا في طريقى من الحسا الى الرياض . وشمالا في طريقى من القصيم الى الكويت . وكانت حقائبى ، وفيها مالى ، مكسرة الأقال مفتوحة ، وهى مع الحملة بعيدة عنى النهار كله . وكان في خدمتى أناس من البدو ، ولم أفقد مع ذلك شيئا من حوائجى ، ولا ورقة من أوراقى . .

« كيف تمكن ابن سعود من إقامة مثل هذا الأمن وتوطيدة في بلاده ؟ بأمرين : أولهما الشرع . وثانيهما الإرادة والوجدان في تنفيذ أحكام الشرع تنفيذا لا يعرف التردد ولا التمييز ، ولا المحاباة ، ولا الرأفة ، ولا الحنان

« وليس السلطان وحده في هذا الأمر الخطير ، فان أمراءه كلهم يأخذون عنه ويتمثلون به . وبين هؤلاء الأمراء رجل مشهور يحكم « الحسا » ، يجلس في كرسي القضاء وحده ، فلا تجلس معه الرحمة ، ولا تجلس معه المحاباة . عدله عدل عمر بن الخطاب ، وقسوته قسوة البدو . وهو عبد الله بن جلوى أمير الحسا ، وابن عم السلطان عبد العزيز

« جاء عبد الله ذات يوم ، رجل يشكو ولدا ضربه وشتمه ، فسأله : عبد الله : ومن الولد ؟ فقال الرجل : لا أعرف اسمه . فقال عبد الله : وهل تعرفه اذا عاينته ؟ فأجاب الرجل بالإيجاب . . فأمر الأمير بأن يجمع عنده

أولاد ذاك الحي من البلد ، فأحضروهم كلهم ، وجاء الشاكي « فنظر اليهم ، وأشار الى غريمه . فهمس احد الحضور باذنه : هو ابن الأمير . . فجمع الرجل بعض كلمات اراد بها الاعتذار والغدول ، فرده الأمير ، وسال الولد ، فأمر بدبه ، فأمر العبيد ان يسطوه أمامه ، ويقدموا للشاكي عسيبا أخضر من النخل ، فتردد العبيد ، وأحجم الرجل ، فأخذ الأمير القضيب بيده ، وانهال على ابنه بالضرب وهو يقول : اذا كنا لا نبدا بأنفسنا ، فكيف نعدل بغيرنا ؟ »

وقرات في الصفحة الخامسة والخمسين من كتاب « مساهداتى في الحجاز » للاستاذ عباس متولى ، وقد ألفه في سنة ١٩٣٦ ، قوله :
- « حديث استتباب الأمن في الحجاز ، أصبح اليوم حديث الناس وموضع دهشتهم وتعجبهم ، ثم هو سمر المنتديات الاسلامية والمجالس الدينية ، وموضع عناية الصحف والمجلات الشرقية المسلمة ، بل هو الحديث الطيب الذى يلد للحجاج أن ينقلوه الى بلادهم حين عودتهم من الحجاز وبعدها . ولقد كنت اظن حين أسمع هذه الأخبار أنها دعابة طيبة لأهل الحجاز ليس غير ، الى أن كان لى شرف السفر الى هذه البلاد ، وأنا غير مصدق استتباب الأمن بهذا الشكل الذى سمعته .

» . . . وصلت جدة وسرت داخل الصحراء الى مكة ، بين جبال مرتفعة وادغال وأخاديد وكهوف ، وكنت أرى فى الطريق جيوشا من العرب العرايا والبدو الجياع ، يسابقون السيارة جريا ، ويمدون أيديهم يطلبون احسانا ، فاستبعدت استتباب الأمن فى هذه البلاد الجبلية وفيها مثل هؤلاء السكان الجياع ، اذ ما يمنع الجانى من ارتكاب جنايته ، وهو فى مأمنه من أعين الرقباء ؟ فالكهوف تقيه ، والجبال تحميه ، والحاجة شديدة تمزق أمتن اثواب العفة . . . الى أن وقعت حافضة نقود أحد حجاج مركز كفر الشيخ ، حضرة أحمد بك العيسوى فى اثناء طوافه حول الكعبة ، وكان بها ٣٢ جنيها مصريا ، وكان أحمد بك فى يأس وقنوط من رجوعها ، ولكن اجابة لرغبة صديق كان معه ، ذهب الى حضرة مدير الأمن العام وأخبره بالحادث ، فأحضر الضابط المختص بحراسة المسجد الحرام وأخبره بالأمر ، فأخرج الضابط من جيبه عدة حافظات ومن بينها حافضة أحمد بك ، فأخذها وهو غير مصدق ان المبلغ بها ، ولما فتحها وجد نقوده كاملة ، فأخرج منها مبلغا كبيرا ليعطيه للضابط اعترافا بجميله وشكرا على أمانته ، فرفض أخذه قائلا : انه ما قام بحفظها الا قياما بالواجب الدينى ، واحتفاظا بسمعة هذا البلد الأمين ، وخوفا من رب هذا البيت العتيق . . . وتوجهت الى مقر مدير الأمن ، فرأيت جدولا مطلقا على بابه الخارجى ، جوى صور الأشرار والمجرمين

وقطاع الطريق ، وقد كتب تحت كل صورة ، اسم صاحبها وقبيلته ونوع جنائته ، والصورة تمثله بعد أن أجرى القصاص عليه ، أى بعد أن قطعت يده ، وقد علت الآية الكريمة « ولكم في القصاص حياة » هذا الجدول .

« حدث هذا في مكة . ولقد حدث لنا ونحن في طريقنا الى المدينة في ليلة مظلمة ، في جهة منقطعة عن العالم ، مرتفعة الجبال ، لا يسمع الانسان فيها غير صدى صوته وحركة أنفاسه ، وخيالات السراب تملأ نفوسنا ذعرا وخوفاً ، حتى يخیل الينا أنها ستتخطفنا من السيارة ، فتحصنا بها ، وأغمضنا أعيننا حتى لا نرى هذه الأشباح المزعجة ، وما نشعر الا وقد كسرت بنا السيارة ، فاشتد هولنا وعظم فزعنا ، وتحققنا الموت في هذه الفجاءة ، والهالك من يد الأعراب ، وأبيننا النزول من السيارة خوفاً على حياتنا ، ولكن السائق أكد لنا انها لن تصلح الا اذا نزلنا ، فاسترجعنا الى الله ، ونزلنا منها الى الأرض ، وارواحنا في أيدينا ، ويخیل الينا ان عزرائيل ممثل في هؤلاء السدود الذين يستكنون هذه الفجاءة ، فزادت مخاوفنا منهم .

« لكن الغريب انهم حينما كسرت السيارة ، جاؤوا يطلبون احسانا ، ولا يسألوننا الحافاء . فرجعت الى نفسى بعض قوتها ، وهذا خاطرى نوعا ، فاقترب احدهم يطلب منى صدقة ، فأعطيت غيره متظاهرا بالغنى والثراء . فقال : اعطنى يا حاج . . . فقلت : خذ ما تريد من جيبى . فقال : حرام عليك ، وماذا جنيت حتى تريد قطع يدى ؟ لا يابوى ، أنا لا أطلب شيئا . فقلت له : وممن تخاف ؟ قال : من بنى سعود . فقلت : اننا في عزلة عنهم . فقال : انهم يرونى حتى وانا في داخل هذه المغارة ! !

« فدهشت ، ورددت قول سيدنا عثمان بن عفان رضى الله عنه : « ان الله ليزع بالسلطان ، اكثر مما يزع بالقرآن » واعطيت الرجل ما تيسر ، ولبثنا في مكاننا الى ساعة متأخرة من الليل ، جلبوا لنا في اثناء تلك المسدة الماء واللبن ، واكرموا وفادتنا مقابل احسان بسيط ، ونام بعضنا تحت حراستهم وفي حمايتهم ، دون ان يتعرض واحد منهم لنا بسوء .

والقى الأستاذ محمد مكين العضو الصينى فى مجلس ادارة « جماعة التعارف الاسلامى » محاضرة فى دار الجماعة بالقاهرة فى يومى ٢٢ و ٢٩ ربيع الاول سنة ١٣٥٣ ، عنوانها « نظرة جامعة الى تاريخ الاسلام فى الصين واجوال المسلمين فيها » ، قال فيها :

« . . . ولا يوجد فى كل وفد صينى سوى شخص او شخصين يقدرون على التفاهم مع الحجازيين بشىء من الصعوبة ، ولأجل هذا كان المطوقون

يفشونهم في التكاليف ، والبقالون يغالون عليهم في أسعار الحاجات الضرورية ولا مغيث اذا استفتاوا . اما الآن ، فله الحمد ، لم نسمع هذه الشكاوى بعد ما تولى صاحب الجلالة الملك عبد العزيز بن سعود ، حماية البلد الجرام » .

* * *

لقد رغب بعض كبار رجال القانون والفكر في أوروبا ، في الاجتماع بالعلماء في المملكة العربية السعودية « للتعلم في مفاهيم حقوق الانسان في الاسلام » واعربوا عن رغبتهم هذه لسفير المملكة في باريس ، فأبلغها الى وزارة العدل السعودية ، فعقدت ندوة علمية في الرياض ، بدأت حلقاتها في يوم ٢٢ مارس سنة ١٩٧٢ (٧ صفر سنة ١٣٩٢) ، فألبرت « عقوبة السرقة في الاسلام ونتائجها المقارنة » فقال رئيس الوفد السعودي ، وهو رئيس الندوة كذلك ، معالي وزير العدل الشيخ محمد الحركان :

« . . . اما جريمة السرقة وعقوبة قطع اليد عليها ، عندما تنتفى الشبهات عن الجريمة ، ومنها أن ترتكب بدافع المجاعة ، مثلاً ، فاننا مع الاساتذة الحقوقيين في قساوة العقوبة . غير أن معظم جرائم السرقة في بلاد الغرب ، هي جرائم مسلحة ، ولذلك كان الغالب في جرائم السرقة ، أن لا تتم الا بعد قتل الماروق منه . واننا نتساءل : لماذا الشفقة على يد السارق ، دون الشفقة على رقبة الماروق منه ؟ » .

وتابع رئيس الوفد السعودي كلامه : « غير ان قساوة حكم عقوبة السرقة في الاسلام ، هي التي صانت يد السارق من القطع ، كما صانت روح الماروق منه ، وحفظت السلام للجميع . وان عقوبة القطع ليد السارق لا تكون الا عينية ، وذلك من أجل المبالغة في الردع » .

وهنا علق الدكتور معروف الدواليبي - وهو وزير توري سابق وسافر الى السعودية للعمل بها - عضو الوفد السعودي ، قائلاً :

- « اننى اعلن أنه قد مضى على في هذه البلاد سبع سنوات ، ولم أسمع ولم اشاهد قطع يد للسرقة ، وذلك لندرتة ، وهكذا لم يبق من هذه العقوبة الا قساوة الحكم التي جعلت الناس جميعاً في أمن واستقرار ، وحفظت حتى على الراغب في السرقة سلامة يده ، اذ منعتة قساوة حكم العقوبة نفسها من الوقوع في الجريمة . ان هذه البلاد عندما كانت في ظل قانون العقوبات الفرنسي في عهد الدولة العثمانية ، ما كان يستطيع الخجاج السير في أمان على مالههم وارواحهم ، ما بين المدينتين المقدستين : المدينة المنورة ومكة المكرمة ،

الا في ظل خراسة قوية من الجيش . ولكن عندما انتقل الحكم في هذه البلاد الى الدولة السعودية ، وأعلنت فيها شريعة القرآن ، اختفت الجريمة فورا ، وأصبح المسافر من الظهران على الخليج ، الى جدة على البحر الأحمر ، فضلا عن السفر فيما بين المدينتين المقدستين ، يستطيع متابعة سفره وحده في سيارته الخاصة ، وان يخترق الصحراء ، ويجتاز أكثر من ألف وخمسمائة كيلو متر ، دون أن يخشى على نفسه او على ماله ، ولو بلغ ماله الملايين من الدولارات ، ولو كان أجنيا عن البلاد .

وعاد رئيس الوفد السعودي الى الحديث ليقول :

— « ان اموال الدولة هنا — حيث تطبق الشريعة الاسلامية — تنقل في سيارة عادية ما بين مدينة واخرى ، ومصرف وآخر ، دون اية حراسة ولا حماية ، غير سائق السيارة نفسه ، ولكن خبروني ايها السادة : هل تستطيع دولكم في الغرب ان تنقل مبلغا من المال من مصرف الى آخر في احدي العواصم ، دون حراسته بالعدد الكبير من الحراس المسلحين ، وبالعدد اللازم من السيارات المصفحة ؟ هنا فقط ايها السادة ، وفي هذه البلاد حيث تطبق فيها احكام الشريعة الاسلامية ، استطاع وزير خاجية الولايات المتحدة الاميركية ، المستر روجرز ، في زيارته للمملكة العربية السعودية في العام الماضي ، ومرافقوه ، التخلي عن سياراتهم المصفحة التي رافقتهم في طائرات خاصة في زيارة اكثر من عشر دول . . . هنا فقط ، رفضت المملكة العربية السعودية قبول انتقال هؤلاء الضيوف في سياراتهم المصفحة هذه ، ولم يتم المستر روجرز نفسه زيارته ، حتى تخلى اخيرا عن حرس الشرف الذي يصحب ، في العادة ، الضيوف من الدول الأجنبية ، ونزل الى السوق وحده وبدون حراسة ، وقال : هنا ، وفي هذه البلاد فقط ، يشعر الانسان بالأمان وبلاستغناء عن الحراسة » .

ثم اختتم حديثه قائلا : « وبعد ، ايها الضيوف الكرام : الا تشعرون معنا بعد هذه النتائج الباهرة من الأمن والاستقرار والاطمئنان في هذه البلاد على النفس والمال ، انه من الواجب علينا ان نتمسك باحكام ديننا في عقوبة هذه الجرائم التي كادت لا تذكر في هذه البلاد ، في حين لا يأمن الانسان مثل ذلك ، لا على نفسه ولا على ماله ، في جميع العواصم الكبرى المتحضرة التي تحكمها القوانين البشرية ؟ اننى لا ازال اذكر في الصيف الأسبق حينما كنت في باريس ، حادث السطو المسلح ، على اكبر مطعم من مطاعم باريس ، بالقرب من شارع شانزلزيه ، وبجصور المئات من الزبائن ، حيث تمكن المجرمون من افراغ صندوق المطعم ، بينما جميع الزبائن مشدوهون ،

لا يستطيعون حراكا ، وقد أصبحنا والخبر منشور في جميع الصحف
الباريسية « (١) » .

وكان الوفد الحقوقي الأوربي برئاسة المستر سيد ماك برايد الأستاذ
بجامعة دبلن ووزير خارجية إيرلندا السابق ، والرئيس السابق أيضا لاتحاد
المجلس الأوربي ، والسكرتير العام السابق كذلك للجنة التشريعية الدولية .

* * *

وبعد : فقد اخترت أربع صفحات ذهبية من تاريخ عبد العزيز بن عبد
الرحمن الفيصل آل سعود ، الحافل بكل جليل وخطير ، هي أظهر ما عرف
عنه واشتهر به :

الاولى : غزوه الرياض بأربعين رجلا ، وارساؤه قواعد مملكة عتيقة ،
هي اليوم في مقدمة شقيقاتها العربيات : عزا وجاها وسلطانا .

الثانية : موقفه الكريم العظيم المشرف من قضية فلسطين ، المتمثل في
دفاعه عنها ، دفاعا سندده الدليل والحجة والبرهان ، ومصارحته اصدقائه
من الأمريكيين والبريطانيين بسوء عاقبة تأييدهم الصهيونية ، وتحذيرهم من
مغبة عدائهم العرب . ولقد تحقق ما حذر منه وأندر به .

الثالثة : حبه مصر وشعبها ، ووقوفه بجانبها مدافعا عنها .

الرابعة : هذا الأمن الشامل الذي تنعم به مملكته ، ويسود جميع أرجائها
مع سعة أرضها ، مما لم يتوفر الى اليوم في أعظم دول العالم حضارة ومدينة
ووقيا .

ولعلني بعرض هذه الصفحات البيض - وكل صفحاته بيض - من حياته،
أكون قد وفقت في رسم صورة صادقة لهذا الملك العربي العظيم ، أمام قراء
العربية ، لا زيف فيها ولا تزوير ولا تجميل .

ومع هذا ، فلنأمل لهم صورته ، أجمل فيما يلي من السطور ، حقائق
عرفناها عنه ، ويجب أن يعرفها كل عربي :

● كان الرجل حفيظا على دينه ، لا يقبل أن يمسسه سوء من قريب
أو من بعيد ، ولا يقبل في سبيل هذا الحفاظ شفاعة شفيع في منحرف ، ولو
كان هذا الشفيع من الدين يحمل لهم كل تقدير واحترام .

حدثني المرحوم محمد علي علوبة باشا - من وزراء مصر السابقين ومن
المجاهدين العرب في شتى الميادين ، وقد عقدت فصلا عن حياته في الكتاب

(١) من كراسة من الندوة أصدرتها وزارة الاعلام السعودية في سنة عقد الندوة

الأول من « رجال ومواقف » - منذ أكثر من ثلاثين عاما ، وكنا في داره بمصر الجديدة ، عن شدة تمسك الملك عبد العزيز بدينه ، في معرض الحديث عن نظرة بعض زعماء العرب يومذاك الى الدين ورسالته ، فقال :

- لجأ الى شاب سعودي اسمه عبد الله القصيمي ، لا توسط له عند الملك عبد العزيز كي يرضى عنه ويصفح ، فيعيده الى ساحة رعايته وعطفه ، فكتبت الى الملك راجيا رضاه عنه ، فما لبثت ان تلقيت من جلالته كتابا يفيض بشدة الحرص على الدين « ومقاومة المعتدين عليه بلا رحمة أو شفقة » .

واخرج علوبة باشا من درج بمكتبه ، كتاب الملك اليه ، وقدمه الى لاقراه وتاريخه ١٠ ربيع الثاني سنة ١٣٦٦ ، فقرأت :

« بسم الله الرحمن الرحيم

« من عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل ، الى صاحب السعادة محمد على علوبة باشا سلمه الله

« السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد ، فقد تلقينا كتاب سعادتك المؤرخ ٢٧ ربيع الأول ١٣٦٦ ، واحطنا علما بما جاء فيه ، ونحن اذ نشكر لكم عواطفكم ، وحسن مقاصدكم ، نحب أن نوضح لكم حقيقة قضية عبد الله القصيمي .

« تعلمون سعادتك ان المذكور هو من رعايانا ، ونحن الذين احطناه بمساعدتنا ومعاونتنا ، وكنا نعنى بأمره العناية التامة ، ولا قصرنا عنه في شيء حينما كان يقوم بواجبه نحو دينه ، ولكنه حاد أخيرا عن سبيل الحق ، وتنكب الطريق السوي ، فأصدر كتابه « هذه هي الأغلال » الذي ملأه بما يمس الدين ، ويخالف عقيدة المسلمين . ولما كان المذكور من رعايانا وخاصتنا ، صار لزاما علينا ان ندعوه الى الحق . ونحن اذا راينا امرا يمس الدين قاومناه ولا نبالي ايا كان الفاعل ، سواء كان القصيمي أو غيره . وقد دعوناه الى التوبة والرجوع الى الحق ، ولكنه لم يفعل . لذلك فمن المستحيل ان نرضى عن المذكور الا اذا رجع الى الصواب وخطأ نفسه . وتعلمون اننا لسنا ممن يتعصبون في أمور لا فائدة منها ، اذ أن هنالك كتباً لا تحصى مطبوعة ، مشحونة بالعقائد الفاسدة . اما ان يصدر مثل ذلك من أحد رعايانا ، وممن ينتسب إلينا ، فلا نقدر على السكوت عليه ، ونبرأ الى الله منه . فالقصيمي اذا رجع الى الصواب ، كان بها ، والا فلا . وسعادتك تعلمون عقيدتنا ، هي واضحة مثل الشمس ، ولا تقبل ولا نوافق على مسها أو تبديلها .

« هذه هي حقيقة القضية (١) ، شرحناها لسعادتكم ، لتكونوا على بينة منها .

« تولانا الله وإياكم بعنايته وتوفيقه . والسلام » .

ختم « عبد العزيز »


وهذه صورة زنكوغرافية لكتاب الملك :

بسم الله الرحمن الرحيم

الرقم ١٠٥٤٩/٥٨/١/٢١

التاريخ ١٣٦٦/٤/١٠

من عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل الى صاحب السعادة محمد علي علويه باشا سلمه الله
السلام عليكم ورحمة الله وبركاته . وبعد فقد تلقينا كتاب سعادتكم المؤرخ ٢٢ ربيع الاول ١٣٦٦
واحطنا علما بما جاء فيه . ونحن اذ نشكر لكم عواطفكم وحسن مقاصدكم نحب ان نوضح لكم حقيقة
قضية عبد الله القصيمي .

تعلمون سعادتكم ان المذكور هو من رعايانا ونحن الذين احطنا بمساعداتنا ومعاونتنا وكنا
نعنى بامر المنساية التامة ولا قصرنا عنه في شيء . حينما كان يقوم بواجبه نحو دينه ولكن نفسه
حاد اخيرا عن سبيل الحق وتتكب الطريق السوي قاصدا كتابه (هذه هي الاغلال) الذي ملأه
بما يمس بالدين ويخالف عقيدة المسلمين ولما كان المذكور من رعايانا وخاصتنا صار لزاما علينا
ان ندعوه الى الحق ونحن اذا راينا امرا يمس بالدين قاومناه ولا نبالي ايا كان الفاعل سواء كان
القصيمي او غيره وقد دعونا الى التوبة والرجوع الى الحق ولكنه لم يفعل . لذلك فمن المستحيل
ان نرضى عن المذكور الا اذا رجع الى الصواب وخطأ نفسه . وتعلمون اننا لسنا ممن يتعصبون
في امور لا فائدة منها ان هنالك كتباً لا تحصى مطبوعة منشورة بالعقائد الفاسدة اما ان يصدر
مثل ذلك من احد رعايانا ومن ينتسب اليها فلا نقدر على السكوت عليه ونبرا الى الله من نفسه
فالقصيمي اذا رجع الى الصواب كان بها والا فلا . وسعادتكم تعلمون عقيدتنا هي واضحة
مثل الشمس ولا تقبل ولا نوافق على مسها او تبديلها هذه هي حقيقة القضية شرحناها لسعادتكم
لتكونوا على بينة منها تولانا الله وإياكم بعنايته وتوفيقه 

(١) عبد الله القصيمي صاحب هذه القضية ، هو كاتب سعودى الف كتابه « هذه هي
الاغلال » في عام ١٩٤٨ ، سخر فيه من الخالق عز وجل ومن قدره ، ومن النبي عليه الصلاة

● حتى مع ابنائه ، هو قاس شديد عليهم في سبيل حفاظه على الدين .
فقد تفقد بعد صلاة الجمعة ابنا له في المسجد ، فلم يجده ، ثم رآه في الدار ،
فسأله عن سبب عدم صلاته الجمعة ، فقال له انه تأخر عنها عن غير قصد ،
فأمر بسجنه وسجن خدمه ، حتى لا يتخلفوا عن الجمعة مرة أخرى .

● وانطلاقاً من تدينه الشديد باعتباره امام الأئمة ، نراه يندد بالشيوخ
كما رأيت في كتابه الى المستر ايدن . ثم نراه في رسالة بعث بها الى المندوب
السامي البريطاني في مصر في ١٢ جمادى الثانية سنة ١٣٤٦ ، يبدى كرهه
الشديد للسوفييت ولحكومتهم ، فقال عن هذه الحكومة عندما حاولت حيازة
نفوذ اقتصادي في بلاده :

« قد يكون المفيد لاقتصاديات بلادنا ، تسهيل التجارة مع روسيا ،
ولكننا نرى في ذلك ضرراً لا يستهان به على منتجات البلاد البريطانية . رانه
وان لم يكن بيننا وبين الحكومة البريطانية أية اتفاقية تجارية لرعاية منتجاتنا ،
فاننا حبا في المحافظة على المصالح البريطانية ومقاومة لمنافسيها ، وقفت
حكومتنا في الحجاز ذلك الموقف الذي لا بد أن بلغكم أمره . على أن السوفييت
لم يألوا جهداً في القرب منا وتقديم المساعدات لنا ، وهم على موقفهم وقربهم
من كثير من بلاد الشرق ، لكننا لم نزل حريصين على صداقتنا مع الحكومة
البريطانية » .

والسلام ومن دعوته ورسائله ، ومن الاسلام والمسلمين جميعاً ، فقامت عليه قيامة بنى وطنه ،
فغادر السعودية الى جاراتها ، فاذا افتضح أمره في واحدة منها ، أبعده عن أرضها ، وهكذا
هاش شريدا ، وقد يكون شريدا الى اليوم .

فلما هبط القاهرة طريدا وضعيفا قليلاً ، لجأ الى المغفور له محمد على منوبة باشا بعد
ما علم من تقدير الملك عبد العزيز له ، ليتوسط له عند جلالاته كما رأيت .
وقد ظهرت ثلاثة كتب في الرد عليه بالحجة والبرهان ، هي « الشواهد والنصوص من
كتاب الاقلال ، على ما فيه من زيغ وكفر وضلال » للاستاذ محمد عبد الرازق حمزة المدرس
بالحرم المكي الشريف ، وقدم له العالم والمربي المصري المشهور المرحوم محمد احمد القمراوي
بك . ثم كتاب « تنزيه الدين وحملته ورجاله » مما افتراه القصيمي في اغلاله « لعلامة القصيم
الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي . ثم كتاب « الرد على ملحد القصيم » للاستاذ
عبد الله بن علي بن باديس

ومن الغريب أن للقصيمي هذا كتاباً اسماه « الثورة الوهابية » أصدره في عام ١٩٣٦ ،
تحدث فيه عن الاسلام حديثاً طيباً ، ومن دعوة محمد بن عبد الوهاب حديث المقتنع بها المؤيد
لها ، وعن الملك عبد العزيز وفضله في توحيد الجزيرة ، بأسلوب ينم على تقديره لجلالاته ،
ولما صنع ويصنع من أجل شعبه . فما الذي مال به من الهدى الى الضلال ؟ وهل أغراه
أعداء الاسلام بالمال ، كما استنتج بعض من ردوا عليه ؟

ومما استرعى انتباه المراقبين السياسيين في تلك السنوات ، ان روسيا كانت أولى الدول التي اعترفت بالملكة العربية السعودية عند قيامها ، فقالوا يومذاك : انه « طعم » تقدمه روسيا للدولة الناشئة كي تغريها على التعامل معها .

والرجل البدوي العظيم الصريح ، مع صداقته لبريطانيا هذه الصداقة التي يحرص عليها في كل وقت وحين ، لم تمنعه هذه الصداقة الوطيدة من ان يصارح ممثلها ورسولها اليه ، جلبرت كلايتون ، في اجتماعهما في عام ١٣٤٣ : « باننا مستعدون للتعاون مع بريطانيا والمحافظة على مصالحها ، ما دامت مصالح العرب مصونة . وهذا امر ابلغنا الحكومة البريطانية به ، اكثر من مرة ، والعرب جميعا يعرفون هذا » .

ثم اظهر الملك ، مع هذا ، اعجابه بالانجليز وشرح اسبابه ، فقال له كلايتون :

— « ان اسباب اعجابكم صحيحة . ولكن هذا الملك الواسع لم يؤسس الا في مئات السنين ، ولكن الا يصح لنا نحن الانجليز ان نعجب بك ؟ فانك في ثلاثين سنة قد اسست ملكا واسعا ، واذا اطرذ لك هذا الفتح وهذا التقدم ، فاطن انه في نصف المدة التي اسسنا فيها ملكنا ، تؤسس انت امبراطورية مثل او اكبر من امبراطوريتنا . وهذا ليس ببعيد اذا ساعدتكم ظروف الزمان ، واخذتم انتم بسنة التقدم . فان اسلافكم العرب قد شيدوا امبراطورية عظيمة في مدة قصيرة جدا لم يعرف التاريخ مثلها » .

فقال له الملك : « وان كانت هذه هي امنية العرب ، الا اننى لا اعتقد في نفسى القدرة على تحقيقها . وكل ما اتمناه هو ان يجعل الله من رجالنا ، من يماثلونكم في الاخلاص والتضحية لبلادهم »

ولذلك على صدق فراسة بريطانيا فيه ، وصحة بنوءتها بقوته في الساحة العربية ، ما قاله المعتمد البريطاني في مصر للشريف حسين في ٥ نوفمبر سنة ١٩١٩ في رسالة منه اليه :

— « اننى ارجوكم اعظم الرجاء في ان تجتهدوا لمنع كل البواغث الجوهرية التي تؤدى الى سوء التفاهم مع الأمير سعود بشأن سياستكم نحوه ، فانه ، وان كان اقل درجة من جلالته وأضعف موارد ، لا ننكر انه ذو تأثير واهمية في السياسة العربية »

● كان يقول دائما : لقد ترعرعت في البادية ، فلا اعرف الكلام المزوق ، ولكن اعرف الحقيقة عارية عن كل تزويق . ان فخرنا وغرنا بالاسلام . والله

لا يهمني مال قارون ولا غيره ، وكل همى موجه لاعلاء كلمة الدين ، واعزاز المسلمين .

وكان يقول ايضا : احب الصراحة في القول ، وثلاثة اكرههم ولا اقبلهم : رجل يكذب على متعمدا ، ورجل ذو هوى ، ورجل متملق ، فهو ابغض الناس عندي .

● من صراحته ، ما رواه لى المرحوم عبد العزيز الثعالبي الزعيم التونسي المشهور - وقد اقام مدة طويلة في مصر متخلدا منها منفي اختيارية امام ملاحقة الفرنسيين له - بعد عودته الى القاهرة من الرياض وقد كان فيها ضيفا على الملك عبد العزيز .

قال له الملك في ذات مساء : يسموننا بالوهابيين ، ويسمون مذهبنا الوهابي ، باعتباره مذهباً خاصاً ، وهذا خطأ فاحش نشأ عن الدعايات الكاذبة التي كان يبثها ذوو الأغراض . نحن لسنا أصحاب مذهب جديد أو عقيدة جديدة ، ولم يأت محمد بن عبد الوهاب بالجديد ، فعقيدتنا هي عقيدة السلف الصالح التي جاءت في كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، وما كان عليه السلف الصالح . ونحن نحترم الأئمة الأربعة ، فلا نفرق عندنا بين مالك والشافعي وأحمد بن حنبل وأبي حنيفة . فكلهم محترمون في نظرنا .

● كان كريما يبدل بسخاء للمحتاجين ليؤمنهم من الحاجة . أعطى فقيراً صرة سألته الصدقة ، فقال له سائق سيارته : ان هذه الصرة ليس فيها ريبالات من الفضة ، لكن بها جنيهاً من الذهب عددها ثلثمائة جنيه . فنادى الفقير ، فلبى ندائه متردداً ، ظاناً انه سيسترد منه الصرة . فقال له الملك : أردت أن أهبك ريبالات ، وما نويت الا هذا ، ولكن الله هو الذي وهبك هذا الذهب ، فالهبة ليست هبتى لكنها هبة الله اليك ، فأشكر الله وحده عز وجل ، واشتر بها نخيلاً ، واعمل ولا تكسل .

وكما كان كريماً على الفقراء من رعيته ، كان كريماً مع شعبه في الأزمات والمحن . ففي أثناء الحرب العالمية الثانية ، قلت واردات البلاد من القطن والأرزاق ، فخاف على رعيته من التجار الجشعين ، فرتب لكل فرد منهم - عدا الموظف والفني - خبزاً وطعاماً يتناوله في كل صباح ، من جيبه الخاص ، هذا الى جانب مراكز تموينية حكومية أمر بفتحها ، تباع فيها المواد الضرورية بأسعار رخيصة .

● قبل نشوب الحرب الثانية، فكر في مستقبل شعبه، فهو شعب عاطل من العمل ، ومن الزراعة ، ومن التجارة - الا في القليل - فالى متى تظل حاله هكذا ؟ فأمر باستقدام جماعة من الخبراء والفنيين الأجانب ، للبحث في باطن الأرض لاستخراج معادنها ، وهي غنية بها . فأوفدت « شركة ستاندرد أويل أوف كاليفورنيا » المستر لويد هاملتون في عام ١٩٣٣ للاتفاق مع الحكومة السعودية على منح الشركة امتيازاً للبحث والتنقيب عن النفط ، وإمضى الاتفاق في جدة في ١٩ مايو من السنة نفسها . وفي شهر سبتمبر وصل الخبراء والفنيون ومعهم آلاتهم ومعداتهم ، وبدأوا الحفر في عدة مناطق ، فحفروا سبع آبار الى سنة ١٩٣٧ ، أنفقت عليها أكثر من ثلاثة ملايين دولار ، ولم يجد لهم ما يدل على وجود نفط أو غيره ، وكادوا أن ينفقوا عملهم ، لولا أن البئر السابعة في الدمام تفجرت بعد حفر على عمق ٧٢٧ قدماً ، بطوفان من الذهب الأسود ، أذهلهم . وكان هذا الكشف نقطة تحول في اقتصاد المملكة ، بل في اقتصاد المنطقة العربية كلها ، واحتفلت الحكومة السعودية احتفالاً عظيماً في يوم أول مارس سنة ١٩٣٩ ، بإبخار أول ناقلة للنفط من مياها الى الخارج ، فهو من الأيام المشهودة في تاريخ المملكة ، صنعه ابن سعود بسيد رأيه ، وبعد نظره .

● أدخل الماء العذب الى جدة ، فشربه أهلها لأول مرة ، من جيبه الخاص ، في ١٨ نوفمبر سنة ١٩٤٧ ، بعد ما كانت تعتمد على مياه الآبار والصحاري غير الصحية .

● في ميدان سعيه لخدمة شعبه والعمل على رفاهيته ، طلب الى الحكومة الأميركية ، امداده ببعض الخبراء الزراعيين ، ليطوفوا بأنحاء مملكته ، ثم اقترح ما يروونه لخدمة الأرض الخصبة فيها ليزيد انتاجها . فلبت طلبه ، وأوفدت بعثة من خبراءها ، ظلوا في الأرض السعودية نحو ثمانية أشهر ، قدموا بعدها تقريرهم الى جلالتهم ، وقد ضمنوه ما راوا وما يقترحون

قالت البعثة في مقدمة تقريرها ، وهو في ١٩٢ صفحة من القطع الكبير - « ان الخدمات التي قامت بتأديتها بعثة الولايات المتحدة الأميركية الزراعية ، الموفدة الى البلاد العربية السعودية ، هي خدمات قد جرى تقديمها من قبل الولايات المتحدة الأميركية ، نزولاً على طلب حضرة صاحب الجلالة عبد العزيز السعود

» وقد غادرت البعثة مدينة واشنطن في ١٩ مارس سنة ١٩٤٢ ، ووصلت الى مدينة القاهرة في ٢٦ مارس ، حيث تأخرت فيها تأخراً لم يكن

من المستطاع تفاديهِ ، ووصلت البعثة بعد ذلك الى مخيم حضرة صاحب
الجلالة الملك عبد العزيز بالقرب من مدينة الرياض في يوم ١٠ مايو . وفي
اثناء قيام البعثة بتأدية مهمتها ، قطعت في رحلاتها مسافة مجموع طولها
١٧٤٠٨ كيلو مترات (١٠٧٩٥ ميلا) بالسيارات والجمال والقوارب
البخارية ، بما في ذلك رحلاتها الى جزر البحرين و « فرسان »

« ولم يكن من المأمول في بلاد واسعة الأرجاء ، مترامية الأطراف ، كالمملكة العربية السعودية ، زيارة كل مكان فيها . بيد أن المعتقد أن النماذج الواضحة للأراضي والمناخ والتربة ، قد تمت مشاهدتها فعلا ، وبذلك أصبح من الممكن مقارنة الأماكن التي وضعت التقارير عنها ، بالأقسام التي لم يجر محصها ، والحصول على الإرشادات الضرورية لتحسينها واستثمارها .

« وتقع المدة قضيناها في البحث ، بين ١٥ مايو و ٥ ديسمبر سنة ١٩٤٢ ، والخارطة المرفقة بالتقرير ، تبين مواقع الأمكنة التي زرناها والطرق التي سلكناها . »

« وقد قبلت البعثة في كل مكان حلت به ، بكل ترحيب وكرم وفادة ،
من جميع الحكام الاداريين ، وموظفي الدولة ، ورعايا الحكومة العربية
السعودية من جميع الطبقات »

● لن ينسى أهل الحجاز أنه أنار لهم مكة المكرمة والمدينة المنورة وجدة
مكة بابه ، وأنه أنشأ مظلات للحرم الشريف ، والمسمى بين الصفا والمروة
في الحجاج وهج الشمس في الصيف ، والمطر في الشتاء

● كما لن ينسوا له أنه صنع باب الكعبة المشرفة من الفضة الخالصة وقد حلى بآيات قرآنية كريمة حروفها من الذهب . كما صنع حلقتي الباب من الذهب كذلك ، كل هذا من جنيبه الخاص ، في سنة ١٩٤٧

● أسس أول إدارة طبية حديثة في الرياض في سنة ١٣٤٢ ، عقب شكواه من قرحة في إحدى شفتيه ، عجز عن إبرائها معالجة المحيطين به يالكي وقراءة التعاويذ ، فاستغاثوا بالطب الحديث بعد أن أعيتهم الحيلة ، فدعوا من البحرين طبيباً أميركياً عالماً بالجراحات وبالضمادات ، فشفى الملك واستعاد صحته بعد أسبوع واحد ، بعد هذا بأشهر أصيب بالرمد ، فعالجه بالطب الحديث ، مما جعله يؤمن به (١) .

.. (١) بكتاب «خمسون هامة في جزيرة العرب» للشهيد الخافض، ص ٤٦.

● كما انشأ أول فرقة للمطافئ في مكة

● كان يفضي برأيه في المدنية الغربية لمحدثيه ، فيقول لهم :

« ان المدنية صنوف شتى ، لكل بلد منها صنف خاص لا يلائم غيره . ولا أريد ان ينقلب العربي في بلادى أوربيا لمجرد احتكاكه بالحضارة الأوربية ، إذ أن لوطننا تقاليد خاصة لا محيص من احترامها واتباعها . والذي أراد هو ألا نحاول انتحال عقلية أهل الغرب . وعندى أن بعث القديم ، يعد وسيلة من وسائل التجديد »

● خطيب في الحجاج الدين أقام لهم مأدبة في ٦ من ذى الحجة من عام ١٣٤٩ ، فقال :

« يقولون ان المسلمين في تأخر ، وبحثوا ليجدوا طريقة لتقديم المسلمين ، فوجدوا طريقة أمامهم الا أن يقلدوا الأوربيين ، ولكنهم لم يقلدوهم فيما كان سبب قوتهم ومنعتهم ، بل قلدوهم فيما لا يسوغ في دينهم . فقد مضى على هؤلاء الدين يدعون الاسلام عشرات السنين ، وهم يدعون الناس في السر والعلن ، بالقول وبالعمل ، لتقليد الأوربيين . ولكن من منهم عمل إلى اليوم ابرة أو صنع طيارة أو عمل بندقية ومدفع ؟ لقد قلدوهم ولكن في غير ما يعود عليهم بالنفع . قلدوهم فيما يخالف ما ينتسب اليه المسلم ، وقلدوا ملاحدتهم في الاعراض عن دين الله ، ثم بعد ذلك يدعون أنهم مسلمون ، وأنهم يدافعون عن الاسلام »

« سمعت قولا لرجل تصدر للزعامة بين من يدعون الاسلام يقول : يجب أن نتفق مع « اخواننا » اليهود ! وإى صلة بالاسلام لمن يؤاخى اليهود ؟ وهل هناك للمسلم اخوة غير اخوة النسب أو الاسلام ؟ كذبوا والله ثم كذبوا . ان الاسلام ليبرا من كل بدعة ابتدعوها ، وخرافة اختلقوها » كبرت كلمة تخرج من أفواههم ، ان يقولون الا كذبا . « لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر ، يوادون من حاد الله ورسوله ، ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم » .

« اننى والله لا أحب الا من أحب الله حبا خالصا من الشرك والبدع . لنا والله لا أمل الا لأجل ذلك ذلك ، ولا يهمنى ان أكون ملكا أو فقيرا .

« اللهم ان كنت تعلم ان ما أقسم عليه مخالف لما أعتقد ، فأسألك ان تكفى المسلمين سوئى . والله ثم والله - والكاذب عليه لعنة الله - اتى لاتمنى ان يجمع الله النصارى واليهود وكل انسان على وجه الأرض ، ويشهدوا ان

لا اله الا الله ، وان محمدا رسول الله ، شهادة خالصة مخلصة ، وَاكُونُ اَنَا
وجميع اولادى وافراد عائلتى ، فداء اسلام الناس كلهم . والله ثم والله ،
انى لأفضل أن أكون على رأس جبل آكل عشب الأرض ، أعبد الله وحده ،
من أن أكون ملكا على سائر الدنيا وهى على حالتها من الكفر والضلال . اللهم
انك تعلم انى أحب من تحب ، وأبغض من تبغض

« والله ، والله ، ان العجز القابعة فى كوخها ، والتى لا تملك من الثياب
الا أطمارا بالية ، وهى تعبد الله وحده عبادة خالصة ، هى أحب الى قلبى
من أى انسان بلغ أمره من العظمة والشأن الرفيع ما بلغ ، ولا يؤمن بالله
إيمانا صادقا خالصا ، ولا يعمل بما جاء فى كتاب الله » (١)

● وخطب فى مادبة أخرى أدبها للحجاج فى ٥ من ذى الحجة ١٣٥١ ،
فقال :

— « فريق من المسلمين ينقمون على لأننى أدعو لعبادة الله عبادة خالصة ،
ولأنهم يريدون أن ارتكب المنهيات فأمر باقامتها فى البلاد . فانا أبرأ الى
الله من هذه الدعوة الباطلة ، وأفخر بأننى سلفى محمدى على ملة ابراهيم
الخليل

« أما انى ادعى الرياسة على الناس أو أطالب بها ، فهذه ليست
صحيفة . على أن مقامى ليس دون ذلك .

« أنا عربى ومن خيار الأسرة العربية ، ولست متطفلا على الرياسة
والملك ، فان آبائى وأجدادى معروفون منذ القدم بالرياسة والملك . ولست
ممن يتكلمون على سواعد الغير فى النهوض والقيام ، وانما اتكالى على الله ،
ثم على سواعدنا يتكىء الآخرون ويستندون .

« أنا لا أفتش ولا أسعى للرياسة ، ولا أريد علوا فى الأرض ، وانما
يهمنى فى الدرجة القصوى ، جعل كلمة الله هى العليا ، ولا يهمنى فى هذا
الشأن ما يعترضنى فى الطريق من المصاعب والمتاعب .

« لقد حاربنا جيوش جرارة فى أوقات مختلفة منذ ان قمنا بهذه
الدعوة المباركة ، فكان نصيبها رغم كثرة عددها وعددها ، الفشل والخسران
والله الحمد

« ماذا يريدون من ابن سعود ؟

(١) كتاب « الملك العادل » للسيد عبد الحميد الخطيب - الجزء الثانى - ص ١٢٨

«ماذا عمل ابن سعود؟»

« هذه أعمالي واضحة بينة : أزلت كل شبهة ، وأقمت كل معروف ، ونهيت عن كل منكر ، وحجتي في ذلك كتاب الله وسنة رسوله »

« يقولون اننى اطلب ان اصير خليفة على المسلمين . أنا ما ادعيت هذا ولا طابيت به ، لأن على الخليفة واجبا هو تنفيذ أوامر الدين على كل فرد من أفراد المسلمين في مشارق الأرض ومقاربها

« وهل هناك من رجل يستطيع ان ينفذ ذلك على المسلمين في هذه الأيام ؟

« لقد كان من المستطاع ان يكون ذلك في عهد الخلفاء الراشدين ، أيام كانت كلمتهم تسرى على كل فرد من أفراد المسلمين . أما اليوم فلا يمكن ذلك

« أنا مسلم عربى ، راست قومي بعد مصاعب طويلة ، ولا فخر في ذلك . وتسير الآن ورأى جيوش جرارة لا تقل عن أربعمئة ألف مقاتل : ان بكيت بكوا ، وان فرحت فرحوا ، وان أمرت نزلوا على ارادتي وأمرى ، وان نهيت انتهوا . هؤلاء هم جنود التوحيد ، أخوان من أطاع الله ، يقاتلون ويجاهدون في سبيل الله ، ولا يريدون من وراء ذلك الا رضا البارئ جل وعلا

« ان هذه القوة موقوفة لتأييد الشريعة ونصرة الاسلام في الديار التي ولانى الله أمرها ، أعادى من عادى الله ورسوله ، وأصالح فيها من لا يعادينا ولا يناوئنا بسوء . وانى وجندى جنود في سبيل جعل كلمة الله هي العليا ، ودينه هو الظاهر » (١)

• وقال في جمع من العلماء في ٣٠ ذى القعدة سنة ١٣٥١ في الرياض :
« لقد كنت لا شئ ، وأصبحت اليوم وقد استوليت على بلاد شاسعة واسعة ، يحدها شمالا العراق وبر الشام ، وجنوبا اليمن ، وغربا البحر الأحمر ، وشرقا الخليج العربى .

« لقد فتحت هذه البلاد ولم يكن عندى من العتاد سوى قوة الايمان ، قوة التوحيد ، والتمسك بكتاب الله وسنة رسوله ، فنصرنى الله نصرا عزيزا . لقد خرجت وأنا لا أملك شيئا من حطام الدنيا ، ومن القوة الشريعة ، وقد تألب على الأعداء ، ولكن بفضل الله وقوته تغلبت على أعدائى وفتحت كل هذه البلاد » (٢)

(١) المصدر السابق - ص ١٢٣ - ٢ - المصدر السابق - ص ١٢٨

● ثم انظر ما صنعه مع الادارسة ، وما صنعه هؤلاء معه :

لما توفي محمد على الادريسي الذي أسس امارته في تهامة وعسير على قواعد ثابتة ، تولى ابنه السيد على ، الأمر من بعده ، لكنه كان ضعيفا ، فاحتل الامام يحيى امام اليمن « الحديدية » و « ميدى » . فنار الادارسة وطرردوا عليا ، فلجأ الى عبد العزيز فأواه واكرمه ، وخلفه عنه حسن فلم يكن افضل من ابن أخيه على ، ومنح الانجليز امتيازاً باستخراج الزيت من جزيرة « فرسان » بشروط ظالمة للبلاد ، فلى ير الا اللجوء الى عبد العزيز يطلب منه بسط حمايته على امارته ، وعقد معه « معاهدة عسير » في ٢١ أكتوبر سنة ١٩٢٦ (١٤ ربيع الثانى سنة ١٣٤٥) . وقد تضمنت :

« ١ - يعترف الامام السيد حسن بن على الادريسي بان الحدود القائمة المبينة في الاتفاق المعقود في ١٠ صفر سنة ١٣٣٩ بين سلطان نجد والامام السيد محمد على الادريسي اللى كانت تابعة له ، أصبحت من هذا اليوم لملك الحجاز وسلطان نجد بموجب هذا الاتفاق .

« ٢ - ليس لامام عسير أن يباشر مفاوضات سياسية مع أى حكومة كانت او أن ينال أى امتياز تجارى ، بلا رضى سابق من جلالة ملك الحجاز

« ٣ - ليس لامام عسير أن يشهر الحرب او يعقد الصلح الا بموافقة ملك الحجاز

« ٤ - ليس لامام عسير أن يتخلى عن قسم من البلاد المبينة في المادة

الاولى

« ٥ - يعترف ملك الحجاز بسلطة امام عسير على الاقاليم المبينة في المادة الاولى

« ٦ - يعترف ملك الحجاز بأن ادارة شؤون عسير الداخلية من خصائص الامام ، بحيث يراول السلطة طبقا للشريعة الاسلامية {

« ٧ - يعاهد ملك الحجاز على منع كل اعتداء يقع على بلاد عسير من الداخل والخارج .

« ٨ - يتعاهد الفريقان على احترام منطوق هذه المعاهدة واجراء نصوصها » (١) .

(١) كتاب « الاسلام وآسيا امام المطامع الاوربية » للكاتب الفرنسى أوجين يونيه - ص ٣٢

وكان أول عمل لعبد العزيز ، سعيه عند الانجليز ، فالقى امتياز استخراج الزيت من « فرسان » ، وارسل بعض رجاله لمعاونة الحسن في إدارة الامارة ، غير انه لم يستطع السير بها الى امام ، وعصته رعيته ، فارسل الى عبد العزيز في ١٧ جمادى الثانية سنة ١٣٤٩ ، اى بعد اربع سنوات من امضاء « معاهدة عسير » ، برقية يتنازل فيها عن الامارة ، فقال : « نقرر بموافقتنا ورضانا اسناد ادارة بلادنا وماليتنا القعدة جلالتم » . وقبل عبد العزيز التنازل في امر ملكى اصدره في يوم ٢٩ جمادى الثانية ، اى بعد اثنى عشر يوما من تلقيه البرقية

وحنونا لكرامة أسرة الادارسة ، جعل الامراء السعوديين الذين يتولون الامر في الامارة ، في ظل سيادة الحسن ، حفظا لمقامه . وكان يعطيه في كل سنة نحو ٢٥٠ ألف ريال ، لانفاقها على ادارة الامارة

وهنا يحسن بى ان اسجل ما حكاه عبد العزيز بنفسه عن غدر الحسن الادريسي به ، بعد اكرامه له ، فقال :

« جرت صداقة بيننا وبين محمد الادريسي ، وعندما مرض اوصاني بآله واولاده ، ولما توفي تولى ابنه على ، وكان الخلاف بينه وبين عمه ، الحسن ، وتولى الحسن ، واصلحتهم ، ووضعت نظري على الحسن بناء على طلبه وطلب أهل عسير ، وأبقيت عليا عندي

» وبعد اربع سنوات تقريبا ، ارسل الى الحسن يخبرنى بعجزه عن ادارة البلاد وتأمينها ، وتنازل لى عنها ، فقبلت ذلك منه ، ولكنى أبقيت على مقامه وامارته ، وتحملنا في سبيل وفائنا بعهد الادريسي ، مشاق ومصاعب كثيرة ، وخسرنا اموالا طائلة ، وكنت انفق على تلك المفاطعة فوق وارداتها ، ٢٠٠ الى ٢٥٠ ألف ريال في السنة تقريبا ، وعاملنا الادريسي بكل معاملة حسنة . ثم لم اشعر الا ووصل الى ان الادريسي يعمل ضدى ، فعجبت وقلت هذا غير ممكن . فلم تمض ايام حتى ابلغت ان الادريسي هجم على رجالى الدين هم عنده في « جيزان » وحاصرها ، فأرسلت سرية قليلة تتألف من ٤٠٠ في السيارات ، و ٢٠٠ في زورق من الزوارق البخارية ، وساروا لفق الحصار عن رجالى . وفي أثناء طريقهم الى جيزان ، كان الادريسي قد تغلب على رجالنا فيها ، وابرق الى يتملق بعد ذلك . فأبرقت اليه انه ان كان صادقا في دعواه ، فيمكنه ان يراجع أمير السرية التى أرسلتها ، وأبرقت لأمير السرية المتقدم ، بأن لا يحدث حربا مع الادريسي

« ولكن أراد الله أن يبطل كيد الكائدين ، فحدثت تأثيرات جوية ، لم يمكن بسببها نقل برقيتنا الى الادريسي فلم تصل اليه ، ولكن الادريسي كان عازما على الغدر ، فأرسل رجاله لتخريب طريق السيارات ومقاومة السرية القادمة ، ولم يصل امرنا للسرية بالتوقف بسبب التأثيرات الجوية أيضا ، فتقدمت ، فاحتلت جيزان » (١)

وكان احتلالها في ١٨ رجب سنة ١٣٥١

ومع هذا فقد منح الأمان للادريسي ومن معه من المتمردين اذا اخلدوا الى السكنة ، ولكن الفادر ظل طريدا حتى استقر به المقام عند الامام يحيى ، فطلب منه عبد العزيز تسليمه هو ومن معه تنفيذا للمعاهدة التي بينهما ، فأرسل اليه الامام راجيا العفو عن الحسن ومرافقيه ، فلبى رجاؤه بشرط ان يذهبوا اليه ، وكتب اليه رسالة بعفوه هذا ، وقال له ان الحسن سيكون اخا عزيزا له ، ورتب له ٢٥٠٠ ريال في الشهر ، نفقة له ولاسرته

وقد أحدث تنازل الحسن الادريسي عن امارته لابن سعود في سنة ١٩٣٠ ، ضجة في البلاد العربية ، واتخذ منه بعض رجال الصوفية - وهم الذين لا يعترف ابن سعود بما ادخلوه من بدع وخرافات ومنكرات في الدين - سبيلا الى مهاجمته بشدة وقسوة ظالمتين .

أرايت اذن كيف عفا عبد العزيز عن احسن اليه ثم تمرد عليه ، ومع هذا قبل أن يعيش في كنفه وفي حمايته ؟

وما فعله عبد العزيز مع حسن الادريسي ، فعله مع الامام يحيى نفسه ، عند ما اشتد الخلاف بين السعودية واليمن على الحدود في سنة ١٣٥٣ . - سنة ١٩٣٤ م ، وحول مصير بعض أعضاء العائلة الادريسية الذين لجأوا الى صنعاء . فقد بذل ابن سعود جهده لحل الخلاف وديا حقنا للدماء فلم يستجب الامام ، ف وقعت الحرب بينهما في ٢٢ مارس سنة ١٩٣٤ ، وزحف الجيش السعودي بقيادة الامير فيصل على تهامة ودخل الحديدة قاعدة اليمن على البحر الأحمر في يوم ٦ مايو سنة ١٩٣٤ - ١٥ محرم سنة ١٣٥٣ هـ ، ثم تقدم فاستولى على « ميدى » ثم على « اللحية » ، وألف في الحديدة حكومة تتبع الرياض مباشرة ، واحتفل اليمنيون بوصوله ، وقدموا له الطاعة

(١) كتاب « مقرر الجزيرة » للاستاذ احمد عبد الغفور عطار - الجزء الثالث - ص ٢٢٣

عندئذ جنح الامام الى الصلح ، منفذا شروط عبد العزيز الثلاثة وهى :

١ - الجلاء عن مقاطعة نجران

٢ - تسليم اللاجئين من الادارسة

٣ - اطلاق سراح الرهائن من أبناء الجبال الخاضعين للسعودية

ووصل الى الطائف فى ٤ صفر سنة ١٣٥٣ - عبد الله بن الوزير على رأس وفد يمنى للدخول فى مفاوضات الصلح ، فاجتمع الى الأمير خالد ابن عبد العزيز - ملك المملكة العربية السعودية اليوم - رئيس الوفد السعودى ، ووقعت المعاهدة بين القطرين الشقيقين فى ٦ صفر ، وأعادت حكومة الرياض بموجبها الى حكومة اليمن ، جميع الاراضى التى استولت عليها من الاراضى اليمنية ، رعاية لحقوق الجوار ، وصونا للاخوة العربية الاسلامية ، مما كان موضوع تقدير وامجاب وثناء العالم العربى والعالم الاسلامى

● كان متحليا بحلية العفو والصفح الجميل : عاداه الترك كما عادوا اجداده ، وانتصر عليهم فى نجد والاحساء ، ثم انتقضوا عليه فهزمهم .. ومع هذا احسن معاملتهم ، واكرم قائدهم ، وتركه يمضى مع جنده آمنا الى الحدود التركية الحجازية او الحدود التركية العراقية ، مما لم يجد معه السلطان عبد الحميد سلطان تركيا وخليفة المسلمين فى عام ١٩٠٦ ، بدا من شكره والاعتراف بصنيعه الجميل مع جنده .

وعاداه الاشراف ، وغلبهم ، وقهر رأسهم الملك حسين ، ثم عفا عن عائلاتهم وانصارهم

عفا عن ابن عمه سعود الذى اتفق مع خصومه عليه ، وعن عامل « بريده » المسمى أبو الخيل ، واذن له بالرحيل مع أسرته الى البحرين ، بعد معركة هزمه فيها عبد العزيز هزيمة منكرة

وكان يدنى منه من كانوا أشد خصومة وعداوة له ، ويصحبهم معه فى غدواته وروحاته ، وبهذا اقتلع بذور الحقد والكراهية من قلوب كثيرين ، فأصبحوا موالين له ، يحفظون له الجميل واليد البيضاء الكريمة .

● كان اعتماد الملك عبد العزيز فى فتوحاته على « الاخوان » فى الغالب الأعم . ألف جيشه فى أول أمره من بعض أهالى نجد وبجانبيهم هؤلاء « الاخوان » . فلما استقر له الأمر نوعا ما ، أنشأ «ادارة الأمور العسكرية» ، فكانت نواة للجيش النظامى الذى ألف من ثلاث فرق من المدفعية والفرسان

والمشاة . وفي سنة ١٣٥٩ هـ الفيت هذه الادارة وانشئت «رياسة الاركان»
وفي سنة ١٣٦٥ ، انشئت اول وزارة للدفاع الوطنى ، واشترك جنودها فى
حرب فلسطين فى سنة ١٩٤٨ م

فمن هم هؤلاء الاخوان ؟

هم سكان البادية فى نجد ، هم من يسمونهم « الاعراب » ، كانوا
يعيشون فى شظف وبؤس ، ولا عمل لهم الا السلب والنهب والاجرام .
ففكر عبد العزيز فى اخراجهم من هذه الحياة التعسة - وكانوا شجعانا
شجاعة يضرب بها المثل - بحملهم على ترك مكنتى الخيام والاستقرار فى
الحضر ، وارسل اليهم الوعاظ يحبون اليهم الفكرة ، ووعد بالهبات
الجزيلة وبناء المساجد وبتعليم القراءة والكتابة ، لمن يقبل هذه الحياة
الجديدة ، فى اماكن معينة ، بنيت فيها المساكن من الطين ، سمي واحدها
« هجرة » اشارة الى انهم هجروا حياتهم القديمة الى حياة جديدة محبة
اليهم . واول « هجرة » بنيت فى قرية « الارطاوية » فى عام ١٣٣٠ - ١٩١١م
وانتشرت « الهجر » بسرعة بينهم ، حتى نسوا حياتهم السابقة ، وانقطعوا
للعباداة . لكنهم اشربوا تعاليم دينية ناقصة ، رسخ فى اذهانهم انها هى
الدين الصحيح ، وما سواها ضلالة وفساد . ولم يستطع عبد العزيز
استئصال هذه الجذور السامة من نفوسهم ، حتى لقد رموه هو نفسه ،
فرغموا انه موال للكفار - والكفار فى رأيهم هم كل ناس غيرهم ولو كانوا
مسالمين ! - وانه متساهل فى دينه ، والا فكيف يطيل ثوبه وشاربه !!!

ومع هذا اخذهم باللين ، وكان ينزل عند رأيهم ، اتقاء فتنة قد تحدث
اذا خالف رأيهم القطير . لكنه كثيرا ما ضرب عليهم بيد من حديد . اذا
وجد ان تساهله معهم قد يؤول الى ضعف فى سلطانه ، او قد يؤدى الى
ضرر الصالح العام . ثم انشأ « جماعة الامر بالمعروف والنهي عن المنكر »
لتحد من سطوة جهلهم ، وشدة تنطعهم فى الدين ، وقصر مهمتها على الامور
التالية :

١ - متابعة عادات الناس ومعاملاتهم مع بعضهم بعضا ، فما وافق منها
الشرع ، اقرته . وما خالفته ازالته

٢ - منع السوق عن بلادة اللسان التى اعتادوها

٣ - حث الناس على أداء الصلوات الخمس ، جماعة

٤ - مراقبة المساجد وسلوك ائمتها ومؤذنيها ، ومدى مواظبتهم على
الحضور ، ومراقبة حضور الاهالى للصلاة ، ولوم المتخلف منهم

هـ - ان تتخذ في سبيل الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ، جميع الوسائل المؤدية الى ذلك ، بالحكمة والموعظة الحسنة ، فاذا أعيها امر من الأمور ، قدمت به مذكرة الى أولى الامر ليلبدوا فيها رأيهم

اعترض عليه بعضهم ، اذنه باقامة حفلات بمناسبة عيد جلوسه على عرش الحجاز (١) ، بحجة مخالفة ذلك للسنة ، فأرضاهم بموافقتهم . فالرجل لا يحب المظاهر ، وعدم الاحتفال بعيد جلوسه لا يضر الملكة في شيء .

لكن هؤلاء « الاخوان » عندما انكروا على الملك :

١ - ارسال ابنه الأكبر سعود الى مصر لمعالجة عينيه ، « لأن مصر بلد كفار » !!

٢ - ارسال ابنه فيصل الى لندن « بلد الشرك » !! (٢)

٣ - استخدام السيارات والتلغرافات والتلفونات والراديو ، « لأنها من عمل الشيطان » !!

(١) دما جلالته الى اول عيد جلوس له في يناير سنة ١٩٣٠ ، الصحافة المصرية ليشهد مندوبوها احتفالاته ، فمثلها يومئذ المرحومون : الاساتذة محمود أبو الفتح عن « الاهرام » ومحيى الدين رضا عن « المقطم » وعبد الحميد حمدي عن « البلاغ » وابراهيم عبد القادر المازني عن « السياسة » ومحمد المصطفى عن « كوب الشرق » . وسافر معهم ملجبا دعوة الملك أحمد زكي باشا « شيخ العرب » والشيخ محمود أبو العيون من كبار علماء الأزهر ، واعتذر عن عدم السفر ، أمير الشعراء أحمد شوقي بك

وقد ركبوا جميعا السيارات من « دارالوكالة العربية » - وكانت بشارع محمد سعيد باشا الآن - الى السويس ومنها أبحروا الى جدة .

(٢) وجه الملك جورج الخامس ملك انجلترا دعوة رسمية الى الملك عبد العزيز عقب انتهاء الحرب العالمية الاولى في سنة ١٩١٨ ، لزيارة عاصمة امبراطوريته « لندن » ليكرمه ويحتفى به مع شعبه ، اعترافا بموقفه النبيل من حكومته في ابان تلك الحرب فاختر ابنه فيصل ليمثل له على رأس بعثة ضمت الاكفاء من رجال دولته ، وكان عمر فيصل يومئذ اثني عشر عاما فقط ، فاستقبله ملك الانجليز وشعبه استقبالا عظيما ، واعدوا له برنامجا حافلا زار بمقتضاه كثيرا من معالم بلادهم ، واجتمع الى اقطابهم ، فاعجبوا بذلك هذا الأمير اليافع الالهي . واذ هو في لندن ، وجهت اليه الحكومة الفرنسية دعوة مماثلة للغرض نفسه ، فلباها ، وهبط باريس ، فلقى من حكامها ومن أهلها ، مثل ما لقي من الانجليز حفاوة وتكريما ، واجتمع فيها الى ساستها ومفكرها أيضا .

عندما أنكروا عليه هذه المسائل الثلاث ، أسرع فدعا زعماءهم الى مؤتمر عقده لهم في الرياض ، تحدث اليهم فيه عن نفسه ، فقال انه خادم الشريعة ، وانه لم يتغير ولم يخرج على مبادئ السنة الصحيحة ، فاقتنعوا بما قال وأعلنوا ولاءهم له . واعترضوا على استخدام اللاسلكي ، فهو امر حادث في آخر هذا الزمان ولا يعلمون حقيقته ، ولم يقرأوا فيه كلاما لواحد من العلماء . فحطم عبد العزيز محطة اللاسلكي تفاديا من الفتنة . . وشيئا فشيئا ، أقنعهم بأن مرد اللاسلكي والسيارات والتلفون والراديو ، الى العلم .

حتى اذا كان بعضهم جلوسا معه في يوم ما بعد هذا المؤتمر ، سألهم : هل يطيق الشيطان كلام الله ؟ قالوا جميعا : لا . قال : اذن فاسمعوا ، وادار الراديو ، فسمعوا منه كلام الله يتلى عليهم بصوت عذب رخيم ، فآمنوا به وبغيره من المخترعات الحديثة .

روى الأستاذ عزيز خانكي المحامي الكبير في مصر في الثلاثينات ، في كتابه « ترك واتاتورك » في الصفحة الثامنة والأربعين منه القصة التالية ، قال :

« لم يكن أهل نجد وعلمائها وحدهم ، هم الذين كانوا يعتقدون ان التلفون من عمل الشيطان ، بل كان قضاة الترك على هذا الاعتقاد . فقد روى المرحوم عثمان مرتضى باشا رئيس الديوان الخديوي ، في عهد الخديوي عباس حلمي الثاني : انه لما بدىء باستعمال التلفون في القاهرة ، أرادت الحكومة تركيب آلة تليفون في المحكمة الشرعية ، فعارض قاضي مصر التركي ، وقال ان التلفون وسيلة من وسائل الشيطان . فكلف المستشار القضائي سكرتيره « عثمان مرتضى بك » - في أوائل عهد الخديوي اسماعيل - بأن يشرح للقاضي النظرية العلمية التي قام عليها اختراع التلفون ، فلم يفلح السكرتير ، فأهملت الفكرة موقتا . وبعد حين عادت الحكومة وأمرت بتركيب التلفون في المحكمة » .

• من أصالة العربي حماية المستجير به والدفاع عنه . وكذلك فعل الملك عبد العزيز مع رشيد عالي الكيلاني رئيس وزراء العراق الأسبق رحمه الله ، فقد لجأ اليه في الرياض بعد فشل ثورته التي شنها في العراق ضد بريطانيا في سنة ١٩٤١ ، فحاول الأمير عبد الاله الوصي على عرش العراق أن يحمل الملك على تسليمه الى حكومة بغداد ، تنفيذا لمعاهدة بين الحكومتين ، فقال له :

.. « لقد جاءني مستجيرا ، وهو عربى يستنجد بعربى . وانى اوتر
شنق واحد من ابنائى على تسليم رشيد الى جبل المشنقة فى بغداد
وتدخلت بريطانيا مؤيدة طلب العراق ، فرد عليها الرد نفسه
وظل رشيد فى حماية ابن سعود ، بل استعمله فى بلاطه مستشارا له فى
بعض الشؤون الى ان رفعه الله اليه
وعلى ذكر الابناء اقول ان الملك عبد العزيز انجب ستة وثلاثين ابنا ،
وسبعا وعشرين ابنة



هذه هى سيرة الرجل الذى استطاع ان يغير مجرى حياة امة ، ويسطر
تاريخا جديدا لها ولشعبها ، ويدفع بها الى الصف الاول من الدول المرموقة
ذات المكانة والاعتبار ، وأعاد ، الى هذا ، مع اسرته الى الاسلام ، عزته
وهيبته وتقاليده النقية الصالحة

ولو قلت انه كان - طيب الله ثراه - يجمع بين العدل والحزم وسعة
الحيلة والشجاعة والبطولة والجرأة والعزم والكرم والصفح والرزانة
والتواضع والسماحة ورجاحة العقل وصفاء القلب وطيب السريرة وحب
الخير والفتنة والدهاء ولين العريكة ، مع الالمام بفن الحرب والخبرة
بقيادة الجيوش ..

لو قلت هذا ، ما كنت مبالغا ، وما عدوت الحق .
فلنختم هذا الحديث عن هذا الملك العربى الخطير والعظيم ، الذى
كان اول من سمى ملكا من آل سعود - فقد كان آباؤه وأجداده يسمون
أئمة - واول ملك خرج من بلاد نجد ، واول من وحد هذه المملكة المترامية
الاطراف ، واول من عمل على استخراج الثروة الطبيعية من بطن ارضها ،
واول من منح الشركات الامتيازات بحثا عن النفط ، واول من ادخل
الزراعة الحديثة لمضايفة استغلال الارض الخصبة فى مملكته ، واول من
اوجد لهذه المملكة كيانا قانونيا دوليا ، فاعترفت بها الدول جميعا ...

اقول : فلأختتم حديثى عن عبد العزيز بن سعود ، بتسجيل ما كتبه
عنه بعض كبار الكتاب والأدباء العرب وغير العرب :

رحل الأمير شكيب ارسلان الى الحجاز فى سنة ١٩٢٩ ، وكتب عن
رحلته كتابا سماه « الارتسامات اللطاف » ، فى خاطر الحاج الى اقدس
مطاف » ، وتوجه باسم « جلالة الملك عبد العزيز ملك الحجاز ونجد

وملحقتهما ، عرفانا بقدر العدل الذى وطد فيه دعائمه ، وناط بالاجراء موائقه ، وابتهاجا بالملك العربى الصميم الذى صان للعروبة حقها ، وللإسلام حقائقه « (١) .

بعد وصول الأمير شكيب وأدائه فريضة الحج ، وصف ما لقيه فى الحجاز من الحرية الكريمة ، فقال : « شعرت أنى حر فى بلادى ، وبين أبناء جلدتى ، لا يتحكم فى رقبتى المسيو فلان ولا المستر فلان ، بحجة انتداب أو احتلال أو سيطرة أو حماية أو وصاية ، أو غير ذلك من الأسماء المخترعة ، التى يراد بها تنعيم مس « الفتوحات » وتخفيف مرارتها فى الأذواق ... شعرت فى الحجاز أنى تظللنى راية عربية محضة حقيقية ، لا راية مشوبة بشعار أجنبى ، ولا راية ليس يسير من تحتها جند عربى ، إلا ما كان من قبيل مرتزقة أو مستاجرين ، تحت قيادة من لا يرقب فى هذه أمة إلا ولا ذمة ، وإنما ينظرون إليها كطعام للأمم التى تدعى عليها الوصاية » (٢) .

ثم وصف الملك ، فقال : « الملك الأشم الأصيل ، الذى تلوح سيماء البطولة على وجهه ، والعاهل الصنديد الأنجد ، الذى كأنما قد ثوب استقلال العرب على قده . فحمدت الله على أن عيني رأت فوق ما أذنى سمعت ، وتفاءلت خيرا فى مستقبل هذه الأمة » (٣) .

وفى كتاب آخر للأمير شكيب ، هو « لماذا تأخر المسلمون ؟ » قال فى الصفحة السابعة والأربعين منه :

« الله ذو ابن سعود حيث يقول : « ما أخشى على المسلمين إلا من المسلمين ، ما أخشى الأجانب كما أخشى المسلمين » وقال فى محفل حافل بحجاج الأقطار ، وقد طالبه مصرى ازهرى بمحاربة الانجليز والفرنسيين المتسدين على المسلمين ، ذاكرا عداوتهم لهم : « الانجليز والفرنسيين معذورون اذا عادونا ، لأنه لا يجمعنا بهم جنس ولا دين ولا لغة ولا مصلحة . ولكن المصيبة التى لا عذر لأحد فيها ، أن المسلمين أصبحوا أعداء أنفسهم . وأنا والله لا أخاف الأجانب ، وإنما أخاف من المسلمين . فلو حاربت الانجليز ، لما حاربونى إلا بجيش من المسلمين » .

وكتب عبد الرحمن عزام باشا مقدمة لكتاب « مع عاهل الجزيرة العربية » للأستاذ عباس محمود العقاد ، قال فيها :

(١) الارتسامات اللطاف من هـ

(٢) المصدر نفسه من ١٠

(٣) المصدر نفسه - من ١٢

— « ضاع ملكه وملك آبائه ، وشرد من بلاده ، وكان يومها في ريعان شبابه ، فلم تهز الهزيمة إيمانه ، ولم يؤثر الحرمان في تقاليده بأن يكرم ضيفه بكل ما يستطيع ، حتى قيل أنه رهن عباءته في الكويت ، ليقدّم طعاما يليق بضيف زاره فجأة ... »

« وقد نصح أهل الخبرة والتجربة هذا الشاب أن يقبل الهزيمة ، ولا يعاند في الأمر الواقع . قالوا له : ان الشجاعة ليست في أن تحاول المستحيل ، إنما هي أن تحاول الممكن . ولكن الشاب رفض النصيحة ، وسار على رأس قوة من أربعين رجلا مؤمنا ، ليقا تل جيش اماره ورجال قبائل أكثر عددا وأقوى سلاحا ... وأصيب اصابات قاتلة في معارك عدة قادها بنفسه ، ولكن الرصاص لم يصب إيمانه بحقه وحق آبائه الضائع ، بل اضاف اليه اضافات كبيرة ، جمعت أكثر اجزاء الجزيرة العربية ، في اطار من الأمن والاستقرار والرخاء والوحدة التي فقدتها ، منذ انتهاء عهد الخلفاء الراشدين ، الذين كان لعبد العزيز فيهم أسوة حسنة ، وقدوة سلفية طيبة ، تمسك بها واسترشد ، وبني حكمه على أساسها .

« وقد ذاق هذا الرجل العظيم مرارة الجوع والحرمان ، ومع ذلك لم يتسلل الحقد الى قلبه . ثم رأى الذهب والفضة تحت قدميه ، فلم يغيره بريقهما . وذاق الهزيمة فلم تضعف عزيمته ، ثم ذاق النصر فلم يسكر به .

« كان عنيدا مع الأقوياء ، متواضعا مع الضعفاء ، ولكنه مع عناده كان يسمع الراى الآخر ، فاذا اقتنع به رجع اليه ، لأنه اتخذ من الحق والشرعية اماما وحكما . وكان يؤمن بأن الأقوياء هم الذين يرجعون عن أخطائهم ، والضعفاء هم الذين يتمسكون بها .

« كان عبد العزيز عدة رجال في رجل واحد . ولقد صدرت عشرات الكتب بمختلف اللغات تتحدث عن جوانب شخصيته . ولا شك أن المكتبات ستستقبل عدة كتب أخرى تتحدث عن هذه الشخصية النادرة ، فان التاريخ الكامل لها ، لم يكتب بعد .

« انه مؤسس الدولة السعودية ، وباعث نهضتها الجديدة ، ومهجر طاقاتها البشرية والمادية ، بعبقريته الفطرية التي اجمع مؤرخو شخصيات هذا العصر ، على أنها من أعظم العبقريات السياسية والاصلاحية التي ظهرت فيه » .

وفي أصيل يوم الخميس ٣ ديسمبر من عام ١٩٦٤ ، أقامت وزارة المعارف السعودية مهرجانا رياضيا كبيرا على ملاعب « معهد العاصمة

النموذجي » ، احتفاء ببيعة فيصل - رحمه الله - ملكا في ٢ نوفمبر من السنة نفسها - أي من نحو شهر - شهدها جلالتة ، ورحب به صاحب المعالي الشيخ حسن بن عبد الله آل الشيخ وزير المعارف - وزير التعليم العالي الآن - بكلمة بليغة رائعة ، قال فيها موجها الخطاب الى فيصل :

- « يا صاحب الجلالة :

« اذا تحدثت عن النهضة التعليمية المعاصرة بقيادتكم الحكيمة ، فاني لا أضيف جديدا ، لأنها بحمد الله أضحت موضع إعجاب أعدائنا قبل أصدقائنا . لكنني أجد من واجب الاخلاص والوفاء ، أن أذكر في حب واجلال ، مؤسس هذا الكيان الكبير ، المغفور له الملك عبد العزيز رحمه الله ، واجزل له الرضا والثوبة ، لقاء كفاحه عن دين الله ، ونضاله في سبيل وحدة هذه الأمة وجمع كيانهها . فلقد عاش حياته المباركة مكافحا ومؤسسا ، فسان الله ديننا على يديه ، ووحد جزيرتنا بفضل جهاده وسعيه . ولن ينساه أبناء هذه الجزيرة الوفية ، فهو في قلوبهم كلما شاهدوا آثارا للعلم أو بيتا من بيوت الله ، أو مصنعا يدفع بمواهبنا نحو النور والانتاج ... له دعاؤنا بقاء كريم مع ربه .

« لقد جاهد لينصر دين الله ويعلى كلمته . واليوم وقد شاء الله أن يضع في يدك الأمانة ثمرة كفاحه ، وحصيلة جهاده ، فلقد أراد الله بك خيرا ، ومنك خيرا . أراد لك الخير لأنه قد هياك لاتمام رسالة مصلح عظيم ، ما كان يرتضى غير سبيل الحق . وأراد منك الخير ، لأنك بحمد الله الجدير بهذا الاجماع والحب والفداء ، والقادر باذن الله على أداء الرسالة وقيادة الأمة في معارج العزة والفخار » .

وكتب عنه الأستاذ عباس محمود العقاد في كتابه المشار اليه ، فقال :

- « ان ابن سعود من أولئك الزعماء الذين يراهم المتفرسون المتوسمون ، فلا يحارون في أسباب زعامتهم وعظمتهم ، ولا يجدون أنفسهم مضطرين الى أن يسألوا : لماذا كان هؤلاء زعماء ؟ لأن الايمان باستحقاق هؤلاء منزلة الزعامة في أقوامهم ، أسهل كثيرا من الشك في ذلك الاستحقاق » .

وكتب عنه الأستاذ خير الدين الزركلي ، حينما كان مستشارا للمفوضية السعودية بالقاهرة ، يوم الاحتفال بعيد جلوس الملك :
- « تتجاوب اليوم أسلاك البرق بين عواصم العالم وعاصمة العربية السعودية ، بتهنئة عاهل الجزيرة وسيدها المطاع ، الملك عبد العزيز آل سعود ، بعيد جلوسه . وتعيد هذه الذكرى الى الأذهان ، أحداث نصف

قرن لم يعرف قلب الجزيرة مثلها منذ عصر النبوة : امارات تتوحد ، وأمة تتكون ، ودولة تبني ، وحضارة تشاد ، وتحول في الأخلاق والعادات من فوضى الى نظام ، ومن اسفال الى اصعاد . في أقل من خمسين عاما استطاع رجل واحد أن ينشئ بين البحر الأحمر وخليج العرب ، ما عجز اثنا عشر قرنا عن انشائه أو الاتيان بمثله .

وكتب عنه الكاتب الفرنسي المشهور « اوجين يونغ » في كتابه « استعباد الاسلام » الذي صدر في عام ١٩٢٨ ، فقال في الصفحة الثامنة والخمسين : — « ... لقد تحول الوهابيون تحولا بينا ، وصار عندهم شيء من الهوادة ، وسلطانهم الحالي صاحب الأمر والنهي في الآونة الحاضرة ، يرحب بجميع أنواع الرقي . وهو سياسي محنك لا يفوته شيء من كبار الأمور وصغارها . وهو يستنفذ الميسور لتحضير العرب الرحل ، وجعله اياهم يميلون الى الزراعة كأخوانهم في شمر والقصيم والعارض . وقد ارتاح الى ارسال فرنسا وبريطانيا ممثلين يقيمون لديه في الرياض عاصمة سلطنته . وفي مقابل ذلك ارسل من لدنه ممثلين الى بيروت والشام ومصر ، وارسل مندوبين الى العواصم الكبيرة ، للاتفاق مع الحكومات على انشاء سفارات ، فتم له ذلك في برلين .

« أن سلطنته واسعة الأرجاء ، بعيدة الأطراف ، إلا أن مطامعها محدودة ومقرونة بالتعقل . وهو غير عجول في أعماله ، وهمه أن يكون العرب مستقلين . وهو يراقب العراق وسورية والشرق العربي وفلسطين . وله بواسطة مكة والمدينة صلات متواصلة بجميع مسلمي العالم . فالأمة التي تحسن خطب موالاته ووده بائياتها له حسن دخائلا السلمية ، لا تجد لديها سببا للشكوى منه .

« ولا يندفع ابن سعود مع أي سياسة خارجية كانت ، ولا يؤثر فيه أدنى نفوذ . فهو عربي قح نبيل ، وهو زعيم كبير . وقد انتحل تلك الفكرة التي نشرتها جريدة « المقطم » الصادرة عن مصر في ٢ نيسان (أبريل) سنة ١٩٢٦ ، وخلصتها :

« لا يسعى الشرقيون لاضرام نار الحرب ، ولا للمجاهرة بالعداوة . فالغاية الوحيدة التي يرمون اليها ، هي نيلهم العدالة التي ضنوا بها عليهم من عهد بعيد ، واصابتهم حقا كان الغربيون أول من أعلنوه . وإذا كان بين الشرقيين من اضطر ... (أو سيضطر) الى امتشاق الحسام ليحصل على ذلك الحق وتلك العدالة ، فما ذلك إلا لأنهم بخلوا عليه بجميع الوسائط ، ولأنه وجد ذاته في مازق حرج ، لا يلقي الى الخروج منه سبيلا . على أن الشرقيين بوجه الاجمال مبالون الى السلم وطامحون اليها . »

وفي منتصف الساعة الخامسة من صباح يوم الاثنين ، الثاني من ربيع
الأول من عام ١٣٧٣هـ (٩ نوفمبر من عام ١٩٥٣ م) ، دعاه ربه إليه ،
فأجابه ، وصعدت روحه الى بارئها راضية مرضية ، بعد ما ظل في دست
الحكم نحو نصف قرن ، مسؤولا عن رعيته ، ساعيا الى خيرها وسعادتها ،
حفيظا على هذا الصرح الشامخ الذي شاده ، واصبح منارة هادية للعرب
أجمعين ، مجاهدا مع أشقائه من زعماء العرب لاستعادة مجد الآباء
الأولين .

ومما يجدر ذكره ، أنه في مرضه الأخير ، دعى ثلاثة من أشهر أطباء
ألمانيا لمعالجته ، وكان أحدهم على وشك السفر في طريقه الى الدانمرك
وسويسرا وبريطانيا لالقاء محاضرات طبية في جامعاتها ، تدر عليه الوفير
من المال والسمعة الطائفة في دوائر العلم ، فألقى سفره تقديرا منه لمكانة
الملك العظيم الذي دعى لعلاجه . وفي هذا دليل على ما كان يحتله من
المكانة والتقدير العظيمين ، في نفوس الغربيين .

ودفن الفقيد الجليل ، كما يدفن كل مسلم حق عامل بالسنة وبتعاليم
السلف الصالح التي يدين بها آل سعود ... فانه قبل أن ينتشر نعي
الملك في الطائف حيث فاضت روحه الطاهرة ، هبطت طائرة في مطارها ،
وحملت الجثمان الكريم الى الرياض وبرفقته الأمراء ، وفي مقدمتهم فيصل
... وفي الرياض وسد الثرى بعد الصلاة عليه ، في لحد من الصعب معرفته
اليوم ، أو تمييزه عن لحد أي من رعاياه .

وهكذا ذهب في الصديقين والأبرار ، وحسن أولئك رفيقا .

ثم هو أخيرا بعد هذه السيرة العطرة ، عربي صميم ، يتصل نسبه الى
عدنان ، ويجتمع بالرسول الكريم صلى الله عليه وسلم ، في الجـد الثامن
عشر « نزار بن معد بن عدنان » .

فهو عبد العزيز بن عبد الرحمن بن فيصل بن تركي بن عبد الله بن
محمد بن سعود بن محمد بن مقرن بن مرخان بن إبراهيم بن ربيعة بن
موسى بن مائع بن المسيب بن المقلد بن بدوان بن مالك بن سالم بن مالك
ابن فسان بن ربيعة بن منقر بن الحارث بن سعد بن همام بن مرة بن ذهيل
ابن غزة بن ثعلبة بن عكابة بن صعب بن بكر بن وائل بن قاسط بن هنب بن
دعوى بن جديلة بن أسد بن ربيعة بن نزار بن معد بن عدنان (١) .

(١) كتاب « الملك العادل » للسيد عبد الحميد الخطيب - الجزء الاول - ص ١٧

وخير ما اختتم به حديثي عن هذا الملك العربي ، معجزة القرن العشرين ، نصيحة منه الى المسلمين والعرب ، نصيحة غالية ، أفضى بها اليهم في عام ١٩٣٩ ، لو أنهم وعوها يومها وقدروها حق قدرها ، لما وصلوا الى الحال التي يعانون منها اليوم ، فحسبناهم أن يتدبروها في حالهم الحاضرة ، لعل الله أن يصلح لهم بعد ذلك أمرا « ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » .

احتفلت مجلة « الهلال » المصرية الشهرية في شهر يناير من عام ١٩٣٩ ، بعيدها الذهبي ، فقصده محررها ، ملكنا العظيم ، يسأله النصيحة والارشاد والهداية لقومه من العرب والمسلمين ، فأجاب سؤله ، وكتب :

« بسم الله الرحمن الرحيم

« من عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل

« الى جميع من يطلع على كتابنا هذا من اخواننا المسلمين والعرب :

« سلام الله ورحمته وبركاته ، وبعد ، فانا نفتنم هذه الفرصة ونشير الى ما ترون من حال المسلمين والعرب في هذا العصر الحاضر ، مما لا يخفى على أحد . ونرجو من الجميع أن يرجعوا بذاكرتهم ، الى ما كان بالله ، ثم به سبب عزهم وسؤددهم في سالف الأزمان ، وهو العمل بالمبادئ التي جاء بها نبينا العربي ، محمد صلوات الله وسلامه عليه . فاذا صحت عزيمتنا وخلصت نيائنا لدراسة تلك المبادئ ومعرفتها ، والعمل بها ، والتناصح فيما بيننا للأخذ بأحكامها ومبادئها ، وأن نجتمع كلمتنا عليها ... اذا عملنا ذلك ، نرجو أن يغير الله ما بنا ، وأن يبدلنا من بعد خوفنا في هذا المعترك الحاضر ، أمنا ، فان الخير كله فيما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم من عند الله ، وفي اتباع ما أمرنا به ، واجتناب ما نهانا عنه .

« نسأل الله أن يوفقنا وإياكم لما يحبه ويرضاه ، وأن ينصر دينه ، ويعلى كلمته ، ويجمع شمل المسلمين والعرب » .

« صدر في قصرنا بمكة المكرمة في اليوم الثالث من شهر ذي الحجة سنة ١٣٥٧ الهجرية ، الموافق لليوم الثالث والعشرين من شهر يناير سنة ١٩٣٩ الميلادية » .

عبد العزيز السعود

المراجع

- ١ - صقر الجزيرة - أحمد عبد الغفور عطار .
- ٢ - محمد بن عبد الوهاب - أحمد عبد الغفور عطار .
- ٣ - الملك المعادل - عبد الحميد الخطيب .
- ٤ - موعد مع الشجاعة - قدرى قلعبى .
- ٥ - الوجيز في سيرة الملك عبد العزيز - خير الدين الزركلى .
- ٦ - الوهابيون والحجاز - السيد محمد رشيد رضا .
- ٧ - الهاشميون والثورة العربية الكبرى - أنيس صايغ .
- ٨ - الأمير شكيب ارسلان - الدكتور سامى الدهان .
- ٩ - لماذا تأخر المسلمون ؟ - الأمير شكيب ارسلان .
- ١٠ - الارتسامات اللطاف - الأمير شكيب ارسلان .
- ١١ - جزيرة العرب في القرن العشرين - الشيخ حافظ وهبه .
- ١٢ - خمسون عاما في جزيرة العرب - الشيخ حافظ وهبه .
- ١٣ - الحلقة المفقودة في تاريخ العرب - محمد جميل بيهم .
- ١٤ - عبد العزيز - تأليف : داكورت فون ميكوش - ترجمة : الدكتور أمين رويحه .
- ١٥ - تاريخ المملكة العربية السعودية - صلاح الدين المختار .
- ١٦ - المملكة العربية السعودية - محمد عبد المنعم عامر .
- ١٧ - النهضة الحديثة في جزيرة العرب - الدكتور محمد عبد الله ماضى .
- ١٨ - الملك عبد العزيز والمملكة العربية السعودية - عبد الله حسين .
- ١٩ - آل سعود - أحمد على .

- ٢٠ - التضامن الاسلامى - محيى الدين الفاسى .
- ٢١ - مع عاهل الجزيرة العربية - عباس محمود العقاد .
- ٢٢ - الأوابد - الدكتور عبد الوهاب عزام .
- ٢٣ - ملوك العرب - أمين الريحانى .
- ٢٤ - الاسلام وآسيا أمام المطامع الأوروبية - أوجين يونغ .
- ٢٥ - استعباد الاسلام - أوجين يونغ .
- ٢٦ - فيصل العظيم - أمين سعيد .
- ٢٧ - نظرة جامعة الى تاريخ الاسلام فى الصين - محمد مكين .
- ٢٨ - الهدية السننية والتحفة الوهابية النجدية - مجموعة رسائل
لخمسة من كبار علماء نجد .
- ٢٩ - الثورة الوهابية - عبد الله القصيمى .
- ٣٠ - الراى القويم على ملحد القصيم - عبد الله بن على بن باديس .
- ٣١ - الشواهد والنصوص من كتاب الأغلال - محمد عبد الرزاق حمزة .
- ٣٢ - نضال العرب ضد الاستعمار - الزعيم محمد العبد الله الميمان .
- ٣٣ - عشرة مصلحين - الدكتور أحمد أمين .
- ٣٤ - الرحلة الحجازية - محمد لبيب البتانونى بك .
- ٣٥ - رحلة الى الحجاز - ابراهيم عبد القادر المازنى .
- ٣٦ - فى الحجاز - محيى الدين رضا .
- ٣٧ - مشاهداتى فى الحجاز - عباس متولى حماده .
- ٣٨ - ندوة علمية عن الشريعة الاسلامية - وزارة الاعلام السعودية .
- ٣٩ - مجلة الهلال - شهر مايو سنة ١٩٣١ .
- ٤٠ - مجلة الهلال - شهر يناير سنة ١٩٣٩ .
- ٤١ - تقرير البعثة الاميركية الزراعية .
- ٤٢ - مذكرات شخصية للمؤلف .



سعد زغلول المحامي والفاعل

١٢٩

م ٩ - « رجال ومواقف »

سما بالمحامة من المار الى الفخار

كان في عام ١٩٢١
سيد مصر الأعلى (١)
صفحة موجزة من تاريخ
زعيم ثورة ١٩١٩

((اننى اشتغلت بالمحامة متذكرا عن أهلى واصحابى ، وكلما سألنى سائل : هل صرت محاميا ؟ قلت : ((معاذ الله ان اكون كقسوم خاسرين)) . كانت المحامة أبعد عن اسم الشرف والفضيلة ، وكان اسم المحامى مساويا لاسم المزور ، وكان المحامى لا يقصد لعمله بل لتزويره ، وكان لا يستطيع ان ينسب لى بيت من البيوت العالية ، بل كان لا ينبغي لقاض ان يجالس محاميا ، واصدر النائب العام منشورا بمنع اختلاط المحامين بالقضاة . . . وتغير الحال فصار القاضى يرى من شرفه ان يخالط المحامى ويعاشره ، ويسلك معه كل مسلك)) .

كذلك كانت المحامة يوم احترفها سعد زغلول ، فلماذا اذن نزل الى ميدانها ؟ وماذا صنع ليرتفع بها ؟

لقد دعت نقابة المحامين المصريين الى الاحتفال فى مساء يوم ٢٣ اغسطس الماضى ، بذكرى وفاة سعد زغلول ، وبذكرى وفاة خلفه فى زعامته مصطفى النحاس ، وقد اختاره الله الى جواره ، فى يوم مثل يوم وفاة سلفه العظيم .

كانت وفاة سعد فى ٢٣ اغسطس من عام ١٩٢٧ ، وكانت وفاة مصطفى فى ٢٣ اغسطس من عام ١٩٦٥ ، فكان هذا التوافق العجيب فى التاريخين ، مشار دهشة المصريين والعرب اللذين بتاريخ مصر وسير زعمائها . ولقد كنت ارجو ان يتناول متحدث فى الحفلة ، صناعة المحامة ، وكيف ارتقى بها سعد من حضيض الزراية ، الى ذروة الوقار والشرف ، وكيف سما بها من المهانة ، الى مقام الاحترام والمهابة ، بعد ما كانت عارا يجلل المشتغل بها ، فلا يلقى الا الازدراء من الكافة اجمعين .

نعم ، كنت ارجو ان اسمع هذا الحديث من واحد من الأصدقاء القدامى الكرام الذين تحدثوا فى الحفل ، فلما لم يتحقق الرجاء ، عدت الى

(١) فى سنة ١٩٢٤ .

مراجعى و « دفاترى القديمة » فى مكتبى ، فأعددت منها هذا الموجز عن سعد المحامى مما لم يتناوله كاتب من قبل ، وشفعته بفقرات عن فترات من حياته ، حتى يستطيع الجيل الشاب من المحامين ، أن يدركوا فضل سعد على صناعتهم الشريفة ، وحتى يعرف الجيل المعاصر من الشباب ، من هو سعد زغلول زعيم ثورة سنة ١٩١٩ ، الذى تعمّد بعض مؤرخى وزارة التربية والتعليم أن يتجاهلوه — كما تجاهلوا ثورته وجهاد خلفه — فلم يذكروه بكلمة خير فى كتبهم التى يؤلفونها لتلاميذهم ، فيشبون جهلة بتاريخ وطنهم وسيرة زعمائه وجهادهم ، بل جهلة حتى بأسمائهم ، فضلا عن جهادهم .

كان سعد زغلول أول محام مصرى اختارته الحكومة لتولى منصب القضاء ، فعين فى عام ١٨٩٢ مستشارا فى محكمة الاستئناف الأهلية ، فأقام له زملاؤه المحامون حفلة فخمة ، كانت الأولى من نوعها فى ذلك الزمان ، فى حديقة الأزبكية ، تصدرها رئيس المحكمة أحمد بليغ باشا ، ووكيلها اسماعيل صبرى باشا (شيخ الشعراء فيما بعد) والأفوكاتو العمومى أحمد حشمت باشا (وزير المعارف بعد ذلك بسنوات) .

وبعد ما انتهى أربعة عشر خطيبا من كلمات أطروا فيها سعدا ، ونوهوا بمناقبه وبمحامده ، وقف المحتفل به ليقول :

« اخوانى ، سادتى :

« قد عهدتمونى وليس من شيمتى الحسد ، اذ ليس الحسد بنافع أحدا أبدا . كما أنه لم يكن من طبعى الافتخار ، فانا آمن ، بما عهدته فيكم من أن ترمونى به . ولكنى أرى نفسى اليوم على غير ما طبعت عليه : أرانى حاسدا نفسى ، فخورا بما أنا اليوم فيه ، اذ كنت موضوع اهتمامكم ، ورهين عنايتكم ، وكنت أود لو انى بينكم ، أهنىء غيرى من بين صفوفكم ، بما يناله عن جدارة واستحقاق .

« اخوانى وسادتى :

« قد كنت أعرف فى نفسى القدرة على البيان وتقرير الحقائق ، بل كنت أعتقد — ولو كنت مخطئا فى اعتقادى — انى على شىء من البلاغة والفصاحة واللسن ، وما عهدت نفسى كالآن ، عيبا محصرا ، عاجزا عن القيام بما يجب لحضراتكم ، فى بيان مقام الشكر لكم . وأراكم اختلفتم فى الوجهة ، وتباينت فى الأسلوب ، وقد اتحدتم فى المعنى واجتمعتم ، فماذا

يسعنى من أساليب البيان لاداء ما يحق لكم ؟ وبماذا أشكركم وقد هجرت الكلام شهرا (يقصد انه ترك الحمامة الى القضاء منذ شهر) .

« اخوانى :

« ارانى ما ازال واحدا منكم ، وان نهاية الشرف عندى ان تقباونى كذلك ، لانكم انتم الذين تخدمون الحقيقة ، وما زلتكم تجدون فى طلبها ، ولم يكن من أمرى الا أن ضعفت عن مجاراتكم ، واحتثات السير معكم فى هذا الطريق المحمود ، فجلست وسرتهم ، وقعدت ونهضتم .

« اخوانى :

« اننى ما سبقت الى اتخاذ فن الحمامة شعارا ، الا لانها الحرفة التى تستلزم بسط آراء المشتغل بها على حضرات القضاة الفضلاء والأقران وجماهير العامة ، فهى من ثم ، الحرفة الوحيدة التى تظهر فيها قيمة المرء فى وسطه .

« والحق أقول : ما كنت بمستطيع أن أخالط من كانوا مشتغلين بهذا الفن ، يوم لبست شعاره ، كما قال أحد اخوانى فى أثناء كلامه . وانى محدثكم الحديث :

« اول ما هممت بالاشتغال بفن الحمامة ، وحدثنى نفسى بشأنها ، نظرت ، فاذا من رزئت بهم من الذين كانوا عنوان سمعتها وذكرها ، كأنهم السوك يؤذى الناس ويعذبهم ، ذلك انهم كانوا يسيئون الى عباد الله بخيانتهم وزيفهم عن طريق الحق والهدى ، وكذلك ترددت بادىء بدء ، ثم قلت فى نفسى : ما ضرك لو كنت وردة بين هاتيك الأشوك ؟ ولو كنت الآن ما حدثتها هذا الحديث . فمن حسن حظى انى أجيل النصر فى هذا الحفل الحافل ، فلا أجد أثرا لذلك الشوك . فلما استقر بخاطرى أن القيام بالواجب خير للمرء ، حتى وان كان بحرفة هى بأهلها من سقط المتاع ، أقدمت مستحصدا العزم على الاشتغال بهذه الحرفة ، بين أولئك الذين عددتهم شوكا . والحمد لله ، اذ قد لفظهم الزمان لفظ النواة ، يظهر الله مواقع نظرنا ان يقتحمهم فى هذه الليلة

« اخوانى :

« لا أحب أن أخوض فى حديث أولئك القوم ، ولكنى أقول كما قال أحد اخوانى : انه كان أقصى واجبات تلك الشرذمة ، ارضاء خواطر أولئك القضاة الذين محققهم الحق ، وذهب بهم العدل

« ذلك ما اقول بصفى محاميا بالأمس ، وقاضيا اليوم ، لا يليق بى فى الحاليتين أن اكذب على نفسى وعلى غيرى

» والذى حبيب الى الاشتغال بهذه الصناعة ، انى كنت مستغلا قبلها بوظيفة من شأنها الاطلاع على احكام المحاكم المفساة ، التى كانت تنشر فى الجريدة الرسمية « الوقائع المصرية » يوم كنت عضوا فى هيئة تحريرها ، وكان من حظى أن عهد الى أمر نقد تلك الاحكام وتلخيص معانيها . ثم انتقلت من هذه الوظيفة الى وظيفة ناظر قلم قضايا مديرية الجيزة ، وهى كما تعلمون اشبه بوظيفة القاضى ، اذ كان من خصائصه أن يصدر الاحكام فى كثير من المواد الجزئية

» فلما انفصلت من هذه الخدمة كما تعلمون ، وصفا الجو من الاحداث ، لم يرق عينى أن اضرق باب أحد ، التماسا للرجوع فى وظيفتى ، بل انى رجوت من توسمت فيه الخير أن يساعدنى لنيل وظيفة ، فأعرض ، جهلا منه ، عنى ونأى بجانبه . فكبر الأمر عندى ، وازددت ميلا الى الاشتغال بحرفة المحاماة ، وقلت لنفسى ، علام تحتل يا سعد منة جهول ؟ وما ضرك أن تكون مستقيما بين مفسدين ؟ بل ما ضرك أن تكون وردة بين الأشواك ؟ فهان على اذ ذاك أن احترف حرفة لم يكن فيها مناضل عن حق ، اوجه الحق

» اننى اشتغلت بالمحاماة متنكرا عن أهلى واصحابى ، وكلما سألنى سائل : هل صرت محاميا ؟ قلت : معاذ الله أن اكون كقوم خاسرين « وجملة القول انى كنت اجتهد أن لا يعرفنى الا أرباب القضايا ، وأن كنت أجهل ماذا تكون العاقبة . وقد رلى انى حبست فى أول اشتغالى بهذه الحرفة ظلما وعدوانا كما تعلمون ، وبعد أن انقضت مدة سجنى ، عدت الى مزاولة هذه الصناعة ، لا أبغى بها غير الحق مطلباً . وكنت أحب أبدا أن يحترمنى القاضى ، فأحذر كل ما يؤدى الى غير ذلك . ولعل سعادة الرئيس يذكر ما كان بين أعضاء لجنة الامتحان التى طلبتنى وبينى ، وسألتنى : ما هى واجبات المحامى ؟ كان جوابى : درس القضية جيدا ، والمدافعة عن الحق ، واحترام القضاء

» سادتى :

» تعلمون أن الحق صعب الاكتشاف ، وأن الحقيقة اذ تكون ضالة ، تشعب طرق نشدانها على الباحث . ويعلم الله كم من ليال مضت ، ما كان امرها عندى ، لا لانى كنت فى عيش ضحك ، ولا لانى قليل الميسرة ، ولكن



سعد زغلول المحامي في سنة ١٨٨٩

لأن الحقيقة ضائعة ، لا أجدها في طريق نشدائى لها ، بين أناس عهدت اليهم أمانة ، ولا من يؤديها منهم لاهلها . كنت أرى القانون يكرهنى عنى احترام القضاة ، وضميرى يأبى الامتثال لاحترام كثير منهم ، فكنت أجمع بين الاحترام والتحقيق ، ولا أستطيع التوفيق بين الظاهر والباطن ، فاعجبوا أيها الأفاضل من مطيع غير مطيع ، ولا جناح على ، لأن القوانين لا حكم لها على السرائر والضمائر . . أقول انى كنت أسأل من القاضى حقا ، ومن النيابة واجبا ، فلا أجدها ولا ذاك . أما الآن ، فكلنا يعترف فى سره وعلمه ، بأن القضاء ارتقى ، والحق عنه مسؤول

« وما زلت يا اخوانى أعد نفسى محاميا عن الحقيقة التى أردنا المحاماة عنها جميعا

« وانى شاكر فضلكم ، منشرح الصدر من كونكم عددتمونى جوهرًا شفافا سطعت عليه أشعة العدل وانوار الحق . فادعوا الله معى أن يؤيد روح الحق فى بلادنا ، ويزيد فى نشر الفضيلة والعدل »

لعل تواضع سعد حملة على اجمال موضوع احترافه المحاماة ، بعد ما فصله الخطباء الذين سبقوه ، فكالوا له من التقدير والتكريم ما أعجز لسانه عن شكرهم ، وهو الفصيح البليغ اللسن ، كما قال

فماذا قال الخطباء ؟

استهل الحفلة اسماعيل صبرى باشا بكلمة رقيقة قال فيها :

« ان تعيين حضرة الفاضل سعد زغلول أفندى عضوا فى محكمة الاستئناف ، لدليل على أن المحاماة والقضاء اخوان رضيعا لبان ، وغصنان صنوان ، حتى لقد راقنى أن اتمثل بقول المتنبي :

هذى منازل اخرى نهنيها

فمن يمر على الأولى يعزيها ؟»

نهض بعده اسماعيل عاصم باشا المحامى فقال فى خطبة مستفيضة :

« . . بتنا منشرحى الصدر ، مثلجى الأفئدة ، لظهور التطور والارتقاء فى اصلاح خطة القضاء ، بانتخاب الاكفاء لها ، اذ رأينا الحكومة قد نشطت لحظة جديدة مثلى ، فانتقت من صناعة المحاماة أصوليا نابغة ، هو حضرة سعد أفندى زغلول ، فعينته فى محكمة الاستئناف . ولم يكن قبل فى صناعة دنيا ، فنقول اليوم انه ارتقى ونهئته على ارتقائه ، بل كان فى مهنة

شريفة سامية ، وكانت تفخر به وتزهي ، فما كان من القضاء الا أن نفسه علينا ، فضمه اليه من بين أظهرنا ، وكان ذلك دليلا على انتهاج سبيل الإصلاح ، اذ كان سعد أفندي زغلول يصلح في الحقيقة لمنصب أرقى مما انتخب له ، وأسمى مكانا

« وقد اجتمعنا نحن عصابة المحامين ، الليلة ، لنهنيء أنفسنا بانتخاب الحكومة لحضرة الفاضل في سلك القضاء »

ثم وقف الأستاذ ابراهيم اللقاني المحامي فقال :

« يا سعد ، وفي هذا اللفظ معنى الاجلال والتعظيم ، ويكفيني مؤونة المقال . . فياسعد قد عز على القول في هذا المقام ، مع مالى من الاثرة والاختصاص بك والاحتفاظ بجليل فضلك ، الى حد يحتبس معه لساني ، ويعجز عن الافصاح والبيان . واقتصر الآن على أن أهنيئك من قلب يخالطه الأسف على انفصالك من بيننا ، وقد كنت واسطة عقدنا . وعلى قدر هذا الأسف تكون نهنيئتنا على دخولك في سلك القضاء . ولكن علام ؟ هل انتقلب الى مقام تكون فيه أكثر ثراء وأوسع دنيا مما كنت فيه ؟ كلا ، بل الى مقام يحبس فيه رزقك على راتب زهيد ، فعلام اذن نهنيئك ؟ أم هل انتقلت الى مقام تزاوّل فيه علما لم تزاوله ، أو تزداد سعة منه ووفرا وكنت فيه قصير الباع ؟ كلا ، فعلام اذن نهنيئك ؟

« بلى ، نهنيئك لأنك كنت تناضل عن الحق ، وتحارب للانصاف ، وتجاهد للعدل ، ولم يكن بيدك ، فأصبحت والعدل اليوم بيدك يطالبك بحقه . الا فلنشرب على شرف تسلمك زمام الحق ونصرته »

أما أحمد حشمت باشا فقد أوجز اذ قال :

« قد علمتم ان النيابة العمومية والمحاماة خصمان مختلفان ، ولكن يناضل كل منهما في سبيل الحق والانصاف ، ويجد لمحو عوامل الاستبداد والاعتساف . وقد كان حضرة سعد أفندي زغلول من أشد الخصمين واقواهم حجة ودفاعا عن الحق ، وذودا عن العدل ، فأصبح اليوم في صف الحاكمين بين الخصوم ، فحق للنياية العمومية أن ترحب به فيصلا يقضى بالحق ، كما عهدته في دور خصومته ، نصيرا له »

وتعاقب المتحدثون ، ول منكمهم يشير إشارة عابرة الى فضل سعد على المحاماة ، حتى وقف الأستاذ ابراهيم الهلباوى بك المحامي ، فبسط بسطا وافيا ما اشاروا اليه ، فقال :

« اذا التمسست من حضراتكم المعاذير ، وطلبت الصفح عن التقصير ،
فلى شفيح قائم بين ايديكم ، الا وهو كونى اخطب الآن اثر ثلاثة عشر خطيبا ،
كلهم قد خلب الالباب ، واخذ بمجامع القلوب . ولكن لا أسالكم عذرا ، لأن
موضوع الخطب شخص كله فضائل ، ومهما قال الخطباء ، فبحر الفضل
واسع لا تنفذ مادته . ولست أقصد بكلمتى الى الأسف على فراق سعد
أفندى زغلول لطائفة المحامين ، فاننا ما اجتمعنا هنا لتوديعه منها ، بل
لنهنيء هذه الطائفة التى يحق لها أن تفخر اعجابا بما نالته ، بنعيينه ، من
الشرف وعلو الشأن

« تقولون ان حرفة المحاماة شريفة ، وفضلها مقرر ، واقول : كان ذلك
لها ، ولكن على القرطاس ، وفي القواعد الفلسفية ، اما المشاهد فليس كذلك

« فمئذ تسع سنوات ، كانت ابعد عن اسم الشرف والفضل . وتعلمون
انتم ان المحاكم الاهلية حلت محل المجالس الملقاة ، التى كان امامها محامون
يسمون « وكلاء الدعاوى » ، ليس صاحب السمعة فيهم ، الا من كان اخبر
بأغراض القضاة ، وأعرف بحاجتهم ، فكان ، ولا ريب ، هذا الفن ضائع
الاعتبار ، بين أيدي طبقة مضيفة لشرفه ، خافضة لمكانته . فلما تألفت
المحاكم الاهلية لم يجسر أحد أن يسوق نفسه ضحية لهذا الفن وذبيحة ،
الا رفيقنا سعد أفندى زغلول ، فكل يعالج مرضه ، ويرتق فتقه ، ويقيم
أودده ، ويحاهد في سبيل اعلاء كلمته ، حتى اسدل الستار على كثير من
فضائحه ومعايبه ، فأقدم اذ ذاك أرباب الشرف على احترافه ، ولهذا كان
سعى رفيقنا بادىء بدء ، جهادا مستمرا ، ولولاه ما استطاع أحد الاشتغال
بهذا الفن ، الذى اصبحنا نعهده اليوم فنا شريفا ومهنة سامية عالية .
فالفضل كل الفضل في سمو مكانتها ، لحضرة سعد أفندى زغلول . فلذلك
وجب علينا ان نهنيء المحاماة ، بانتقاله منها وارتقائه الى منصة القضاء ،
فهو الذى صيرها أهلا لان يرتقى منها مثله الى محكمة الاستئناف

« ومن الغريب انه لما عرض تعيين حضرة صديقنا المفضل سعد أفندى
زغلول ، عضوا في محكمة الاستئناف ، قال قائل : ان حضرتة رغم ما أحرزه
من الفضل وسعة الاطلاع في القوانين ، ليس لديه شهادة « ليسانسيه » !
فلما لمغ هذا القول سعادة الفاضل رئيس محكمة الاستئناف ، أجاب بأنه :
اذا كان معترفا بفضله وسعة اطلاعه في القانون ، أفلا يكون اضطلاعه بدراسة
الشريعة الاسلامية الفراء ، شفيعا له وقائما مقام شهادة « اليسانس » ؟
وهذه حجة دامغة ومقال رشيد

« وهل من ينكر بعد هذا فضل حضرة سعد أفندى زغلول ، وقد عرف فضله كل مصرى ، حتى أصبح الفلاح في زوايا القرى ، يعتمد على اسمه في مقاضاة خصمه ، ان كان محققا ، وتخضوع قواه وتهن عزيمته عند ذكر اسمه اذا كان مبطلا ؟ فهل مثل هذا الفاضل تكبر عليه وظيفة مندوب في قلم قضايا الحكومة ، وقد اكبرتها من قبل ذلك الاغراض ، ثم كادت تكبر عليه وظيفة قاض في محكمة الاستئناف ، وهى الوظيفة التى نحتفل اليوم بها ؟

« وأنتم يا حضرات الاخوان تعترفون في سركم وفي علانيتكم ، انه افضلنا واجدونا بالرقى واستلام زمام الحكم في أكبر مصالح الحكومة ، فالمحامية التى رفعها الى ذروة الشرف ، لا تزال تطالبه بأن يتسنى لها أعلى سنام الرعاية والاعتبار ، وان يمحى عنها ما بقى من رسوم الزرابة والاحتقار ، حتى اذا طلب أحدنا فيما بعد ، الى منصب أرقى مما نال اليوم ، لا يجد دونه معترضا

« كالكم تعرفون يا حضرات المحامين ان القضايا كانت ترفع الى المحاكم ، وفى كل مائة منها سبعون أو ما يزيد ، ترفع فيها المسائل الفرعية ، فتقبل لخطأ في الشكل ، أو لجهل بالطرق القانونية ، فأصبحت وليس في المائة خمس قضايا مما تقبل فيها الفرعيات ، ومرجع الفضل في ذلك كله الى سعد أفندى زغلول ، إذ كان قدوة وأستاذاً للمستفيدين بصناعة المحاماة ، بل كان استاذ الكثيرين من القضاة : وهذه تقاريره الشرعية والعقلية محفوظة لدينا ، يرجع اليها كل من استبهم عليه أمر قانونى ، فلم يعد بعد من حاجة الى بقاءه بيننا ، فقد اتم دروسه علينا ، من حيث الصدق والاستقامة وطهارة الدمة ، أو من حيث البلاغة والفصاحة ، أو من حيث المسائل القانونية الدقيقة المعضلة . فليت شعرى ، لآى شىء نتأسف على فراقه ، وليس بنا من حاجة اليه ، الا ما يطلب منه في دوره الجديد ؟

« أى مشكل قانونى ، أو أية حادثة قانونية ، أخذت بطبيعتها شكلا من الأشكال والالتباس — وللحوادث طبائع تختلف حتى مع وحدة القانون — ولم نر مرجع الفضل في حله ، الى حضرة الفاضل سعد أفندى زغلول ؟ بل في أى وقت تنازعنا في مبدأ قانونى ، وكان الحكم بين الفريقين غيره ؟ أو لم يكن الرجوع الى آرائه في الأحكام السابقة التى بسبيل هذا المبدأ ؟

« ان انتقاله اليوم الى سلك القضاء ، لا يحزننا ، بل يملأ صدورنا فرحا واغترابا ، اذ به تزول عنا بقية الوصمة التى لم تبرا حرقنا من عابها الى

الآن . فلو قال لنا قاض من القضاة بعد اليوم : « ان فيكم من لا يصلح لشيء » أجبناه : بل ان فينا من شرف منصب القضاء »

وتنقضى السنون ، وتكرر الأعوام ، تولى سعد في أثنائها نظارة المعارف ونظارة الخفائية ، ووكالة الجمعية التشريعية بالانتخاب . فاذا عطلها الانجليز لنشوب الحرب العالمية الاولى في أغسطس من عام ١٩١٤ ، انتهز فرصة نهايتها في عام ١٩١٨ ، فقصد في يوم ١٣ نوفمبر من ذلك العام مع زميليه على شعراوي باشا وعبد العزيز فهمى بك ، دار الحماية البريطانية ليطلب الاستقلال التام لوطنه ، والسفر الى لندن ليصارع الانجليز الفاصيين بحق هذا الوطن في الاستقلال والحرية ، فلم يجب الى طلبه ، ونفوه مع نفر من زملائه الاحرار الى مالطة في ٨ مارس من عام ١٩١٩ ، فاندلعت الثورة وعمت القطر كله ، من شماله الى جنوبه ، ومن شرقه الى غربه ، في اليوم التالي لنفيه (٩ مارس) فاضطرت السلطات البريطانية الى الافراج عنه بعد شهر واحد ، وظل طليقا في خارج الوطن ، داعيا الى استقلاله . فاذا عاد الى القاهرة في ٥ ابريل من عام ١٩٢١ استقبلته الامة استقبال الفاتحين ، واضطر الجنود البريطانيون المحتلون الى ملازمة تكناتهم ، فلم يظهر واحد منهم يوما في أى شارع من شوارع القاهرة او الاسكندرية ، وذلك حرصا على شعور المصريين ، وكتب يومذاك اللورد اللنبى المتهمد البريطانى الى امه - ما ورد في مذكراته - تحت « (يوم ٦ ابريل سنة ١٩٢١) » ، يقول :

« وصل الى القاهرة أمس سعد زغلول ، فسحبت كل الضباط والجنود من الشوارع ، تاركا للمصريين الامر . ولقد احتشدت الجماهير المتحمسة ، ولكن النظام كان يشملها ، حتى لم تقع حادثة واحدة »

وكتب المارشال ويفل في كتابه « اللنبى فى مصر » يصف ذلك اليوم ، فقال :

« كانت رحلة سعد زغلول على طول خط سكة الحديد من الاسكندرية الى القاهرة ، فوزا باهرا له ، ثم امتازت بالمناظر الرائعة عند ما وصل الى العاصمة . وهذا اليوم بطبيعته عطلة وطنية ، غادرت فيه النساء خدورها - مما لم يحدث قبل ذلك - ليشاركن في استقبال من أعظم الاستقبالات التى قوبل بها زعيم فى أى بلد من بلاد العالم . ولا بد أن يكون عدد الذين احتشدوا فى المسافة القصيرة نسبيا ، بين محطة سكة حديد وبين منزل زغلول ، نحو ٤٠٠٠ من الأشخاص على الأقل . ولقد امتلأ الطريق بالعربات التى ترفرف فوقها الاعلام وسعف النخيل ، وبالمركبات من كل صنف ،



سعد زغلول المستشار في سنة ١٨٩٣

غطيت بالازهار ، وعليها الفتيات يرقصن ، وبالموسيقى الشعبية من كل لون ، وبالحمال وبالحمير ، حتى تألف من كل ذلك مشهد رائع عجيب »

وتسابت الهيئات والجماعات والطوائف في تكريمه وتكريم رفاقه ، في حفلات كبيرة في افخم فنادق العاصمة ، شهدها الوزراء والكبراء والعلماء وكثير من الطلبة والعمال والموظفين والشيوخ والشباب والفتيات والسيدات . من هاتيك الحفلات حفلة اقامتها له نقابة المحامين في فندق شبرد ، في ١٥ ابريل ، اى بعد عودته بعشرة ايام ، وقف فيها خطيبا رادا على خطبائهم ، فافاض في موضوع احترامه المحاماة فقال :

« حضرة الاستاذ النقيب :

« حضرات الزملاء الافاضل :

« قبل الدخول في الموضوع ، بالاصالة عن نفسى ، وبالنيابة عن حضرات زملائي ، اقدم لحضراتكم مزيد شكراتنا على هذا الترحيب ، وعلى هذه الحفلة التكرامية

« ثم انى ابدى بانى لا يصح لى مطلقا ان افتخر بآى عمل من الاعمال فى القضية المصرية ، لانى ما كنت اعمل فيها وحدى ، بل بمشاركة زملائي . واعترف لكم علنا بانى لم اكن العامل الاكبر فيها ، بل كنت العامل الأخير (تصفيق)

« لا اباهى بهذا الفضل ، لأن حصنى فيه تافهة ، ولكن الذى اباهى به ، واستسمحكم ان اقول بانى افتخر به كل الافتخار ، هو دخولى فى صناعة المحاماة (تصفيق)

« نعم ، افتخر بهذا افتخارا كبيرا . ولا ينبغى ان ينسب لى أنانية فى هذا الافتخار ، لانى اعرف كيف كان الدخول فى مثل هذه الصناعة صعبا جدا

« دخلت المحاماة ايام كان الدخول فيها ليس شرفا كما هو الان ، بل ملوث لمن دخل فيها . لم تكن صناعة المحاماة شريفة فى بلادنا ، كما شى شريفة فى ذاتها ، بل أسوء استعمالها ، الى حد ان كان اسم المحامى مساوية لاسم المزور . نعم ، كان هذا هو شأن المحامى ، وكان لا يستطيع ان ينسب لآى بيت من البيوت العالية . كان الصدق غير معروف فيمن يشتغلون بهذه المهنة ، ومع ذلك اقدمت على هذه الصناعة ، مع أنها كانت مخالفة ، فى ذلك الوقت ، للذمة وللشرف . وكان المحامى لا يقصد لعلمه بل لتزويره .

فالاقدام على الدخول في هذه الصناعة في الظروف التي شرحتها ، يعد شجاعة واقداما . وقد دفعنى الى الاشتغال بها ، اعتقادى انها صناعة شريفة ، لها صفات جميلة جدا ، لانها تساعد العدالة في توزيعها ، فيجب رفع شأنها (تصفيق)

« دخلت في هذه الصناعة ، وتحملت ما تحملت ، ولم يكن هناك نقابة تدافع عن حقوقها ، بل كانت المحاماة تحت الاحكام العرفية حقيقة ، وكان يكفى ان يفضب رئيس محكمة على « وكيل » ، فيحرمه من صناعته . »
« واذكر يوما كنت اترافع فيه امام محكمة بنها ، فطلب وكيل النيابة تأجيل القضية لاستيفاء بعض الاجراءات ، فقلت : لا يجب تأخير الدعوى ، لانه لا يصح اطالة سجن المتهمين . فقال الرئيس : اسحب كلامك ، فان المحكمة لا يجب عليها شيء . ولم يكن في ذلك الوقت نقابة يرجع اليها ، ولكن شدة جراتى دفعتنى على ان أقول له : انى لا اسحب كلمة اعتبرها حقا ، فتداول مع زملائك ، وقرروا رفض طلبى او عدم رفضه . قلت هذا وأنا متخوف ان يجر الى حرمانى من صناعة المحاماه ، ولكن قدر القدر ان يكون بين القضاة قاض كان صديقا لنا اخيرا ، وهو المرحوم على بك فخري ، فعفوا عنى !!

« نعم ، لم تكن المحاماة شريفة في ذلك الوقت ، كما هى شريفة في ذاتها ، وكان المحامون مشهورين بمهارتهم في ان يشتموا بعضهم بعضا . وقد اصابنى في اول مرافعة لى امام محكمة الاستئناف ، ان زميلى كان رجلا « قديما » ، وكنت صغير السن اذ كان عمرى ٢٢ سنة ، وكان مستائفا ، فأخذ يطعن على بدون ان يعرفنى او اعرفه ، ونسب الى انى كنت محاميا قديما وما كنت كذلك ، ووبعد ذلك ألهمت القول بأن كلام زميلى ينحصر ، بعد حذف المطاعن ، في كذا وكذا . وما جاريته في شتائه ، وجريت على هذا الاسلوب ، وجرى عليه آخرون

« أقول لكم هذا لأدل حضراتكم على ان صناعة المحاماة لم تكن شريفة، وكان الدخول فيها يحتاج الى اقدام وشجاعة وتضحية . والمتشرف بمخاطبتكم تحمل هذه التضحية ، وهو يستحق ان يفتخر بها . ولقد جاهدت حتى علا شأن المحاماة ، وأصبح فيها من هم صادقون واصحاب ذمة وشرف ، ولكن قبل هذا الدور ، كان لا ينبغى لقاض ان يجالس محاميا ، ولقد صدر منشور من النائب العمومى بمنع اختلاط المحامين بالقضاة ! ولكن هذه الصعوبات ذلت ، حتى صار القاضى يرى من شرفه ان يخاطب المحامى ويعاشره ، ويسلك معه كل مسلك (تصفيق)

« ثم كان من هذا السير ، ان قضية انتخبوا من المحامين ، وكنت اول انسان في المحاماه انتخب قاضيا ، واني افتخر بهذا . ثم حدث اني اشتركت في تأسيس نقابتكم التي هي الآن الملجأ لكم والحامية لحقوقكم . واني اشكر النقيب الفاضل على انه ذكر هذا بأفقه مفخرة لى ، واتقبله منه بغاية الشكر »

ما كان سعد لينسى حديثه عن نفسه وهو محام ، في المناسبة التي تعرض

له

في ١٥ فبراير من عام ١٩٢٤ ، اقامت نقابة المحامين بالقاهرة ، حفلة تكريم لتلاثة من المحامين اختارهم سعد بنى اول وزاره دستريه رأسها في تاريخ مصر الحديث ، هم : مرقص حنا بك وزير الانتسفال ، ومصطفى النحاس بك وزير المواصلات ، ومحمد نجيب الفرابلى أفندى وزير الحفانية فما ان انتهى الخطباء من خطبهم ، حتى تطلعت الابصار الى سعد ، راجية ان يلقى كلمة او درة من درره في المحتفلين ، فارتجل - وجميع خطبه طول حياته كانت ارتجالا ولعدة ساعات ، الا ما كان في مناسبة رسمية فينتلو من ورقة - خطبة بداها بقوله :

« زملائي الكرام :

« وكل من ارى زملائي ، فان كانوا محامين فقد كنت محاميا ، وان كانوا « مجاورين » - اى طلبة في الأزهر - فقد كنت مجاورا ، وان كانوا صحافيين فقد كنت صحافيا ، وان كانوا وزراء فقد كنت من الوزراء ، ولذلك ادعوكم كلكم زملاء »

ثم قال بعد حديث قصير :

« اذكر انى عند ما كنت محاميا - ولا أقول ذلك مفاخرة او مباهاة ، بل حكاية للواقع ، يسمعه المحامون الذين هم أحدث منى سنا ، ليروا رأيهم في اتباعه . . يأتى موكل مريدا الصلح لخشية خصمه من توكيلي عنه ، فأرحب به وأسهل الامر عليه ، بان أرد اليه مقدم الاتعاب التي قبضتها منه - لماذا سكتتم ؟ (ضحك وتصفيق) . يجب عليكم ان تساعدوا على الصلح ، ولو برد بعض الاتعاب ان لم يكن كلها . وعلى أى حال أرجو أن لا تكون قيمة الاتعاب مانعا لكم من تحقيق الصلح والسلام

« انى ما كنت اعيد مقدم الاتعاب في باب الايرادات ، بل في باب الامانات ، لافى نفسى ضعف نفسى ، حتى اذا أراد الموكل الصلح ، أرد له الاتعاب وأقول له : هذه امانتك ردت اليك . فعليكم ان تتصرفوا في الأمر كما

نشاؤون ، وقوا أنفسكم من طمعكم كما ترون ، وهذه نصيحة محام قديم
لمحاميين محدثين .»

لم يقتصر فضل سعد على المحاماة على هذا ، بل ان له فضلا قديما
لا يذكره أحد اليوم ، هو أنه فتح باب الانتساب الى « مدرسة » الحقوق
لإمام الراغبين من الشباب في دراسة القانون . وقد روى هذا بنفسه ، فقال
في جلسة الجمعية التشريعية التي عقدتها في يوم ١٠ يونيو من عام ١٩١٤ -
وكان وكيلها المنتخب ممثلا فيها دائرة السيدة زينب - لمناقشة بعض
نصوص قانون تحقيق الجنايات ، وبعض مواد خاصة بالالتحاق بالمدارس
أعدتها لجنة المعارف في تقرير مسهب :

« عندما كنت ناظرا للمعارف ، وجدت كثيرا من الشباب يريدون أن
يتعلموا الحقوق ، ولكنهم لا يجدون سبيلا لتعلمها ، لان محلات مدرسة
الحقوق أقل من الطالبين ، فبحثت المسألة مع ولاية الأمور ، وامكنا ان نقبل
في امتحان المدرسة أناسا يتعلمون في منازلهم أو في المدارس الحرة ، ثم يقبلون
في آخر السنة في الامتحان ، وترتب على ذلك ان تعلم كثير من الناس »

كان سعد فريدا بين الزعماء ، في صراحته ، وفي بساطته ، وفي تواضعه
وفي تمسكه بالحق ، وفي شدته على الباطل ، وفي الوفاء ، وفي كل فضيلة ،
أو محمدا أو مكرمة عرفها أهل ذلك الزمان

من صراحته في الحق ، ما أثر عنه قوله غير هياب ولا وجل عن السلطان
أحمد فؤاد ، في الحفلة التي أقامها له سكان قسم شبرا برباسة الأمير عزيز
حسن ، في ٢٥ أبريل من عام ١٩٢١ ، في معرض حديثه عن الخلاف الذي
نشأ بينه وبين عدلى يكن باشا على رئاسة وفد المفاوضات مع الحكومة
البريطانية ، فإن سعدا يصر على أن يكون رئيس الوفد باعتباره ممثلا للامة ،
ويصر عدلى على أن يكون هو الرئيس لانه الممثل الرسمي للحكومة باعتباره
رئيسا للوزراء . قال سعد :

« قالوا - اى الوزارة وأنصارها - ان اعطاء الرئاسة لغير رئيس
الحكومة مخالف للتقاليد المعروفة . ما هذه التقاليد ؟ لكل بلد تقاليد ،
فهل في مصر ما يمنع عظمة السلطان من ان يعطى الرئاسة لمن يشاء ؟ كلا
ثم كلا . . هذه دعوى منهم لم يقيموا بينة عليها ، فلا اعتبار لها . على انه
إذا صح في البلاد الأوربية ان رئيس الحكومة يجب ان تكون له الرئاسة ،
فلا يصح ذلك في مصر مطلقا ، بالنسبة للمهمة السياسية التي نحن
بصددها ، فان مصر ليست بلدا دستوريا ، ووزارتها لا ينتخبها الشعب ،

بل هي معينة من طرف الحاكم ، فلا يمكن أن تدعى أنها وزارة دستورية
ناتبة عن الأمة ، فهي معينة من عظمة السلطان ، بل أجاهر بالحقيقة الآتية :
ومن المندوب السامي أيضا .

« ومتى كان المرسوم السلطاني ممضى من رئيس الوزارة والوزراء ، فإنهم
يكونون هم المسؤولين عنه ، لأن عظمة السلطان يمثل سلطة الحماية المضروبة
عليكم رغم أنوفكم .

« ليس لمصر وزارة خارجية الآن ، وسياستها الخارجية بيد الدولة
الحامية ، ورئيس الوزارة ليس الا موظفا من موظفي الحكومة الانجليزية ،
يسقط ويرتفع بإشارة من المندوب السامي ، وهو بهذه الصفة لا يمكنه أن
يكون بأزاء رئيسه وزير خارجيه انجلترا حرا في الكلام ، لانه مدين له بمركزه
فاذا طلبنا الرئاسة ، فانما نطلبها ليكون الرئيس حرا مرتكزا على قوة لا تهاب
شيئا في المطالبة بحقوقها ، وهي قوة الأمة ، لا ان يكون مرتكزا على قوة
مستمدة من الحكومة الانجليزية ، لان ذلك يجعل المفاوضة بين الاصل
وفرعه ، أي بين الحكومة الانجليزية ، وبين الحكومة الانجليزية أيضا . .
أي ان جورج الخامس - ملك انجلترا في ذلك الوقت - يفاوض جورج
الخامس »

من تواضعه قوله في جلسة الجمعية التشريعية في ١٥ يونيو من عام
١٩١٤ ، ردا على عضو قال أن سعدا يريد بمعارضته المسألة التي كانت
مطروحة على أعضاء الجمعية ، التأثير على فئة مخصوصة لتنضم اليه
وتنقاد لزعامته :

« هذه الفكرة يا حضرة العضو المحترم ، يسهل على اللسان مع الاسف
ترديدها ، وقد تطوف ببعض الاذهان . ولكني أقرر لك انها فكرة غير
صحيحة ، واني بعيد عنها كل البعد ، وها انا موجود معك ومع غيرك في
هذه الجمعية منذ زمن طويل ، فقل لي : متى رجوتك مرة ان تنضم الي
رأى ؟ ومتى حاولت التأثير عليك لأجعلك تحت زعامتي ؟ لا اظنك تقول
ذلك . .

« انك ان شئت ان تعرف حقيقتي ، فاعلم انني رجل قد وضعت تحت
تصرف امتي : عقلي وخبرتي وبياني ، فان استفادت الأمة من عملي هذا ،
فذلك ما يجعلني سعيدا ، والا فهو واجب قد أخذته على نفسي ، فانا اقوم
به لأريح ضميري . أما الذي يسرني ويشرفني ، فهو ان اكون خادما لكم
لا زعيما »

وكان سعد يفخر بأنه فلاح ، وأعرب عن فخره هذا في مادبة عشاء كبيرة أقامها له ولرفاقه « سر تجار العاصمة » عبد القادر الجمال باشا وزملاؤه ، في فندق سيميراميس في مساء يوم ١٢ أبريل من عام ١٩٢١ ، بمناسبة عودتهم من أوروبا ، حيث كانوا يحاولون جاهدين عرض القضية المصرية على مؤتمر الصلح

قال سعد في تلك الحفلة : « طربت جدا عندما شرفني بزيارته وفد من الفلاحين على اكتافهم المقاطف ، وفي أيديهم القووس ، أذ قالوا : اننا جئنا لنحييك . قلت : وماذا تريدون ؟ قالوا : نرغب في الاستقلال : قلت : تعرفوا الاستقلال بيتاكل والا ينشرب ؟ قالوا : الاستقلال يعنى نحكم نفسنا بنفسنا ولا يحكمناش الانجليز .

« ايتوتنى يابى كاتب او فيلسوف ، ياتى للاستقلال بمعنى أحسن من هذا المعنى الذى جاء به الفلاح الذى يحمل في يده الفأس وعلى كتفه المقطف ؟

« انى افتخر بهذا الفلاح ، وبأنه منى وأنا منه »

ويصبح لمصر دستور في عام ١٩٢٣ ، وتجرى على أساسه الانتخابات حرة نزيهة ، فيكتسح سعد وانصاره مقاعد البرلمان ، ويرأس أول وزارة دستورية في تاريخ مصر الحديث كما قات من قبل في سنة ١٩٢٤ ، فيكتب المارشال ويفل يقول في كتابه « اللبى في مصر » ، ويا صدق ما قال :

« كانت سنة ١٩٢٤ في مصر ، سنة زغلول ، فقد طلعت عليه وهو سيد مصر الأعلى ، وحل يوم ٢٧ يناير من هذه السنة ، فأصبح زغلول أول رئيس وزارة لمصر في ظل الدستور الجديد ، وتوات الحكم في إنجلترا في الوقت نفسه تقريبا ، أول حكومة للعمال رأسها « رامزى ماكدونالد » واحتفظ بوزارة الخارجية مع رياسته الوزارة ، وكانت له بزغلول معرفة شخصية ، وكثيرا ما كان يعبر عن ميله لتحقيق آمال مصر في الاستقلال التام ، كما فعل آخرون من أعضاء حزب العمال . ولقد بدأ زغلول في الحق يومها في ذروة النجاح . كانت له اليد العليا في السياسة المصرية ، بينما غلب الضعف على الأحرار (يقصد الأحرار الدستوريين) وبقيّة الأحزاب الأخرى ، حتى الملك لم يطمع في معارضته ، مع صداقة الحكومة البريطانية له وميلها اليه . بل ان دار المعتمد البريطانى التى لم يكن له صلة رسمية بها منذ ١٣ نوفمبر سنة ١٩١٨ - يوم أن أبدات زيارته للسير ريجنالد ونجحت معركة الاستقلال - راحت تخطب وده » .

ويقتل سردار الجيش المصرى وحاكم السودان العام السرى ستاف
باشا فى ١٩ نوفمبر من السنة نفسها (١٩٢٤) ، فيستقيل سعد بعد ان رفض
انذارين بريطانيين فيهما اعتداء على سيادة الامة واغتصاب لحقوقها ، وتعقبه
وزارة اخرى ، وتجرى انتخابات ، وينتخب سعد رئيسا لمجلس النواب فى
عام ١٩٢٦ ، فاذا انتهت الثورة البرلمانية فى ١٦ يوليو من عام ١٩٢٧ ،
خطب فى النواب مودعا ، فقال بعد ما عدد ما انجزه مجلسهم فى دورته تلك :

« لقد كنت اود ان اتحدث اليكم كثيرا ، ولكنى اشمس بانى تعبت
واتعبتكم ايضا ، ولا اريد ان اجعل احدا يمل منى . ولكننى قبل ان اختم
كلامى ، ارجو منكم حينما تغادرون هذا المكان ان لا تنسوا وظائفكم :
لا تنسوا انكم نواب دائما ، لكى يحدوكم هذا العلم ، الى البحث عن آمال
مواطنيكم واحتياجاتهم ورغباتهم ، لكى تبدووا للحكومة ، اما مباشرة ،
او بطريق هذا المجلس فى الدورة القادمة ان شاء الله .

« والآن استودعكم الله جميعا ، واسأله لكم الصحة والعافية ، وارجو
ان اراكم قريبا ، وان يهبنى الله جل وعلا من القوة ، ما يعيننى على
مشاركتم فى خدمة البلاد ، حتى نصل بها الى ما نوده جميعا » .

ويسافر الزعيم الجليل الى عزيمته فى مسجد وصيف ، حتى اذا كان يوم
الاثنين ١٥ اغسطس ، شعر بالتهاب فى اذنه ، واشتد الالتهاب فى اليومين
التاليين ، وامتد الى جلد الراس ، وارتفعت حرارته ، واشتدت آلامه ،
وعرف الاطباء انه اصيب بمرض « الحمرة » ، فاسرعوا بحقنه بالمصل
المضاد لبدا التحسن عليه قليلا قليلا ، اذ هبطت حرارته ، وانتعشت
حركته ، مما راى الاطباء معه عودته الى القاهرة ، فعاد اليها بالباخرة
« محاسن » فى يوم الجمعة ١٩ اغسطس ، وهو فى صحة لا تبعث على قلق
او حذر ، وفى صباح يوم الاحد عاده اطباؤه ، ثم اذاعوا نشرة طبية كانت
الاولى والاخيرة ، قالوا فيها :

« ان الالتهاب الذى اصاب حضرة صاحب الدولة الرئيس الجليل
سعد زغلول باشا فى اذنه ، ثم فى راسه ، قد زال بحمد الله مع الحمى التى
نشأت عنه . ودولته الآن فى دور النقاهة ، ولكنه محتاج الى الراحة التامة ،
ويمكنه ان يغادر غرفته ويقابل زواره بعد قليل من الايام ان شاء الله » .

ولكن الداء استشرى ، ووصل الى الرئتين شديدا قويا ، وارتفعت
درجة حرارته الى الواحدة والاربعين وتسعة خطوط ، ومعنى هذا : ان لا
لا امل ، فقد انتهى الاجل ، وحانت ساعة الرحيل الى الدار الآخرة .

ففي الساعة الثامنة من صباح يوم الثلاثاء ٢٣ أغسطس ، مسحت زوجته الوفية أم المصريين صفية هانم زغلول ، جبهته يمينها ، حانية عليه ، متكلفة الشجاعة والجلد ، وسالته : كيف حالك يا سعد ؟ فاجابها بصوت خفيض وهو مغمض العينين : انا انتهيت . . . فمسحت دموعها هطلت على خديها ، واستجمعت جلدتها وشجاعتها وقالت له : بل انت بخير . فرد عليها بصوت لا يكاد يسمع : انا انتهيت . وكانت هذه آخر كلمات سعد ، فقد عاده الأطباء بعدها ، فلم يسمعوا منه كلمة واحدة لأنه فقد النطق ، وغاب عن الوعي حتى اذا كانت الساعة العاشرة الا ربعا مساء ، اسلم روحه الى بارئها ، بعد مرض عانى منه اسبوعا واحدا .

وفي اليوم التالي ، شيعت مصر سعدا الى مثواه الاخير ، في مشهد ثم تر مصر مثيلا له الى اليوم ، فقد كانت بداية الجنازة عند بيت الأمة في شارع الفلكي ، ونهايتها عند مقبرة الفقيد العظيم في مدافن الامام الشافعي في زمن لم يكن فيه راديو ، ولا تليفزيون ، ولا وسائل اعلام حديثة ، تذيع الخبر المفجع في كل صقع وناد . ولم يك سعد حاكما ولا رئيسا لنفوة ينشر الذهب على هذا وذاك ، ويستجلب رضاء الناس بالمال وغيره من الوسائل التي يملكها الحكام والرؤساء ، ولم تطل زعامته للأمة عشرات السنين ، فهي لم تجاوز ثمانية اعوام بدأت في نوفمبر سنة ١٩١٨ وانتهت في اغسطس سنة ١٩٢٧ ، ملك فيها الأمة ، وسيطر على قلوب العرب ، وجند حوله الملايين باخلاصه وايمانه وقوته الروحية التي لم يخلق مثلهما بعد ، وشدة عارضته ، وبلاغته الساحرة الأخذة بالالباب .

كتب الأستاذ عباس العقاد غداة تشييع الجنازة يقول في جريدة « البلاع » :

« . . . اخذ الناس يتجمعون ويتفرقون بغير وجهة ، وعلى غير هدى ، ثم عرفوا لهم وجهة يتجهون اليها حين قارب موعد التشييع ، وآن اوان الشروع في تنظيم الجنازة . ففريق منهم وجد مكانه على جوانب الطريق من بيت الأمة الى القبر الذي يوشك أن ينزله صاحب ذلك البيت ورافع مناره وقبلة زواره ، وفريق منهم قصد بيت الأمة ليشترك في تشييع الجنازة ، أو ليتزود النظرة الأخيرة من الرفات المسجى في نعشه . وما اقتربت الساعة الاولى بعد الظهر ، حتى كانت القاهرة كلها ومن قدم اليها من الاقاليم ، محشورة بين البيت والمقبرة ، بين دار سعد وقبر سعد . فلا يتحرك السائر في تلك الطريق الا اندفاعا وزحاما ، ولا تقطع مسافة الدقائق منها الا في الساعات . ثم كانت اللحظة المروية ، لحظة ينزل فيها

الفقيد الراحل من بيته الى غير عودة ، لحظة يفارق فيها سعد البيت الذي ردت به الامة كلما ابعده عنه قوة الاقوياء وشدة الاشداء .

« افاق الناس ... سعد يبرح داره .. ؟ سعد يفارقهم الى غير لقاء ؟ ... يا للهول القاصم ، ويا للفرع الاكبر .. كأنما نسوا هذا ، كأنما كانوا في حاجة الى مذكر به فوق ما هم فيه من كآبة وذهول ... عادت الحقيقة اليهم جائحة فادحة ، في صورة ذلك النعش الأخضر ينحدر من بيت الامة في تودة وسكون ، نعش سعد وفيه سعد ، لا شك في ذلك ولا مرأه ... فيالها من لحظة تطيش فيها العقول ، ويذهب فيها حلم الحليم وصبر الصبور ... صيحة واحدة لا فرق فيها بين رجل وامرأة ، ولا بين شيخ وغلالم .. أحزمتهم في تلك اللحظة من ذكر الله وصاح : لا حول ولا قوة الا بالله . وما يقولها وهو يفقه لها معنى ، ويتأسى فيها بأسوة ، انما هي كلمة مقولة في هذا المقام تنبعث من الأفواه عفوا فتختلط بالصياح المعزق ، والانيب الصارخ المدبوح .

« ثم سار النعش تعالى الأصوات حوله ، ويتصاعد النواح . وياعجبا لمنطق العواطف في موقف الحزن والبلاء !! اختلف المشيعون بعد فترة ، فسكن فيهم من سكن ، واتصل الضجيج من الآخرين . فأما الذين وقفوا على جوانب الطرقات ، فقد كانوا يتلقون النعش ، ويودعون به بالتفجع والعويل ، لأنهم علموا انه الوداع الذي ما بعده وداع ، والفراق الذي ما بعده لقاء . وأما الذين مشوا خلف النعش فقد علتهم السكينة ، وطواهم رواق واسع من الصمت والوجوم ، فلا همس ولا ركن الا خفقات الأقدام وزفرات الألم المكتوم . اتراهم انسوا بالفقيد الذي لا يزال بينهم ، قنأى عنهم هاجس انفراق ، وعاودتهم طمأنينة اليقين بالقرب من سعد الى حين ؟ هو ذاك فيما أخال ، فانهم ما انقطعت عنهم هذه الطمأنينة المختلصة عند جامع قيسون ، وما شهدوا النعش يتحرك من مكانه ليذكرهم باقتراب مغيبه ، حتى ثارت الثائرة الهاجعة ، وتدفقت الجماهير كالسيل الجارف الى الفقيد المنذر بالرحيل ... هذا سعد بين أيديهم ، فلماذا يسلمونه للموت ؟ ولماذا يفرطون فيه هذا التفريط ؟ لا عقل هنا ولا تدبر ولا نصيحة ولا اصغاء . هذا سعد ، ونحن نريد سعدا ، فمن ذا الذي يحول بيننا وبين ما نريد ؟ هذا سعد ، ونحن نريد سعدا ، فلماذا نرسله بأيدينا الى ذلك المكان السحيق ؟ كذلك تفكر العواطف المجنونة ، اذا عصفت بالعقل محنة الحزن الأليم . واقسم ، ما تاب هؤلاء الهاجمون الى أماكنهم لأنهم تابوا الى الرشاد ، وانما رجعوا عن بغيتهم لأن الشرطة نافحواهم هنالك ،

حتى مجزوا وتقهقروا ، فأمدهم الجيش بكل قوته التي رابطت حول ذلك المكان .

« ثم عدنا الى المدينة ، الى القاهرة ، بغير سعد ، الى القاهرة اليتيمة . فوالله للقاهرة في تلك الليلة أشبه بوحشة القبر ، من ذلك الضريح الذي تلقى الأنس والطمأنينة في رفات الفقيد المتروك . ووالله لقد كانت الأسماع يطرقها كل صوت ، فاذا هو بكاء ونحيب . وقد كانت السيارات الداهية الآيبة تهتف بأبواقها في وسط تلك الوحشة ، فكأنما هو نعيب متصل ينطق به قلب يشعر ، ولسان مشلول عن المقال ... سوف تنقضى أيام عديدة قبل أن يوقن الناس بقلوبهم وأخلادهم ، أن القاهرة مكان لا يرى فيه سعد » .

ان الخارجين على سعد ، والذين كانوا يمطرونه في صباح كل يوم ، ألوانا شتى من النقد العنيف القائم على الحسد والفيرة ، لم يسعهم إلا الاعتراف بزعامة سعد ، وبفداحة خطب مصر والعالم فيه .

أقراوا ما قاله الدكتور محمد حسين هيكل بك رئيس تحرير جريدة « السياسة » الناطقة عن « الأحرار الدستوريين » أشد خصوم سعد ، في مقال عظيم له بعنوان « ماتم الوطن » :

« مات سعد زغلول ! يا لهول الموقف ، ويا لقسوة المقادير . ويا ما أشد حزن مصر على فاجعة لم تترك قلبا إلا أدمته ، ولا فؤادا إلا سلبته ، ولا نفسا إلا اهترت لها فرقا ، ولا عقلا إلا زلزلت أعصابه زلزالا ... نعم ، يا لهول الموقف الرهيب ! واية رهبة ، وای جزع ، كأن تنظر أمة ، فاذا لسانها الناطق قد صمت ، واذا قلبها الخفاق لم يعد يخفق ، واذا هذا الذي كان على كل لسان وفي كل نفس ، في مصر وفي غير مصر من بلاد العالم كله ... اذا سعد زغلول قد طوى الموت صحيفته ، واذا كل الأنظار التي كانت تتطلع اليه بالرجاء ، لم يبق لها إلا أن تتطلع الى السماء ، راجية في رحمة الله ومغفرته الفرار ، والا أن تنخفض الى الثرى تبلله بالدموع المهرقة والعبرات المسكوبة ؟

« مات سعد زغلول ، يا لهولها من كلمة . رجل يملأ الدنيا اسمه دويا وتحسب الممالك له حسابا ، ثم يأتي عليه الموت ، كما يأتي على أي رجل من الناس ؟ عجبا ! اذن فما الحياة وما زخرفها الباطل ؟ ولكننا يجب أن نتأسي ، وما سعد إلا زعيم قد قضت من قبله الزعماء ، ولئن مات فلن ينقلب على

عقبه أحد ، . وستظل ذكراه باقية في النفوس ، ملكية فيها ما ذكت به نفسه ، من حرص على حق الوطنى ، وإيمان لا يتزعزع باقتضائه إياه .

وقال محمد محمود باشا رئيس الأحرار الدستوريين ومن غلاة خصومه في حفلة تأبين الزعيم الجليل في يوم ٧ أكتوبر من العام نفسه بمناسبة انقضاء أربعين يوما على وفاته .

« ان مصاب الكنانة في زعيمها وهى في أشد الحاجة الى جرأته الحكيمة والى آرائه الموفقة ، لما يعز معه العزاء ، لولا ان ذكراه قائمة في نفوسنا تشد منا العزائم ، وترشدنا الى معالم الوطنية الحقبة .

« انكم لتعلمون جميعا ان سعدا كان ذلك البطل الحكيم والشائر الهادى ، بل قد يكون الزعيم الأوحد الذى قامت زعامته ، في أمة عزلاء ، على قوة اليقين ومضاء الحجبة والاستمسك بالحق . في حين ان الزعامة في الشرق والغرب ، قديما وحديثا ، من معاوية الى مصطفى كمال ، ومن يوليوس قيصر الى موسولينى ، استندت كلها الى القوة المسلحة ، فقامت عليها وتوطدت بها .

وفي حفلة التأبين هذه ، خطب الأستاذ عبد الحميد سعيد عن الحزب الوطنى فقال :

« قضى سعد ولا راد لقضاء الله . قضى الزعيم الكبير . قضى القائد العظيم . قضى فقيده مصر والشرق . . . فصر جميل ، وانا لله وانا اليه راجعون . . مضى رجل الكفاح . مضى الخطيب الذى طالما هز أعواد المنابر وتملك القلوب ببلاغته وسحر بيانه ، فجزعت مصر ، بل جزعت شعوب الشرق المظلومة من هول المصاب ، فقد كانت نهضتنا القومية ، موقظة للشعور ، منبهة للوحدة القومية ، في كل بلد مهضوم حقه ، مغلوب على أمره .

« لقد فقدت مصر سعدا ، وهى أحوج ما تكون الى آرائه الشاقبة السديدة ، وهمته الوثابة ، وخطبه التى كانت تزكى نار الوطنية في القلوب ولا يمكن ان ننسى ندائه الذى قال للأمة فيه : « انكم أنبل الوارثين لا قدم مدنية في العالم ، وقد حلفت أن تعيشوا أحرارا أو تموتوا كراما ، فلا تدعوا التاريخ يقول يوما فيكم : أقسموا ولم يبروا بالقسم . فلنسر اذن بقلوب كلها اطمئنان ، ونفوس ملؤها استبشار ، شعارنا : الاستقلال التام أو الموت الزؤام .

وقال محمد توفيق نسيم باشا ، وكان هو الآخر من الد خصوم سعد
في حفلة التابن :

« ان سعد باشا زغلول مثل من تلك النفوس التي استخلصها الله
لنصرة الحق ، واصطفاه واصطتمها لبث روح الفضيلة والوطنية في
القلوب ، فكانت مستقر الكمال ، ومجمع اشتات الفضائل . لقد رفع سعد
باشا صوته عاليا ، رفع صوته حرا نديا ، فاسمعكم صيحة الحق ، وأراكم
نور اليقين ، حتى انجلي لكم الأمر ، وتبين لكم الرشيد .

« ان سعد باشا كان الاخلاص مجسما ، والتضحية ناطقة ، والإقدام
حيا . ومن كانت هذه صفاته ، وذلك حاله ، لجدير بأن يكون حياة
للقلوب ، وبصرا للعيون ، وسمعا للأذان .

وعن الحفلة نفسها كتب الأستاذ محمد صادق عنبر المحرر في
« الأهرام » وصفا لها في اليوم التالي ، فقال فيما قال :

« سرادق معقود ، وشعب محشود ، ومنبر يمسكه الوقار ، وان كاد
الحنين ليهفو به الى الخطيب الذي كان اذا تسنم ذروته ، اهتر من
الخيلاء . ولولا الحتوف من حوله لشب من العجب ، فاتصل بالجوزاء ،
ولكن أين سعد ؟ فهذا منبر مصر ، ينتظر أن يتسنم ذروته للحمى يحميه ،
وللشعب يعزه ويعليه ، وللحق يؤيده ، وللباطل يفنده ؟

« أين سعد ، فهاهنا مطلع عزته ، وميدان صولته ، وقد رهفت
الاسماع ، وتعلقت الانفاس ، وساد السكوت ، فلا همس الا همس
الفجيعة ، في صدور كاد يفجرها الشجن ، ولا وسوسة الا وسوسة
الرزينة ، في نفوس كاد يودي بها الحزن ؟

« أين سعد ، رأس الندى وصدره ، وفارس الحق وظهره ، وفخر
الوطن ونصره ؟ » .

وبكته المرأة المصرية والفتاة العربية ، في كل قطر . كتبت الأنسة « هي
زيادة » مقالا بارعا في « الأهرام » ، عنوانه : « هجع جبار الوادي » قالت
فيه :

« ثمانية أعوام هي اليقظة . حقا ان سعدا شاعر اليقظة ، وبطل
اليقظة ، وخطيب اليقظة ، وزعيم اليقظة . وفي اليقظة جميع عوامل الحياة
وآمالها وشعائرها وسرائرها . أهو الذي حبا مصر بهذا الفيض الحيوى ؟
أم هي التي أمدته به أقوى بقوتها ونطق بلسانها وسطا بسلطانها ؟ أهو

الشاعر يأتي للسامعين بالوحى العجب فيستهوهم ، أم هو الجمهور ينفث في الشاعر بما يصبو اليه ويتطلبه ، ليدوق النشوة ويخلق مع مبدعها ؟
« لم يكن هذا الرجل يوم وداعه ، بأعظم منه في أى يوم من أيام هذه الاعوام المتلظية : ان قصيدة « اليقظة المصرية » متماسكة متكافئة في جميع مقاطعها ، كل مقطع وفقا لطبيعته وأحواله ، فكانت الخاتمة منها خليقة بالمطلع . ان سعدا هو فتى مصر المحب المحبوب في حياته وفي مماته . »

وبعد : الا يستحق هذا الرجل العظيم الذى طهر المحاماة من رجسها ، وأخذ بيدها ورفعها الى أعلى عليين ، بعد ما كانت فى أسفل سافلين ، واصبحت صناعة شريفة مرموقة ، تولى العاملون فى حقها ، فى شتى العهود ، مسئولية الوزارة والحكم ، وولايه شئون الرعية . . الا يستحق من صنع هذا كله ، من نقابة المحامين المصريين - وقد ساهم بنفسه كما قال فى انشائها لتحمى العاملين فى ساحتها المقدسة من بغى الباغين - ان يكرم ، فيوضع تمثال له فى دار النقابة ، وفى دور النقابات الفرعية فى مختلف المحافظات ؟

الا يستحق هذا الرجل العظيم من اتحاد المحامين العرب ، ان يكرمه فينصب له تمثالا فى داره ، وتمائيل اخرى له فى جميع دور النقابات فى انحاء الوطن العربى ؟

هو نداء او اقتراح ، ارجو ان يكون له صدى عند النابغين الكريهين : الأستاذ الكبير محمد مصطفى البرادعى نقيب المحامين المصريين ، والأستاذ الكبير شفيق الرشيدات رئيس اتحاد المحامين العرب .

* * *

ان الحديث عن سعد لا ينتهى ، فلاختم حديثى عنه بفقرة تدل على وفائه ، واعترافه بفضل من سبقوه فى خدمة هذا الوطن ، لينال استقلاله ويستعيد حريته وكرامته .

لقد اقامت لجنة الاستقبال التى الفت لاستقباله يوم عودته من أوروبا فى ٥ ابريل من عام ١٩٢١ ، حفلة فى فندق شبرد فى يوم ٢٠ من الشهر نفسه ، وقف فيها يرد على مكرميته ، فقال :

« عدت الى هذه البلاد ، فرأيت كل ما فيها قد تغير عما كنت أعده . كنت أعهد حقيقة ان فيها قوى كامنة ، ولكن ما كنت أظن ان هذه القوى الكامنة من زمان طويل ، تظهر بهذا المظهر الذى رأيتته وملا قلبى سرورا . »
« كنت أعلم ان البلاد تصبو الى الاستقلال ، وان حركتها الاستقلالية بدت من زمان طويل ، خصوصا من يوم أن ظهر فيها المرحوم مصطفى كامل

«علاء المرحوم محمد فريد بك ، هؤلاء الذين أسسوا ، أو أيدوا ما أسسوا
في النهضة الحاضرة .»

« ظهرت هذه القوى الكامنة التي بشتها تلك الأرواح الطاهرة ، ظهرت
عجائب العودة الى هذه البلاد . ما وجدت فرعاً من فروع الحياة خالية
من هذه القوى الجديدة ، بل كل الفروع . رأيت فيها هذه الحياة منبثة كل
الابتئات ... »

لعل هذه الخاتمة تخجل البقية الباقية من رجال الحزب الوطني «
الذين يصطنع بعضهم ، وينتھز ، الفرص والسوانح ، للنيل من سعد العظيم
الوفى — لمن سبقوه — ومن أنصار سعد .»

ولعلنى اكون قد أفلحت في تصوير صورة موجزة صادقة لزعيم ثورة
١٩١٩ ، لشباب هذا الجبل المعاصر ، المضلل في كثير ، وياويل مضاليه من
التاريخ .

رحم الله الجميع ، ورحمنا معهم .



محمد طالع عرب با شا مؤسس بنك مصر

عالم نفسه الاقتصاد

أرسى قواعد الاستقلال
الاقتصادى لمصر
وللشرق العربى
وأبكر ذاته لىبقى
البنك شامخاً

إذا كان سعد زغلول قد وضع اللبنة الأولى فى بناء استقلال مصر السياسى ،
بالثورة التى شبت فى البلاد ، قبل انقضاء
أربع وعشرين ساعة على اعتقال السلطات
البريطانية له فى يوم ٨ مارس من عام ١٩١٩
فان محمد طلعت حرب قد وضع اللبنة
الأولى فى بناء استقلال مصر الاقتصادى ،
بإنشائه بنك مصر وافتتاحه رسمياً فى ١٥
نوفمبر من عام ١٩٢٠ .

وإذا كان سعد قد اختاره الله الى جواره قبل أن يعلو البناء ويرتفع
شاهقاً شامخاً ، فيسعد بمصر وهى مستقلة تماماً ، حرة أمرها بيدها ،
وقد نفخت عنها لباس اللل والاستعباد ، فان طلعت حرب قد مد الله فى
حياته ليضع لبنات عديدات فوق اللبنة الأولى ، فاذا البناء صرح عال
يطاول السماء ، تفخر به مصر وتعتز ، بل يفخر به الشرق العربى ويعتز
... وان كان هو نفسه - أى طلعت - قد لقى جزاء سنمار فى نهاية
حياته ، ولن يكون آخر من يجزون على احسانهم بالاساءة ، وعلى فضلهم
بالجحود والكنود .

ان كلا من البنائين مكمل للآخر ، بل ان الاستقلال الاقتصادى اذا
بودر به ، كان العضد القوى فى بناء الاستقلال السياسى .
ومما يؤيد هذه النظرية السليمة ، ما نراه فى الدول التى ترزح تحت
عبء الديون ، وتقف عاجزة فى ميدان الانتاج ، فانها تعيش عالة على
دائنيها ، فيستغلون ضعفها ، فيبالغون فى اذلالها ، ويتفننون فى تحطيم
كبريائها ، حتى تخر لهم ساجدة محتسلة ، مسلوبة الارادة والحرية
والكرامة .

« ان الأمم التى وضع على عنقها نير الدين ، واستحكمت حلقاته ،
سبيلها الوحيد لاسترجاع حريتها : الاجتهاد والاقتصاد ، حتى تكثر
موارد دخلها وتزيد ، فاذا زادت ثروة البلاد وتخلصت من دينها ، سهل
عليها نيل كل حرية » (١) .

(١) « رجال المال والاموال » - اصداره مجلة « المقتطف » فى عام ١٩٢٣ - الصفحة

فهل أدرك هذا تمام الإدراك ، الشاب محمد طلعت حرب ، وهو ما يزال طالبا في « مدرسة الألسن والادارة » التي كانت تدرس الحقوق لطلبتها ، بينما كان هو منصرفا الى الاهتمام بعلم الاقتصاد ، فيقرأ كثيرا من كتبه وبحوثه ، ومع هذا نراه اول فرقته طوال سنين دراسته ، متفوقا على اقرانه ، الى أن فاز بشهادة الليسانس في عام ١٨٩٩ ، وكان المجلى في حلبيته . . . ؟

ام هو قد عقد نيته على العزوف عن الاشتغال بصناعة المخامة بعد تخرجه ونيله شهادتها ، لانه كان يرى نفسه غير كفاء لها ، لما يجب أن يتوفر للمحامى النابه الضليع ، من قدرة على الخطابة ، ومن بيان فصيح ، ومن بلاغة ساحرة مؤثرة ، ومن صبر على اللجاجة ، وعلى الأخذ والرد ، والجلد والشدة ، وبعض هذه « المؤهلات » تنقصه ولا تتوافر له ؟

اما انا فأرجح الأول ، لاننا نراه في ادوار حياته ، ناهضا بأعمال اقتصادية خالصة ، فيقيم مكتبا للمحاسبة ومسك الدفاتر في ميدان الفلكي - ميدان باب اللوق أو الأزهار اليوم - ثم يختار مديرا للشركة العقارية المصرية ، ثم نراه مديرا لشركة كوم أمبو ، ومديرا لدائرة عمر سلطان باشا ، وصاحباً لشركة التعاون المالى ، الى غيرها من الأعمال التي تولى ادارتها أو ساهم فيها ، حتى أصبح اسمه على كل لسان ، في دوائر المال والأعمال .

ولعل معترضاً يقول : كيف كان راقباً عن المحاماة ، ومعلوم انه كان مديرا لقلم قضايا « الدائرة السنية » ؟

فأقول له : لقد عين مديرا لهذا القلم بعد أن كان مترجماً به ، ولكن المدير لا يترافع في قضايا الدائرة ولا يدافع ، بل هو الوجه والمرشد لمن يراسهم من المحامين .

ثم رأيناه مقحماً نفسه في ميادين وطنية سياسية ، اذا اثرت في سماعتها قضايا اتصلت بالاقتصاد بسبب ، دائداً عن وطنه ومواطنيه ، ما يعتقد أنه ضار بالوطن مجحف بحق المواطنين .

وما علمنا أسمين كلما ذكر أحدهما ، اقترن به الآخر حتما ولزما . . فإذا قلت : بنك مصر . . ذكرت طلعت حرب على الفور ، أو العكس . فهل كان طلعت حرب هو أول من فكر في انشاء بنك مصرى ؟

يحدثنا الدكتور ابراهيم عبده في كتابه « تذكارات طلعت حرب » وفي الصفحة الخامسة عشرة منه بأنه « في سنة ١٢٥٨ هـ - ١٨٤١ م - أصدر

محمد على الكبير أمرا بإنشاء بنك « مثل بنوكة الممالك المتحدة » ويكون له امتياز وسلطة في تسعير العملة والأوزان ، وتسعير سائر أصناف الزراعة والتجارة » .

« وهذا أول بنك لمصر في تاريخها الحديث . وقد حدد محمد على باشا رأس ماله بسبعمائة ألف ريال ، تساهم فيه الحكومة بأربعمائة ألف ، أما الباقي وقدره ثلثمائة ألف ريال ، فقد اختار اثنين من كبار الممولين الأجانب في مصر ليساهما به ، واشترط عليهما أن يتحملا خسارة البنك إذا خسر ، وأن يكون لهما الفوائد إذا حققها ، أما الحكومة فلن تنال على مساهمتها ربحا ما ، مهما بلغت أرباح البنك . كانت معظم معاملاته متصلة بنشاط الحكومة فقط ، وما لبث أن توقف بعد وفاة منشئه .

« حتى إذا جلس على أريكة مصر الخديوى اسماعيل ، رأينا صحيفة « التجارة » - وقد تخصصت في الشؤون المالية والاقتصادية - تعالج مشكلة الديون المصرية التي أغرق اسماعيل مصر في بحرهما ، وتدعو المواطنين الى التفكير للفكاك من أسر هذه الديون . ثم نقرا في عددها الصادر في ٥ أبريل سنة ١٨٧٩ خبرا لمراسلها قال فيه : « بلغنى ان جماعة من التجار وغيرهم ، وفيهم حضرة الفاضل أمين أفندى شميل - وكان من هواة الكتابة في الصحف - نرعت بهم غيرتهم الى تقرير أمر يحاولون به تخليص الوطن من أسر الدين في ظرف ٢٨ سنة ، وهو أنهم يفتتحون بنكا وطنيا يكون رأس ماله أربعة عشر مليونا من الجنيهات ، تجمع من سائر افراد الأمة ، على أقساط ثلاثة أو أربعة ، يقدم كل منهم ما تفي به طاقته ولو ليرة واحدة ، وعلى ماراؤه بالقياس على معاملة البنوكة ، يكون ربح هذا البنك بعد نفقاته ، أربعة ملايين ليرة ، فإذا صرف هذا الربح سنويا في استهلاك أصل الدين ، ولا تقوم المالية الا بأداء الكوبون فقط ، فلا يمضى غير ٢٨ سنة ، الا ويتخلص القطر من أقال ما أثقل ظهره من الديون . وقد شرعوا في تدوين لائحة تنطوى على الأساس الذى يريدون أن يبنوا عملهم عليه .

« وفي ١٧ أبريل قالت الصحيفة نفسها تحت عنوان « البنك الوطنى » : ان مخترع الفكرة وهو أمين شميل ، قد طبع رسالة باسم الخديوى ، ذكر فيها ان ادارة البنك ستكون وطنية ، وسيعمل بنك انجلترا ، ويفوق بنك فرنسا بستة ملايين » . . .

« وفي ٢٦ أبريل نشر أمين نفسه مقالا في الصحيفة استغرق صفحة كاملة ، تحدث فيه عن مشروعه « بنك مصر » ، وبدأت الصحف تنافس

على نشر الدعوة الى انشاء البنك ، حتى اجتمع سلطان باشا وعمر لطفى باشا في نهاية عهد اسماعيل ، وقررا مع غيرهما من الأعيان ، ان ينشئوا بنكاً لمصر ، واذاعوا على المصريين نداء طويلاً جداً ، قالوا فيه :

« لا يخفى أن البنوك هي الصلة بين سائر أنواع الشركات والمناجر والمصانع ، وهي الوسيط الذي لا بد منه بين المال ومنفعته ، وبدونها يهمل جزء كبير من ثروة العالم بلا استثمار . . ان انشاء البنوك كان رحمة للناس ، وسبباً كبيراً لتسهيل أشغالهم وتمكين رفاهيتهم . وأما في المصالح العمومية الخطيرة ، ففائدة البنوك أوضح من أن تحتاج الى دليل ، لأن تلك المصالح تستلزم مقدرة مالية ، وتديراً إدارياً لا يقوى عليهما الأفراد . ولعمري لو حذفت البنوك من بلاد الأفرنج ، لأمسوا جميعهم كالطير مقصوص الجناح ، أو كالجندي الأعزل ، أو كالفارسي مقطوع الساقين ، ولزالت كل تلك القوة التي ملكتهم البحار والقفار ، وجعلت تجارة الدنيا طوع أمرهم ، وأوجبت ان جميع المصالح التي تقضى على البسيطة تمر بأيديهم . . ما الذي يقعدنا عن السعى ، وانقاذ أرضنا لا يكلفنا الا الاجتماع والتعاون لإنشاء شركات مالية تفي بما لا يستطيعه الأفراد . ؟ لقد رأينا جمهور نبهائنا ووجهائنا متبصرين في سبيل الخلاص ، حتى هداهم الله الى انشاء شركة مالية وطنية ، عرضها عليهم بعض وجهاء التجار ، فتلقوها بالبشر والترحاب ، وأقبلوا عليها ، وعقدوا العزم على اظهارها الى الفعل ، وستظهر عما قريب ان شاء الله ، متحلية باسم كريم تفاءلنا به خيراً ، الا وهو « البنك الوطنى المصرى » الذى طالما حومت الأفكار حواليه ، وتشوقت الأنفس اليه » انتهى النداء

« ولكن الفكرة لم تنفذ ، فقد عزل اسماعيل ، وشبت الثورة العرابية ، فقضت عليها »

والحق ان طلعت حرب لم يقل انه أول من فكر في انشاء هذا البنك ، والرجل صادق ، فهو يبغض الكذب والكذاب بغضاً شديداً ، حتى لنراه يحب انساناً ما ، فيسكنه قلبه ، ويؤثره على بعض العظماء ، ويضعه في محراب من الحب الخالص . . واذا به يلفظه ويدفع به من حلق ، فيهوى مهشم الضلوع ، ويصبح ويمسى لا حول له ولا قوة . . وسيجىء هذا الحادث في موضعه من هذا الفصل ، مع امثلة عدة من بغضه الكلاب والكلايين

أقول ان طلعت حرب لم يقل انه أول من فكر في انشاء هذا البنك فقد اعترف بهذا في خطبته التي القاها في مساء يوم الجمعة ٧ مايو سنة ١٩٢٠ في دار الأوبرا « السلطانية » ، ، في الاحتفال بتأسيس بنك مصر ، فقال :

— « ان فكرة تأسيس بنك مصرى ، برؤوس اموال مصرية ، يعمل لمصلحة مصر قبل كل مصلحة سواها ، ليست بالحديثة ، بل هى فكرة قديمة ، قد أراد الله تحقيقها الآن ، فى انسب الأوقات وأوفق الظروف » (١) ان الخديوى اسماعيل نفسه فكر هو الآخر فى انشاء بنك مصر ، عندما ساءت الحالة الاقتصادية ، بسبب ديونه التى اسرف فى اقتراضها ، وبسبب الفوائد الفاحشة التى كان يدفعها الفلاحون المساكين للمرابين من الاروام الذين كثر عددهم ، حتى ان القاضى « بلينير » أحد قضاة المحكمة المختلطة ، قال فى تقرير له عنهم :

— « كان عدد الاروام يزداد فى مصر يوما عن آخر ، حتى لاحظ بعضهم انه اذا استمر الحال على هذا المنوال ، فالأولى الحاق مصر باليونان !!! ثم وصف القاضى فى تقريره هذا جشعهم واستغلالهم المقيت للعلاحين فقال :

— كان الواحد منهم يجىء الى مصر خالى الوفاض ، لا يملك من حطام الدنيا شيئا ، لا بضاعة له الا الاقتصاد والتدبير ، ومتى كسب اى مبلغ باى طريقة كانت ، اتجه همه الى فتح دكان صغير فى قرية يبيع فيه البقالة ، ثم تتسع أعماله ، فيبدأ فى التسليف بالربا ، ومتى نجحت أعماله ، سهل عليه أن يقترض الاموال من تجار الاسكندرية ، فما هى الا عشية او ضحاها ، حتى يصبح صاحبنا بنكيرا ممن يلعبون بالذهب ، فيشيد — ذلك الذى جاء بالأمس عارى الجسد حافى القدمين — قصرا فى القرية ، يتخذة قاعدة لادارة أعماله ، ومجلا لبنكه الذى يؤمه الفلاحون ، ليستعطفوا (الخواجة) ، وأغلب هؤلاء المرابين تقشعر لمنساظرهم الابدان : أميون لا يعرفون القراءة ولا الكتابة ، امتلات نفوسهم بالطمع الطافى ، لا تعرف قلوبهم الرحمة »

لقد سجل اللورد كرومر المعتمد البريطانى فى مصر فى تقريره الذى وضعه فى عام ١٨٩٥ ، وفى الصفحة الخامسة عشرة منه ، هذا الحادث المبكى المضحك معا . قال :

(١) « مجموعة خطب محمد طلعت حرب باشا »

« حدث ان أحد صغار المزارعين في الصعيد ، استدان عشرة جنيهاً من أحد المرابين ، ووقع على سند تحت يد المرابي قيمته خمسة عشر جنيهاً على أن تعتبر الخمسة الجنيهاً الزائدة ، فائدة للمرابي في السنوات الثلاث التي سيدفع في خلالها الفلاح دينه

» فما ان حلت السنة الأولى ، حتى دفع الفلاح خمسة جنيهاً ، وتلتها السنة الثانية فدفع خمسة جنيهاً تانيه ، وحلت السنة الثالثة فدفع الخمسة الجنيهاً الثالثة ، وطلب الفلاح من المرابي أن يرد له السند ، فأبى ، وقال له ان عليه أن يدفع قيمة السند كاملة ، وان هذه الخمسات من الجنيهاً ، انما كانت فائدة المبلغ ليس غير !!

» رفض الفلاح المصري ان يسمع له ، لكن المرابي هدهه باقامة الدعوى عليه امام المحكمة ، ولما كانت الظواهر في صالح المرابي ، فقد اضطر الفلاح المسكين الى أن يبيع بيته بمبلغ واحد وستين جنيهاً ، سدد منها للمرابي خمسة عشر جنيهاً قيمة السند ، من جديد « وأربعة عشر جنيهاً قيمة مصاريف القضية التي كان في النية اقامتها ، ومصاريف نقل الملكية والبيع .. الخ !! وهكذا دفع الفلاح المسكين ١٥ + ١٥ + ١٤ جنيهاً ، أي أربعة وأربعين جنيهاً ، نظير دين قدره عشرة جنيهاً » !!

هذه صورة حية لما كانت عليه الحالة الاقتصادية في مصر ..

يقول المرحوم الأستاذ محمد رشدي رئيس مجلس ادارة بنك مصر السابق ، في الصفحة الثالثة والخمسين من الجزء الأول من كتابه « التطور الاقتصادي في مصر » :

« ان الأسباب التي أدت الى نشأة البنوك في مصر ، تتمثل في نقطة جوهرية واحدة ، هي حاجة الأجانب ، بعد أن انتشروا في مصر ، الى نقط ارتكاز مالية ، تعمل على تثبيت أقدامهم في السوق المالية ، وتعد مراكز لهم للإشراف على أعمالهم داخل الدولة . ثم هي في الوقت نفسه ، حلقة الاتصال بين أعمال الأجانب المالية داخل مصر ، وبين مراكزهم في الخارج ، فضلاً عن أنها كانت مراكز لتجميع ما تستطيعه من أموال مصرية لاستثمارها لصالح دولها ، ومن هنا بدأ تفكير الأجانب يتجه نحو انشاء فروع للبنوك في مصر ، أو انشاء البنوك الأجنبية الخاصة التي تزاوّل عملاً معيناً

» أي أن البنوك في مصر ، قد نشأت قبل عام ١٩٠٠ ، كأداة من أدوات تنظيم بسلط النفوذ الأجنبي على مصر ، والإشراف على أعمال الأجانب المالية والتجارية فيها

« ويمكن تقسيم نشاط البنوك في ذلك العهد الى قسمين :

« أولا : بنوك هدفها الرئيسي اقراض الخديوى وكبار الملاك ، واغلبها بنوك خاصة يملكها افراد الجانب ، ومعظمها تعرض للنصفية ، اما نتيجة لهزات مالية ، او نتيجة لانتهااء الغرض الذى قامت من اجله

« ثانيا : بنوك هدفها الرئيسي استغلال اقتصاديات مصر ، وتمثلت في فروع البنوك الأجنبية ، وقد بدأ انشاؤها في مصر في عام ١٨٦٣ ، وكانت خططها في توفير مواردها ، تعتمد في الاكثر على التمويل الأجنبى ، ليستثمر في مصر ، ثم يعاد الى بلاده مرة أخرى ، مضافا اليه ما حققه من ارباح فاحشة . اما فكرة تعبئة المدخرات المحلية ، واستثمارها لصالح الشعب ، فلم تكن تخطر على بال البنوك في ذلك العهد »

وحلت سنة ١٩٠٧ ، واشتدت الازمة الاقتصادية شدة تكاد تكتم الانفاس ، واشتط المرابون في فرض الفوائد المرهقة على الفلاحين المساكين ، فهب طلعت حرب يهيب بمواطنيه أن ينشطوا لانشاء بنك وطنى بمال مصرى لاستثمار اموالهم ومدخراتهم الفائضة في مصلحة الاقتصاد الوطنى والقومى ، قافتنع قليلون وولاه ظهورهم كثيرون . . لكنه لم يياس ، فهو صاحب رسالة فرض على نفسه أن يؤديها مهما لقي من اعراض وصعاب ، فنشر في عدد « الجريدة » الصادر في اول اكتوبر من تلك السنة مقالا قال فيه :

« نطالب الاستقلال التام ، ونطلب أن تكون مصر للمصريين ، وهذه أمنية كل مصرى ، ولكن مالنا لا نعمل للوصول اليها ؟ وهل يمكننا ان نصل الى ذلك الا اذا زاحم طبيبنا الطبيب الأوربى ، ومهندسنا المهندس الأوربى ، والتاجر منا التاجر الأجنبى ، والصانع منا الصانع الأوربى ؟ وماذا يكون حالنا ، ولا كبريتة يمكننا صنعها نوخذ بها نارنا ، ولا ابرة نخيط بها ملبسنا ، ولا فابريقة ننسج بها غزلنا ، ولا مركب أو سفينة نستحضر عليها ما يلزمنا من البلاد الأجنبية ؟ ما بالناس عن كل ذلك لاهون ، ولا نفكر فيما يجب علينا عمله تمهيدا لاستقلالنا ، ان كنا له حقيقة طالبين وفيه واغبين ؟ ارضينا أن يكون التعليم قاصرا على تخريج مستخدمين للحكومة وان نكون في بلادنا غرباء ؟ ولو غضب علينا الأجانب يوما ومنعونا الملبوس والماكول ، لأمسينا جياعا عرايا . .

« علينا أن نكون عاملين في بلادنا على احياء فكرة التجارة ومملكة الصناعة في ابنائنا . ان واحدا من المصريين لم يفكر في عمل قهوة أو لوكاندة على ذلك النمط الأوربى ، وبنظامه وترتيبه ونظافته ، وأن الكثيرين منا يشتررون

ما يلزمهم من الأجنبي ، مفضلين إياه على مواطنيهم ، بجحة ان المصري لا يتقن عمله ، وليس عنده ما عند الأوربي من نظافة وتوفر شروط الاتجار . وارى البنوك ومحلات التجارة والشركات ملأى بالأجانب ، وشبابنا ان لم يستخدموا في الحكومة ، لا يبرحون القهاوى والمحلات العامة . وارى المصري منا أبعد ما يكون عن تأسيس شركات زراعية وصناعية وغيرها ، حتى اذا أسس الأجنبي شركة ، أخذ المصري يضارب في أسهمها ، كأنه مقدور عليه الا يكون له حظ في الغنم الحقيقي ، وانه لا يأتى الا الأدنى من الأمور . وارى المصري يقترض المال بالربا ولا يرغب في تأسيس بنك ، يفك ضيقه وضيق أخيه وقت الحاجة ، لأن البنك يشغل رأسماله بالربا ؛ واذا أودع في بنك وديعة لا يأخذ عليها فائدة لذلك السبب ، وهو الذى يدفع الربا أضعافا مضاعفة وقت اقتراضه

« فى اليوم الذى أصبح فيه المصري عضوا عاملا فى الشركات التى تستنفد ينابيع ثروات البلاد ، وله فيها نصيب وافر فى ادارة بنوكها ورأسمالها ، وله رأى محدود فى جميع المشروعات المالية - والمال هو أس كل الأعمال فى هذا العصر وقوام كل ملك - فى ذلك اليوم ، يحق للامة أن تطالب الاستقلال بقوة المال وبقوة العلم الحقيقي »

وأخذ الرجل يذيع رسالته فى كل ناد تضمه جدرانها ، وطفق يبشر بها فى كل جمع يشهده ، فلما ظهرت فى الأفق فكرة عقد « المؤتمر المصرى الأول » لبحث حالة مصر الاقتصادية والاجتماعية ، شرع فى اعداد بحث اقتصادى يلقى فيه . وعقد المؤتمر فى ٢٩ ابريل سنة ١٩١١ ، فألقى بحثه وكان عن « الربا الفاحش الذى يعانى منه الفلاحون »

بينما طلعت حرب مؤمن بفكرته هذا الايمان الراسخ ، اذا بفريق من المصريين من أعضاء الحزب الوطنى ، يشكك فى الفكرة ، ولا يظن فى المصريين خيرا لتنفيذها ، فقد القى المرحوم عمر لطفى بك - من أعضاء الحزب - محاضرة فى « الكلية الأهلية الحرة » بالاسكندرية فى يوم ٢١ يناير سنة ١٩٠٩ قال فيها :

« ذهب فريق الى انه يجب - للمحافظة على مستقبل البلاد الاقتصادية - انشاء بنك وطنى ، قائم على رؤوس أموال وطنية . وانى وان كنت احب فكرة انشاء بنك وطنى كبير ، لكننى اظن ان هذا المشروع سيق لاوانه الآن ، وان الأفكار لم تنهيا بعد لقبوله ، واخشى ان المسلمين المصريين الذين هم أغلب سكان البلاد ، لا يقبلون عن طيب خاطر على أن يشتركوا فى مشروع أساسه الاقراض بالفائدة

« صحيح ان الاساتذة المستنيرين من خريجي دار العلوم ، قد بذلوا ما في وسعهم للتفرقة بين الفائدة والربا ، والقوا في هذا الصدد عدة محاضرات بناديتهم بالقاهرة ، وأقاموا فيها الادلة الشرعية على صحة ما يذهبون اليه ، ولكن المشايخ الذين لهم الصوت المسموع في هذه المسائل ، لم يصلوا لان الى حل مقبول لدى الجمهور » (١) .

ولم يياس طلت حرب ، فالف في نوفمبر سنة ١٩١١ كتابه المشهور « علاج مصر الاقتصادي ومشروع بنك المصريين أو بنك الامة » ، وقد جاء به :

« ما زالت الحاجة الى انشاء مصرف مصرى حقيقى يعمل بجانب المصارف الموجودة الآن في مصر ، يمد يد المساعدة للمصريين ، ويحتهم على الدخول في ابواب الصناعة والتجارة ، ويحرضهم على الاقتصاد والاستفادة من الأعمال المالية التى تزداد يوما بعد يوم - قائمة . وما زالت الفكرة في تحقيق هذا الغرض تتجسم آنا بعد آخر .. تظهر اياما على صفحات الجرائد ، ثم تختفى .. تكون موضع السمر في المجالس الخاصة ، ثم تنزوى ، حتى جاء المؤتمر المصرى الأول فرأت لجنته ان هذه الفرصة سانحة يجب اغتنامها ، لانه لا ينتظر ان يشمل اجتماع اعيان البلاد وكبراءها ، مثل ما ضم ذلك الاجتماع ، فعرضت الفكرة في تقريرها

« ولا يظن أحد ان هذا البنك المراد انشاؤه باموال المصريين سيجعل نصب عينيه محاربة البنوك الأجنبية الموجودة في مصر ، لأن هذا خطأ في الراى لا يجوز ان تقع فيه ، فقد أدت هذه البنوك الى البلاد من الخدمات الجليلة ما لا يصح لنا نسيانه . على ان بقاءها في مصر طول هذا الزمن ، ووفرة ما اكتسبت من الفوائد والأرباح ، وثقة الناس بها ، كل ذلك يجعلها في مركز حصين ، لا يليق بنا معه ان نعمل على معاكستها ، فان نتيجة هذه المعاكسة ربما كانت وبالا علينا . وانما كل غرضنا هو ان يعمل البنك على شاكلة تلك البنوك ، فيستفيد من تجاربها وخبرة رجالها . كما يجب ان نعلم ان هذه البنوك الأجنبية لا ترمى منذ تأسست الا غرضا وحدا ، هو مصلحة المساهمين ، غير ناظرة الى مصلحة البلاد ، الا فيما يوافق مصلحتها . هذا النقص هو الذى يرمى البنك الجديد الى سده »

: ماذا قالت لجنة المؤتمر التى اشار اليها طلعت حرب في كتابه ؟

قالت في تقريرها :

(١) « نقابات التعاون الروامية » - عبد الرحمن الرافعى بك - ص ١٨٩

« . . ماذا نفعل من اليوم أيها السادة ؟ نشرع في انشاء بنك مصرى .
أيها السادة : لسنا والحمد لله فقراء في المال ، فان للمصريين همودا وودائع
لا حصر لها ، تكفى لرأس مال بنك مصرى عظيم . ولسنا والحمد لله فقراء
في الرجال الماليين ، فان كثيرا من رجالنا قد جمعوا بأنفسهم ثروات عظيمة .
ولسنا ضعفاء الثقة بعضا في بعض ، فقد أثبتنا في السنين الأخيرة ان لدينا
مجاميع تقوم بالأعمال العامة ، ومثل هذه المجاميع يستحيل أن يبنى لها
أساس الا على الثقة . . ان المال والرجال والثقة ، هي الأركان الثلاثة للارمة
لمشروع مالى عظيم مثل هذا المشروع ، فما الذى يعوقنا عن السير فيه ؟
لا خوف من مزاحمة البنوك الأجنبية ، لاتنا وان اعترفنا بأن البنك المصرى
سيزاحمها ، ولكنه لا يبطل عمل واحد منها ، ولا يؤثر تأثيرا كبيرا على
مقادير كسبه ، لان مصر لا تزال كالبلد البكر في الاستغلال ، وان البنوك
الموجودة فيها الآن على كثرتها لا تفى بحاجاتها ، فان الكثير من الأراضى
المصرية القابلة للزراعة ، لم يزرع بعد ، والفدان المزروع لم يأت الى اليوم
بكل ما يستطيع أن يأتية من الفلة ، والأرض غير القابلة للزراعة ، لم يقنط
أحد من احتوائها على معادن مختلفة ، كالرصاص والبتروى وغيرهما .
وبالجملة فالبلاد لا تزال بكرا من حيث الاستغلال ، وتحتاج في استغلالها
الى أموال طائلة ، لا تفى بها الأموال الأجنبية الموجودة في مصر الآن ، انما
تكون فائدة البنك المصرى الا يتأثر بالاشاعات المكذوبة ، فلا يقفل بابه عن
الناس ، فتحتدى حدوة البنوك الأخرى ، لانه بنك البلد وهو أعلم بما
يجرى فيه . وفائده تشجيع المشروعات الاقتصادية المختلفة التى تعود
عليه وعلى البلاد بالربح العظيم . فائده الرحمة بالفلاحين عند الحاجة ،
يعطيهم بفوائد معتدلة ومناسبة ، وهو مع ذلك يربح ولا يخسر . فائده ان
يجعل لمصر صوتا في سوقها المالية ويدافع عن مصالحها ، كما تدافع البنوك
عن مصالح بلادها . فائده هو ومشروع النقابات الزراعية ومشروع
مستودعات التأمين ، ان تتحقق في الوجود الكفاءة المالية التى هي الأساس
المتين للرقى المطلوب .

« على ذلك تقترح اللجنة على المؤتمر ، أن يقرر وجوب انشاء بنك مصر
برؤوس أموال مصرية »

وفي الجلسة الأخيرة للمؤتمر وافق بالاجماع على هذا التقرير ، وقرر
اختيار محمد طلعت حرب ، للسفر الى أوروبا ، لدراسة فكرة انشاء البنك،
بعد عمل دراسة مقارنة من المصارف الوطنية واسلوب عملها في الدول
الأوروبية

فلما صدر كتاب طلعت حرب بعد هذا ، آمن كل مصرى بالفكرة النى يدمو لها والى تنفيذها ، وكان حديث الناس فى منتدياتهم ومجتمعاتهم ما جاء به عن البنك المصرى المرتجى .. ولكن الحرب العالمية الأولى التى اعلنت فى ٤ أغسطس سنة ١٩١٤ وقفت بالفكرة حيث هى : كلمات فى كتاب ، تقرأ فتستحث الهمم ، وتحفز العائم ..

وانتهت الحرب قبيل نهاية سنة ١٩١٨ ، وشبت الثورة المصرية العظيمة فى سنة ١٩١٩ ، فكان شوبها الطلقة الأولى فى وجوب انشاء البنك حتى يتحقق استقلال الوطن الاقتصادى ، ليكون عضدا وسندا للاستقلال السياسى ، الذى نهض سعد وصحبه المخلصون لانتزاعه من المحتل الفاشم .

وعاد طلعت حرب يدمو لمشروعه أو لفكرته عند بعض المسؤولين ، فحاولت سلطات الاحتلال معه كل الأساليب للتشكيك فى قيمة المشروع ، وفى عدم أهلية المصريين للقيام بمثل هذه المشروعات المالية ، ولكن هذه الأساليب لم تدخل القنوط الى قلب الرجل المؤمن بفكرته ، ايمانه بعقيدته

ففى مقابلة عاصفة بين المستشار المالى البريطانى ، وبينه ، فى وزارة المالية فى أغسطس من ذلك العام ، عام ١٩١٩ ، قال له المستشار بوقاحة وكبرياء وقحة :

— كنت أظنك رجلا عاقلا ، ولكنك كما يبدو أصبت بعدوى الجنون المنتشر فى البلد فى هذه الأيام !! هل تتصور ان المصريين يستطيعون أن يديروا بنكا ؟ انكم لا تصلحون لأعمال المال ، انها صناعة الأجانب ، والدليل على ذلك انكم عندما توليتم شؤونكم قبل أن نجىء اليكم ، جعلتم مصر تفلس !!

« كنت أستطيع أن أمنع قيام هذا البنك ، ولكنى وافقت على انشائه لاعطيكم درسا عمليا فى الفشل . وكل ما أنصحك به هو ان تشرك معك بعض الأجانب حتى تعطى المصريين شعورا بالثقة فى هذا البنك ..

فرد عليه طلعت حرب بهدوء وبثقة :

— لقد قررت أن يكون هذا البنك مصريا مائة فى المائة

فقال المستشار المالى البريطانى الحائق المتعجرف :

— انك تتكلم بلغة مظاهرات الشوارع ، والذى يصلح فى الشارع ،
لا يصلح فى أعمال التنوك ، وقد دعوتك لانصحك : فانت رجل طيب لا تشتغل
بالسياسة ١١ (١)

وذاع امر هذا اللقاء بين العامة والخاصة ، وكانت الثورة المباركة فى
عز شيوخها وهيوها ، فقرر الناس مقاطعة البنوك الأجنبية وسحبوا ودائعها
منها ، كما قاطعت الشركات الانجليزية أيضا وتجارها وسفنها

كانت هذه الأساليب المنكرة من المستعمرين ومن الأجانب ، من أقوى
الجوافز والدوافع ، لأن يسرع طلعت حرب فى تنفيذ فكرته الوطنية ، فاقنع
مائة وستة وعشرين من المصريين الفيورين ، بالاكتتاب لإنشاء البنك ، وبلغ
ما اكتتبوا به ثمانين ألف جنيه ، تمثل عشرين ألف سهم ، أى أنهم جعلوا
لنفسهم أربعة جنيهات فقط . وكان أكبر مساهم هو عبد العظيم المصرى
بك من اعيان مفاغة ، فقد اشترى ألف سهم .

وفى يوم الثلاثاء ١٣ ابريل سنة ١٩٢٠ نشرت الوقائع المصرية — الجريدة
الرسمية للدولة — مرسوم تأسيس شركة مساهمة مصرية تسمى « بنك
مصر » ، وكان وزير المالية اذ ذاك يوسف وهبة باشا ، وهو فى الوقت نفسه
رئيس الوزراء

وكان قد تم قبل ذلك عقد تأسيس الشركة بين ثمانية من المائة والستة
والعشرين مساهما جميعهم مصريون ، وحرر بصفة عرفية فى ٨ مارس سنة
١٩٢٠ — أى بعد سنة بالتمام والكمال على نشوب الثورة المصرية — ثم سجل
فى ٣ ابريل — أى بعد أقل من شهر — وهؤلاء الثمانية هم :

احمد مدحت يكن باشا ، يوسف اصلان قطاوى باشا ، محمد طلعت
حرب بك ، عبد العظيم المصرى بك ، الدكتور فؤاد سلطان ، عبد الحميد
السيوفى أفندى — اسكندر مسيحة أفندى — عباس بسيونى الخطيب
أفندى

ويلاحظ فى اختيارهم ، أنهم يمثلون الأديان الثلاثة ، ففيهم المسلم ،
وفيهم المسيحي ، وفيهم اليهودى . وفى هذا البرهان الساطع على اصاله
الوحدة الوطنية التى شملت جميع أبناء الأمة ، ابان الثورة المباركة بحق

(١) « الاصل التاريخى للراسمالية المصرية وتطورها » — الدكتور محمود متولى —

وقص عقد الشركة الابتدائي ، على ان الغرض من انشاء البنك ، هو القيام بجميع أعمال البنوك ، من خصم وتسليف على البضائع والسندات والأوراق المالية ، والكامبيو والعمولة ، وقبول الأمانات والودائع ، وفتح الحسابات والاعتمادات ، وبيع وشراء السندات والأوراق المالية ، والاشتراك في إصدار السندات ، وغير ذلك مما يدخل في أعمال البنوك ، بلا قيد أو تحديد .

ونص في العقد أيضا على أن رأس المال دفع كاملا ، وأن مدة هذه الشركة ، خمسون عاما تبدأ من يوم تأسيسها هاليا ، وأنه يجوز زيادة رأس المال بقرار من الجمعية العمومية للمساهمين ، على أن يقوم بإدارة الشركة - أو البنك - مجلس إدارة مكون من تسعة أعضاء على الأقل ، ومن خمسة عشر عضوا على الأكثر ، تنتخبهم الجمعية العمومية .

واستثناء من هذه القاعدة عين أعضاء مجلس الإدارة الأول من :

أحمد مدحت يكن باشا ، ويوسف اصلان قطاوى باشا ، ومحمد طلعت حرب بك ، وعبد العظيم المصرى بك ، والدكتور فؤاد سلطان ، وعلى ماهر بك ، ويوسف شيكوريل بك ، وعبد الحميد السيوفى أفندى ، وعباس بسيونى الخطيب أفندى

وانتخب المجلس أحمد مدحت يكن باشا رئيسا ، وظل يشغل كرسيه هذا إلى سنة ١٩٤٠ ، ومحمد طلعت حرب بك نائبا للرئيس وعضوا منتدبا ، وظل شاغلا كرسيه كذلك إلى سنة ١٩٣٩ .

واشترط العقد أن يملك عضو مجلس الإدارة مائتين وخمسين سهما على الأقل ، لا يجوز له التصرف فيها طول مدة عضويته ، وأن لا يكون عضوا بالجمعية العمومية من يملك أقل من خمسة أسهم

وفي مساء يوم الجمعة ٧ مايو سنة ١٩٢٠ ، احتفل بتأسيس البنك في حفل فخيم أقيم في دار الأوبرا « السلطانية » ، فوقف طلعت حرب مرهوا معلنا تأسيس البنك ، فقال :

« سادتى : باسم بنك مصر نشكر لكم تفضلكم بتلبية دعوتى » وتشريف هذه الحفلة التى أقيمت احتفالا بتمام الاجراءات الشكلية التى يقتضيها القانون المصرى لتأسيس البنك . ففى بعد ظهر اليوم اجتمعت جمعية المساهمين العمومية ، وقررت استيفاء جميع هذه الاجراءات ، ودونت شهادة الميلاد الذى نحتفل به الليلة . وأملنا فى وجه الله تعالى ، أن يرمى هذا المولود بعنايته ، ويتعهد بتوقيقه ، فيشب ويتزعرع ، حتى

يتم خيرا وبركة على البلاد وابنائها ، فيحتفلون في كل عام بذكرى هذا
اليوم السعيد ، كما يحتفلون ان شاء الله تعالى ، بعيده الحديدي ،
قالبرونزي ، فالفضي ، فالذهبي ، فالماسي ، فالمثيني ، وهكذا . . وما ذلك
يعزير على الله تعالى الذي لا يضيع اجر من احسن عملا ، ولا على صبر
الصابرين ، وعزم اولى العزم من المصريين ، وعندنا والحمد لله منهم
كثيرون » .

ثم قال :

« احصى جناب المستشار المالى للحكومة المصرية ودائع الافراد في
يتكين اثنين : البنك الاهلى وبنك الاجلو ، بما يربو على ٣٥ مليونا من
الجنيهات . . ولا يمكن تقدير ما يباقي البنوك ، لان من بينها ما لا يفرز قروع
حساباته بمصر على حدة ، ومنها البنوك الخصوصية التى لا تنشر حسابها
ومع كل ، فلو قلنا ان مجموع ودائع الافراد ٣٥ مليونا من الجنيهات فقط ،
وقلنا ان نصفها فقط للمصريين ، اليس فى استخدام نحو ١٨ مليونا من
الجنيهات فى مصلحة مصر وشؤونها الاقتصادية ، خدمة كبرى للبلاد واهلها ؟
» مصر اليوم احق باستخدام اموال بنيتها فى مصالحها وشؤونها

« تأسست فى مصر مدارس للتجارة : عليا ومتوسطة وبلدية ، فماذا كان
نصيب خريجها ؟ هل استخدمت البنوك او الشركات الأجنبية احدا منهم ؟
اللهم ، لا ، الا النادر الذى لا حكم له ، بينما نجد الباقين يشتغلون فى الغالب
كتابا فى المصالح العمومية ، وما كان هذا هو الغرض من تأسيس هذه
المدارس

« بجانب البنوك الأجنبية ، اراد المصريون ان يكون لهم بنك يعمل عمل
هذه البنوك ، ويخدم مصر ، كما يخدم كل منها بلدا آخر . وها هو البنك
قد وجد والحمد لله والشكر له . وهو فى اول يوم من ايام حياته ، يشهد
الله جهارا على ملا من حضراتكم ، انه لا يضر عداء لاحد ، ولا يريد الا ان
يعيش كما يعيش غيره ، وان يكون له نصيب فى خيرات بلاده ، ويجاهد فى
معترك هذه الحياة لمصلحة مصر وبنيتها ، غير ناظر الا لهذه المصلحة ، يولى
وجهه شطرها اينما كانت . وهو وان بدأ صغيرا ، سيكبر ان شاء الله تعالى ،
يا خلاص المخلصين من ابناء مصر ، الدين سيؤووه ، كما هو المأمول .
اللكان المرموق »

وانتهزها طلعت حرب فرصة ثمينة غالية ، فتناول فى خطابه الاعتراضات
التي وجهت الى البنك ومؤسسيه ، فرد عليها واحدا واحدا ، وقندها

جميعا بمنطق قوى ، ولسان صدق ، لا مزية فيه . اما هذه الاعتراضات ، فكانت كما قال :

« أولا : اننا اردنا لبنك مصر ورأس ماله صيغة مصرية ، فاثبتنا ، تمصينا وتأخرنا في المدنية ! »

« ثانيا : انه ليس في مصر من يصلح لأعمال البنوك

« ثالثا : ان الأمة مع كل الطبل والزمير اللذين أحاطا بالمشروع ، لم يمكن أن يجمع منها سوى ٨٠٠٠٠٠ جنيه ، من كثيرين اكتتب كل منهم بمبلغ زهيد ، مما يدل على ان الأمة غير مستعدة للأعمال الاقتصادية ! »

فلندع رده على هذه الاعتراضات الى مكانها من هذا الفصل ، وان كان حاضرا البنك يغنى القارئ عن قراءته ، لائنى اود ان اعود به الى تاريخ هذا الرجل الفذ ، والى ما قدمه لوطنه من جليل الأعمال . ولو لم يقدم غير « بنك مصر » لكفاه مجدا وخلودا

ولقد أجاد الأمير شبيب ارسلان وصف ذلك الحادث - حادث افتتاح بنك مصر - الذى هز الشرق ، خير وصف وأصدق فى كتابه « لماذا تأخر المسلمون ؟ » ، فقال فى صحيفة ١٤٤٠ ، يعد نجاح البنك وانشائه عدة شركات :

« .. وكما ظن المسلمون انهم لا يحسنون شيئا من المشروعات العمرانية ، وانه لا بد لهم من الأوربي ، حتى يدخلوا على يده الإصلاح فى بلادهم ، وانهم من دون الافرنجى لا يقدرّون على اية عمارة ولا مرفق ذى بال .. كذلك ذهبوا الى انهم لا حظ لهم فى الأعمال الاقتصادية أصلا ، وان كل مشروع اقتصادى إسلامى صائر الى الحبوط ، ان لم تكن له اركان افرنجية . وقد طال نومهم على هذه العقيدة الفاسدة ، حتى لم يبق فى بلادهم شيء اسمه اقتصاد ، الا اذا كانت ادارته بأيدي الافرنج أو اليهود . الى أن نبغ فى مصر ، محمد طلعت حرب باشا ، فكان فى هذا الباب أمة وحده ، وادرك بواسع عقله وثاقب فكره ، ان ليس فى هذا الموضوع شيء يفوق طاقة المسلمين ، ولا محلة يتعذر وجود ادواته عندهم ، وان قصورهم فيه عن مباراة الأجانب ، لم يكن الا من آثار ذلك التوهم القديم ، وهو انهم لا يحسنون الجرى فى أى ميدان من ميادين الاقتصاد . وقد وجدت عند هذا الرجل ، فى جانب رجاحة العقل وسداد الحكم ، همة بعيدة قعساء ، ونزعة وطنية صافية من الاقذاع ، سالمة من الأهواء ، فاجتمعت فيه جميع الشروط اللازمة لمن شاء أن ينفذ فى الشرق نهضة اقتصادية تراحم بالمناكب ، وثبات الأجانب . ومما يندرج

الرجال ، الجمع بين الحساب الدقيق والخيال الواسع ، وهما قد انتظما جنباً الى جنب ، في دماغ طلعت باشا حرب ، فكانت سعة خياله ، مساعدة له على الاقدام نحو المشروعات التي هي مظان الارباح . وكانت دقة حسابه ، مساعدة له على نجاحها وضمان ارباحها . وبالاختصار اقتحم طلعت حرب معركة هي الاولى من نوعها في المجتمع الشرقي . وعند ما باشر جمع رأس المال الذي كان حده لانشاء بنك مصر ، وهو ثمانون ألف جنيه ، عانى في ذلك (هوالاً) ، ونحت جبلاً ، وذلك لما ران على عقول المسلمين ، من أنهم لا يقدرّون على الاستقلال بعمل اقتصادي ، وان كل عمل منهم في هذا السبيل ، حابط من نفسه ، هابط على أم رأسه . فلما أخذ طلعت باشا حرب يتقاضى اغنياء مصر المشاطرة في هذا المشروع ، لبوا نداءه حياه منه . لا اعتقاداً بأنه سيأتي بثمرة ، وبقيت ثقتهم بأجمعها في بنوك الأجانب ، وما زال معولهم عليها . . الى أن شاهدوا بأعينهم النجاح الذي كاد أن يكون معجزة في نظرهم ، وارتفع رأس مال بنك مصر من ثمانين ألف جنيه الى مليون جنيه ، واحتوت خزائنه من الودائع عدة ملايين من الجنيهات ، واشتمل على املاك وشركات متعددة متنوعة ، تقدر بملايين أخرى من الجنيهات ، بحيث زادت الاموال التي تحت تصرف البنك ، على عشرين مليون جنيه ، وكل هذا في ثمانى عشرة سنة ، انشأ فيها طلعت باشا حرب ومدحت باشا يكن ورفاقهما ، على حساب بنك مصر ، شركة مصر للغزل والنسيج التي معماها في المحلة هو من اكمل واعظم معامل الغزل والنسيج في العالم ، يعمل فيه 18 ألف عامل ، يندر فيهم غير المصري .

وبعد أن نوه الأمير شكيب ارسلان - وكان جميع ادباء عصره يطلقون عليه « أمير البيان » - ببعض شركات البنك ، قال : « وليس هنا محل تفصيل مشروعات طلعت باشا حرب ، باعث النهضة الاقتصادية في الشرق ، لنخوض في هذا العباب ، ولا مقصدنا تمجيده والاشادة بمآثره ، وانما كان ايرادنا هذه القصة على سبيل المثال ، لما كان عليه المسلمون من الجبن في المواطن الاقتصادية ، الى ان هب هذا الرجل يدير بنك مصر ، فأيقظهم من سباتهم ، وأعلمهم أنهم رجال ، كما ان الأوروبيين رجال ، وانهم اتوا شحوا غرار عزائمهم ، وأعملوا أسنة قرائحهم ، قدروا على ما يقدر عليه الأجانب من الأعمال الاقتصادية الكبيرة »

أعود الى طلعت حرب ، فأقول انه مولع منذ شبابه بحب وطنه ، غيور على مصالحه ، لا يدع سائحة تعرض للضرر به أو بابنائته ، الا اتدفع

مساهما في دفع هذا الضرر ، مؤيدا دفاعة بالأرقام الناطقة الصادقة ، وهى
خير شاهد ودليل

في ٢٧ يناير سنة ١٩١٠ ، عرض على مجلس النظار - وهو مثل مجلس
الوزراء اليوم - طلب قدمته شركه قناة السويس ، الى حكومه مصر -
وكان رئيسها بطرس غالى باشا - بمد امتيازها أربعين سنة أخرى ، بعد
انتهائه في عام ١٩٦٨ ، مقابل أربعة ملايين جنيه تدفع على اربعة أقساط
بعد ١٥ ديسمبر سنة ١٩١٠ ، مع حصة من الأرباح قدرها ٤٪ في السنوات
العشر التالية لسنة ١٩٢١ ، و ٦٪ في السنوات العشر الثانية ، و ٧٪ في
السنوات العشر الثالثة ، و ٨٪ في السنوات العشر الرابعة ، و ١٢٪ في
السنوات الخمس الأخيرة التى تنتهى بسنة ١٩٦٨ ، وهى سنة انتهاء أجل
الامتياز ، وارفقت بطلبها مذكرة من المستشار المالى الأجنبى ، يؤيدها بها ،
في استحياء !! وكان هذا الطلب يومئذ موضوع تعليقات الصحف والأندية
والمجتمعات ، فقرر المجلس بشأنه قرارا ، هو الى القبول ، أقرب منه الى
الرفض ! اذ قال انه لا يقبله الا اذا عدل بما يقضى بان تستحق مصر نصيب
ارباح الشركة بعد عام ١٩٦٨ - أى في المدة المطلوب مدها - وبان الشركة
تكون مسؤولة عن معاشات موظفى الشركة في نهاية سنوات الامتياز أى في
عام ٢٠٠٨ . أحيل المشروع الى الجمعية العمومية ، فرفضته بالإجماع ،
وراح ضحيته بطرس غالى باشا ، فقد صرع بيد شاب مصرى أطلق عليه
الرصاص فجندله ، كما هو مشهور معلوم

لكن طلعت حرب ، كان قد أعد بحثا عن القناة وشركتها وارباحها ،
بعد ما سرد تاريخ انشائها - قبل احالة الموضوع الى الجمعية العمومية -
ومهد له بالمقدمة اللطيفة التالية ، فقال :

- « كتب الفيلسوف الألمانى ليبنتز ، تقريرا للويس الرابع عشر ملك
فرنسا ، قال فيه : « اذا أردت أن تضرب هولندا في مقتلها ، فأمامك مصر !
فانك تنال منها فيها ، ما لا تناله ببلادها نفسها ، لان هولندا أمة تجارية ،
وحياتها في بقاء تجارتها ، فاذا زحفت على مصر وأخذتها ، وحفرت ترعة
السويس ، احتكرت لبلادك جميع التجارة ، وأمت هولندا وغيرها ، وأصبحت
سبد الهند وبلاد الشرق ، وقطعت طريقها على من عداك . زد على ذلك
أنك تنال أجرا كبيرا عند الله وعند الناس ، اذ تخلص هذه البقعة المباركة من
أيدي المسلمين ، الذين لا يليق بالأمم المسيحية ، أن تسكت على بقائها
في أيديهم » !

وبعد أن مضى طلعت حرب في سرد تاريخ انشاء القناة ، تكلم عن « السياسة » في مشروع انشائها ، وكيف كانت انجلترا معارضة في هذا الانشاء ، ثم كيف اشترت أسهم مصر فيها : فقال :

« افتتحت القناة رسميا في ١٧ نوفمبر سنة ١٨٦٩ . احتفل الخديوى اسماعيل بهذا الافتتاح احتفالا رسميا مقطوع النظير ، تكلفت له خزان مصر مليونا ونصف مليون من الجنيهات . . . افتتحت ، ولم تكن حال الشركة المالية في سنواتها الأولى ميسرة ، لكنها استطاعت ان تسير الى الامام ، بفعل القروض التي اقترضتها من هنا وهناك ، وسارت أمورها سيرا حسنا ، وزادت ارباحها سنة بعد أخرى ، بينما كانت مالية مصر تزداد سوءا بعد سوء ، سنة بعد أخرى ، حتى اضطرت الحكومة المصرية في عام ١٨٧٥ ، الى أن تطلب قرضا من الخارج ، واراد الفرنسيون في الشركة أن يعقدوا لها هذا القرض من بنوك فرنسا ، فلم يوفقوا . . هنا اندفع الانجليز ، وقدموا الى الخديوى مائة مليون فرنك أو يزيد ، وتسلموا منه أسهم مصر في الشركة . . عقدت الحكومة الانجليزية هذه الصفقة ، بقرض اخذته من بنك روتشيلد في لندن ، وقبل أن يعرض أمرها على البرلمان »

وشفع الشاب المحقق ، تحقيقه التاريخي والسياسي ، بتحقيق اقتصادي ، أوضح فيه انه لم يبق لمصر في الشركة ، الا أرباح حصتها التأسيسية . لكن ما كادت تحل سنة ١٨٨٠ ، حتى ساءت الحالة المالية مرة أخرى ، فباعته هذه الحصة للبنك العقاري الفرنسي بمبلغ ٢٢ مليون فرنك ، فأسس لاستغلال هذه الحصة ، شركة ربحت في عام ١٩٠٨ وحده ٧٧٤ر٧١٧ر١٠ فرنكا

ثم بين كذلك انه « بعد أن كادت الشركة تقع في الافلاس في أول عهدها ، وهبطت أسهمها الى ١٦٠ فرنكا للسهم بدلا من ٥٠٠ فرنك ، أصبحت الآن تباع أسهمها بسعر مائتي جنيه للسهم الواحد ، وبعد ان كانت حصص التأسيس فيها لا قيمة لها ، أصبحت الحصة الواحدة تباع وتشتري بنحو مائة ألف جنيه ، ولغلائها قسمت الواحدة الى ألف جزء ، وبعد ان كانت تصدر « بونات » بدل « الكوبونات » المتأخرة وتدفع عليها فائدة ٥٪ ، أصبحت توزع أرباحا بواقع ١٥١ فرنكا عن كل سهم ، و ٧١٤ر٨٩ فرنكا عن كل حصة تأسيس ، وبعد أن كان دخلها لا يفي بمصروفها ، أصبح يربو على مائة وعشرين مليونا من الفرنكات . اما مصر فلم يبق لها فيها سهم ولا حصة ، واستفاد كل العالم من القناة ، الاها ، حتى ان الحكومة الفرنسية

تقبض كل سنة الملايين من الفرنكات ، رسوما على « الكوبونات » والأرباح
التي تصرف في بلادها »

بعد هذا ، أخذ طلعت حرب يرد على مذكرة المستشار المالي التي أيد بها
طلب الشركة ، وقال فيها ان مد الأجل فيه فائدة لمصر !!

وانتهى من الرد - وهو مدعهم بالأرقام والحجج الدامغة - الى قوله :
- « قد أوضحنا مقدار ما تغيب به مصر لو تجارت الشركة على رايها ،
وقلبت مد الأجل بالشروط المعروضة . ويرى القارئ اننا لم نبالغ في
تقدير الدخل ، كما لم نقتصد في المصروفات ، بل زدنا مقدارها ، وفلسا
حساب الشركة على صورته التي لا يرضاها الا المضطر الذي لا خيار له .
والا فما الحامل للحكومة المصرية على ان تتنازل عن نصف دخل القناة
مدة اربعين سنة ، في نظير مبالغ تحسب عليها فوائد مركبة ، نحو مائة عام ،
ولا يبتدىء استهلاكها الا بعد ستين سنة ؟

« لسنا نظن ان الحكومة مضطرة للمال اضطرارا يسوغ لها ان تقترض
بهذه الشروط ، بدليل ان الملايين الأربعة من الجنيهات ، لا تدفع الا في
اربع سنوات ، من ١٥ ديسمبر سنة ١٩١٠ ، والحصصة والأرباح لا تبتدىء
الا من سنة ١٩٢١ . ولو سلمنا باضطرارها للمال ، فلا تعدم وسيلة لايجاده
من الخارج ، وأمامها مصلحة الدومين ، يمكن للحكومة ان تقترض عليها
أربعة ملايين وزيادة . ولو فرضنا انها اقترضت هذا المبلغ بفائدة ٤ ٪ ، لا
٤ ٪ ١/٣ ولا ٣ ٪ ١/٢ ، وقسطن الدين على خمسين سنة ، لكان مقدار كل
قسط من أصل وفائدة ١٨٦٢٠٠ جنيه ، ولو قسطته على خمس وسبعين
سنة ، لكان القسط ١٦٨٩١٦ جنيه ، وكلاهما زهيد ، قد لا يؤثر في
ميزانيتها ، ولديها في كل سنة من زيادة الإيرادات ، ما تسترد منه مثل هذا
المبلغ وزيادة ، ولو أرادت الا تقترض ، ففي مكتنتها ان تعمل بالدومين ،
ما عملت بالدائرة السنوية ، فيأتيها المال بلا حساب (١) »

(١) الدومين نومان : عام وخاص . أما العام فهو « الأملاك العامة » المعدة للاستعمال
العام كالطرق العامة والموانئ والشواطئ والقلاع وما اليها . أما الخاص فهو « أملاك الدولة
الخاصة » التي تملكها كأي فرد عادي يملك اموالا . ويسمى الدومين الخاص في مصر باسم
« الدومين المالي » كما أطلق عليه فيها بصفة خاصة اسم « أملاك الميرى الحرة » . وتنمير
أملاك الدومين الخاص على أملاك الأفراد العاديين ، ببعض الوجوه : أهمها عدم جواز التنفيذ
الجبري فيها ، بل ان بعض النصوص (كما في لقانون رقم ١٤٧ لسنة ١٩٥٧) تمنع تملك
الناس لها ، أو كسب حق ميني عليها بالتقادم . ويتمتع الدومين العام بشمونات خاصة
يبينها القانون الإداري في كل بلد ، ويعتبر أقدم الموارد المالية للدولة من الناحية التاريخية
خصوصا في مهاد الاقطاع ، ولكنه أصبح فيما بعد موردا ثانويا ، وإن ظل على قدر من الأهمية.

على انه خالص الى نتيجة هي انه « اذا كان لا بد من التعاقد اليوم على مد الامتياز تعاقدًا مقبولا ، يجب أن يكون هذا التعاقد مبنيًا على القواعد التالية :

« أولا - ان ما تعطيه الشركة من مقدم ثمن الامتياز ، وما تعطيه في المستقبل من صافي الأرباح الى سنة ١٩٦٨ ، يكون متناسبا مع الأرباح التي تربحها الشركة من القناة في الأربعين سنة الجديدة ، مع مراعاة حساب ذلك ، بالقياس على الماضي والحاضر . او ان تعطى الشركة للحكومة المصرية من اليوم جزءا معلوما من الأرباح على تلك النسبة ، من غير حاجة الى اعطاء مبلغ ليعتبر ثمنا للامتياز ، كمبلغ الملايين الأربعة المعروضة

« ثانيا - ان تقبل الشركة في مجلس ادارتها من يوم التعاقد مديرين مصريين ، بكل معنى الكلمة ، عددهم مناسب لمقدار الحصة التي تعطى للحكومة من الأيراد . وليس في ذلك شيء من التحكم ، فان الحكومة الانجليزية بعد ما استولت على أسهم الحكومة المصرية ، اضطرت الشركة الى قبول ثلاثة مديرين انجليز بها ، بعد أن لم يكن للحكومة المصرية ولا مدير واحد . ثم ان أصحاب السفن الانجليزية قد اضطروا الشركة أيضا الى قبول سبعة مديرين آخرين لمجلس الادارة ، حتى صار عدد الأعضاء الانجليز في المجلس عشرة ، فليس من الغريب أن تشترط مصر - مالكة القناة - على الشركة أن تقبل منها مديرين للدفاع عن مصالحها ، خصوصا بعد أن اظهر المستشار المالي تخوفه من احتمال ان الشركة ، تخفض رسوم المرور تخفيضا فاحشا ، حين يأتي أجل تسليم القناة الى الحكومة . ولا نعلم بماذا نصف هذا العمل لو حصل ، أو ان تقبل شركة محترمة ، أن يداع عنها مثل هذه الفكرة

« ثالثا - ما دامت القناة ستؤول على كل حال للحكومة المصرية ، بعد انقضاء مدة الامتياز الجديد ، أي بعد سنة ٢٠٠٨ ، فمن الواجب أن تتعهد الشركة في العقد الجديد ، بالا تنقص شيئا من رسوم المرور ، الا بعد أخذ رأى الحكومة المصرية

وتزداد أهميته عند ما تظهر في الدولة موارد معدنية أو بترولية ، وما الى ذلك من عناصر الانتاج الطبيعية المختلفة . ويشمل اصطلاح « الدومين » حسيما جري به العرف كمورد للدولة ، ما تحصله مثلا من الاراضي الرامية والعقارات المبنية ، وما قد تملكه من المناجم أو المحاجر أو الملاحات أو الغابات . وتدخل في هذا الاصطلاح أيضا المشروعات التجارية التي تجولها الدولة كالمصانع والمطابع ، والمشروعات المالية كالشركات المختلفة والمشروعات المتنوعة . ولهذا وجد ما يسمى بالدومين العقاري أو التجاري أو الصناعي أو المالي

« هذه هي الاعتبارات التي يلزم ملاحظتها ، متى أريد الاتفاق من الآن على مد الامتياز . ومع ذلك نحن لا نزال نكرر ان من الخطر تجديد امتياز لم يقرب اوان تجديده ، من غير ضرورة ملجئة لذلك . فلكل زمان حكم ، ولكل جيل تصرف خاص به »

« على ذلك نرى المشروع من كل وجهة قلبناه عليها ، مشروعاً ضاراً لا تصح الموافقة عليه »

لقد أسهبت في عرض بحث « تجديد مد امتياز قناة السويس » ، لتتفقد منه الى هذا العقل الواعي الذي يناقش فيفهم ، ويقوى حقه على باطل غيره ، بما يقدم من أدلة وأسانيد ، ولترى كيف كونت هذه العقلية ، هذا التكوين الاقتصادي الفلد ، وصاحبها لم يدرس الاقتصاد على يد معلم ، ولم يهتد في درسه اياه ، بهدى أستاذ أو ارشاد مرشد

هو نادر في العظماء حقاً ..

ولم يكن الرجل معنيا بشؤون الاقتصاد وحده ، ولا شاغلا نفسه بفكرة انشاء بنك وطنى فحسب ، انما كان يجول ويصول في كل ميدان اجتماعى فيه خدمته لمواطنيه ونفع لأمته .. ولعل هذا كان طابع رجال مصر الذين شبوا في ظل الاحتلال والاستعباد اللذين ضربا على اهلها صنوفا من الفقر والبؤس والشدة لم يعهدوها .. فقد كان هم أولئك الرجال المخلصين ، الرقى بمصرهم في كل مجال ، حتى تقوى على مناهضة المستعمر الظالم القانى .

في شهر اغسطس من عام ١٩١٩ ، طالب عمال وموظفو شركة الترام - وكانت بلجيكية الجنسية - بانصافهم ورفع أجورهم ، فتقدمت الشركة الى الحكومة طالبة اقرارها على زيادة اجر الركوب مليما ليصبح سنة مليمات ، بدلا من الخمسة المنصوص عليها في العقد المبرم بين الحكومة المصرية وبين الشركة في ٥ ديسمبر سنة ١٨٩٤ ، ومدته خمسون عاما ، تنتهى في ٥ ديسمبر سنة ١٩٤٤ ، وبموجبه تنشئ سبعة خطوط ، على ألا يزيد اجر الركوب على خمسة مليمات .. وذلك حتى تستطيع اجابة طلبات العمال والموظفين

فانبرى طلعت حرب يطر الشركة سيلا من براهينه الدالة على الأرباح الهائلة ، بل الخيالية ، التي تربحها ، وذلك في أربع مقالات نشرت له « الاهرام » ، دفع أباطيلها في المقالات الثلاث الأولى ، وقال في الرابعة ، وقد نشرت في يوم ١٧ سبتمبر سنة ١٩١٩ :

— « يرى من يتتبع مقالاتنا السابقة ، ان المال الذى استعملته الشركة فى اساء السراسوى بمصر ، وايجاده والانفاق عليه ، اما جاءها من طريق واس المال ، وهذا لا يدخلها سوى ربح ٥ ٪ ، ومن طريق الاقتراض وهو لا يدخلها سوى ٢ ٪ ، وما زاد من الارباح على ذلك ، فهو غنيمه باردة لحضرات المؤسسين واعضاء مجلس الاداره ، ولو كانت الحكومة المصرية فى ذلك العهد اشترطت فى عقد الامتياز ، ان الشركة التى تؤسس ، تكون مصريه خاضعة لقوانين البلاد ، لما وجدنا مثل هذا الاستئثار بالربح . فربما كان هذا هو سر اشتراط الترخيص للشركة ، بالتنازل عن الامتياز لشركة بلجيكية ، لتفادى مرض قانون الشركة على مجلس النظار ، لاستصدار فرمان ، طبقا لقانون التجارة المصرى . ويرجع انه لو كان قد قدم لمجلس النظار مثل هذا القانون الذى يحصر قسمه الارباح بين اصحاب الاموال الحقيقية التى اوجدت الشركة وعليها وحدها نتيجة الخسارة ان قدر الله الخسارة ، وبين المؤسسين الذين اسعدهم الحظ بعرض المشروع والحصول على الامتياز بدون اى مجهود آخر ، كتلك القسمة الضيزى بين السبع والذئب والثعلب .. »

« نقول لو قدم مثل هذا القانون لمجلس نظار الحكومة المصرية ، او لمجلس نظار اية دولة اخرى ، لما قبله بالمره ، بل كان من اقل واجباته ، استنكار مثل هذا الاستئثار بالارباح ، واشتراط نصف تلك الارباح ، على الاقل ، لحكومته ، اى لحكومة تلك البلاد التى اعطت الامتياز ، وساعدت على تحقيق الفكرة ، واخراج المشروع الى حيز العمل ، والتى لولاها لما كان لحضرات المؤسسين تلك الارباح الطائلة !! ولكن قدر فكان ، وهذا امر مر وانتهى ، فلندعه ، ولنتكلم فى غيره مما يهمنى الآن . »

« ردد بعض الجرائد ان الشركة تطلب من الحكومة التصريح لها بزيادة ملزم على اجرة الركوب ، حتى يتسنى لها اجابة مطالب العمال ، كان هذه الاجرة كان يلزم ان تكون خمسة مليمات ، فيجب زيادتها

« ان عقد الامتياز يشترط ان الاجرة لا يصح ان تزيد على نصف قرش ، وليس معنى ذلك ان الشركة تجعل الاجرة نصف قرش من اول يوم تأسيسها ، بل كان من الواجب ان تكون اقل من ذلك بشرط الا تتجاوزه ، ولكنها ارادت — ولا مرد لما ارادت او تريد — الا ان تقرر الحد الاقصى من اول يوم

« لو كان فى ذلك خسارة على المساهمين وتقليل لربحهم ، لعذرنا واستهنا بالامر ، لكن المساهمين — وهم اصحاب الاموال — محدود ربحهم ،

وكل زيادة نتيجتها الى جيوب المؤسسين ومجلس الادارة . فما ضرهم لو تنازلوا عن قليل من ربحهم سنة أو سنتين ، وهم الذين بقوا خمس سنوات بدون قبض سنتيم واحد ، حين كانت بلجيكا في قبضة الالمان ، والشركة البلجيكية لا اتصال لها ببلادها ، وسيقبضون كل المتجمد مرة واحدة ؟ بل هم الذين ذاقوا الامر من الاحتلال الالماني . وكل ربح يأتيهم بعد ذلك الضيق الشديد ، كبير جدا بالنسبة لما قاسوه . ويفرضوا ان الشركة بلجيكية حقيقة وعملها في بلجيكا ، ولو كانوا كذلك لما قبضوا شيئا حالا من ارباحها ، بل لكان غاية ما يمكن عمله ، تلبية ما خسروه على حساب الغرامة الحربية ..

« كنا نظن ان تلك النفوس التي ذاقت شظف العيش ، وجميع صنوف الضنك في هذه السنوات ، قد رقت قلوبهم ، فهم يعطفون على أولئك المساكين مستخدميهم الذين جمعوا لهم الأموال الطائلة المحفوظة على ذمتهم ، فيصدقون عليهم ببعضها ، ان الله يحب المتصدقين . ولكن ها قد ساء أقالنا ، ونراهم لا يريدون التنازل عن شيء - ان صح ما تقوله الجرائد - ويريدون ان يكون هذا العطف من جانب الجمهور المسكين هو ايضا ، فلا حول ولا قوة . وهذا تصرف ينفر قلب كل عادل غير ذي غرض »

تقريع وتأييب وتذكير بما لقيته بلادهم من ذل الاحتلال ، ذل كان حقيقا بهم بعد ما ذاقوا مرارته ان يرحموا عمالهم . ثم قال :

« .. ولو فرضنا ان الأرباح لم تزد عما كانت عليه في سنة ١٩١٣ ، مع ان لجنة التوفيق قد قالت : ان ايراد الشركة يبلغ ١٠٠٠ جنيه يوميا ، أى ان الأيراد يبلغ ٣٦٥٠٠٠ جنيه سنويا ، أى نحو عشرة ملايين فرنك بالسعر الرسمي ، وحوالى ١٤ مليونا بالسعر الحالى ، مع ان ايراد سنة ١٩١٣ بلغ سبعة ملايين وكسورا فقط .. نقول : لو فرضنا ان الأيراد لم يزد عما كان ، وكل ما حصل من الزيادة ، بسبب زيادة عدد الركاب وزيادة الجنود الى غير ذلك ، سد في زيادة النفقات ، الا يكتفى حضرات المؤسسين ومجلس الادارة بالأرباح الطائلة التي كانوا يتقاضونها ، ويحسدون انفسهم عليها ، ويتبرعون بشيء مما كسبته وتكسبه الشركة من فرق سعر الكامبيو الآن ، أى من المائتين والعشرين ألف جنيه التي تربحها من هذا الباب وحده ؟

« ومذا عليها لو خصصت كل هذا المبلغ ، وما يأتى من هذا الربح ، للصرف منه في تحسين حال المستخدمين والعمال ، فهو ربح جاءها ويجبئها من الهواء ، بدون أدنى خسارة على احد ، لانها لما تصرف للمؤسسين

والمساهمين وأرباب الديون أرباحهم ، باعتبار الفرتكات في بلادهم (وهى لا تصرف للمساهمين أزيد من ٢٥ فرنكا عن كل سهم ، ولأرباب الديون أزيد من ٢٠ فرنكا عن كل سند قيمة ٥٠٠ فرنك) ، وهى لا تحاسبهم على فرق الكامبيو ، لأنها تدفع فرتكات بلجيكية ، وحسابها في بلادها بها ، وهذا الربح ناتج من عملية تحويل هذه الأموال من مصر الى بلجيكا ، ونتيجة زيادة قيمة العملة المصرية عن عملة بلجيكا في هذه الأيام ؟ ومأولنا ان حكومتنا السنوية تعبر هذه المسألة جانباً من عنايتها ، فتناقش الشركة هذا الحساب ، وتحل هذه الأزمة التى طالت بلا مقتضى »

سند الرجل الأرقام وحدها ، يقذف بها في وجه الظالم المكابر ، لترده الى الحق والعدل

طلبت اليه لجنة التجارة والصناعة والى يوسف قطاوى باشا في ابريل سنة ١٩١٦ ، تقريراً عن الصناعة والتجارة الألمانية ، وعن الأساليب التى اتخذتها التجارة الألمانية والنمساوية لتثبيت أقدامها في السوق المصرية ، كان من خير التقارير في شموله ودقته . قال في أوله :

« ان الذى نلاحظه انه ليس لمانيا طريقة خاصة بالنسبة لمصر ، بل فن لها طريقة عامة ، هى عبارة عن برنامج اقتصادى عام لنمو صناعاتها وارتقاء تجارتها ، وهذا البرنامج الاقتصادى العام ، هو وليد تطورها التاريخى والسياسى .

« فالمانيا تقدر تجارتها الخارجية في الوقت الحاضر بخمسة وعشرين ملياراً ، بحيث انها تأتى في الصف الأول مباشرة عقب انجلترا . واسطولها التجارى الذى كان يأتى في الترتيب خلف فرنسا قبل سنة ١٨٧٠ ، أصبح لا يسبقه في سنة ١٩١٣ ، الا الاسطول التجارى البريطانى واسطول الولايات المتحدة التجارى . وهى من حيث انتاج الحديد المشغول والصلب ، لا يسبقها فيه سابق .

« ومثل هذه النتائج لا يمكن تفسيرها بغير قوة من العمل فعالة ، تقودها إرادة من حديد . وفي الواقع فان أبحاثنا أوصلتنا الى العثور على طريقة من النظام ، مدبرة باحكام ، ترمى الى توحيد جميع قوى الأمة وتوجيهها ، في سبيل غاية واحدة ، هى السعى الى تفوق المانيا .

« وشعار المانيا في هذا الباب ، هو أنها تنتج كثيراً وبأسعار رخيصة ، وتعمل بترتيب ونظام ، فتدرس حالة العملاء ، وتعمل على ادراك حاجتهم ،

وهذا هو سرها في العمل والنجاح . ولم نجد تاجرا مصرية أو أجنبية واحدا ممن حادثناهم ، الا اقربنا على ما قدمنا هنا من البيان »

وكان لسان طلعت حرب وزميله يقول : اننا نرجو ان يكون عندنا مثل هذه الارادة الحديدية ، وهذا التدبير المحكم ، وهذه القوة الفعالة من العمل ، حتى تنهض مصر وتأخذ مكانها الجديرة به بين الأمم

ولهذا قالوا في ختام تقريرهما الذي شغل أربعين واربعين صفحة من القطع الكبير :

« ليس علينا الا ان ننظر في اى التدابير نستطيع ان نستمد منها الوحي ، لتحقيق تنظيم حياتنا المالية والتجارية التى ينقصنا فيها شيء كثير ، لاحظته لجنة التجارة والصناعة في عدة مناسبات من ابحاثها »



وددت لو عدت بك الى الوراء ، لأقص عليك طرفا من انباء هذا النابغة الاقتصادي ، في ميدانين آخرين : الدينى والاجتماعى ، وكيف انه وقف على رسالة بالفرنسية ، كان قد قدمها عثمان كامل بك سكرتير السلطان العثمانى خليفة المسلمين ، الى مؤتمر المستشرقين الذى عقد في باريس سنة ١٨٩٤ ، فترجمها ، واجاب في ترجمتها من سؤال وجهه صاحبها الى قارئها ، وجعل عنوانها « كلمة حق عن الاسلام والدولة العثمانية » . اما السؤال الذى ختم به سكرتير الخليفة رسالته ، فهو : « هل كان في وسع الاسلام ان يعلى كلمته أو يرفع رايته بحد الحسام ، ولم يكن القائمون به الا بضعة آلاف من العرب ؟ »

بماذا اجاب طلعت حرب عن هذا السؤال ؟

قال : « كلا ، فان البطل « اتيلا » - وهو أحد ملوك آسيا الصغرى في القرن الخامس - دوخ العالم بحروبه ومعه ملايين من اقوام « الهون » ، لم يتيسر له ان يتغلب على البلاد المتاخمة لمملكة الرومان ، وغاية ما وصل اليه بعد الجهد والعناء ، انه تمكن من العبور بها مع جيوشه الجرارة ، من غير ان يتم له اخضاع أهلها .

« اما الاسلام فلم تكن لديه تلك الملايين من النفوس ، ولا تلك العدد الحربية التى كانت عمادا للفرس والروم في حروبهم ، بل انه كان لا يذكر بجانب خصومه من حيث العدد والقوة والنظام . فما هى اذن تلك القوة التى تيسر بها للاسلام ، ان يخضع العالم المتمدين في أقل من خمسين عاما ؟

« لعمري انها حرية الأديان ، والمساواة في الحقوق ، والاخاء بين المسلمين، مهما كان جنسهم ، من غير تمييز . ولم تك هذه المبادئ الشريفة اللازمة للكمال الانساني والتمدين الحقيقي معلومة قبل الاسلام ، فظهرت بظهوره . وفضلا عن ذلك فان صلح الحديبية يشهد بان محمدا عليه الصلاة والسلام، هو الذي امضى أول معاهدة دولية في العالم

« ولما حاصر المسلمون بيت المقدس في خلافة سيدنا عمر بن الخطاب ورضي الله عنه ، خاف النصارى المحصورون ان تكون حرية الأديان والعدالة التي وعدهم بها المسلمون خدعة وحبالة ، فاشتروا لتسليم البلد حضور الخليفة بنفسه اليهم ، ليوقع امامهم على معاهدة الصلح والتسليم ، فلم يلبث ان بارح عمر المدينة ، وجاء بيت المقدس ، ووقع على المعاهدة الشهيرة التي تم بها دخول هذه المدينة في حوزة الاسلام . فاستبشر المسيحيون من آريين ونسطوريين بهذا الفتح ، واستقبلوا الاسلام استقبال الأسير من جاء ينزع عنه قيوده ، وفتحوا امامه ابواب المدائن ، ودخل أكثرهم في الدين الاسلامي الحنيف . أما النصارى واليهود الذين حافظوا على دينهم ، فقد عاشوا في ظل دولة الاسلام في هناة ورغد عيش ، لم يروا شيئا منهما في عهد الدولة الرومانية ، فلم يأسفوا على زوال حكمها وذهاب أيامها

« أروني مدينة واحدة خربها الاسلام ، أو مذبحه واحدة أمر وقام بها الاسلام ، ذلك ليس في الامكان ، اللهم الا في مخيلة فولنى ورينان (كاتبان فرنسيان اشتهرا بشدة عداوتهما للاسلام)

« ان كان الاسلام يقضى بعدم التساهل مع الأديان الأخرى ، أو بآبادة معالمها ، كما يدمون ، فلم لم يخرب طليطلة وقرطاجنة حينما كان حاكما على أوروبا ستة قرون ؟ »

دفاع حار يعجز عن مثله بعض رجال الدين ..

ومع دفاعه الحار هذا عن الاسلام ، يدعو الى ترقية المرأة المسلمة . فحينما وضع قاسم أمين في عام ١٨٩٨ كتابه المشهور « تحرير المرأة » ، بدأ فيه عدوله عن رأيه في الحجاب الذي رد به على كاتب فرنسي اسمه الدون دراكور ، مر بمصر وكتب عنها كتابا حشاه طعنا في الاسلام وأهله ، ووزارة بالمرأة المسلمة وتحقيرا لها . فقد دافع يومها قاسم أمين - وكان هذا في عام ١٨٩٤ - عن تحجب النساء . أما في كتابه الجديد ، فهو يدعو الى رفع الحجاب .. مما اثار هياجا شديدا في الراى العام ، وتصدى له طلعت

حرب . فرد عليه في كتاب سماه « تربية المرأة والحجاب » ، قال في مقدمته :

« أخذنا نسال ونتساءل ، ونبحث ونتناظر ، حتى علمنا أن معظم هياج الراى العام على حضرة المؤلف ، ناتج مما رسخ في اذهانهم ، من أن رفع الحجاب والاختلاط كلاهما أمنية تتمناها أوربا من قديم الزمان لغاية في النفس ، يدركها كل من وقف على مقاصد أوربا بالعالم الاسلامى .

« انى أجل حضرة الفاضل قاسم بك أمين ، من أن يكون له غاية من وضع كتابه ، خلاف حب الخير والارتقاء بالامة ، كما هو ظاهر من كلامه على تربية المرأة . فانه وصف حالتها اليوم احسن وصف ، وقال بوجوب تربيتها تربية تهذب اخلاقها وتقوم نفسها ، فلحضرتة جزيل الشكر على ذلك ، وسيرانا في هذا الكتاب داعين الى مثل دعوتة ، رافعين صوتنا مع صوتة ، عل دعوتنا تخترق تلك الاذن الصماء ، فيهتم القوم بأمر هذه التربية ، وننال ضالتنا التى ننشدها ، وهى تحسين حالنا ، وما ذلك على الله بعزيز . واننا مع موافقتنا لحضرته على هذا المبدأ ، نخالفه في غيره ، فنستميحه العفو عما يجده خلال بحثنا من المخالفة والمباينة فى الراى والفكر ، فحضرتة حر ، ولا نخاله الا أنه يحب كل فكر حر »

ثم تمضى صفحات الكتاب ، يتحدث فيها طلعت حرب عن وسائل تربية المرأة ، التى يراها خليفة بها ، ثم يقول أ

« قال قاسم أمين : « أرى هم الناس موجهة الى التعليم ، ولا أرى احدا يلتفت الى تربية النفوس ، وأرى أن الحرص على التعليم منحصر فى تعليم الذكور ، مع أن تهذيب الأخلاق مقدم على التعليم ، وتعليم البنات مقدم على تعليم الذكور » . فهذا كلام كله حكم ، ونوافق عليه حضرة المؤلف جهدا . ولكن لا يؤاخذنا اذا كنا نخالفه فى أمر واحد ، وهو اننا نعتقد أن التهذيب واجب للذكور والبنات معا ، لا تقديم للبعض على الآخر . . يقول حضرة محرر المرأة : أن البرقع والنقاب غير معروفين فى الاسلام ، وهذا قول يدمغه ما جاء فى نفس كتاب « تحرير المرأة » من أن النبى صلى الله عليه وسلم نهى المحرمة - بضم الميم وسكون الحاء وكسر الراء - عن لبس القفاز والنقاب . وهل لذلك معنى سوى أن النقاب كان موجودا ومعروفا ، وأنه كان معمولا به وواجبا ، وكان النساء يستعملنه حتى فى وقت الاحرام ، فنهاهن النبى صلى الله عليه وسلم عن ذلك فى هذه الحالة فقط . . قال محرر المرأة فى مبدأ كلامه عن الحجاب ما يأتى بالحرف الواحد : « ربما يتوهم ناظر ، أننى أرى رفع

«الحجاب بللمرة» ، لكن الحقيقة غير ذلك ، فأننى لا أزال أدافع عن الحجاب ، واعتبره أصلا من اصول الأدب التى يلزم التمسك بها ، غير أننى أطلب أن يكون منطبقا على ما جاء فى الشريعة الإسلامية . . ولسنا هنا نطلب إلا تنفيذ ما جاء فى هذه العبارة»

ولم تهدأ الزوبعة التى أثارها قاسم أمين بكتابه « تحرير المرأة » ، واحتدم الجدل والنقاش فيما حواه ، واشترك فيه كتاب كثيرون ، ولم تتخلف عنه صحيفة واحدة ، ففسحت جميعها أعمدها لهذه المناقشة العاصفة . . وإذا بقاسم يطلع على الناس بكتاب جديد هو « المرأة الجديدة » ، دعا فيه دعوة شاملة صريحة الى حرية المرأة ، وكأنما رأى فكرته التى بثها فى كتابه الأول الذى رد به على الكاتب الفرنسى « الدون دراكور » قصة غامضة ، فأراد أن يكملها ويجلوها بهذا الوليد الجديد . فهل سكت عنه طلعت حرب ؟

لا ، فالرجل مجاهد لا يضع سلاحه حتى يهزم خصمه ، فألف كتابه « فصل الخطاب ، فى المرأة والحجاب » ، كشف فيه عن تناقض قاسم أمين فى رده على دراكور ، وفى كتابه الثانى ، وضمنه رأيه فى تعليم الفتاة وثقيفها ، فقال :

— « التعليم الذى لا بأس به أن يشترك البنات بالاستتغال فيه والانتفاع به ، متى آنس الانسان منهن رشدا واستعدادا له ، هو عبارة عن تعليم القراءة والكتابة ضمن تعليم القرآن الشريف وأمور الدين ، لتعرف البنات ما يجب عليها وما يجب لها من الحقوق والواجبات ، ومبادئ الحساب والهندسة والجغرافيا ومختصر تاريخ بلادهن ، فان هذا يزيدهن أدبا وعقلا ، ويصلحن به لمشاركة الرجال فى الكلام والرأى ، فيعظمن فى قلوبهم ، ويعظم مقامهن لديهم .

* * *

فلنودع هذا المجاهد الدينى والمصلح الاجتماعى ، بعد أن بسطنا لك بعضا من ملامح جهاده وأصلاحه ، ولنعد الى نابغة الاقتصاد ، ذاك الرجل الذى ولد فى ٢٥ نوفمبر من عام ١٨٦٧ ، فى حي « قصر الشوق » بالجمالية ، من أبوين شرقاويين ، والذى كان والده موظفا صغيرا فى مصلحة سكة الحديد ، اسمه حسن أفندى حرب ، ولنصحبه بعد انشائه بنك مصر ، فى جولة قصيرة نقف فيها على جديد من آرائه ، وجديد من كفاحه ، وجديد من حكمه ونصائحه لابنائه . . سأورد لك فقرات من خطبه فى مناسبات متعددة متباينة ، ففيها كل ما تريد الوقوف عليه :

وقف في يوم الاحتفال بتأسيس البنك في يوم ٧ مايو سنة ١٩٢٠ في دار الاوبرا السلطانية - كما سبق القول - يرد الاعتراضات التي اثارها الشاتون الحاقدون من الأجانب، وقد مر بك سردها ، فرد على الاعتراض بأن إنشاء بنك مصر ، أثبت تعصب المصريين ، فقال ما موجزه :

« ها نحن اولاء نقرا تقريراً لمدير أحد المحال التجارية الفرنسية بالاسكندرية ينصح فيه تجار بلادنا بالآلا ياكلوا عنهم في مصر غير فرنسيين ، وها هي اميركا تشترط في سفن ملاحتها كي تكون اهلية ، أن يكون جميع أصحابها اميركيين ، وأركان حربها اميركيين وأن تكون مصنوعة في دار صناعة اميركية . أن سويسرا تشترط لحيازة أسهم بنك سويسرا الاهلى ، أن يكون المساهم سويسرياً . وها هي أسوج تفعل مثل ذلك . وليرنا المعترض، صاحب حصّة في رأس مال بنك إنجلترا ، غير انجليزى . فلماذا لا يعاب مثل هذا على الأمم الراقية ، ويعاب علينا أن تشبهنا بهم ، واردنا أن نحفظ لنفسنا ولبلادنا بنكا واحداً يخدم مصالحنا ؟ وأى ضرر في هذا على غيرنا ؟ »

ورد على الاعتراض الثانى ، وهو ان « ليس في مصر من يصلح لأعمال البنوك » بقوله :

« قيل لنا بليون حينما وضع نظام بنك فرنسا الحالى ، انه ليس في فرنسا رجال ماليون خيرون بأعمال البنوك . فقال لهم : هذه طائفة يجب خلقها . وقد خلقت وأصبحت فرنسا بعد قرن ، يضرب المثل بخبرة رجالها الماليين وعلمهم

« فلماذا لا يصدق على مصر ، ما صدق على غيرها ؟

« اذا استعانت مصر في بادئ امرها بغير ابنائها في بعض شؤونها ، فما ذلك بالعار عليها ، خصوصا اذا علمنا أن ٤٠٪ من موظفى ومستخدمى البيوت التجارية بانجلترا الى سنة ١٨٩٨ ، كانوا من الأجانب ، وأغلبهم ألمان ، مما هال غرفة لوندرة التجارية ونقابات بقية الغرف ، وصاحت من اجله ، طالبة تحقيقا دقيقا عن السبب في ذلك ، والعمل على تغيير مناهج التعليم ، لجعلها واقية بتخريج الكفاء لتولى هذه الوظائف ، فيستغنى عن الأجانب . وكثيرون من موظفى بنوك فرنسا ذاتها كانوا فوقت قريب ، بل الى الآن ، أجانب

« أمامنا عقبات لا ننكر صعوبتها ، سندللها بفضل الله وحسن ثقة مواطنينا ، ولنسأل التاريخ عما أصاب البنوك في كل بلد في أول عهدها »

وانظر الى اخلاص الرجل وانكاره ذاته حين يقول : « وانى هنا
بالإصالة عن نفسى وبالنسبة عن جميع زملائي أعضاء مجلس الإدارة ،
تقرر بأننا مستعدون للتخلي عن كرسى العضوية بالمجلس ، لكل كفة
يتقدم ، ما دامت ضالتنا المنشودة واحدة ، وهى الأخذ بيد هذا المولود
السعيد الى الامام ، لخير البلاد ومصالحها ، وهى تتفق مع مصلحة
المساهمين أنفسهم ، لأنهم مصريون »

ورد على الاعتراض الثالث ، وهو « عدم استعداد الأمة للأعمال
الاقتصادية ، وعدم اكتتاب الكبار فى أسهم البنك بمبالغ وافرة » .
فقل :

« لا ننكر ان الأمة طفلة فى المشروعات الاقتصادية ، ولكن اين الأمة
اننى ولدت عالمة مستعدة بفطرتها لمثل هذه الاعمال ؟

« سلوا التاريخ ينبئكم عما قاست كل أمة فى بداية نهضتها

« فكر بعض المصريين فى تأسيس بنك مصر ، فعملوا ما يعمله غيرهم .
فمن جمع بعض أشخاص يكتبون فى أى رأس مال أولى يطلب به المرسوم
السلطانى ، ولم يكن بوسع القائمين بهذا المشروع ان يفتحوا - قبل
صدور المرسوم - اكتابا عاما لتظهر قدره الأمة واستعدادها . فلماذا
هذه المغالطة ؟ والمبلغ الذى جمع ودفعه المؤسسون بأكمله من طيب خاطر ،
لا يقدم ولا يؤخر ، ولا يصح اتخاذه دليلا على شيء ، سوى جمع كلمة
بعض أشخاص على استصدار مرسوم سلطانى بتأسيس بنك ، ليدعى
المصريون للاكتتاب العام فيه ، وهذا ما دعيت الجمعية العمومية غير
العادية ، لتقريره هذا اليوم

« نراجع عدد المساهمين فى بنك فرنسا ، ورأس ماله ١٨٢ مليون
فرنك ، مقسم الى ١٨٢ ألف سهم ، ومجموع عملياته فى السنة تقدر
بالمليارات لا بالملايين ، نجد ان سبعة وعشرين ألف مساهم من واحد
والثلاثين ألف مساهم ، لا يملك كل منهم أكثر من عشرة أسهم ، وليس
بين الأربعة الآلاف الباقية سوى ٣٦٥ مساهما يملك كل منهم أكثر من
خمسين سهما ، ومنهم ١١٣ فقط يملكون أكثر من مائة سهم

« فاین اغنياء فرنسا ؟ هل هم أيضا غير مستعدين للأعمال الاقتصادية-
حتى انهم لم يساهموا فى بنك فرنسا بنسبة ثرواتهم ؟ »

ردود مفحمة ، ومنطق سليم مقنع ..

ثم تحدث عن برنامج البنك فقال :

« انه يعمل كل ما يعمل به بنك تجارى مثله ، لا فرق فيمن يعامله بين أن يكون مصرياً أو غير مصرى ، فالمصرية لم تشترط الا فى راس المال ، أما فيما عداه فأبوابه مفتوحة لكل عميل .

« يشجع المشروعات الصناعية المختلفة التى تعود عليه وعلى البلاد بالربح العظيم .

« يساعد على ايجاد الشركات المالية والتجارية والصناعية والزراعية ، وشركات النقل بالبر والبحر ، وشركات التأمين بأنواعها .

« يشدد فى التدقيق قبل توظيف أى مبلغ ، ولا يستثمره الا فى وجوه سليمة مأمونة .

« لن يشتغل بنك مصر على الإطلاق فى المضاربة لنفسه ، ولن يساعد الغير عليها ، ولن يقرض الأموال المودعة لديه لأجل طويلة .

« نريد أن يفهم الكل ان بنك مصر ليس جمعية خيرية ، ولا ملجأ للعاطلين ، ولكنه محل تجارة ، يعمل عملاً تجارياً على مبادئ وأصول قديمة ، لن يحيد عنها ان شاء الله تعالى .

« سيؤدى بنك مصر لجميع عملائه كل الخدمات المالية التى يحتاجونها بأجر مناسب ، وسيعمل بالاتحاد مع حضرات التجار على تنظيم الحائى التجارية وانشاء الغرف التجارية والنقابات والشركات التعاونية وغيره ، للدفاع عن مصالح أعضائها . كما يعمل بالاتحاد مع أصحاب المزارع والمصانع على تأسيس النقابات وشركات التعاون اللازمة لهم للدفاع عن مصالحهم ومحاصيلهم ومصنوعاتهم .

« سيعمل على بث روح العمل والتعاون والتضامن والنظام فى الشبيبة ، واثراء ملكة الاقتصاد والتجارة فيهم ، والبحث على وضع أساس التربية الاقتصادية العملية فى البلاد ، وجعل تعليم الحساب والنظام الحسابى ، أساساً فى مناهج التعليم .

ولقد بدأ البنك رسالته فى التوعية القومية الاقتصادية منذ اليوم الأول من انشائه ، وبعد اعلانه برنامجه ، ليقضى الوطنيون على الشركات الأجنبية المسيطرة على اقتصاديات البلاد . فقد جاء فى أول تقرير لمجلس إدارته الى أول جمعية عمومية عادية للمساهمين فى نهاية عام ١٩٢٠ ، وكانت أزمة هبوط أسعار القطن شديدة عاتية :

« أملنا أن يخرج مواطنونا من هذه الازمة بالعظات والعبر ، وأن يستفيدوا من دروسها ، فينظموا صفوفهم ، ويلجوا باب الاستقلال الاقتصادي ، ويستثمروا أموالهم في مرافق بلادهم الحيوية على مختلف أنواعها ، ويتكاتفوا فيما بينهم لترقية شؤونهم الاقتصادية ، فيؤلفوا النقابات والشركات والغرف التجارية والصناعية ويكونوا يدا واحدة ، شعارهم الاتحاد والاخلاص ، وتبادل الثقة وحسن المعاملة ، ويمصروا الشركات الأجنبية التي يشكون في تصرفاتها بشراء أسهمها ، حتى تكون لهم الكلمة العليا في جميعياتها العمومية »

ولم ير البنك عيبا أن يستعين ببعض الأجانب في أول نشأته ، فقال في تقريره هذا :

« ولقد استقدم مجلس إدارة البنك في أكتوبر الماضي (أى أكتوبر سنة ١٩٢٠) جناب المسيو ريتشارد ادلر كمستشار للبنك . ولا لزوم لأن نطمئن حضراتكم بأن مجلس إدارتكم سائر على مبدأ الاحتفاظ بشعاره وهو أن اليد العليا لإدارة البنك وسياسته ، بقيت وستبقى مصرية »

ولا يقف جهد الرجل وتفكيره عند الاقتصاد وحده ، وعند إنشاء الشركات والمصانع يفخر بها الوطن ويعتز ، فهو يشارك بنى وطنه في الحفاوة بأبناء مصر المجاهدين عند عودتهم من رحلة جهادهم في الخارج ، ويهتبلها فرصة ليندد بالمستعمر ، وليهتف للوطن ولاستقلاله ولحرية ، وليشيد بقوة عزيمة مصر وأهلها

كان ذلك في الحفلة التي أقامها التجار في فندق سميراميس في ١٣ أبريل سنة ١٩٢١ ، لتكريم « صاحب المعالي » سعد زغلول باشا وزملائه . أعضاء الوفد المصرى . . « بعد غيبة طويلة جاهدوا فيها جهاد الأبطال » . مدافعين عن القضية المصرية خير دفاع ، حتى وصلت بفضلهم وبفضل اتحاد الأمة والتشجيع الذى لاقوه منها في كل خطوة من خطواتها ، الى النقطة الدقيقة التى هى فيها الآن . فعليكم أيها الأبطال من جميع تجار مصر ، سلام الله وتحيته . . ان تلك الأعصاب التى كانت تهتز حماسة يوم استقبالكم ، وتلك القلوب التى رايتها تخفق بالوطنية الصادقة ، لهم أعصاب وقلوب أمة بأكملها ، قامت كتلة واحدة تشهد العالم أجمع على أنها مجمعة على طلب واحد ، لا ترضى عنه بدىلا ، فتسقط تلك الحجة التى كانوا يدمقونها بها ، بأن الأمة غير مجمعة على الطلب ، بماذا عساهم يقولون اليوم ، واجماع الأمة أشهر من أن يستر ، وأظهر من أن يمارى فيه ؟

« انه لمن الخطأ أن يظن بأن الضغط يلفت مصر عن نهضتها ، وينسيها حب الحرية ، فان هذا الضغط هو نفسه داؤها الذي تتألم منه . ومن الجهل أن يداوى الداء بالداء

« لئن كنا غير اكفاء لحكومة بلادنا ، فان المهيمنين على أمورنا وشؤوننا ، أظهروا يتصرفاتهم أنهم أقل كفاءة منا بكثير ، لانهم لم ينجحوا في أن يذهبوا عنا تهمة عدم الكفاءة التي هم أول رماثنا بها . أمامكم أمم العالم ، فهل رأيتم من بينها واحدة ترك للصدفه حبلها على غاربها في شؤونها الاقتصادية ، لا رأى لها في الدب عن مصالحها ، وترك طعمة للاكلين ومضفة لكل ماضغ ؟ اين الغرف التجارية التي أسسوها أو ساعدوها ؟ اين النقابات الزراعية والصناعية التي نظموها ؟ اين البنوك والشركات المصرية التي عملوا على ايجادها ؟ اين التشريع الذي يقى المصريين ويحمى مصنوعاتهم ومحاصيلهم ؟ تركوا المصريين عزلا من كل سلاح ، بين منافسين ومزاحمين مدججين بأحسن طراز من الأسلحة الحديثة ، وبعد ذلك يعتبروننا لا نصلح لشيء ، لاننا لم نعمل شيئا ، وهم الذين لم يؤهلونا للعمل ، بل أفسدت السياسة ما كان صالحا لدينا ، لم يشجعوا شيئا من الصناعة الوطنية ، بل لعلمهم وقفوا في طريقها وقفة المدافع عن مصنوعات الخارج

« تبا للسياسة ، ما تدخلت في شيء إلا أفسدته »

وبعد ما عدد طلعت حرب ، خطيب الحفلة كيف افسد المستعمر التعليم ، وضحوا بمرافق البلاد الحيوية ، واضاعوا احتياطي البلاد ، قال :

« .. لهذا فكر بعضنا في اثناء جهادكم للقضية العامة ، في وضع حجر الأساس لاستقلال البلاد الاقتصادي ، فأسسوا « بنك مصر » نواة لذلك الاستقلال ، وأول مدرسة عملية يتأهل فيها شبابنا الحي ، للدخول في ميدان الحياة العملية التي كان مبعدا عنها . كما أسس التجار الغرفة التجارية لمدينة القاهرة ومثلها لمدينة طنطا وثالثة لمدينة المنصورة ، وتأسست أخيرا النقابة العامة للدفاع عن مصالح المزارعين ، وسيتلو ذلك ان شاء الله تعالى كثير من المشاريع النافعة للبلاد ، تبنى على أسس ثابتة ، ويقوم بها رجال ذوو همم عالية ونفوس كبيرة . والفرصة تخلق الرجال ، كما تخلق الوظيفة العضو ، على قول الفرنسيين

« ان كل سياسة خطها الانجليز في مصر فشلت ، لأن قاعدتها لم تكن الاتفاق مع الأمة المصرية والعمل على كسب ثقتها . ان هذه السياسة هي التي جعلت المصريين يشفقون على مصالحهم الحاضرة من البوار ، وعلى مستقبل ابنائهم من المدلة ونكد العيش ، وليس لديهم علاج نافع لالتقاء الأضرار الحاضرة ، والتدريج لصيانة المستقبل ، الا الاستقلال التام ، فالاستقلال التام امنية كل مصرى . فعليكم يا رجال الوفد ، بريا رجال الحكومة التي اولتها الأمة ثقتها ، وعلى كل واحد منا ، اى من الأمة كلها ، الاتحاد والتضافر ، لأن مصلحة البلاد تقتضى ذلك .

« انتم يا رجال الوفد رمز امانى الأمة وعنوان مبادئها ، فكل ما وجهته أو توجهه اليكم الأمة ، انما هو موجه في الحقيقة لهذا الرمز وهذا العنوان ، وهي تولى ثقتها واكرامها لكل من يخدمها باخلاص وصدق ، ولكل من يجيئها بالاستقلال التام الذى تنشده . فانتم حيث تعملون ، تنزلون على ارادة الأمة ، وارادة الأمة هي ان يتضافر جميع ابنائها ويكونوا يدا واحدة ، كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا »

لقد حرص طلعت حرب منذ شيد هذا الصرح الوطنى ، على أن يبتعد عن السياسة ومزالقها ، وعن الأحزاب وأهوائها ، ليكون البنك لجميع أبناء الوطن ، لا فرق بين سعدى وعدلى ، أو بين وطنى واتحادى فمن عد خطبته هذه اشتغالا بالسياسة ، كان متجنيا غاية التجنى ، انما هي مشاركة من الرجل ورفاقه وزملائه من التجار ، للملايين المصريين في استقبال نفر من أبناء مصر المجاهدين . وكان موقفا كل التوفيق حينما ضمن خطبته السخط على المستعمر والتنديد بسياسته في قهر البلد والعمل على اذلال اهله ، وحث المصريين - حتى يتخلصوا من هذا المستعمر المستبد الفاشم - على الاقدام على المشروعات الاقتصادية المثمرة ، والاتحاد والعمل على انشاء النقابات المهنية لتدفع عن اعضائها ما يحيق بهم من ظلم .. فهي خطبة سياسة اقتصادية ، جمعت فأوعت

فاذا اجتمع بممثلى مصر في الخارج ، وجه انظارهم الى بلد نشاطهم الخبير اقتصاد وطنهم الذى اختارهم عنوانا له في أوروبا وأميركا ، فيقول نقي وليمة أولها البنك في ٣ مارس سنة ١٩٢٤ ، لأول دفعة من القناصل المصريين ، عينتها وزارة الشعب ، وزارة سعد زغلول :

— « اذا كنا نأسف لأن حوادث التاريخ قد حرمتنا حق التمثيل الخارجى فى مدى عدة قرون ، فاننا نقرح اليوم لأن العصر الحاضر قد اتصل بالعصر الغابر ، فى استعادة هذا الحق الذى لم يضع بالتقدم .. نقرح اليوم بالذات لأننا نرى فيكم وفيمن سبقوكم منذ اسابيع من رجال التمثيل السياسى ، حلقة اتصال بين هذا الحاضر وذاك الغابر

» اننا نطلب من القناصل أن يعملوا كما كان يعمل أسلافهم من الاجداد الغابرين . نطلب اليهم ان يزدادوا معرفة باحوال بلادنا الاقتصادية بحيث لا يكون ابتعادهم عن مصر ، سببا فى عدم تعرف شؤونها الاقتصادية ثم نطلب اليهم أن يدرس كل منهم فى جهته احوالها الاقتصادية من جميع الوجوه ، وأن يتفهم ما تنتج وما يصلح من انتاجها لبلادنا ، وما تحتاج اليه من منتوجاتنا ، ويرشد عن طرق الانتفاع من التبادل التجارى بين البلدين ، وأن يتفهم طرائق كل قوم يعيش بين ظهرانيتهم فى الانتاج والتوزيع ، ويرشدنا عن الجديد من هذه الأساليب ارشادا يصح ان يكون محل التجربة للانتفاع به فى بلادنا . فهذا العمل الذى يجمع بين تفهم الحالة الاقتصادية فى مصر والارشاد عنها فى الخارج ، وتفهم الحالة الاقتصادية فى الخارج وارشاد مصر عنها ، وتسهيل الانتقال والاتصال بين مصر والخارج . بهذا العمل تقومون ايها السادة القناصل — فوق ما هو مفروض عليكم بصفتم مصريين — بواجب الوظيفة الجليلة «

* * *

فاذا عين فى أول مجلس للشيوخ فى عهد البلاد الجديد ، بعد تصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ ، أقام له نادى التجارة العليا حفلا ضخما فى أواخر مارس سنة ١٩٢٤ ، تحدث فيه عن هذا المجلس بصراحة ، فقال :

— « عم أحدثكم ؟ أحدثكم عن مجلس الشيوخ الذى من أجل تعيينى عضوا فيه اجتمعتم اليوم ؟ وماذا عساي أن أقول عن مجلس الشيوخ ؟ انه لم يجتمع حتى الآن الا جلسات معدودة ، لا يسع الانسان أن يعتمد على ما دار فيها ، ليتخذ أساسا للحكم على اتجاه هذا المجلس ، وتقدير روحه ، وتعيين النفع الذى يعود من وجوده على البلاد ، باعتباره أداة توازن دستورية . والتوازن كما هو مفروض فى المال لحسن سيره الأعمال ، وكما هو مفروض فى الميزانية العمومية .. هذا التوازن محتتم أيضا فى الحياة الدستورية . وحتى اذا وقع خطأ لا يعصم منه الانسان ، وكان هذا الخطأ ناشئا عن عنصر من عناصر السيادة ، أصلحه العنصر الاخر

بروح من الوفاق يجب أن يسود دائما لصالح البلاد . وفي هذا الاشراف المتبادل ، وفي هذه الهيمنة المشتركة على شؤون الدولة ، يتحقق التوازن الدستوري ، كما يتحقق ميزان المراجعة بين صفحتي السلب والايجاب »

وسافر الرجل الى مدينة المحلة الكبرى ليفتح فيها فرعاً للبنك في ١٤ سبتمبر سنة ١٩٢٤ ، فتوة في كلمة له في حفل الافتتاح بعزاقة هذه المدينة في صناعة النسيج . وقد اختارها بعد ذلك ليقم على ارضها اكبر مصانع للفل والنسيج في الشرق الأوسط ، كما سيجيء ، فقال مخاطباً أهلها :

« لستم « احدانا » في صناعة النسيج ، فقد ورثوها من آباء ورتوها عن اجداد . ولدنا على هذا بعض شواهد نسوقها دليلاً على اشتغالكم بها منذ مائة عام على اقل تقدير . منها ان كلوت بك في كتابه الشهير عن مصر سنة ١٨٤٠ ، انه كان في مصر وقتئذ ١٥ « وسطاً » للفل والنسيج ، تنتج مليوني قطعة قماش ، وان المحلة الكبرى كانت وسطاً كبيراً من هذه الاوساط المحدودة . ومن الشواهد ايضاً انه لما اقامت فرنسا معرضاً عاماً في سنة ١٨٦٧ واراد الخديوي اسماعيل ان تمثل مصر فيه - وقد مثلت تمثيلاً استقلالياً اغضب الدولة العثمانية وقتئذ - وقع الخيار على احسن ما يعرض من منتجات البلاد ومصنوعاتها ، فكان مما وقع عليه الاختيار ، منسوجات من المحلة الكبرى : قطنية عرضت في مجموعة رقم ٢٧ من هذا المعرض ، وصوفية عرضت في مجموعة رقم ٢٨ منه ، وفوط من الصوف والحريز عرضت في مجموعة ٢٩ منه . وقد اثبت هذه الحقيقة التاريخية المستبر شارل ادمون المكلف من قبل الحكومة المصرية وقتئذ ، بتنظيم القسم المصري في هذا المعرض ، والذي كتب مؤلفاً خاصاً بهذا القسم وظبعه في سنة ١٨٦٧ نفسها »

وهو لا يثنى كلما سنحت له الفرصة ، ان يحض الشبان خالص النصح ، وان توجههم خير التوجيه ، حتى يعودوا مواطنين صالحين ، ينفعون وطنهم ومواطنيهم

القد اجتمع بالطلبة المصريين الذين يدرسون في الخارج ، في حفلة اقامتها له الجمعية المصرية في باريس في ١٩ سبتمبر سنة ١٩٢٥ ، في فندق « لوتسنيا » وجثم فيها بعد الحث على الاقبال على التعليم -

عليه ان يعودوا بعقلية مصرية ، متشابهة في سموها مع اسمي الامم بعاقه ،
فقال لهم :

« اننى مسرور بلقائكم ، مصطفىين ، وطلبة علم ، ومقيمين في عاصمة
النور والسرور ، في عاصمة العواصم ، باريس »

« وباريس مركز اللهو والسرور ، بينما المسارح ترجع تهادها التي
ما قبل «مولير» ، وفيها بجوار المسارح الناطقة ، ستائر بيضاء صامدة
لعرض الصور المتحركة . وفي باريس ملة غير المسارح . فيها انتبهات
والنوداي تسر الناظر وتشرح الخاطر . وفيها امثلة المداعبة والمخلعة ،
قد يفشاها بعض المصريين ، كما يفشاها كثير من الاجانب والفرنسيين .
ولما كنت غير واعظ ، ولا احب ان اكون واعظا ، لاني اعلم ان وعظي
سيذهب صرخة في واد ، فان كل ما ارجوه ، هو ان يدخلها من يدخلها
من مواطنينا بحذر ، وادعو الله ان يخرجهم منها سالمين . وفي باريس
« كابيريات » او « غرز » ، كما نقول في بلادنا ، يقني فيها المعبون غنياء
خاصا بالباريسيين

« هذه هي باريس اللهو والسرور

« اما باريس الجد ، فهي باريس العلم وباريس العمل »

« هي باريس « السوربون » ، والسوربون من اقدم الجامعات في انقرب ،
منزلته منه ، منزلة الازهر من الشرق ، من حيث القدم في كليهما ،
«السوربون» كما تعلمون تطلق على كلية الآداب وكلية العلوم ، وقد تطلق
ايضا على معهدين ملاصقين لهما ، روحا وجسدا ، هما كويج دي فرانس ،
ومدرسة الوثائق القديمة . وهذه المعاهد العلمية تعتبر بمثابة القلب من
جامعة باريس ، فمن آدابها وتاريخها وفلسفتها ، يمتد النور الى كلية
الحقوق . ومن علومها الوصفية الطبيعية والكيميائية وتاريخها الطبيعي ،
يمتد ضياء آخر الى كلية الطب . ومنها جميعا يشرق نور الجامعة
الكبرى على بقية الجامعات في الاقاليم ، وينعكس على قباب الاكاديميات
الشهيرة في سراياها فوق نهر السين

« ولقد كان لهذه الجامعة فضل عظيم في تكوين فئات من المصريين ،
منذ بعثات محمد علي العلمية ، التي اخرجت على مبارك والفلكي مخلوق
واسماعيل بهجت ومحمد علي الحكيم وغيرهم من الادباء والمهندسين
والاطباء والمشرعين ، وبعثات الجامعة والحكومة اخيرا »

« نعم قد يكون من الشاق على الطالب الاجنبى فى هذه المدينة المائجة المملوءة بدواعى اللهو والمسررات ، أن يضغط على شبابه ، ويلتزم فى هذا الوسط الجذاب اسباب الخلاعة واللهو المحيطة به ، ولكن هناك لهو مصحوب باحترام النفس والقدرة على ضبطها والجذر من ابتذال الكرامة ، والحرص من الوقوع فى أى سبب من اسباب المكروه : الادبية أو الخلقية أو الصحية . وهناك لهو آخر ينحدر به الانسان الى بخس النفس قدرها ، بالضعف عن كبح جماحها ، والى تضييع الكرامة والتخبط فى ظلمات كل مكروه .

« ان تعدد الجهات والأمم والدول الأجنبية التى يقصد اليها الطلبة المصريين ، مرغوب فيه أكثر من توجيه ابنائنا المصريين الى جهة أو امة واحدة ، لأن توحيد الجهة التى يقصدون اليها ، من شأنه ان يجعل للعقلية المصرية المتعلمة فى الخارج ، تتأثر بطابع الدولة التى تم التعليم فيها ، الا لمن استطاع ان يخرج بعقلية مستقلة ، وهو ما لا يكون الا عند جياورة الذكاء . ولا يخفى ما يترتب على التأثير بطابع التهذيبات فى دولة واحدة ، من الاثر الذى قد يكون غير محمود فى حياتنا القومية ، بخلاف تنويع البلدان والدول التى يقصد اليها الطلبة المصريين ، فان من شأنه أن يجعل عدة جماعات من المصريين المتعلمين تعليما عاليا ، موسومين بسمة التهذيبات المختلفة التى اثرت فى تكوينهم العقلى ، فيحدث من احتكاكهم فى العمل ، بعد عودتهم الى مصر ، اتصال فكري وعقلى يجعلهم يتقربون بعضهم الى بعض ، تقربا يساعد على ايجاد عقلية مصرية ممتازة يفتاتها ، مستقلة فى مجموعها ، عن اثر الدولة التى استكمل فيها المصرى علومه العالية

« وهذه العقلية المترجمة المتشابهة ، هذه العقلية المستمدة من تهذيبات الشعوب المختلفة ، هذه العقلية القائمة على الملكية العلمية المشتركة بين البلاد ، دون أن تكون متأثرة بالبلدة التى تم تكوينه فيها ، هذه العقلية التى يجب أن تكون مشتركة فى طرق العلم القائمة لدى اسمى الأمم الغربية دون أن تصبح بميزات هذه الأمم وخواصها ، هذه العقلية هى التى نريدها فى شباننا المتعلمين ومتخرجى الجامعات ، سامية عالية تناطح العقليات فى سمو ادراكها .. هذه العقلية ينبغى أن تكون بجهود المتعلمين أنفسهم حتى تكون مصرية ، لا عقلية المانية ، ولا عقلية انجليزية ، ولا عقلية فرنسية ، ولا عقلية اجنبية اخرى .. وهذه العقلية يجب أن تكون

مصبوغة بخواص الديك المصرى ، ومراة صديقة للحسن من الطابع
المصرى

« نريد اذن عقلية مصرية متشابهة في سموها مع اسمى الامم ثقافة ،
ونريدها عقلية مصرية مستقلة ، عقلية هى وليدة ماضينا الذى لا مفر
من الخروج من تأثيره فينا ، ووليدة حاضرا نسعى الى ان نربطه بماضينا ،
كما نسعى ان نقوده ونسيزه الى مستقبل حسن »

اى معلم هذا الرجل ؟ انه يلحق طلاب العلم المصريين فى جامعات
الغرب ، هذه الدروس الوطنية الغالية ، حتى لا يفتنهم بريق الغرب ،
فيعودوا وقد فقدوا مصريتهم ..

الوف من الصفحات لا تكفى لتسجيل التاريخ المفصل لهذا العبقري
المصرى ، ولكنى - وانا اترجم له فى صفحات مقدودات - ساقصر على
اسطر من هذا التاريخ الحافل ، حتى انتهى الى بعض حوادث ذاته
مغزى ، ومعنى ..

فى يوم السبت ٩ مايو سنة ١٩٢٥ ، احتفل بوضع حجر الاساس
للبنك فى داره الشامخة والقائمة اليوم - وكانت أرضها غاصة بالمشش
والبيوت القديمة والآيلة الى السقوط - بحضور الوزراء والكبراء وأعيان
البلاد

وفى أوائل يوليو ، سافر الى بيروت فأكرمه أهلها فى مأدبة حافلة ،
قال فيها بعد ما تغنى بجمال الجبل والأرز :

- « نحن المصريين بالذات ، نعلن انه كما تهتمكم شؤوننا ، تهمننا
شؤونكم ، وانه يهمننا ويهتمكم على السواء ان تكون الثقافة العربية التى
تربطنا بكم ، أقصى ما تكون من الرقى ، وانه يهمننا ويهتمكم على السواء ان يكون
الاستقلال الاقتصادى أمرا واقعا فى بلادنا ، كما يكون الرخاء ميسورا قائما
على قواعد ثابتة فى بلادكم ، وانه يهمننا ويهتمكم على السواء ان تكون حركة
المبادلة التجارية بيننا وبينكم على أشد ما تكون » .

ثم سافر الى سوريا ، فأقام له تجارها حفلة تكريم فى دار المجمع العلمى
العربى ، فكان خير ما قال فيها ، بعد ما تغنى أيضا بدمشق الفيحاء :

- « ها انتم انشأتم حديثا فى مدينتكم كلية للطب وكلية للحقوق ،
وجعلتم عمدة التعليم فيها باللغة العربية .. قالوا - من حيث يجهلون -

يفجأهلون منزلة لغتنا - ان اللغة العربية لا تصلح للتعليم في مدارسنا ،
لأنها تقصر عن استيعاب العلوم العصرية ، فصرنا على مضض . . نرى
التعليم يجرى بلغة غير لغة البلاد ، حتى عاد اليها بعض الأمر من شؤوننا ،
فجعلنا التعليم بالعربية أساسا في الدراسة الابتدائية والمتوسطة والعالية .
وفي أثناء هذا النضال كانت اللغة العربية قد تمشت في مجارى التشريع
المصرى المأخوذ عن التشريع الفرنسى ، وانقادت بسهولة في لغة المحاكم وأوراق
قضايها ومختلف إجراءاتها ، وفصاحة خطب رجالها في الاتهام والدفاع .
أصبحت اللغة العربية عصرية مرنة ، قابلة لخوض المعلومات العصرية بسهولة
تامة ، سواء أكانت هذه المعلومات أدبية أو سياسية . ثم نهضت البلاد
لتأسيس « بنك مصر » الذى هو أول بنك قومى مصرى تأسس بأموال
مصرية بحتة ، وبإدارة مصرية محضة ، وقررنا أن تكون المراسلات فيه ،
وبينه وبين عملائه باللغة العربية ، وأن تكون حساباته باللغة العربية . .
فهبنا بنا الهازئون ، وقالوا : ان المحاسبة من واردات الغرب ، وأنها فن
من قوته غير قابل للانتقال الى الشرق بغير لغة من لغات الغرب . ولكننا
أهملنا استهزاءهم ، وأجرينا مراسلاتنا وكتبنا وتقاريرنا باللغة العربية . وانى
أؤكد لحضراتكم أننا ما وجدنا أية صعوبة في تقريب معنى من معانى هذا
البنك ، أو في تعريب اصطلاح من اصطلاحاته .

لأريت دفاعا عن العربية من رجل إقتصاد كهذا الدفاع الجار المخلص ؟
ثم اقرأ رأيه في السينما شارحا فوائدها ، باسطا أضرارها ، في سهولة
ويسر ، لا يستطيعها غيره ، في ميدانه ومجاله

لقد دعا أحمد مدحت يكن باشا رئيس مجلس إدارة البنك ، أعضاء
البرلمان بمجلسيه - الشيوخ والنواب - والوزراء والعظماء والأعيان
والصحافيين والأدباء والنقاد ، الى حفلتين في مساء يومى ٢٩ و ٣٠ مارس
سنة ١٩٢٧ ، عرضت فيهما نماذج من الصور السينمائية التى صورتها
« شركة مصر للتمثيل والسينما » ، فور انشاء البنك لها . فلقى طلعت
خزبه خطبة طويلة ، قال فيها :-

- « اذا كان اختراع السينما قد ادى حاجة نفسية من حاجات البشر ،
فانه ككل اختراع ، له مجاسنه ، وله عيوبه . مجاسنه في خلق صناعات
جديدة ، وفي خلق ميادين للدكاء الإنسانى ، أو الذوق الفنى ، يعمل فيها
بتشاطر غريب ، وفي تسلية الناس والتفريج عن صدورهم بالضحك الساذج ،
وفي تلقينهم معلومات مفيدة كانوا يجهلون قبل أن يروها على اللوحة البيضاء »

وفي وقوفهم على مناظر بديقة للطبيعة والبلدان كان من المتعذر الوقوف عليها
بغير عرض الاشرطة المحتركة. وفي اثاره الحماسة في نفوسهم في مواقف
الحماسة ، وتحبيل الشجاعة والهمة والمروءة في مواقف الاخلاق الفاضلة

« وللاختراع من الجانب الآخر عيوبه ، فان الفضائل لا تعرف الا
بمقابلتها بالردائل : فالشجاعة بالجبن ، والمروءة باللؤم ، والبراءة بالاجرام ،
والاحسان بالاساءة . . ومن هنا ظهر على اللوحة البيضاء المحاسن والاضرار .
فظهرت صور منحطة من الناس ، واغمال منطوية على خبث نياتهم . وظهرت
الجرائم كيف تدبر ، والجنايات كيف ترتكب ، والخيانات كيف يخيك شيكاكها
الخائنون . فكان لعرض هذه المساويء تأثيرها السيء في بعض النفوس
الساذجة او المستعدة للشر ، لاي سبب طبيعي او خلقي او اجتماعي ، حتى
اثارت في بعض الاحيان عاطفة الشر منهم ، فاندفعوا يعامل التقليد الى ارتكاب
الجرائم بجرأة مأخوذة تماما مما شاهدت العيون على اللوحة البيضاء ، بل
وقد ترتكب معائب لا تذهب الى احد الاجرام المقابله عليه ، ولكنها تذهب
فقط الى الحط من الاخلاق دون التعرض للقانون »

فلنخط الى الامام خطوات فسيحة ، لنرى الخفل العظيم المرتقب
من سنوات :

ففي يوم الاثنين ٥ يونيو سنة ١٩٢٧ ، احتفل بافتتاح الدار الجديدة
 للبنك في شارع عماد الدين ، اى بعد سنتين من وضع حجر الاساس كما
مر بك ، افتتح الاحتفال احمد مذحت يكن باشا بكلمة بالفرنسية ، وقف
على اثر انتهائه منها « رجل بنك مصر » ، ليقول والدنيا لا تسعه من الفرح
والبهجة :

« لولا حسن ادراك المصريين ، وصدق الهامهم ، وقبولتهم على تقدير
النافع من الاعمال ، ما كنا وصلنا الى ما وصلنا اليه اليوم . فقد بدأنا في
سنة ١٩٢٠ صغارا يهزأ بنا الهازئون ، ويتساءلون : بشمانين ألفا تقيم البنوك ؟
وقد نسوا ان العمل الصالح يولد صغيرا ، ونمو حتى يصير كبيرا . ونحن
بحمد الله ما لبثنا طويلا ، حتى تضاعف رأس المال ، وبلغ ٧٢ ألف جنيه ،
وقد يزيد الى ضعفه بعد حين . وسخرنا من اعمالنا في السنة الاولى ،
لانهم راوا ارقاما ضئيلة ، كان الشجرة المثمرة ، الشجرة المثمرة .
السنين ، يورف ظلالها وتوتى اكلها في خلال عام . ولكنهم ما سخرنا حتى
عدلوا عن سخريتهم ، واقرؤوا بالحقائق : وهي حيوية البنك وقطعة مسافات
الزرق الى الامام ، بخطى لا يعترف لها مثيل في حياة المضارب المالية قاطبة ،
يدل على ذلك عدد الموظفين ، وكانوا يعدون على الاصابع ، لمبلغوا الان فوق

الخمسمائة تدريبوا جميعا في البنك على تجارة الاموال ، بعد أن كانت الابواب مغلقة في وجوه الشباب لمثل هذا التدريب . وبفضل تدريبهم تيسر التوسع في افتتاح الفروع والمكاتب في الداخل ، والشروع في تأسيس أول فرع جديد في الخارج ، هو « بنك مصر - فرنسا » الذي سيحتفل بافتتاحه في صيف هذا العام » (١) .

وكذلك انتقلت ادارة البنك من مبناها المتواضع المستاجر في شارع الشيخ ابي السباع ، شارع جواد حسنى الآن ، الى داره الفخمة التي تكلف انشاؤها مائة ألف جنيه ، والتي يعز وجود مثل لها من بنوك الشرق .

ومما أذكره هنا ولا أنساه ، أن زعيم مصر الاقتصادى ، د. زعيم مصر السياسى سعد زغلول باشا الى زيارة هذه الدار قبل الاحتفال رسميا باحتفالها ، تجنبنا للرحام الذى قد يرهقه ، مراعاة لصحته ، فقد كان هذا قبل اعتلال صحته ، الاعتلال الذى لقي فيه وجه ربه بعد ذلك بثلاثة أشهر أو تزيد قليلا (٢) .

وعين صباح يوم السبت ٣ يونيو ، لهذه الزيارة الخاصة ، فذهب سعد ، وكان في استقباله جميع أعضاء مجلس الادارة فقط ، واتوا له بمركبة تدفع باليد ، ليركبها في اثناء طوافه حتى لا يمسه تعب ، لكنه ما لبث بعد أن تأثر مبتهجا بفخامة البناء ، ومعجبا بالطراز العربى الجميل الذى ساد جميع أركانه وأقسامه ، حتى نهض واقفا معتلئا شابا وهو يقول لطلب حرب ولزملائه :

— هذا عمل عظيم يفخر بالسعادة كل من يشاهده ، بل ويعيد اليه الشباب يا طلعت بك .

وهنا قدم اليه طلعت حرب ، المهندس الذى صمم الدار وأشرف على بنائها ، وهو انطون لاشاك بك ، فهناه سعد تهنئة حارة .

وظل سعد يطوف بالبنك في جميع ادواره على قدميه ، لمدة طالت الى ساعتين ، غادر الدار بعدها مكررا تهنئته واعجابه ، متمنيا للقائمين بأمر البنك وفي طليعتهم طلعت حرب اطراد التقدم والنجاح .

(١) بدأ البنك عمله في سنة ١٩٢٠ بعشرين موظفا ، وبعد عشرين عاما أى في عام ١٩٤١ ، كان معددهم ٣٥٠٠٠ موظف وعامل فيه ولى شركائه ، يتقاضون مرتبات تزيد على مليون جنيه

(٢) توفى سعد في ٢٣ أغسطس سنة ١٩٢٧

وفي هذه المناسبة ، اذكر كذلك ، انه من نحو خمس عشرة سنة ، زار دار البنك وفد من الهنود ، فرأيتهم يقفون أمام نقوشه ورسومه وهندسته وأمام صورة طلعب حرب ، وقفه المتعبد الخاشع ، في محراب صلاته .

* * *

وسافر الى الاسكندرية ليفتح عمارة البنك في الاسكندرية في يوم ١٤ يونيو سنة ١٠٢٩ ، ولم يهدأ بعد ذلك طوال السنوات التالية ، فقد زار دمشق ولبنان وليفربول ومانشستر وقينا وغيرها ، فكان خير سفير لمصر ، ولبنك مصر .

ووصل الطيار محمد صدقي - وهو من موظفي البنك - بطائرته الصغيرة من ألمانيا الى مصر ، فكان سنتلدا حدثا جليلا شغل المصريين والشرقيين ، فأقام له نادى التجارة العليا حفلة تكريم في مسرح ترقية التمثيل العربى - مسرح حديقة الازبكية فيما بعد ، ومسرح جورج أبيض اليوم - في يوم ٣٠ يناير سنة ١٩٣٠ ، فوقف طلعت حرب الرئيس الفخرى للنادى ، ليقول :

« كنا قبل وصوله - أى صدقي - نشعر بنقص في استكمال ادواتنا القومية ، لا لعجز عن استكمالها ، ولكن لأسباب قهرية . وكنا نشعر بأن الأمم الأخرى اسبق منا في ميادين الطيران ، ونحن أحق بأن نجاريها في استعمال الفضاء ، كما تستعمله هى سواء بسواء . وكان يزيد فى المنا بهذا النقص ، ان الطيران واسطة سريعة للنقل التجارى يتقدم بسرعة هائلة ، ونحن مع هذا محرومون من حق الانتفاع بهذه الواسطة في جونا الصافي ، حتى ومحرومون من تحضير ابنائنا في مطارات خاصة بنا .

« أما وقد وصل الينا صدقي ، فان وصوله يعتبر فوزا للمصريين ، ودليلا ناهضا على امكان تكوين أمثاله من الطيارين المصريين ، وباعثا منشطا على تدليل الصعاب لانشاء اسراب من الطائرات المصرية ، لتسهيل النقل الجوى ، أسوة بما تقوم به الأمم الأخرى » .

ثم قدم اليه الف جنيه هدية من النادى ، وهو يقول له :

- هذه هدية كرمل مادی صغير لاعتراف الامة المصرية بما نلت من سبق الفضل ، في ميدان من ميادين الحياة الجديدة .

وظل الرجل وراء الصعاب يدللها الواحدة تلو الأخرى ، حتى صدر المرسوم الملكى بانشاء شركة مصر للطيران في ٧ مايو سنة ١٩٣٢ ، فكانت أول شركة من نوعها في الشرق الأوسط .

ومع هذا الجهد الشاق الذى يبذله ، والذى يرهق الشاب القوى ،
تراه يلبى دعوة الى حفلة تكريم فى مدينة الزقازيق فى يوم ٨ يونيو سنة ١٩٣٠
تكريما لرجل اشتهر باسرافه فى البر والاحسان ، هو عبد اللطيف حسنين
وهبه بك ، ولهذا كرمه اهله ، ودعوا طلعت حرب باعتباره شرقاويا مثله ،
فلبى الدعوة وهو لا يعرف الرجل ، ولكنه محب للخير ولفاعليه ، فوجب
عليه - فى رأيه - أن يسهم فى تكريمهم . قال فى تلك الحفلة :

« ليس أحب الى نفسى من أن أتكلم فى هذا المقام ، لان حضرة
عبد اللطيف بك حسنين وهبه ، الذى لم أتشرف بمعرفته الى اليوم ،
شخصية من شخصيات البر والاحسان ، النادرة المثال فى هذا الزمان .
فهو يعمل بغير اعلان عما يفعل ، أى انه يفعل للخير فى ذاته ، لا ليزهى
ياخاديت الناس فى أعماله ، ثم هو يعمل فى دائرة متنوعة من أعمال البر :
فهو قد أنشأ مدرستين ، وأنشأ دارا للطفل والأمومة ، ودارا للاسعاف ،
وملجأ لليتامى ، وملجأ لليتميات . ووقف شيئا من اطيانه وعماراته للانفاق
منها بصفة دائمة على مؤسساته الخيرية هذه ، مما يدل على أنه رجل حكيم
رقيق الشعور . فهو حكيم بما أنشأ من مدارس للتعليم مقدرا نفعها فى هذه
الحياة ، وبما وقف لها من أمان تأمينا لمستقبلها . وهو رقيق الشعور لانه
راعى أولى الضعف بالرعاية ، من الطفل الى الام الى اليتيم واليتيمة .
فبارك الله فى رجل يجمع بين حصافة العقل ورقة الشعور . . ولقد كان اعجابنا
به بناء على نبذة كتبت عنه فى صحيفة من صحفنا السيارة منذ ثلاث أو أربع
سنين ، فساقنى اعجابى به الى ارسال كتاب اليه اتنى فيه على عمله
ومجهوده ، فرد دأ جميلا ، وبذلك تعارفنا عن بعد » .

وهكذا يقدر الرجال الرجال

وفى افتتاح شركة مصر لغزل ونسيج القطن بالمحلة الكبرى - اعظم
شركات البنك واكبرها من نوعها فى الشرق الاوسط - فى ٢٣ مارس سنة
١٩٣١ ، فى حفل لم تشهد المؤسسات الصناعية ، بل والبلاد ، له مثيلا ،
يحضور الملك فؤاد - رحمه الله - خطب بين يديه فقال :

« قديما كان لجذكم الاعلى ، القدح المعلى فى احياء الصناعات
الاهلية ، ومن ضمنها الصناعات النسيجية ، حتى كانت وسط النسيج
منوزغة فى بلاد عديدة ، وكانت المحلة الكبرى من أهم هذه الأوساط ، ثم
استمر المغفور له والدكم حريصا على احياء ما اندرس من صناعات »

«تأييد ما يقى منها ، بدليل اشتراك مصر في عهده في المعارض الدولية .»
وعرضها فيها المنسوجات المصرية ، ومنها منسوجات المحلة القبرى
بالبات

« ومما يزيد سرورنا أن جلالتم تفتتحون اليوم مصنعا دار للنجارية
منه بضعة أسابيع ، فدلّت تجارب العمل فيه على نجاح الغزل في الجوى
المصرى ، وإن لا خوف مطلقا من فشله ، وعلى نجاح النسيج كما تدل عليه
منسوجات الشركة ، وإقبال الناس وتهافتهم عليها في الحال لجودة صنعها ،
نما جعل الشركة تفكر في تكبير المصنع لمضاعفة الانتاج

« .. والآن نتقدم الى جلالتم ، راجين باسم الله الرحمن الرحيم ،
وباسم جلالة ملكنا المعظم ، أن تتنازوا بافتتاح المصنع رسميا ، وأن
تتفضلوا فتشرفونا بزيارته ، وزيارة شقيقه الصغير ، مصنع القطن الطبى »

وافتح الملك المصنع وشقيقه الصغير ، وطاف بأقسام كل منهما . فلما
انتهت الزيارة أعرب عن إعجابه بما رأى وشاهد ، وهنا طلعت حرب بك
بإنجاحه المطرد في خدمة الأمة ، بإنشاء المصانع ، وتنفيذ المشروعات
المقيدة للوطن ، ثم قال له وهو يصفحه :

— « أنا ممتن يا طلعت باشا »

ثم صافحه مرة أخرى وقال له : « أنا متشكر كثير . مبروك يا طلعت
باشا »

فكان هذا النطق الملكى ، بمثابة انعام عليه برتبة الباشوية .

كان طلعت حرب أول من نبه الحكومة الى انشاء بنك صناعى يكون
عونا لأصحاب الصناعات ، فيقرضهم حتى لا يتوقف دولاى أعمالهم

كانت الحكومة تودع مليوناً أو يزيد قليلا من الجنيهات ، بنك
مصر (١) ، ينفق منها على هذه القروض التى يتقدم بطلباتها اليه أرباب
الصناعات ، فيقدمها اليهم بعد دراسة طلباتهم وتمحيصها ، على أن
لا يتجاوز الحد الأقصى للسلفة ألف جنيه يسدد على خمس سنوات بفائدة
قدرها ٦٪ . ولكن طلعت رأى أن هذه طريقة عرجاء ، وأولى بالصناعات

(١) كان أول مبلغ قررت وزارة المالية إيداعه بنك مصر ليقرض منه للصناعات الصغيرة
مئة ألف جنيه في منتصف عام ١٩٢٢

ودعمها وترقيتها والاخذ بيدها ، أن يكون لها بنك مستقل . ففى تقريره
منه الى وزير المالية فى عام ١٩٢٩ ، قال :

« اذا كانت رؤوس الأموال التى تحتاج اليها الصناعات من أهم
أسباب وجودها وحياتها ، فان تدبير الأموال اللازمة لها ، أول عمل من
أعمال التنظيم القومى لأحياء الصناعات الأهلية ، واسنادها للبقاء
والنجاح . . لهذا فان مصر حين تضع لها برنامجا اقتصاديا قوميا ، وحين
تحدد البرنامج الصناعى داخل هذا البرنامج ، وحين تعمل على تنفيذه
برنامجها الصناعى ، أو برنامجها الاقتصادى العام ، ينبغى ألا تعتمد إلا
على قواها الذاتية ، أى على قوى أبنائها المصريين

» ولهذا فان وجود البنك الصناعى المصرى ، امر واجب لتحقيق أى
برنامج قومى صناعى . والبنك الصناعى المصرى شريان يجب أن تجرى
فيه الأموال ، حتى يوزعها باقتداره الفنى على الحاجات الصناعية بقدر
وحساب »

ومما أذكره فى هذا الصدد ، ان المرحوم محمد السيد يسن ، منشئ
صناعة الزجاج فى مصر وفى الشرق الأوسط كله ، ومنشئ صناعة
الأوتوبيسات وغيرها من الصناعات القومية - وكنت أثرا عنده ويخصنى
بقدر كبير من تقديره واعزازه - قال لى فى معرض حديثه عن طلعت حرب
وتفاد بصيرته وشجاعته وقوته : انه لما ذهب الى البنك يطلب قرضا قدره
ثمانون الف جنيه لإنشاء مصنع للزجاج ، رأى قلم قضايا البنك أن الطالب
- أى محمد السيد يسن - لم يقدم الضمانات الكافية لهذا القرض الكبير
الضخم ، ولهذا رفض الطلب . وعلم طلعت بالأمر ، فأشبع المسؤولين عن
الرفض لوما وتقريبا ، وأبان لهم عما صنع محمد السيد يسن من خدمات
جليلة لأمته ، وأمر باعطائه القرض بلا ضمان . . قال محمد يسن : وكان
طلعت باشا يزورنى فى المصنع كل كام يوم ليطمئن الى سير العمل ، ولأى أتنى
كنت عند حسن ظنه . .

وفى مادبة العشاء التى أقيمت على البساخترة « النيل » فى يوم ١٥
يوليو سنة ١٩٣٤ ، وقد جمعت بين مصريين وأجانب ، بمناسبة إبحارها
فى أول رحلة لها الى أوروبا ، قال يخاطب المصريين :

« هذا اليوم يوم عيد ، أتيح فيه لعلم مصر الخفاق ، أن يرفرف
لأول مرة على « النيل » فوق البحار

« بالأمس ، سیرت الشركة - شركة مصر للملاحة البحرية وقد انشأها البنك - الباخرة « زمزم » لنقل الحجاج الى بيت الله الحرام ، وتسهيل الراحة لهم ، فأرضت الدين . واليوم تسير « النيل » لنقل حضراتكم الى ربوع اوربا ، فتصيبون من دينها ما ترجون من عافية ونضرة النعيم ، وترضى الشركة بذلك الدنيا ، كما أرضت الدين »

« وانا لترجوكم اذا وقعت أعينكم على أى قصور أو تقصير فى الخدمة ، أن تذكروا أنها أول رحلة ، وانا حديثون فى الصنعة ، ولكل بداية صعوبتها . كما نرجوكم أن تدلونا على كل ما تلاحظون ، حتى نصلح الخطأ ونقوم بالمعوج »

وفى يوم ٧ فبراير سنة ١٩٣٥ ، احتفل بتسيير الباخرة « كوثر » شقيقة « زمزم » الى جدة لنقل الحجاج ، وحضر الاحتفال الأمير عمر طوسون رحمه الله ، وتحدث طلعت باشا فقال :

- « كنا قد جهزنا « زمزم » بمسجد للصلاة ، واخترنا لها عالما يحاضر الحجاج فى أمور الدين وخاصة مناسك الحج ، كذلك فعلنا فى هذه الباخرة « كوثر » وفودناها بما اتسع له الجهد من أسباب الراحة والأمان . . . سيجد الحجاج على كلتا الباخرتين مكتبا لبنك مصر لتبديل العملة المصرية ، بالذهب أو بالريالات السعودية ، بما هو أرجح دائما لمصلحتهم . كما سيجدون أيضا فى كل باخرة محلا لبيع الاحرامات والبشاكير من صنع شركة مصر للغزل والنسيج بأثمان معتدلة . كذلك وفقنا الله الى أعمال أخرى فى جدة ومكة المكرمة والمدينة المنورة ، قصدنا بها مصلحة الحجاج وأمانهم واطمئنانهم ورضاهم »

حتى اذا حل يوم ٧ مايو سنة ١٩٣٥ ، احتفل البنك بانقضاء خمسة عشر عاما على تأسيسه ، احتفالا كبيرا فى فندق الكونتيننتال ، وشماركه احتفاله جميع الهيئات والمؤسسات . وكان خطيب الحفل رجل البنك - وهل هناك غيره ؟ - فقدم حسابا مفصلا عن أعمال البنك فى هذه الـ ١٥ سنة . بينا ما أنشأ من شركات ، وما أقام من مصانع ، وكيف نفذ البرنامج الذى اختطه لنفسه منذ انشائه ولم يحد عنه . وقال :

- « ان أمتنا التى عملت قديما للخلود ، وكتب لها البقاء فى سجل الأبد ، وتاريخ الإنسانية طفل وليد . . . أمتنا هذه ، ليس كثيرا عليها أن تحفظ على مر الدهور وتعاقب العصور ، هذا البنك الذى ولد ودوج

وشب ، في حجر نهضتها المباركة ، لتحفل بأعياده المختلفة عيداً بعد عيد .
 وليكون ابد الحياة مثابة للناس وأمناء ، يوالونه بالعطف والرعاية والاقبال .
 والتأييد ، ويواليهم دائماً بالخدمة الصادقة ، والنصيحة الخالصة ،
 ما استطاع الى ذلك سبيلاً . . ان بنك مصر يحتل المكان الأول بين البنوك
 التي ترد باسمها الاقطان في الاسكندرية . كما أصبح ، بعد البنك الاهلى
 المصرى ، بالنسبة لمقدار الودائع والامانات . . لقد بلغ عدد مساهميه في
 ٢١ ديسمبر سنة ١٩٣٤ ، ٩٣٥٦ مساهماً بعد أن كان ١٣٦ مساهماً في
 السنة الاولى . وبلغت قيمة الأرباح التي وزعت للمساهمين في مدى
 الخمسة عشر عاماً ، ٨١٤٩١٦ جنيهاً . خص السهم الواحد أربعة
 جنيهات و ٤٣٠ مليماً ، أى بنسبة ١١٠٪ من قيمة السهم الاسمية ، وهى
 أربعة جنيهات . . لقد بدأ بنك مصر بعشرين موظفاً في سنة ١٩٢٠ ،
 واصبحوا ٦١٦ في نهاية سنة ١٩٣٤ . وبلغ عدد الموظفين والعمال لشركات
 مصر في نهاية سنة ١٩٣٤ ، ١١٥٠ موظفاً و ١٦٠٠٠ عامل .

« لكم ان تسموا بنك مصر » « امجوبة مصر » . .

وخطب في الاحتفال احمد عبد الوهاب باشا وزير المالية ، فقال :
 - « لو ان بنك مصر كان معهداً مالياً كسائر المعاهد التي تجعل لمصلحة
 المساهمين المادية الاعتبار الأول . في كل تصرفاتها ، وتعنى قبل كل شيء بما
 يدخل جيوب أولئك المساهمين من ارباح سنوية ، لما وجد وزير المالية
 دافعاً كافياً لمشاطرة المتهجين بهذا العيد أفراحهم . أما وبنك مصر
 مؤسسة قومية لم تقف جهودها عند حد كسب الربح للمشاركين ، بل
 جمعت بين المصلحة الخاصة للمساهمين - وهم عدد وفير من مختلف
 طبقات الشعب - وبين المصلحة العامة ممثلة في متشعب نواحي النشاط
 الاقتصادى ، فانى أشعر بارتياح خاص اذ اشترك معكم في تقدير النتائج
 الاقتصادية الجلى التي أسفرت عنها جهود بنك مصر ومؤسسات بنك
 مصر ، مما كان له أفضل الأثر في نهضتنا الحديثة »

ومضى عبد الوهاب باشا - وكان من رجال الاقتصاد المصرى المعدودين ،
 وشغل منصب أول مراقب لحسابات البنك عقب انشائه - فيوه قومية
 البنك : « فهو لا يفرق بين حزب وحزب ، ولا بين طائفة وطائفة . . وكان
 له فضل بقاء كثير من الأسر الكريمة محتفظة بأرضها وعقارها أبان الأزمات
 الطاحنة التي تعرضت لها البلاد ، فلولاها للقيت كثيراً من الدل والحاجة ،
 دون ان يطلب عوناً من الحكومة ، ولو طلبه لأجيب لوقته »

لم نوه بما أسداه الى الوطن من مساهمة في حل مشكلة المتعلمين العاطلين ، فقد استوعب منهم الوفا كثيرة في عديد من مشروعاته .

وختم عبد الوهاب باشا كلمته بقوله : « . . ولكن عندي أن أعظم هذه الأعمال بركة وأبعدها على الزمان اثرا ، إنما هو فيما ضربه البنك للناس من مثل ، وما نصبه أمام أعينهم من قدوة : أن مجرد قيام هذا البنك ، ومضيه في طريق النجاح خمسة عشر عاما ، حجة ملموسة تعزز إيمان المصري بقدرته ، وتبديد ما كان يساوره من الشك في كفايته . فلو لم يكن لجماعة بنك مصر من الفضل على مواطنيهم غير هذا ، فحسبهم به وكفى »

ووقف المنافس الأكبر لبنك مصر ، السر ادوارد كوك - الانجليزى الجنسية - محافظ البنك الاهلى ، فشهد شهادة حق وصدق ، لم يسعه الا اعلانها أمام ذلك الحشد الذى ضم خيرة رجال مصر واعلامها . قال :

« أنتم تعلمون خيرا منى ما كانت عليه الأحوال هنا منذ خمسة عشر عاما ، فيما يتعلق باشتراك المصريين في أعمال البنوك وأعمال الصناعة » . وما هى عليه اليوم . فالفرق بين الاثنين ، هو العمل الذى اجتمعنا اليوم للاشادة بتمجيده . ولكن ليس هذا كل شيء . ففي بعض الأحيان يقسم الرجال الى فريقين : أحدهما من أصحاب الأحلام والمهمين والأنبياء ، والثانى من الرجال العمليين . ويندر جدا أن تتألف مجموعة من هذين الصنفين معا . ولكن لدينا مثل هذه المجموعة هنا ، في شخص طلعت حرب باشا الذى بث في عقول الشباب المصرى روح احترام النفس

« لقد شق طلعت حرب باشا طريقا جديدا ، وبهذا تسنى له القيام لبلاده بخدمات عديدة لم يوفق اليها كثيرون . أن المؤسسة التى أمثلها عليها واجبات وتبعات ، من نوع يختلف بعض الاختلاف ، ولكن في وسعنا انؤكد لولاة الامور في بنك مصر وشركائه ، حسن نيتنا ، بل وصدق رغبتنا القلبية في التعاون معه ، كل في دائرته ، للعمل في زيادة تقدم البلاد ورفاهيتها » .

وسيجيء في صفحات قادمة ما يثبت سوء نيته ، وصدق رغبتنا القلبية في القضاء على بنك مصر ، وعلى طلعت حرب منشئته

نعود الى الاحتفال العظيم

بعد السر ادوارد كوك ، وقف هنرى نوس بك رئيس اتحاد الصناعات . فقال : « ان بنك مصر جدير بالتكريم والثناء اللذين نوجههما اليه اليوم . فقد وسع الطريق لهذه النهضة » . وجقق الآمال المعلقة عليه ، فكان غفلة

مكلا بالنجاح .. فنحن اذن نتنى من صميم القلوب مستقبلا حسنا . وانى
باسم اتحاد الصناعات المصرى ، اشرب نخب المثل العظيم لهذه النهضة ،
حضرة صاحب السعادة محمد طلعت حرب باشا » .

واقترح عبد المجيد الرمالى - رحمه الله - عميد التجار المصريين ،
أن تقوم الأمة بواجبها ، « وما واجبها الا اقامة تمثال لزعيم النهضة
الاقتصادية ، يشهد بفضلها ، وينطق بعمله » ، ويبعث فى نفوس الأمة ، جيلا
بعد جيل ، حب العمل لخير الوطن واسعاده » .

واقترح كذلك أن يكون فى كل متجر تاجر ، صورة لهذا الزعيم العظيم
« الذى جعله الله هدى للمصريين ، ونورا وطنيا ملأ البلاد ثقة و يقينا ،
ورسولا اتخذ له الوطنية العملية ديننا ، وداعيا مصلحا تواصى بالحق
وتواصى بالصبر ، فنصره الله نصرا مبينا » .

انما أتيت بهذه الفقرات من كلمات هؤلاء الخطباء ، الذين كان لكل منهم
وزنه بين قبيله وعشيرته ، لذلك : كيف كان كبار القوم ينظرون الى هذا
الرجل الفريد فى نوعه ، النادر بين الرجال المخلصين .

فلما طلبت اليه مجلة « المصور » فى عددها الصادر فى ١٧ مايو سنة
١٩٣٥ ، ان يعبر لها عن تأثير هذه الحفلات فى القاهرة وفى الاسكندرية وفى
غيرهما من المدن ، بانقضاء الخمسة عشر عاما على تأسيس البنك ، قال
لندوبها :

« لقد قلنا كثيرا ، بل نكاد أن نكون قد قلنا كل شيء . واذا بقى
للينا ما نقوله ، فهو الشكر .. شكر الأمة كلها حكومة وشعبا ، أفرادا
وجماعات ، وضيوفنا كراما على مصر الخالدة . نشكر هؤلاء جميعا على ما
أبدوه من مظاهر الفرح العميق ، ومباهج البشر العظيم ، بمناسبة مرور
خمسة عشر عاما على تأسيس بنك مصر .

« وانه لشكر صادق تهتز به أعماق قلوبنا فى تأثر عميق . وانا نسأل
الله العلى القدير ، أن يولى بنك مصر السداد والتوفيق ، ليحقق مع شركائه
كل ما يستطيعه من آمال المواطنين .. ونرجو فوق هذا أن يرعى الله بتوفيقه
جميع المصريين » .

ذهب اليه المرحوم الأستاذ محمود أبو الفتح مندوب جريدة «الاهرام»
فى ذلك الاوان ، وصاحب جريدة « المصرى » من عام ١٩٣٦ ، عام انشائها ،

الى عام ١٩٥٤ ، عام مصادرتها وقتلها ، ليحدثه في خير الوسائل لتنمية
الصناعات المصرية ، فكان أهم ما قاله :

« من أساليب ترويج المصنوعات المصرية ، وضع تعريفية جمركية
بكيفية حامية لجميع الصناعات الأهلية ، وبكيفية مانعة استيراد أى
صنف من الأصناف ، عندما تكون صناعة معينة من الصناعات قادرة على
انتاج جميع مقطوعية البلاد من مصنوعات » الاهرام فى مارس سنة ١٩٣١ .

وهذا ما لجأ اليه طلعت حرب عندما غزت اليابان السوق المصرية
بمنسوجاتها ، بأسعار رخيصة قللت من رواج منسوجات شركة مصر للغزل
والنسيج ، مع أنها أجود من اليابانية . فأرسل الى وزير المالية - وكان
المرحوم اسماعيل صدقى باشا الى جانب رياسته الوزاره - الاستاذ احمد
نجيب سكرتير بنك التسليف الزراعى ومن أصدقاء البنك ومن خلصاء
صدقى باشا ايضا ، ليبلغه رسالة منه تتضمن استنجد الحكومه ، فان
انتاج مصانع المحلة فى حاجة الى انقاذ ، بعدما غمر الانتاج اليابانى السوق
بأسعار رخيصة .

فسأله صدقى باشا : وماذا تريدون ؟

قال احمد نجيب : حماية جمركية .

كانت زيارة رسول البنك لوزير المالية فى المساء ، فى الليلة نفسها
دما الوزير خبراء وزارته المختصين ، ودرسوا الموضوع ، واتفقوا على رفع
الرسوم الجمركية على المنسوجات اليابانية . وبقي الاتفاق سرا ، الى
الصباح ، فأصدر به الوزير قراره وأبلغه فى الحال الى مصلحة الجمارك ،
وذلك حتى لا يفيد منه مستغل .

فأرسل اليه طلعت حرب يشكره ، ويعرض عليه - كرد للجميل - أن
يكون عضوا فى مجلس ادارة الشركة ، فاعتذر لأنه عضو فى مجلس ادارة شركة
منافسة هى شركة الغزل الأهلية . فعرض عليه أن يكون عضوا فى مجلس
ادارة البنك ، فاعتذر لأنه عضو فى مجلس ادارة البنك الأهلى ، فألح عليه
طلعت فى طلب أى خدمة يؤديها له ، فقال صدقى :

- اذا كان لا بد منها ، فوظف لى ، ابراهيم سيد احمد ، من أقرباء
صدقى باشا ، فى الوظيفة التى تراها مناسبة له .

فعينه طلعت ، مديرا لشركة مصر للسياحة ، فلم ينجح ، فعزله ،
وأرسل الى صدقى باشا ليرشح له غيره ، فرشح له زوج ابنته ابراهيم
رشيد ، وكان شابا ذكيا طموحا ، رحمه الله .

ومع رفع الرسوم الجمركية المصرية على المنسوجات اليابانية ، ظلت تتدفق على الأسواق ، غير مبالية بهذا الاجراء الحاسم الجديد ، وأفضى المسيو « يواتيه » رئيس المعهد التجارى اليابانى بالقاهرة بحديث الى مندوب مجلة « روز اليوسف » فى ١٥ مارس سنة ١٩٣٥ ، قال فيه : « ان اليابان لا تنافس المصنوعات المصرية ولا الانجليزية ، بل تعطى الفقراء حاجاتهم بأثمان رخيصة »

فذهب المندوب الى طلعت باشا يساله رايه فى هذا . قال المندوب :
- « فقطب الباشا وجهه ، ولعت مقلناه ببريق الدكاء الخارق الذى لا يبرح محدثه يلمحه فى عينيه ، وفى وجهه المهيب ، وقال وهو يتميز من الغيظ :

- « ان فقراء المصريين الذين يتمسح بهم كل من لا يمت اليهم بسبب ، او تربطهم به صلة نسب ، يستجيرون بالانسانية من هذا الادعاء

« ان الفقير المصرى ، هو عمود الامة الفقري ، وعنصرها الالهى . وقد حفزتنا الانسانية الصادقة والوطنية الصحيحة ، لحمايته والدود عنه ، لان المصرى اولى برعاية اخيه المصرى . فاذا قال غير المصريين : نحن نعطى الفقراء حاجاتهم بأثمان رخيصة ، كان جوابنا على دعواهم : ارونا ماذا تقدمون للفقير ؟

« انتم تقدمون له القماش المصنوع من الخامات الواطئة الرديئة المنخفضة الثمن ، وتنسجونها بأيدي عمال مكدودين لا يتقاضون شيئا يمكن ان يعتبر اجرا ، حتى لقد قيل فى صدد وفرة اليد العاملة فى اليابان ورخصها ، ان الآباء يبيعون لأصحاب المصانع فلذات اكبادهم ، ليستخدموهم لزمننا معلوما ، لقاء حبات من الارز لا تقيم الأود ولا تحفظ الرmq ، لهذا تخرج المصنوعات من غير ان تتكلف شيئا يذكر ، يستحق ان يحسب له حساب

« هذا فضلا عن ان حكومة اليابان ، لا تبرح تتعهد مصانع بلادها بمختلف اساليب المعونة ، كخفضها العملة الى ما دون ربع قيمتها الأصلية ، ومدها بالمساعدات المالية العظيمة ، التى لا تقتصر الغاية المقصودة من بدلها على مجرد تشجيع الصناعات الأهلية ، بل ترمى الى قتل الصناعات فى البلدان الأخرى

« اما مصانع الشركات المصرية ، فهى لسوء الحظ ، أو قل لحسنه ، محظور عليها استعباد الأولاد فى مصانعها ، وهى لا ترضى ان تستخدم غير

القطن المصرى فى منتجاتها . أما مساعدة الحكومة اياها ، فمقبوضة على مجرد التشجيع ، وفى حدود ضيقة . ومع ذلك فان ثمن « المقطع » من البفتة اليابانية يبلغ فى السوق نحو ٤٥ قرشا ، بينما يزيد ثمن « المقطع » المصرى على ذلك قروشا معدودة ، وليست هذه الزيادة فى الثمن زيادة حقيقية ، اذا لاحظنا ان « المقطع » المصرى يتحمل ستة اضعاف ما يتحمله « المقطع » اليابانى ، بحيث يوفر « المقطع » الواحد على المستهلك ، شراء « مقاطع » اخرى من الصنف اليابانى

» وآية ذلك ما شاهده وزراء الدولة وعظماؤها بأعينهم يوم زيارتهم القريبة لمصانع شركة مصر للغزل والنسيج بالمحلة الكبرى ، من ان القماش اليابانى يبدأ بالتمزق اذا وصل احتماله الى درجة ٧٠ رطلا ، بينما لا يتمزق قماشنا المصرى الا بعد ان اتصل درجة احتماله ٤٢٠ رطلا . أى ان اليابان اذا قصدت حقا ان ترفع مصلحة الفقير المصرى ، كان لزاما عليها ان تعطيه ستة « مقاطع » من بفتتها ، بثمن ثوب واحد من بفتة المحلة ، ولكنها تتقاضى منه ٢٧٠ قرشا ثمن لبضاعة نبيعها نحن له بخمسين قرشا او بخمسة وخمسين قرشا . فاينا نرى الفقير ويحرص على راحته واسعاده ؟

» ومن العجيب ان جناب مدير المعهد التجارى اليابانى ، يدفع بمغالطته هذه تحت ستار الوعظ والارشاد ، فيقول : على المصريين ان يعملوا على خفض اثمان بضائعهم بتقليل تكاليف انتاجها ، قبل ان يحاربوا المصنوعات اليابانية الرخيصة ، ويكلفوا الفلاح والعامل والطبقات الفقيرة ، ما لا طاقة لهم بانفاقه ، فى سبيل شراء ضرورات حياتهم ، مما قد يؤدى الى هبوط مستوى المعيشة بينهم

» فهذا الوعظ للمصريين ، والعطف على الطبقات الفقيرة ، كلام له خبيء ودهان على وپر ، لا يستحق ان يلتفت اليه .

» ان الضريبة الآن هى ١٢ قرشا على « المقطع » اليابانى ، وينبغى ان ترفع الى ٢٥ قرشا على الأقل . فاذا رفعت الى هذا الحد ، أمكننا ان نبيع « مقطعا » بخمسة وخمسين قرشا او بستين قرشا ، ويكون الفرق بين ما سيبيع به « المقطع » المصرى ، بعد رفع الرسوم الجمركية ، وما يباع به « المقطع » اليابانى الآن ، نحو ١٥ قرشا ، « يفرق » على الفلاح قرشين فى الجلاية ، وهو فرق لا يذكر ، يوفره عن طريق عدم احتياجه لشراء جلاية كل شهر ، ويقتصد بذلك مبلغا يذكر ، فتزيد قدرته الشرائية ، ويعوض الحكومة الفرق البسيط الذى ستخسره من نقص الوارد

من اليابان ، عن طريق اقباله على ركوب سكة الحديد ، وارساله
الخطابات ، وغير ذلك من وسائل الايراد

« وليس يخيف مصر وعيد اليابان بالامتناع عن شراء قطنها العجيب
المنقطع النظر . ونحن نرد على انذار مدير المعهد الياباني ، بنفس العبارة
التي قالها في معرض الكلام عن تهديد الانجليز ايانا باستخدام قطن غير
مصرى وهى : ان الانجليز لا يستطيعون بحال الاستغناء عن القطن المصرى ،
الا اذا غيروا ادوات مصانعهم ، وهذا غير مستطاع . وليس للانجليز فضل في
استيراد قطنكم ، بدليل انهم اذا وجدوا قطنا يحل محله ، ما تأخروا لحظة
في استخدامه

« ونحن نسأل جنابه : هل لليابان فضل في استيراد قطننا ؟ وهل
تستمر على شرائه اذا وجدت قطنا في مثل جودته بثمن ارخص من ثمنه ؟
« انما يشتري اليابانيون قطننا ، لانه بثمن القطن الاميركى الرديء »
قال مندوب « ورزاليوسف » : وهنا اعتدل الباشا في جلسته ، وقال
جادا غاية الجد :

« ان في عنق المصريين جميعا لفرضا حتما يدعوهم دعوة الحق :
ان هلموا افتحوا الطريق واسعا ممهدا معبدا لازدهار الصناعات المصرية ،
بالاقبال على منتجات بلادكم ، لكى تصونوا ثروتكم . ان ابناءكم لن يجدوا
دواء للعطلة الا في دور الصناعة . ومصلحتنا الذاتية قبل عاطفتنا الوطنية ،
تحتم علينا تشجيع الصناعات المصرية ، اذا كان لنا كيان نخشى عليه التلف ،
وطن ندود عنه صادقين ، ونجاهد في سبيل مستقبله صادقين . ان علينا
جميعا ، شبانا وشيبا ، ورجالا ونساء ، ان نرفع علم الوطن ، ونجعل
مصلحة مصر اولا وقبل كل شيء ، وفوق كل اعتبار ، كما تفعل اليابان »
ارابت الى الرجل كيف يدفع بحرارة عن مصنوعات وطنه ؟

لقد استجابت الحكومة الى ما رأى ، فرفعت الرسوم الجمركية على
المنسوجات اليابانية ، وتالفت جمعيات وجماعات نادى الى نبذ كل ما هو
غير مصرى من المنسوجات انجليزية كان او يابانيا ، ونجحت الدعوة ، وبارت
هذه البضاعة الدخيلة الرديئة في الأسواق

في اواخر ابريل سنة ١٩٣١ ، ذهب اليه محرر مجلة « الهلال »
ليساله عن سبب نجاحه ، ثم نشر في عدد المجلة ، الذى صدر في اول مايو ،
ما دار بينهما ، فقال :

طلعت باشا : خير ان شاء الله

انا : جئت استطلع رأيكم في اهم العوامل التي يعزى اليها نجاحكم في الحياة ..

فلم يجب بكلمة ، وتناول قلما من الرصاص ، وكتب شيئا في مذكرة امامه ، فأخرجت من جيبى ورقة وقلما ، وتهيأت لتدوين ما عساه ان يدلني به الى

فقال : ماذا تهم ان تكتبه ؟

قلت : ما تفضلون به على ..

فقال : اترك لى وقتا افكر فيه . وانى اعدك بان اكتب جوابى بنفسى

فاستعجلته وقت تسلم رده ، فانظرنى الى اجل قريب
وها هو ما اوصانى ان انشره على الملا بحروفه :

« هذا سؤال تصعب الاجابة عنه لرجل من رجال الأعمال ، منصرفه جميع قواه الى انجاح الأعمال التى يقوم بها ، فهو يعمل ليصل الى النجاح ، دون ان يفكر فى سر النجاح . ويقوم بالواجب عليه صباح مساء ، ويتصرف فى الأمور التى تعرض عليه ، بما يعتقد انه فى صالح العمل الذى ينصرف اليه ، ومع هذا فانى احاول ان انتزع نفسى من وسط مشاغلى ، واخرج الى التفكير فى الاجابة عن سؤالكم :

« اول ما يتبادر الى الذهن هو انكم تقصدون بسؤالكم نجاح بنك مصر

» وجوابا عنه اقول : ان معظم السر فى نجاح بنك مصر ، يرجع الى ان الدعوة الى تأسيسه ، لم تقم على فكرة المصلحة لشخص او اشخاص معينين ، بل قامت على فكرة عامة ، تقضى بتأسيس بنك مصر ، بمساهمين مصريين ، وبرؤوس أموال مصرية ، وبإدارة مصرية محضة

« فلو ان الدعوة الى تأسيس بنك مصر قامت لمصلحة افراد معينين ، لاحتمل ان يقوم البنك ، ولكنه كان يقوم باعتبار انه بنك « شخصى » لهؤلاء الافراد ، وكان يعيش ما عاش هؤلاء الافراد متفقين . أما وبنك مصر قد تأسس على ان يساهم فيه المصريون بدون تمييز ، فقد عاش ويعيش بمشيئة الله تعالى وحراسته الصمدانية ، بنكا للجميع ، وبنكا قوميا بمعنى الكلمة ، بصرف النظر عن اشخاص القائمين بإدارته أو المشتركين فى أسهمه ، فان القائمين بإدارته افراد أعمارهم محدودة بأعمار الفرد ، والمساهمون

مصريون ، قد يكونون مساهمين اليوم ، ثم يكون غيرهم مساهمين بدلهم ،
في حياتهم أو بعد طول عمرهم ، ويبقى مع هذا بنك مصر عملا قوميا قائما
لمصلحة البلد ، ولمصلحة المصريين أجمعين

« فالصفة القومية التي بنى عليها البنك ، لا الصفة الشخصية ، هي
سر النجاح المطرد في أعماله ، وسر تعلق المصريين ، وحرصهم عليه ، واقبالهم
على معاملته وتأييده تمام التأييد

« ولهذا ، فاني أحب أن يفهم المصريون دائما ، أن بنك مصر عمل قومي
صالح في ذاته ، بصرف النظر عن أشخاص القثمين به ، وأن نجاح هذا العمل
هو المقصود بالذات أيضا . فالأشخاص زائلون ، والعمل الصالح باق ما بقي
في الأمة شعور بالحياة وستلزماتها الانشائية والدفاعية .

« والله الذي وفق الجميع الى النجاح الذي بلغه البنك حتى الآن ،
يزيدهم توفيقا لا بلاغ هذا العمل القومي النافع أقصى درجات النجاح »

لقد دعى طلعت حرب الى الحجاز ، دعاه المغفور له الملك عبد العزيز
بن سعود ، ليقترح ما يرى في الاقتصاد السعودي . ويومها أدخل النور
في مدينة « منى » بدينامو ، عندما رآها غارقة في الظلام ، وكانت لم تعرف
الكهرباء بعد ، وأرسل بعثة من الخبراء - بعد عودته الى القاهرة -
اقترحات انشاء مذبغة لجلود الذبائح التي تذهب هدرًا يوم النحر ...
وهذا ما يفكرون فيه الآن في المملكة العربية السعودية .

ودعاه يسر الهاشمي باشا رئيس وزراء العراق لزيارة بغداد ، لدرس
مشروع انشاء بنك وطني عراقي ، فلم يجد الوقت مناسبًا يومذاك
لهذا الانشاء .

وقبل أن أمضى في الحديث عن شخصه وما اشتهر به ، اسجل هنا
ميانا بأسماء الشركات التي أنشأها ، قبل رحيله الى لقاء ربه :

● في سنة ١٩٢٢ أسس شركة مطبعة مصر برأس مال قدره خمسة آلاف
جنيه ، وزيد فأصبح خمسين ألفا ، بعد اثنين وعشرين شهرا من تأسيس
البنك .

● في سنة ١٩٢٤ أسس شركة مصر لحليج الأقطان برأس مال قدره ثلاثون
ألف جنيه ، زيد فأصبح ٢٥٠ ألفا .

● في سنة ١٩٢٥ أسس شركة مصر للنقل والملاحة برأس مال قدره أربعون
ألف جنيه ، زيد فأصبح ١٥٠ ألفا .

- في سنة ١٩٢٥ أسس شركة مصر للتمثيل والسينما برأس مال قدره خمسة عشر ألف جنيه ، زيد فأصبح ٧٥ ألفا .
- في سنة ١٩٢٦ عمل على تمصير الشركة العقارية المصرية لتنمية زراعة قصب السكر بصفة خاصة ، واقتضى هذا التمصير تعديلا في الأغراض التي تؤديها .
- في سنة ١٩٢٧ أسس شركة مصر لنسيج الحرير برأس مال قدره عشرة آلاف جنيه ، زيد فأصبح ٢٥٠ ألفا .
- في سنة ١٩٢٧ أسس شركة مصر للفول والنسيج بالمحلة الكبرى برأس مال قدره ثلثمائة ألف جنيه ، زيد فأصبح مليوناً ، عدا سندات إصدارها الشركة على ثلاث دفعات تبلغ قيمتها مليوناً آخر من الجنيهات تستهلك في كل عام .
- في سنة ١٩٢٧ أسس شركة مصر لمصايد الأسماك برأس مال قدره عشرون ألف جنيه ، زيد فأصبح ٧٥ ألفا .
- في سنة ١٩٢٧ أسس شركة مصر للكتان برأس مال قدره عشرة آلاف جنيه ، زيد الى ٤٥ ألفا .
- في سنة ١٩٣٠ أسس شركة مصر لتصدير الأقطان برأس مال قدره مائة وعشرون ألف جنيه ، زيد فأصبح ١٦٠ ألفا .
- في سنة ١٩٣٢ أسس شركة مصر للطيران برأس مال قدره عشرون ألف جنيه زيد الى ٨٠ ألفا .
- في سنة ١٩٣٢ أسس شركة بيع المصنوعات المصرية برأس مال قدره خمسة آلاف جنيه ، زيد فأصبح ٨٠ ألفا .
- في سنة ١٩٣٤ أسس شركة مصر للتأمين برأس مال قدره مائتا ألف جنيه .
- في سنة ١٩٣٤ أسس شركة مصر للملاحة البحرية برأس مال قدره مائة ألف جنيه ، زيد فأصبح ٢٠٠ ألف .
- في سنة ١٩٣٤ أسس شركة مصر للسياحة برأس مال قدره سبعة آلاف جنيه .
- في سنة ١٩٣٤ أسس الشركة المصرية لدباغة وصناعة الجلود برأس مال قدره خمسة آلاف جنيه ، زيد فأصبح ٥٠ ألفا .

● في سنة ١٩٣٨ أسس شركة مصر للغزل والنسيج الرفيع بكفر الدوار برأس مال قدره مائتان وخمسون ألف جنيه ، زيد فأصبح نصف مليون .

● في سنة ١٩٣٨ أسس شركة مصر للمناجم والمحاجر برأس مال قدره اربعون ألف جنيه .

● في سنة ١٩٣٨ أسس شركة مصر لصناعة وتجارة الزيوت برأس مال قدره ثلاثون ألف جنيه .

وقد كانت وسيلته في انشاء هذه الشركات العديدة التي أسسها في هذه المدة القصيرة - من ١٩٢٠ الى ١٩٣٨ - أن يقتطع من أرباح البنك السنوية جزءا محدودا يظهر في ميزانية كل عام تحت باب « مال مخصص لتأسيس او تنمية شركات مصرية صناعية وتجارية » يساهم به في رأس مال الشركة بمقدار يكفل له الاشراف على سياستها ، ويسهم المواطنون في الباقي . وقد ذكر هذا في تقريره السنوي الى الجمعية العمومية العادية للبنك في ديسمبر من عام ١٩٢٣ ، فقال : « ان البنك رأى درس ما يفكر فيه أو يقدم اليه من المشروعات النافعة ، وتأسيس شركات بما يستطيع القيام به منها ، بالاشتراك مع الفيورين من مواطنيه الذين يرضون أن يقرضوا بلادهم قرضا حسنا ، ولا يتعجلوا الثمرة ، وما يكتب به البنك يؤخذ من أرباحه بتخصيص مال خاص لذلك يستقطع سنويا من أرباح كل سنة حسب نتيجتها . وهذا هو أحسن خدمة تقدم للبلاد ، حتى اذا نجحت هذه المشروعات - وهي بعون الله ناجحة - تقدم بها الى الجمهور لibtاع سهومها »

ولعله من المعيند ان أسجل هنا انه ، رحمة الله ، حينما تحدث في خطبته في يوم الاحتفال بانقضاء خمسة عشر عاما على انشاء البنك ، أوضح لمستمعيه « الحلقات » التي ربطت هذه الشركات ببعضها بعضا فقال :

- « لعلكم لاحظتم ونحن نسرّد لكم شركات مصر ، ان هذه الشركات تكون « حلقات » متصلا بعضها ببعض ، دون أن يكون تأسيسها اعتباطا » فالمطبعة والمكتبة والشركة المصرية المساهمة لصناعة الورق - وفي النية انشاؤها - حلقة .

« وللقطن حلقة تتمثل في الحلج والنقل والتصدير والتأمين والغزل والنسيج . »

« ويتصل بحلقة القطن أيضا حلقات الحرير والكتان . »

« ومن النقل تكونت حلقة بين النقل في النهر ، والنقل في البحر ، والنقل في الجو ، كما اتصل بهذه الحلقة ، مسألة السياحة

« ومن اتصّلنا بالبحر ، نشأت حلقة أخرى ، هي « حلقة السمك » ، وما خرج منها من صناعة أزرار الصدف

« ثم الحلقة التي تربط جميع الحلقات ، وتديع عنها كل ما تم اذاعته ، ونعنى بها حلقة السينما والدعاية بها .

« ثم ان لهذه الشركات التي مر ذكرها ، منتجات طيبة ، يصح ، بل يجب ان تكون في متناول جميع المصريين وغيرهم ، ففكر بعض كبار المصريين في ذلك ، واتفقت كلمتهم على تأسيس شركة بيع المصنوعات المصرية .

« وقد نجحت هذه الشركة بفضلها تعالى ، وتوالى انشاء فروعها بالاقاليم مما دل على أن منتجات مصر ، قد حظيت في السوق بالاقبال الشديد » .

نعم ، ان بعض هذه الشركات قد تعثر وسقط في الطريق ، ولكن الباقي منها ، مما تفخر به مصر وتباهى ، وفي مقدمتها شركة مصر للفلز والنسيج بالمحلة الكبرى ، وشركة مصر لنسيج الحرير بكفر الدوار ، فان انتاجهما ينافس كثيرا من الانتاج الغربى ، كالسويسرى والفرنسى والايطالى واليابانى .

لقد كان بنك مصر هو الرائد الاول في مصر في مجال التصنيع بما انشأه من مصانع وشركات لصناعات شتى . وما أتمه في خلال العشرين عاما الاولى من حياته ، يعد من المنجزات الاقتصادية القريبة من الخيال ، بل كان انشاء البنك نفسه خطوة عملية في تمصير الجهاز المصرفى الذى لم يتم الا بالقانون رقم ٢٢ الصادر في ١٤ يناير سنة ١٩٥٧ ، وقد بدأ بتمصير البنك الاهلى .

ولقد اخذ بعضهم على طلعت حرب ، هذا الاكثار من الشركات ، فرد عليهم بقوله :

« قد يكون هناك بعض الذين يخشون هذه السرعة التي جرى عليها البنك في تأسيس مشروعاته . ولكن أمثال هؤلاء لا يلبثون أن يقتنعوا بان استمرار تطفل الأمة على موائد غيرها ، يعرض كرامتها للتجريح » .

فالرجل ، كان همه الاول ، أمته وعزها ومجدها ، حتى تصبح دولة راقية تأخذ مكانها في صف الدول الراقية الاخيرة ، غير ناظر الى مجد شخصى ، او ان يتحدث عنه الناس في مجالسهم وعن مشروعاته . . أبداً ، لقد ظل السنوات الخمس الاولى يعمل لوجه الله ، لم يقبض راتبا ، وكان

معتزما السير في طريقه الفريب هذا ، لولا أن المساهمين في اجتماع جمعيتهم العمومية العادى لسنتهم السادسة ، أرغموه على أن يحدد لنفسه راتبا ، فنزل على رغبتهم ، وترك لمجلس الإدارة تحديد هذا الراتب .

الرجل الذى ينزل لفلاحيه عن أرضه ، فيبيعها لهم بأقساط يسيرة حتى يشعروا بالأمان والطمأنينة ، وحتى يخلصوا في فلاحه الأرض لخيرهم ولخير أولادهم ، لا ينظر الى مجد شخصى ، انما هو ينظر الى الخير ، ذاكر الله في كل ما يعمل ويقدم عليه .

هذا الرجل الذى قرأت سيرته الحافلة هذه في الصفحات السابقة ، الجاته الوزارة في عام ١٩٣٩ التى التنازل عن عرش هذه المملكة التى أسسها وتعب في تشييدها . . ففى ٢ سبتمبر من ذلك العام أعلنت الحرب العالمية الثانية ، فتولى الناس الفرع والهلع ، وهرعوا الى البنوك ، ومنها بنك مصر ، يسحبون ودائعهم ومدخراتهم ، وهم في حالة من الخوف لم يعودوا يذكرون معها الا أموالهم التى أودعوها هذه البنوك .

ولم يستطع بنك مصر ان يعيد الى بعضهم مدخراته ، لسبب هام ، كان حلقة من سلسلة مؤامرة ، استهدفت القضاء على طلعت حرب ، وعلى البنك معا ، ومع الأسف كانت وزارة المالية فى الحكومة القائمة يوفداك شريكة فى هذه المؤامرة الاستعمارية . ذلك انها أوعزت الى صندوق توفير البريد الحكومى بسحب أمواله من البنك ، وان يركز سحبه على هذا البنك وحده ، دون البنوك الأخرى ، وله فيها أموال وودائع تزيد اضعافا مضاعفة على ما لدى بنك مصر . ثم سحبت الحكومة أيضا جميع وداائعها من البنك ، فوقف عاجزا أمام هذا الحصار الذى ضيق عليه ، فشدد عليه الخناق . فلم يجد بدا من طلب الاقتراض من البنك الأهلى « المصرى » ، مقدما ضمانات للقرض تعد من أقوى ما يمكن تقديمه فى مثل هذه الحالة ، وفى مثل ذلك الآوان ، وهو محفظته التى تضم سندات من الدين الموحد والممتاز ، وأوراقا مالية أخرى هامة ، منها أوراق شركات البنك . . فرفض محافظ البنك الأهلى « المصرى » الانجليزى الجنسية ، طلب القرض بشدة وكبرياء ، وكان رفضه هذا ، عملا سلبيا غير مشرف ، مخالفا لابسط قواعد ومبادئ العرف المصرفى . ولم يستغرب هذا الرفض من الرجل ، فهو ينفذ سياسة استعمارية ميطرة على سياسته المالية ، وهى سياسة سداها ولحمتها القضاء على كل عمل مصرى ناهض وناجح .

لما الذى يستغرب حقا ، فهو ان تقف الحكومة القائمة يومها ووزير ماليتها
موقفاً أنكى وأشد من موقف الرجل الانجليزى . فقد رفض الوزير وقف سحب
ودائع وأموال صندوق توفير البريد ، أو ضمان الحكومة لودائع الأهلين
ولدخراتهم لدى البنك .

لقد حمل الرجل العظيم نفسه وذهب الى وزير المالية حسين سرى
باشا (١) فقال له :

« اننا لا نرجو من الحكومة الا واحداً من ثلاثة أمور : اما ان تصدر
بيانا ينشر في الصحف بضمانها لودائع الناس لدى البنك ، أو ان تحمل البنك
الاهلى على أن يقرضنا مقابل « المحفظة » كضمان للقرض ، أو ان تأمر بوقف
سحب ودائع صندوق توفير البريد .

قال سرى باشا : بشرط واحد . .

فسأله طلعت باشا بلهفة : وما هو ؟

قال سرى باشا : ان تترك البنك . . .

قال طلعت باشا على الفور : من الآن ، ما دام فى تركى حياة للبنك ،
فلأذهب انا ، وليعش البنك .

ثم قال سرى باشا بلهجة التقريع : مصانع المحلة الكبرى ، أى ضرورة
ملحة الجأت الى اقامتها ، وتنفق على تشييدها هذا المال الطائل ؟

فقال طلعت باشا متهمكها وساخرا ومؤدبا : تندد الآن بمصانع المحلة ، وقد
كنت تعمل مستشارا هندسيا لها بستمائة جنيه فى السنة ؟ لماذا قبلت العمل
بها ما دامت فى نظرك قد قامت فى غير ضرورة ؟

ثم وقف وتهيأ للانصراف ، بعد أن زاد فى تقريع الوزير سرى باشا ،
قائلا :

(١) ذكر الدكتور محمود متولى فى كتابه « الاصول التاريخية للراسمالية المعربة
وتطورها » وفى الصفحة ٤٠ منه ان طلعت حرب ذهب الى وزير المالية عبد الحميد سليمان
باشا . والصحيح ان وزيرها كان حسين سرى باشا ، لان وزارة على ماهر باشا التى كان
سرى باشا وزيرا للمالية ليها ، ألغت فى ١٨ أغسطس سنة ١٩٣٨ واستقلت فى ٢٣ يونيو
سنة ١٩٤٠ ، لخلفتها وزارة حسين صبرى باشا من ٢٧ يونيو سنة ١٩٤٠ الى ١٤ نوفمبر
من السنة نفسها ، وفيها كان عبد الحميد سليمان باشا وزيرا للمالية .

ومقابلة طلعت حرب باشا لوزير المالية ، كانت فى سبتمبر سنة ١٩٣٩ ، أى حينما
كان سرى باشا وزيرا لها فى وزارة على ماهر باشا

— يا حسين باشا ، أنت ما تزال صغيرا ، وعندما تتقدم بك السن ،
وتكبر . وتكبر مصانع المحلة ، ستعرف قيمتها .

وأدار ظهره لمحدثه السقيم ، وانصرف دون أن يجيبه .

« فلأذهب أنا وليعيش البنك » ، كلام لا يقوله الا طلعت حرب ، فالبنك
هو حياته ، وبحياته يحيا . هو قلبه الذى يعيش به ، ما دام ينبض ويسمع
دقاته منتظمة لا اضطراب فيها ولا اختلال . . انه كل شيء فى دنياه ، هذا
الصرح الذى شيده ، عز عليه أن يتهدم ، فقدم نفيه قربانا ليعيش . .

فما أعظم الرجل ! وما أعظم ما صنع !

كان هذا الحوار المؤسف ، قبل ظهر يوم ١٤ سبتمبر سنة ١٩٣٩ ، أى .
بعد أقل من اسبوعين من نشوب الحرب ، ذهب الرجل بعده الى مكتبه فى
البنك ، ودعا أعضاء مجلس الإدارة الى اجتماع « عاجل وهام » ، فهرع
الأعضاء وهم لا يعلمون من الامر شيئا . . واذا بهم يفاجأون به يقدم اليهم
استقالته ، بعد ما روى لهم ما جرى للبنك منذ بدء أزمة سحب المدخرات ،
ثم محاولته انقاذ الموقف مع وزير المالية ، فذهبت المحاولة فى الهواء . .
فحاولوا ان يشنوه عن عزمه ، فأبى . . وغادر قاعة الاجتماع ، وفى أعينهم
دموع ناطقة بالحسرة والأسى ، على تنازل الملك عن عرشه هكذا ببساطة تامة ،
مؤثرا حياة البنك على حياته . . ووصل الرجل الى داره ، راضيا عن نفسه .
وعما صنع .

كانت هناك فئة حاقدة على طلعت حرب لأسباب خاصة لم تبدها .
ألا بعد رحيله ، أهمها انه كان يعمل دائما على كشف تلاعبها باموال
الشعب ، ومبادئه فى جوهرها تتعارض — وبشدة — مع مبادئ السيطرة
والاستغلال التى كانت هذه الفئة تسعى الى دعمها . هذا من ناحية ،
ومن ناحية اخرى كان الاستعمار يحس بخطورة اتجاه بنك مصر نحو
تصنيع البلاد ، وما يترتب على هذا من تحرير مصر اقتصاديا ، وازدياد
قوتها فى الوقوف امام رغباته وأهوائه ، ومن ناحية ثالثة كان هناك عملاء
الانجليز من الحكومات التابعة للدين يستمدون وجودهم ووساطاتهم من
اتطوائهم تحت جناح الاستعمار ، وقد كان هؤلاء يقومون بتنفيذ رغبات
سادتهم الانجليز دون وازع من ضمير ، أو صحوه تدعوهم الى النظر بعين
الاعتبار الى صالح الاقتصاد القومى (١)

(١) « التطور الاقتصادى فى مصر » للاستاذ محمد رشدى رئيس مجلس إدارة بنك مصر

السابق رحمه الله — ج — ٢ — ص ٤٦ .

ولا انسى هنا ان اذكر ان المرحوم الاستاذ محمد رشدي حينما كان
مديرا للبنك ، وقبل ان يرأس مجلس ادارته ، في سنة ١٩٤٩ ، ألقى محاضرة
في قاعة ايوارت التذكارية بدار الجامعة الأميركية بالقاهرة ، عن بنك مصر ،
كشف فيها عن السر الرهيب في هذه الازمة المفتعلة التي دبرت للبنك ولمنشئه ،
فاذا به عمل وطني جليل أراد طلعت حرب ان يقوم البنك به ، فتصدي
له البنك الاهلي ومحافظه الانجليزى ، يعون - مع الأسف الشديد - من
الحاكم المصرى . اما ذلك العمل الوطنى الجليل الذى اراده ، فهو ان
يتولى بنك مصر طبع اوراق النقد المصرى ، بدلا من البنك الاهلى المصرى
اسما الانجليزى فعلا .

اعود الى رجلنا العظيم لاقول انه بعد استقالته ، بدأت التحقيقات في
سير اعمال البنك في اثناء تولية ادارته ، فاذا به سجل مشرف له . وظلت
التحقيقات الى اوائل عام ١٩٤١ ، اذ عرض موضوع دعم البنك على البرلمان
بمجلسيه - الشيوخ والنواب - في هيئة مؤتمر ، فعقد خمس جلسات
سرية في ٢٨ مايو و ٢ و ٣ و ٤ و ٩ يونيو من العام نفسه . وبعد مناقشات
عقيمة ، صدر قانون الدعم ، وهو المعروف بقانون رقم ٤٠ لسنة ١٩٤١
ووضع مشروعه وزير المالية اذ ذاك المرحوم الدكتور عبد الحميد بدوى .
ياشا ، وقد جاء في مستهله :

« نحن فاروق الاول ملك مصر »

« قرر مجلس الشيوخ ومجلس النواب القانون الآتى نصه ، وقد
صدقنا عليه واصدرناه :

« المادة الاولى : عملا على اداء كفالة الحكومة لأصحاب الودائع بينك
مصر ، تنفيذا لقرار البرلمان في ٢٨ مارس سنة ١٩٤٠ ، وعلى تحقيق
الاغراض التى رسمها القرار المذكور ، يؤذن للحكومة ان تأخذ من الاحتياطى
العام :

(١) مبلغ ١٠٠٠٠٠٠٠٠ جنيها ، وواردا في الاحتياطى المحبوس باسم
« اموال مخصصة للسلف الصناعية وسلف الجمعيات التعاونية » ويخصص
لإلغاء البند الوارد بنفس الاسم وببنفس المبلغ في خصوم بنك مصر ، وذلك
في حسابه الختامى عن السنة التى انتهت في ٣١ ديسمبر سنة ١٩٤٠ .

(ب) بسندات من دين مصر الموحد والممتاز قيمتها الحقيقية ٧٧٩٠٥٥٠٠٠
جنيها ، تحول لحساب توفير البريد ، لإلغاء مبلغ معادل من بند وارد في

مخصص بنك مصر باسم « صندوق توفير البريد » ، وذلك في حسابه الختامي .
عن السنة التي انتهت في ٣١ ديسمبر سنة ١٩٤٠ .

« ويتولى البنك لحساب الحكومة ادارة بنود الرصيد التي كانت مسجلة
في الفاء ديونها ، وتقسم بين الحكومة والبنك ، المبالغ التي يتم تحصيلها
عن البنود المذكورة ، زادة على التقدير الذي قدرت به في الميزانية التي
اعتمدت اساسا لهذه التسوية ، بقدر ثلاثة ارباع للحكومة ، والربع
للبنك .

« المادة الثانية » علاوة على اعادة تنظيم بنك مصر وفقا لقرار ٢٨
مارس سنة ١٩٤٠ المتقدم ذكره ، تتخذ الاجراءات الاتي بيانها ، ويعدل
طبقا لذلك نظام شركات بنك مصر ، وشركات مصر التابعة له :

- ١ - يظل رأس مال البنك بقيمته الأصلية ٥٠٠.٠٠٠.٠٠٠ ر.ا.جنيه .
- ٢ - تنشأ ألف حصة تأسيس لا تحدد لها قيمة ، وتسلم الى الحكومة ،
على أن تكون ملكا خاصا لها ، مقابل تدخلها المالي لتمهيد البنك ، ويجوز
بالاتفاق بين الحكومة والبنك ، أن تقسم الحصة الى عشرة اجزاء ، على
الاتباع هذه الحصص الا للمصريين .
- ٣ - يعين مندوب للحكومة لدى البنك ، تكون اختصاصاته بوجه عام ،
مراقبة تنفيذ احكام هذا القانون ، والقرارات والترتيبات التي تتخذ
تنفيذا له ولنظام البنك .
- ٤ - يعرض انتداب مجلس ادارة البنك لعضو أو اكثر من اعضاءه ،
تلبت في المسائل التي يعينها ، على مجلس الوزراء للتصديق عليه .
- ومن الشروط التي فرضتها الحكومة على البنك لعلاج أزمة ما كانت
تحدث لو أنها لم تشترك مع الاستثمار في احوالها :

- ١ - تصفية ما تجمع لدى البنك من اراض وعقارات .
- ٢ - عدم قيام البنك بمنشآت جديدة في المستقبل ، وعدم التوسع
في المنشآت القائمة ، والعمل على ضم المتجانس منها بعضه الى بعض ،
أو الى شركات اخرى من نوعها ، وتصفية ما لا أمل في نجاحه منها .
- ٣ - انتخاب خبراء محاسبين معروفين مصرح لهم بالاشتغال بالمحاسبة
لمراجعة حسابات البنك وشركائه .

ومن العجيب والغريب معا ، أن يكون هؤلاء المحاسبون ، من الإنجليز ، من موظفي البنك الأهلي ، وبرئاسة محافظه السرايدوارد كوك ، عدو بنك مصر وعدو طلعت حرب من قبل . لقد وضعوا تقريرهم زاعمين فيه أن هناك ٦٢٥٥٢٨ جنيهها خسائر محققة في ميزانية البنك حتى نهاية سنة ١٩٤٠ ! واقترحت تكوين احتياطي يشمل هذه الخسارة ، وخسارة أخرى محتملة ، مقدارها ٣٥٦٥٩٥٦ ر. ٣٥٦٥٩٥٦ جنيهها ، هو المبلغ الباقي من الاحتياطي الذي اقترحوه وقدره ٤٨٤١٩١١ ر. ٤٨٤١٩١١ جنيهها .

أنا لست بصدد نفى هذا الزعم المفترى على البنك ، وعلى إدارته في عهد طلعت حرب ، لتشويهه وتلطيف سمعته بالسوء ، ولا بصدد تسجيل أن البنك وزع أرباحا على المساهمين بعد سنتين من هذا الدعم ، ولا بصدد تقرير أن بنك مصر كان هو البنك الوحيد في العالم الذي بلغ احتياطيه في عام ١٩٥٠ سنة أمثال رأس ماله ، كما جاء في نشرة البنوك الرسمية العالمية الصادرة في تلك السنة ، أي ستة ملايين جنيه ، فقد كان رأس ماله مليون جنيه ، فرفع البنك رأس ماله إلى مليونين ، حتى لا يكون الفرد العلم في هذه المزية الفريدة التي حققها وحده ، بفضل القواعد التي أرساها في إدارته طلعت حرب ، لكنني مثبت هنا فقرات من محاضرة القاها الدكتور حافظ عفيفي باشا ، خليفة طلعت حرب في إدارة البنك عقب صدور قانون الدعم ، في ٢٤ يوليو سنة ١٩٤١ ، قال :

... لست أريد أن أطيل القول في مدى الأثر الذي أحدثه إنشاء بنك مصر ومؤسساته في البلاد ، فيكفي أن أشير باختصار إلى الحقائق التالية :

- ١ - أن هذه المؤسسة قامت منذ إنشائها بمهمة تعليمية كان لها شأن كبير في حياة البلاد التجارية والمالية والاقتصادية ، إذ قد أتاحت الفرصة لآلاف الشبان المتعلمين ، وعشرات الآلاف من العمال ، للتدريب بطريقة عملية ، على أعمال جديدة لم يألّفوها من قبل

- ٢ - أن عدد موظفي البنك وشركائه يبلغ نحو ثلاثة آلاف موظف مصري ، وأن عدد العمال في هذه الشركات يبلغ اثنين وثلاثين ألف عامل . وعلى ذلك تعمل هذه المؤسسات أكثر من ٣٥ ألفا يتناولون مرتبات سنوية تزيد على المليون من الجنيهات .

- ٣ - أن البنك قد ساعد مساعدا قيمة على تحسين ميزان مصر التجاري ، بما أسسه من منشآت صناعية ، تنتج مصنوعات كانت تستورد كلها من الخارج

٤ - ان مقدار ما يدفعه بنك مصر وشركاته الى الحكومة من الضرائب المباشرة وغير المباشرة ، ومن الرسوم الجمركية وغيرها ، لا تقل قيمته عن ٤٠٠ ألف جنيه سنويا (١) .

هل كان حسين سرى باشا حينما نفخ أوداجه ، وطلب الى طلعت حرب أن يتنحى عن البنك كشرط لدعمه ، على صواب فيما دبر وفيما صنع لا

الرد على هذا كامن في خطاب القاه الدكتور حافظ عفيفى باشا أيضا في ١٣ أغسطس سنة ١٩٤٤ ، في مناسبة الاحتفال بذكرى مؤسس البنك ، فقد قال :

- « ان أشد الأسباب فيما أصاب البنك ، راجع الى اضطراب الحالة الدولية وقتئذ اضطرابا شديدا استمر مدة طويلة من الزمن ، وكان يندر بوقوع حرب كبرى ، فتهافت الناس على سحب ودائعهم .. حتى قبل حصول الكارثة - بصورة هينة في اول الأمر ، ولكنها انتهت بعنف شديد ، بسبب ما استولى على الناس من الهلع والجزع ، وتوقعهم وصول الحرب الى بلادهم - ولم يكن في استطاعة طلعت حرب ولا غيره أن يدركوا مثل هذا الشر . على أن ما أصاب بنك مصر ، قد أصاب من قبل شركات كثيرة غيره ، بل ان ما أصابه في الواقع اقل بكثير مما حدث لمنشآت عديدة أخرى في أوروبا وأمريكا ، نتيجة لمثل هذه الأزمات او لأخف منها . ومن الخير أن يعرف الجميع ان هذه الأزمة التي عاناها بنك مصر ، لم يكن مرجعها عيوبها الأساسية تتصل بتكوينه او نظامه او بعدم خبرة القائمين بأمره او بسير العمل فيه ، وانما ترجع الى ما قدمنا من أزمة سياسية عالمية خطيرة ، وإلى عمليات كثيرة قام بها البنك لأصحاب الأملاك الزراعية تكبد فيها خسائر كبيرة ، نتيجة لقوانين التسويات العقارية المختلفة » .

فاذا عدنا الآثار السيئة والضارة التي أصابت اقتصاد مصر في الصميم ، من جراء هذه الأزمة أو المؤامرة ، وجدناها بالغة الخطورة والأهمية ، فقد هدفت أولا الى زعزعة الثقة في شخص طلعت حرب ، ثم في الصرح الاقتصادي الكبير الذي أنشأه ، باعتباره مركز الثقل في الاقتصاد القومي ... هذا الى أثر خطير جدا ، هو عرقلة أي نمو صناعي ، والقضاء على أهداف البنك في المشاركة في تصنيع مصر ، فان البنك لم يقم بأي مشروع صناعي حتى عام ١٩٥٢ ، باستثناء شركة مصر للحريز الصناعي التي

(١) المصدر السابق - ج ٢ - ص ٤٢

أنشأها في سنة ١٩٤٦ ، في حين أننا نجد البنك قد أسس خمس شركات في عام ١٩٣٨ وحده ، بل أسس في أقل من عشرين عاما ، من الشركات ، ما كان يمكن أن يؤسس في أقل من نصف قرن من الزمان كما قلت من قبل .

اثر خطير أيضا ، هو تشتيت الأموال الطائلة التي تجمعت لديه بعد الحرب العالمية الثانية وما تلاها من سنوات ، وقد كان ممكنا استغلالها في التصنيع ، لو أن البنك كان حرا وماضيا في سياسته التي كان ينتهجها في استثمار مثل هذه الأموال . ولكنه كان ممنوعا - بأمر الحكومة كما قرأت في صفحة سابقة - من القيام بمشروعات من أى نوع كان . . . أخيرا ، ذلك الفراغ الكبير الذي خلقته قيود الحكومة على استثمارات بنك مصر ، فاستطاع حفنة من الانتهازيين والمتصرين ، الدخول في ميدان الأعمال الاقتصادية ، غير ناظرين إلا لمصالحهم الخاصة ، دون اهتمام بمصالح البلاد (١)

هذا إلى أن ما ساهمت به الحكومة لدعم البنك وهو مبلغ ٢٤٠.٧٤٤.٣ جنيه ، لا يزيد على كونه ودائع لها في ذمته ، أو لصندوق توفير البريد الموجودة فعلا بجانب الخصوم . ومعنى هذا أن مساهمة الحكومة في «الدعم» كانت عبارة عن « قيود حسابية » - في عرف خبراء البنوك - أى أن البنك نتيجة لقانون الدعم ، لم يتلق أية أموال سائلة جديدة أضيفت إلى موارده

أما وقد عرفت الحكومة التي ائتمرت مع البنك الأهلى على طلعت حرب وعلى بنك مصر ، فوجب على أن أذكر لك لمحة في أسطر عن هذا البنك الذي ظل مسيطرا على اقتصاد البلاد نحو ستين عاما .

* * *

انه انشئ بأمر عال في ٢٥ يونيو سنة ١٨٩٨ ، وبالرغم من انه اعتبر « شركة مساهمة مصرية » ، الا انه كان ذا صبغة انجليزية ، فنظامه الاساسى منقول عن نظم البنوك الانجليزية ، ومجلس ادارته كله من الأجانب ومعظمهم من الانجليز ، والمحافظ ونائبه انجليزيان ، واللجنة التي تديره كان مقرها في لندن !! حتى العقد الابتدائى للشركة ليس فيه اسم عربى واحد ! وقد خول لنفسه عملية اصدار البنكنوت ، اذ أرسل مجلس ادارته الى «نظارة» المالية في ٢٠ مارس سنة ١٨٩٩ كتابا طلب فيه منها اذاعة منشور دورى على مواسم المديرية - المحافظات الآن - « يصرح فيه لصياغة الحكومة بقبول

(١) المصدر السابق - ص ٤٦ - ج ٢

أوراق البنك الاهلى المصرى لاداء الاموال الاميريه « ووافقت النظارة على الطلب ، ونفذت المنشور ، وبهذا أصبح فعلا هو « بنك الاصدار » فى مصر

وكانت مهمته توجيه الاقتصاد القومى وفق مشيئة بريطانيا . وفى يقينى أن هذا التوجيه الاستعمارى ، كان الحافز الأول الى التفكير فى انشاء بنك وطنى ، يصلح ما أفسده البنك الاهلى ، وغيره من البنوك من اقتصاديات البلاد

وفد كان للحكومة فى مجلس الادارة مندوبان ، رايهما استشارى ، لا قيمة له ، ولا يؤخذ به ، مهما كان نافعا صالحا

وعندما عين الدكتور عبد المنعم القيسونى مديرا مساعدا للبنك فى سنة ١٩٥٠ ، - هو الآن نائب رئيس الوزراء للشئون الاقتصادية - رأى أن التقليد الذى جرت عليه ادارة البنك فى اتصاله بالحكومة ، هو أن يحرر خطاباته الى وزارة المالية بالانجليزية ، ويرفق مع الخطاب المرسل ترجمته بالعربية ، وهو تقليد غير كريم من بنك المفروض فيه أنه مصرى ، فيجب أن تكون اللغة التى يحرر بها خطاباته الى الحكومة لغة البلاد الرسمية ، فأصدر قرارا - رغم ادارة محافظ البنك الانجليزى السير ادوارد كوك - بأن تكون رسائل البنك الى الحكومة بالعربية ، وأن يكون توقيع المحافظ عليها بالعربية. ايضا ، على أن ترفق ترجمة انجليزية لكل رسالة

لم يقنع الدكتور القيسونى بهذا الصواب الذى صنع ، بل اذن لموظفى البنك من المسلمين فى أن يتركوا أعمالهم ظهر أيام الجمع مدة يستطيعون معها أداء فريضة الجمعة ، فاذا أدوها عادوا الى أعمالهم فاستأنفوها الى موعد انصرافهم العادى

ولعل كثيرين لا يعلمون ان البنوك كانت فى الماضى تعطل عطلتها الاسبوعية ، كل يوم أحد

وظل القيسونى حريصا على تنفيذ هذين التقليدين طيلة عمله مديرا لهذا البنك، من عام ١٩٥٠ الى ابريل من عام ١٩٥٤، اذ اختير وزيرا للمالية، أما التقليد الأول ، وهو أن تكون خطابات البنك الى الحكومة باللغة العربية ، فقد استمر . أما التقليد الثانى ، فقد وقف تنفيذه لأن عطلة البنوك الاسبوعية اليوم ، فى يوم الجمعة

اننى ما زلت أذكر منظر الرجل العظيم محمد طلعت حرب باشا - وكنت فى زيارته بداره بالعباسية فى أخريات أيامه - وهو « متربع » فى جلسته ، على « شلثة » ملتفا بعباءته ، وقد اصفرت عيناه من أثر مرض اليرقان الذى هذه ونال منه ، وقد أخذ يشرح لى ولآخرين من الزائرين ، موضوع توقف البنك عن الدفع فى أزمة تلك السنة المشؤومة ، سنة ١٩٣٩ ، ثم انحدرت دمعتان على خديه ، وقال بصوت يفيض ألما وأسى وأسفا وحسرة :

- ما كنت أظن أن انسانا فى مصر يتناولنى بكلام غير طيب ، بعد الذى صنعته لمصر وللشرق العربى كله

واغرورقت أعيننا بالدموع تأثرا بالرجل الذى أصبح مهيض الجناح ، وقد كان نسرا جبارا محلقا فى جميع الأجواء ، بل كانت تضيق به أجواز الفضاء

فما هو الكلام « غير الطيب » الذى نوه به ولم يفصح عنه ؟

علمت فيما بعد ، أنه فى بعض الجلسات السرية التى عقدها البرلمان لبحث حالة البنك وإدارته تمهيدا لإصدار قانون الدعم ، تناوب المتحدثون على المنبر ، وكان منهم ابراهيم عبد الهادى باشا - كان وزيرا فرئيسا للديوان الملكى فرئيسا للوزراء - فقال عنه أنه « ستافسكى مصر » (١)

ولو أن أحدا غير ابراهيم عبد الهادى قالها لعدوته ، فانه ربيب البنك كما أعلم ويعلم جميع عارفيه ، فقد عين محاميا فيه أثر تخرجه فى « مدرسة الحقوق » وظل فى حضان البنك ، حتى آثر الاشتغال بالسياسة فتركه ، بعد أن اشرقت الدنيا فى وجهه ، فهل هو العقوق ؟

ما أظن ، فما عرفنا عن ابراهيم عبد الهادى عقوقا ، لكن وفاء ورعاية للدمة ، لهذا اعتبرها زلة لسان ، وهفوة مقال ، صدرت عنه فى نشوة خطابه الحماسى فى أعضاء البرلمان ، وهو يعد من خطباء مصر المعدودين . .

(١) ستافسكى هذا كان من رجال الأعمال الكبار المرموقين فى فرنسا ، اختلس عدة ملايين من الجنيهات من بنك بلدية مدينة « بايون » ، فلما انكشف أمره ، انتحر فى شهر يناير سنة ١٩٣٤ . قد شغلت قضيته - قضية نصبه واحتياله - الرأى العام فى فرنسا فى ذلك العام ، وكاد الاختلاف بسببها يؤدى الى حرب أهلية بين أحزاب اليمين وأحزاب اليسار ، ونشبت معارك بينها فى يومى ٦ و ١٢ من الشهر نفسه قتل فيها كثيرون من الفريقين

وستافسكى من مواليد سنة ١٨٨٦ فى مدينة « سوبودكا » فى روسيا ، أى أنه من أصل روسى //

وفى ٢١ أغسطس من عام ١٩٤١ ، أى بعد صدور قانون الدعم بأقل من شهر واحد ، قضى الرجل محسورا ، فلبى نداء ربه ، فى بلدة النعناعية القريبة من دمياط ، وحمل جثمانه الى القاهرة فدفن فى مقبرة بنيت له خاصة ، بعد ما بنى لصر وأهلها هرما من الاقتصاد ، يفخر به ويباهى أحفاد الاحفاد ، كما فخر به وباهى الآباء والأجداد

* * *

كان رحمه الله يكره الكذب ويمقت الكذابين كما أشرت فى بداية هذا الفصل ، وكان معاونوه من الكبار فى البنك يعلمون عنه هذا ، ويخشون أن يقف على كذبة تورط فيها أحدهم ، فيلقى منه ما يسوؤه

فى مساء يوم سبت كان على موعد مع أحمد مدحت يكن باشا رئيس مجلس إدارة البنك ، فى مكتبه . وحل الموعد ولم يصل مدحت ، أخيرا وصل بعد نصف ساعة ، معتذرا بأنه مر فى طريقه بصديق قديم مريض ، فعاده

أن طلعت يعلم أن مدحت يهوى سباق الخيل - وهو يكره جميع أنواع الميسر والمراهنة ويكره من يهواها - ولا تفوته حلبة من حلباته ، فلم يهضم الكذبة ، وغادر مكتبه الى مكتب مجاور له ، ودعا اليه سائق سيارة مدحت، وسأله : أين كنتم ؟

قال السائق : كنا فى السباق يا سعادة الباشا ..

وعاد الى مكتبه ، حيث كان مدحت جالسا مطمئنا ، فعاد يسأله :

- يا باشا ، أين كنتم ؟

قال مدحت بثقة : كما قلت لسعادتك ، زرت صديقا مريضا ، وسرقنى الوقت فتأخرت عن الموعد

قال طلعت : ألم تذهب الى السباق ؟

قال مدحت مؤكدا : أبدا أبدا ..

قال طلعت : وما رأيك اذا كان سائق سيارتك قال لى انكم كنتم فى السباق ! -

قال مدحت بغيظ : انه كاذب ..

قال طلعت : اذن نفصله ..

ووافقه مدحت ، وفصل الرجل المظلوم . وبعد يومين عاد مدحت فاعترف لطلعت بأنه كان في السباق ، في خلال حديث بينهما دون أن يدري ، فقال طلعت :

— اذن لقد فصل السائق ظلما . أعده الى عمله ، وليكن قرار أعادته بامضائك انت ، تكفيرا عن ظلمك له ، وامنحه مكافأة تعويضا عن فصله . . هذه واحدة . .

وهناك حادثة أخرى كان لها ضجيج ودوى في البنك وشركاته ، فقد اختار لادارة مطبعة مصر ، ثم لاستديو مصر ، الطيار احمد سيالم — والممثل بعد ذلك — وكان أثيرا جدا عنده ، بل كان الأمر الناهي في هذه الدولة التي أسسها طلعت حرب ، لا معقب لحكمه ورايه ، في أى مؤسسة من مؤسساتها رغب يوما في أن يأكل « الطعمية » من مطعم رجل مشهور من زمان قديم في حي الحسين اسمه « الحلوجى » — وكان يعشق الأكل « البلدى » ويؤثره على ما عداه — فأوصى احمد بأن يجيء له غذا ببعض من هذه « الطعمية » ليأكلها مع الغداء في فندق مينا هاوس بشارع الاهرام

وفي اليوم التالى ، وصل طلعت باشا وصفيه احمد ، فسأله :

— هل اتيت بالطعمية من الحلوجى ؟

فرد احمد بالإيجاب ، وكان قد نسى شراءها ، ونهض فأسرع الى سائق سيارته المنتظر في حديقة الفندق ، وأخرج له عشرة جنيهات ، وقال له :

— بسرعة جدا ، اذهب الى ميدان الجيزة ، فاشتر طعمية بعشرة قروش وخذ الباقي لك ، اذا استطعت ان تقطع المسافة في ربع ساعة ، ذهابا وإيابا

في هذه الأثناء ، دعا طلعت باشا كبير الخدم ، وأمره بأن « يسخن » الطعمية ، استعدادا للغداء ، فدهش الخادم وقال ان احمد لم يسلمه شيئا ، فلما عاد احمد من الحديقة ، سأله :

— هل جئت بالطعمية معك ؟

قال جادا : نعم يا باشا

قال طلعت باشا : ولكن كبير الخدم قال انه لم يتسلم منك شيئا

قال احمد : انه غبى لا يفهم . وناداه بفطرسه وكبرياء وقال له :

— الطعمية سلمتها لغيرك . قل انك لا تعلم وبس !!

وسكت الباشا . وبعد قليل عاد السائق ، ومعه الطعمية ، وهى اقراص كبيرة كالفتير ، سلمها أحمد بعيدا عن رقابة الباشا الى احد الخدم وقاما الى المائدة للغداء

وجاء الخادم بالطعمية فى « صحن » كبير . .

وسال الباشا ، أحمد مرة أخرى :

— هل هذه من مطعم الحلوجى ؟

ذلك لان طعمية الحلوجى اشتهرت بأنها حبات صغيرة فى حجم البندق . .
قال احمد بثقة : نعم يا باشا

عاد فسأله : اتقسم بحياتى

فأقسم أحمد . . وكان قسما مشؤوما عليه

لقد كانت هذه الكذبة ، هى القشة التى قصمت ظهر البعير ، كما يقولون ، فان الباشا نهض غاضبا دون أن يتناول غداءه ، وركب سيارته وحده . وفى اليوم التالى دعا سكرتير البنك المرحوم الاستاذ لطفى محمود ، وقال له :

— خلصنا يا لطفى يا خويا الآن من أحمد سالم

فدهش لطفى ، وهو يعرف كما يعرف الجميع مكانته من قلبه ، فروى له ما حدث . .

فقال لطفى ا

— ولكنها يا باشا كذبة صغيرة لا تستاهل الفصل

قال طلعت : ان الذى يكذب الكذبة الصغيرة وهو يعمل فى بنك كبير وفى مؤسسات عدة ، من السهل عليه أن يكذب كذبة كبيرة ، نفرق بسببها جميعا

ولمك تعجب حين أروى لك أنه فى يوم ما أثر هذا الفنى على محمد محمود باشا من رؤساء الوزارات السابقين ، وكان بيته من أكبر البيوتات فى مصر ، جاها وغنى ، ورثهما عن أبيه محمود سليمان باشا الذى كان رئيسا للجنة الوفد المركزية فى اثناء غياب سعد زغلول فى منفاه ، ثم فى أوربا للدعاية لقضية استقلال مصر ، وقبلها كان عضوا فى مجلس الشورى . . هذا الى أن محمد محمود ، كان من المصريين القلائل الذين اكملوا دراستهم العالية فى جامعة أوكسفورد ، وكان معتزا بنفسه اعتزازا يبلغ الى درجة الفرور ، ورأس الوزارة أكثر من مرة ، وله فى تاريخ مصر دور مشهور غير منكور

دخل يوما على طلعت حرب لأمر ما ، فوجد عنده أحمد سالم ، فسأل
طلعت زائره الكبير بعد ما رحب به :

— خير يا دولة الباشا . اى خدمة استطيع أن أؤديها ؟

فقال محمد محمود بكبرياء عرف بها : لما يخرج الجدع ده !!

قال طلعت : انه من موظفى البنك ..

قال محمد باشا 1 معلش ، بس لما يخرج ..

قال طلعت : ماهواش خارج !!!

فانتفض محمد محمود باشا واقفا كاللدوغ ، وانصرف غاضبا محنقا ،
وانقطع ما بين الرجلين الكبيرين من ود وصداقة ، الى أن رحلا الى الدار
الآخرة

حادثة ثالثة ..

كان سكرتيره أحمد يحيى نجل المرحوم يحيى ابراهيم باشا — أول رئيس
للوزراء عقب وضع الدستور فى سنة ١٩٢٣ — مغرما بفتاة يونانية ، ثم
عزم على الزواج وهجرها ، ولكنه خاف أن تجيء الى البنك وتقابل طلعت
باشا وتشكوه اليه ، مدعية ما شئت لاحراجة أمامه ، فرأى أنه من
الافضل له أن يصارحه ، وحسنا فعل ، فقد سر من صراحته ، ومنحه
مبلغا من المال هدية منه اليه بمناسبة هذا الزواج

* * *

● كان لا يحب السياسة كما مر بك ، ولا يحب لأحد من العاملين معه
الاشتغال بها ، حتى أنه لم يصبر على عضوية مجلس الشيوخ ، فاستقال منه
بعد أشهر من تعيينه ، فذهب اليه فى مكتبه بالبنك رئيس المجلس المرحوم
الأستاذ محمود بسيونى محاولا عدوله عنها ، قائلا له : انه من العار على
البلاد أن لا تكون فى مجلس شيوخها ، وقد بنيت اقتصادها

ولكنه أصر عليها ، ولم يدخل المجلس بعدها أبدا

● كان لا يحب الوشاية والسعاية ، فإذا سمع من موظف قالة سوء فى
زميل له ، استبقاه ، وأمر بدعوة صاحب هذه القالة ، وواجههما ، والويل
للواشى اذا ظهر كدبه وافتراؤه

● كان يتمتع بذاكرة قوية واعية ، تحفظ كل ما تسمع ، وما يجرى له ولمن حوله ، فهي سجل دقيق يدون فيه كل ما عرف وما تلقته أذناه عن موظفى البنك وشركاته ، بل وعن كبار عملائه ، مما اتاح له الوقوف على سيرتهم فى حياتهم ، ونهجهم فى العمل معه

● كان يأنف من تلقيبه « زعيم مصر الاقتصادى »

● كان يعصر الليمون فى عينيه ، حاثا خالصه على أن يحدوا حدوه ، فان عصير الليمون يجلو العين ويقوى البصر !!..

● لعل كثيرين لا يعرفون أن هذا الرجل الذى قضى حياته عاملا فى كل ميدان ، وفى كل حقل ، وفى كل مجال .. فى الاقتصاد وفى الاجتماع وفى الدفاع عن الدين .. هذا الرجل كان ميلا الى نصره الآداب والفنون ، فقد رعى مسرح حديقة الأزبكية ، وسمى يومذاك مسرح ترقية التمثيل العربى ، لتمثل عليه المسرحيات المصرية والعربية والفنائية ، فبلغ المسرح المصرى فى ظل رعايته تلك ، شأوا ما أحوجه اليه اليوم ، ورفع من قيمة الأدباء والكتاب الى قدر ما كانوا يحلمون به ، حتى لقد كان المسرح يدفع فى الرواية الواحدة ثلثمائة جنيه مؤلفها ، وهى تعادل فى هذا العصر عدة ألوف من الجنيهات

قال لى صديقى القديم الأستاذ زكى طليمات شيخ المخرجين المسرحيين ، انه قابل طلعت حرب باشا مرتين : الاولى سألها فيها رأيه عن فرقة عكاشة التى كانت تعمل باستمرار على هذا المسرح . فقال له زكى :

— ان اخوان عكاشة — وكانوا ثلاثة أخوة هم عبد الله وعبد الحميد وزكى . أسفروهم وأجملهم — أبعد عن التمثيل ، بعد الأرض عن السماء

وأفاض فى هذا رأى ، مما حمل طلعت باشا على أن يقول له فى نهاية اللقاء :

— انت مغرور جدا يا خويا يا زكى !!

اما المرة الثانية ، فكانت عندما اراد زكى أن يكون مدير فرقة الكوميدي فرانسيز حينما زارت مصر فى سنة ١٩٣١ ، وكان أستاذا لزكى فى أثناء دراسته فى باريس ، ولكن يديه خاليتان من المال ، فذهب الى طلعت باشا يسأله قرضا من البنك قدره لاثون جنيها ، يقيم بها حفلة كبيرة لاستاذته مدير الكوميدي فرانسيز

فسأله طلعت باشا : ألدخن الحشيش ؟

قال زكى : لا ، ولم أذقه فى حياتى

قال طلعت باشا : أدمن الخمر ؟

قال زكى : لا

قال طلعت باشا : أتحب غانية تكلفك ما لا تطيق ؟

قال زكى : لا

قال طلعت باشا : اذن لماذا تريد هذا المبلغ الكبير ؟

فذكر له زكى السبب . فما كان من طلعت باشا الا ان اخرج حافظة نقوده وأعطاه منها ثلاثين جنيها ، تقديرا منه لوفاء زكى لاستاذة ، ولم يقبل ردها اليه ، فجعلها هدية منه اليه . .

وقال لى المرحوم الأستاذ فؤاد فهميم (وكان من أشهر ممثلى الأوبريت ، ومثل مع مطربة عصرها منيرة المهديّة ، ومع فرقة اخوان عكاشة) :

— فى الليلة التى توفى فيها أبى فى عام ١٩٢٢ (وكان هو الآخر ممثلا عظيما فى فرقة اخوان عكاشة) جاء الى منزلى طلعت باشا ومعه زكى عكاشة الممثل الأول للفرقة — وكان ذا مكانة خاصة لدى طلعت حرب — لتعزيتى . ثم همس زكى فى أذنى على مسمع من الباشا : لا تؤاخذنى فيما سأقوله لك فإنه بالرغم من ضرورة بقائك فى مأتم أبيك ، الا أننى أطلب منك انقاذ الفرقة ، حتى لا تضطر الى التوقف فى هذا المساء ، بسبب انقطاع بشارة واكيم عن تمثيل دوره فجأة ، وهو دور كوميدى مهم ، وليس أمامنا من يمثله غيرك بدلا منه

فكدت أثور عليه ، لانه يطلب منى ان اذهب لاضحاك الناس فى ليلة مأتم أبى الذى ما زلت أبكيه ، لكن أدهشنى ووقف فى سبيل ثورتى على زكى ، ان طلعت باشا وقف فى صفه ، فقال لى :

— وافقه يا فؤاد ، ولا تظن انك مستغضب أباك بتركك مأتمه ، فقد كان يقدس التمثيل ويعشق فنه ، ولهذا يجب الا تتخلى عن أداء الواجب عليك بانقاذ الفرقة فى هذا المساء

قال فؤاد :

— فلم يسعنى الا موافقتهم ، وذهبت معهما الى المسرح ، ووقفت على خشبته أضحك الناس ، وقلبى يتمزق حزنا وأسى على أبى

● زرتة يوما في مكتبه في أواخر عام ١٩٢٩ ، فدخل علينا سكرتيره الخاص وأنباه بقدوم نوري السعيد باشا - من رؤساء الوزارات العراقيين السابقين ومن كبار الذين اشتغلوا بالقضايا العربية - فهممت بالاستئذان للانصراف ، فضحك رحمه الله ، وقال : لا يا خويا خليك ، ما فيش سرى بينى وبين نوري باشا ..

وكلمة « يا خويا » كانت لازمة من لازماته .. ودخل نوري السعيد ، وقد وضع الفيضلية - لباس الرأس عند العراقيين قبل انقلاب ١٤ تموز (يوليو) - على صدره بين يديه ، واستقبله صاحب المكتب حفيابه ، ونادى سكرتيره ، فأمر اليه بكلمات ، وأمر بالقهوة ، وأنا متشافل عما يجري ، بمطالعة صحيفة كانت في يدي ، ولكنى متابعه بطرف من عيني . ثم عاد السكرتير بمظروف منتفخ ، وضعه في الدرج الايمن من مكتب طلعت باشا وخرج ، وبعد حديث قصير خلال تناول القهوة انقضى في السؤال عن الصحة والاحوال والانجال ، فتح طلعت الدرج وأخرج منه المظروف ووضعه في جيبه ، ثم نهض ومشى بنوري باشا الى جوار النافذة ، وأخرج المظروف من جيبه ودسه في يده ، خلال حديث قصير آخر عن نجل نوري باشا الأكبر « صاح » وكان متزوجا من عائلة مصرية كبيرة .

ورأيت أن « مهمتى » قد انتهت ، فاستأذنت لانصرف ، فاذن وهو يقول لى :

- انت ماشفتش حاجة يا خويا ..

قلت : نعم ، ماشفتش حاجة يا باشا !!

واستضحكنا ، ومضيت الى حال سبيلي ..

وفي هذه المناسبة ، يطيب لى أن اذكر أن طلعت باشا كان قد اقترض السيد محمد على زينل .. رجل الاعمال السعودي الكبير ، والوزير السعودي للتجارة ، والسفير السعودي السابق في القاهرة ، ثلاثة آلاف جنيه من حسابه الخاص ، ولم يأخذ منه ايصالا ولا سندا بها ، ولا يعلم بأمرها الا السكرتير الخاص لطلعت باشا الاستاذ أمين احمد . فلما صعدت روح الرجل العظيم الى بارئها ، وبعد ذبوع خبر وفاته بايام ، فوجيء أمين بالسيد زينل يدخل مكتبه ويسلمه الآلاف الثلاثة من الجنيهاات ، فتسلمها منه وهو غير مصدق ، أن يكون هناك انسان في هذا العصر ، في مثل هذه الامانة والنزاهة والشرف .

وسلم أمين المبلغ الى الأستاذ محمد رشدي ، وكان مديرا لقلم قضايا البنك ، وهو متزوج في الوقت نفسه من ابنة طلعت باشا ، وظل يرقى في

وظائف البنك حتى اختير رئيسا لمجلس إدارته ، وظل في منصبه الكبير هذا حتى توفي الى رحمة الله في لندن في أول يوليو سنة ١٩٦٩ اثر حادث حدث له في الكويت وكان في زيارتها لعمل اقتصادي يخص البنك ، ويخص بعض الدول العربية

هذا هو الرجل الذي يجتاز الشباب اليوم ، الشارع الذي سمي باسمه مؤخرا ، ثم يمرون بتمثاله (١) في الميدان الذي يتوسط الشارع ، والمسمى باسمه أيضا . وهم لا يعرفون عنه الا أقل من القليل . . . أردت ان أبسط تاريخه بعض البسط ، حتى يتخذوا منه قدوة ومثلا . فان مصر المنكوبة اليوم باحتلال بعض ارضها الغالية ، من حشالة البشر اليهود الصهاينة ، ترجو النهوض على أيديهم ، وتتمنى ان يأخذوا بيدها الى سبيل المجد والعزة والكرامة السليبة ، ولن يتسنى لهم هذا الا بالعمل الدائب لخيرها والاخلاص فيه ، وحبها حبا جما .

سئل عنه صديقه المرحوم الدكتور محبوب ثابت ، وكان من المشهورين في ميدان السياسة ، وصديقا لجميع عظماء مصر ورجال احزابها وأعيان العرب فقال :

« كان صديقي طلعت حرب باشا طرازا في مصر معدوم النظر ، وهو واضع الحجر الاساسي للاستقلال الحقيقي بانشائه بنك مصر وشركائه وفروعه ، وبهذا أقام بالعمل الجدى المجدى ، وادى لوطنه ، ما لم يستطع الزعماء ان يؤدوا مجتمعين في صعيد واحد ، جانباً مما أداه وحده . انك لن تستطيع ان تعبر او تصور ، كيف ان طلعت حرب قاوم وانتصر على محاربة اصحاب الشركات والبيوتات المالية الاجنبية في مصر ، وكيف تغلب على مثبطين الهمم من بعض المصريين . »

(١) في ابريل من عام ١٩٣٠ بدت فكرة لتخليد طلعت حرب ، فلم يشجعها ، فكتب الاستاذ البرت فاضل المحامى امام محكمة الاستئناف المختلطة يقترح ان تسمى الشوارع المحيطة بالبنك باسماء مؤسسه ومساعديه مدحت يكن باشا والدكتور فلاد سلطان بك ، فيسمى شارع عماد الدين باسم « شارع بنك مصر » ويسمى شارع ابى السباع - جواد حسنى الان - باسم طلعت حرب ، ويسمى شارعان آخران باسمى الآخرين . وقد قرأت فيما مر بك ان السيد عبد الحميد الرمالى ، وكان عميدا لتجار القاهرة ، اقترح هو الاخر اقامة تمثال لرجل بنك مصر .

« وطلعت حرب - كما قال صديقي الاستاذ الكبير محمد كرد على بك « الباقعة (١) في معرفة الرجال » . انكم لا تستطيعون ايفاء طلعت حرب ما هو جدير به من التقدير وعرفان الجميل ، حتى لو اقمتم له تمثالا من العسجد . فلتقيموا له تمثالا من التقدير في كل قلب . ليس طلعت حرب بطل الاستقلال الاقتصادي فحسب ، بل هو بطل الاستقلال السياسى ايضا . لو كان بجانبه آخر من طرازه ، لوصلت مصر الى الاستقلال الحقيقى ، والتف الزمان في الرغام » (٢)

وكتب عنه الكاتب المبدع فريد عصره المرحوم الشيخ عبيد العزيز البشرى ، فصلا في كتابه المسمى « في المرأة » تناول فيه عظماء مصر بالتحليل والنقد ، فقال في صفحة ٥٧ وما بعدها :

« لو ان رجلا حدثك من عشر سنين بأن سيكون في مصر « بنك » يقوم على اموال مصرية ، وتقوم عليه أيد مصرية ، لرددت حديثه من فورك ، الى التزيد في التمنى والمبالغة في التخيل ! ذلك اننا ، ولا اكتمك اشد ما الح علينا من العلل ، اننا كنا نتكىء في كل مهمنا على محض التمنى وعقد الآمال بما عسى ان يصنع الغير لنا ! أما ان نضطلع بعبئنا ونعالج شأننا بأيدينا ، فذلك ما لم تكن تطيقه اذهاننا ! ولقد طالت علينا هذه الحال حتى دببت الينا الظنون باننا لا نصلح لمعالجة عمل قومى ، لا من عجز عن العمل ، ولكن من توهم العجز عن العمل ، حتى توهنت نفوسنا ، وخارت عزائمنا ، وانخلدت هممنا ، وشاع فينا ضعف الثقة ، والثقة وحسدها متكا كل ما ترى من عظيمات الأمور . واذا كنا قد عالجننا كثيرا من المشروعات القومية ففشلنا فيها ، فذلك لاننا كنا نقدر هذا الفشل ، بحكم ما ملك علينا أنفسنا من ضعف الثقة . وذلك شأننا في كل ما نتطلع اليه من مطالب الحياة !

« واذن الله تعالى لنا بالعافية ، وأحسبنا ، بعد ياس ، ديبها في أنفسنا في سنة ١٩١٩ ، وهبينا أمة تطلب ما تطلب الأمم ، ونهىء كتفها لتنهض بما تنهض به في سبيل مجدها الأمم .

« ولست اليوم بسبيل ما قام به أبطال النهضة الوطنية جملة ، ولكننى انما أطوف بالحديث اليوم حول قطعة منه وهى النهضة المالية ، وحول بطل

(١) اى الداهية الحذر

(٢) « الاسرار السياسية لابطال الثورة المصرية وآراء الدكتور محجوب ثابت » -

صالح على السودان - ص ٢٥٨

من أولئك الأبطال ، وهو طلعت حرب . وهيئات أن أصف قدر هذا الرجل الفاتح ، بأبلغ ولا أصدق من أنه أقام لمصر « بنكا » عظيما يقوم على أموال كلها مصرية ، وتقوم عليه أيد كلها مصرية ، وما شاء الله كان . . .

« وإذا كان طلعت قد أقدم على هذا كله بعد اذ تخاذل الناس ، وأصبحنا ولا تظن نفس بنفس خيرا ، فقد رأيت مبلغ ما تسليح به هذا الرجل من عزم وثقة ، حسبهما أن ملأ كل هذه النفوس عزمًا وثقة .

« وإذا كان طلعت حرب قد أفاد في سبيله نهضة سنة ١٩١٩ ، واستغل اشتعال النفوس بالوطنية ، وتنادى الناس بالعمل على أسباب القومية ، فقد أضاف إلى العزم حزمًا ، وجمع إلى الثقة والاقدام بصيرة وعلمًا ، ذلك أنه عرف كيف يتخير أسعد الساعات واكفأها لنجاح مشروعه العظيم .

« لم يكن نجاح بنك مصر مقصورا على ذلك المدى الذى تدور فيه منافع البنوك ، ولكن كان له نجاح أوفى وأبلغ ، هو أنه بث فينا الثقة ، وردنا في جليات الأعمال إلى أنفسنا ، وأقنعنا بالحس الصادق أننا في مجال العمل ، غير أهل للخلدان ولا للفشل .

« وبعد : فطلعت حرب ، وإن لحقته السن ، ما يرح له عزم الشباب : حضور ذهن ، وقوة تصور ، ومتانة ذاكرة ، وجودة رأى ، وصبر وجلد على معاناة كل ما يليه من أعمال جسام .

« وإذا كان في بعض طلعت حرب مالا يعجب بعض الناس ، فلأنهم لم يفهموه . وإذا كان فيه مالا يجمل بالرجل العظيم ، فذلك أيضا من خلال الرجل العظيم . .

« وإن تعجب لشيء في شأنه ، فالعجب كله أنه عضو في مجلس الشيوخ ، تعرض عليه ميزانية الدولة ، وتعرض عليه كل المرافق المالية والاقتصادية في الدولة ، فيجول فيها لويس فانوس ، ويصول فيها الشيخ حسن عبد القادر ، ويضرب فيها شيخ العرب يسن أبو جليل بجرانه ، وطلعت حرب مدير بنك مصر وأبو المشروعات المالية والاقتصادية في مصر ، لا تؤثر عنه فيها طول « الدورة البرلمانية » كلمة واحدة !!

« ولعل هذا أنه يريد أن يربأ بنفسه ، أو بعبارة أخرى ، يريد أن يربأ بينك مصر وملحقاته ، عن أى نزاع سياسي على العموم ، أو حزبي على الخصوص ، طلبا للسلامة ، وإيثارا للعافية »

وخير ما اختتم به هذا الفصل عن الرجل العظيم ، مقال يدل على وفاته ، نشرته له جريدة « ايجبت » بالفرنسية ، في ١٣ يوليو من عام ١٩٠٥ اثر وفاة المغفور له الاستاذ الامام محمد عبده ، يرثيه به ، فقال :

« لقد خسرت مصر والعالم الاسلامى خسارة كبرى بموت الشيخ محمد عبده مفتى الديار المصرية ، وسيبكي خسارة هذا الرجل جميع المسلمين على اختلاف بلادهم ومذاهبهم ، فانه كان من اكبر رجال الاسلام الذين كانوا يتمنون ارجاعه الى مجده السابق .

« نشأ الشيخ محمد عبده نشأة رجل عادى ، فانه ولد من نحو ستين سنة في محلة نصر بمديرية البحيرة ، وتلقى دروسه الاولى بالجامع الاحمدى بطنطا واثمها في الجامع الأزهر المشهور ، ثم صار استاذاً لنفسه . وبما كان فيه من النهم في العرفان ، انكب على الدروس والمطالعة بقوة يندر وجودها في غيره ، وامكنه بما اوتيته من ثبات العزيمة وقوة الادراك التى لا يمتري احد في سموها ، ان يصير الى ما رآه الناس فيه وعرفوه منه ، اعنى محيط علم حتى ، فكان برهانا محسوسا على ما يكون لعزيمة الانسان من سعة الامكان ، ولا سيما اذا عززتها قوة الجنان . وجملة القول ان الشيخ محمد عبده كان هو الربى لعقله والمنشئ لادراكه . وكان يخيل للعارف باحوال هذا الشيخ في جهاده المستمر ان ام المسائل التى كانت تشغله وادعائها الى اهتمامه ، هى الدين الاسلامى الذى كان يريد اصلاحه ، لا بادخال مذاهب جديدة او عبادات أخرى فيه ، ولكن بتنقيته وتجريده من الاوهام والآراء الفاسدة التى ادخلها عليه الجهل او مقتضيات السياسة ، وجعله بالجملة ، كما كان قبل تشويه الجهل اياه ، الدين الحنيفى الذى كان يعلمه لامته النبى صلى الله عليه وسلم .

« وقد كان للشيخ محمد عبده حساد ينقصونه ، كما كان لغيره من كبار المصلحين وارباب العقول السامية ، فلم يذروا تهمة الا الصقوها به بلا سبب ، ولا دسيسة ولا وشاية ولا قذفا الا رموه به من غير ما ذنب ، ولكن ذلك لم يعقه عن المداومة على سلوك نهجه غير كال ولا وان ، حتى انتهى امره بان ألزم حساده والجاهلين به ، كما ألزم خصومه واعداءه ، احترام آرائه وافكاره .

« وهو وان كان قد صرعه الموت قبل ان يدوق لذة اتمام عمله الشاق الذى فرضه على نفسه ،، قد أوضح السبيل الى اتمامه ، وخلف عملا نافعا باقيا .

« وقد كان لمعاشره الشيخ محمد عبده للشيخ جمال الدين الافغانى الذى هو اكبر فيلسوف شرقى معروف ، تأثير ظاهر فى عقله ، فكانت معاشرته لهذا الفيلسوف الذى كان هو نفسه الثانية ، مبدأ طموح نفس الشيخ محمد عبده الى الافكار التى صارت من ذلك العهد غرضه الذى يعيش من اجل بلوغه ، ألا وهى اصلاح الدين الاسلامى ، واحياء وطن الاسلام البعيد الاطراف ، وتجديد وحدته وعظمته .

« وكان يستعين ويستهدى فى هذا العمل الشاق بقوة يقينه .

« ومن غريب الاتفاق ان نفس العلة التى اودت بالمرحوم الشيخ جمال الدين وهى السرطان ، هى التى اختطفت منا الشيخ محمد عبده .

« ولما قامت حوادث الفتنة العرابية ، كان الشيخ محمد عبده متقلدا فى نظارة الداخلية عمل محرر الجريدة الرسمية ، فظن ان الوقت قد حان للبدء فى تنفيذ خطته الواسعة فى الاصلاح ، فسلك سبيل الفتنة بقلب سليم ، لما كان يلوح له من خلوها من الافراض الشخصية فى بدايتها ، ثم اضطر آخر الامر الى ان يجاهد فيها بعض الرؤساء ويقاوم طرقهم الملتوية الدالة على اطماعهم ، لان افكارهم لم تكن مطابقة لآمنيته المجردة من كل شوب ، وهى مصلحة الوطن والدين .

« وكان جزاؤه على مخالطته لرؤساء الفتنة ان حكم عليه بالنفى ، ولما رأى خيبة آماله اذ ذاك لجأ الى سوريا . غير انه لم يكن ممن يسهل عليهم الاستكانة للغلب ، فلم يلبث ان استأنف جهاده السلمى لبلوغ أمنيته . ولما عين استاذاً فى المدرسة السلطانية ، كان يعلم فيها آداب اللغة والبيان وغيرها من الدروس العربية ، وهذا غير دروس تفسير القرآن التى كان يلقيها فى المساجد .

« ثم دعاه السيد جمال الدين الى باريس ، فكان يعينه على تحرير « العروة الوثقى » ، ولما عاد الى سوريا استأنف دروسه التى لا يزال السوريون يحفظون لها أجل ذكر .

« ما حل الشيخ محمد عبده فى مكان الا ترك له فيه معجبين بعلمه وفضله ، وأينما نزل صار كل من دانوه أحبابه وأصدقائه .

« ولما عفا عنه الخديوى توفيق باشا عاد الى مصر ، فرجعت اليه جميع المحبات القديمة مع احترام كافة الناس وتبجيلهم ، ثم لم يلبث أن نوه به فضله وولعه الشديد بخير بلاده ، للقائمين بالامر ، فعين بعد قليل قاضيا فى المحاكم الابتدائية ، ثم مستشارا فى محكمة الاستئناف . وكان مع

وجوده في هذا الميدان ، ميدان العدالة الفسيح ، ولا يزال يحسن بأذه محرج ،
وانه لا بد له من ميدان أوسع وأجل منه ، أي لا بد له من الطرق التي يستعين
بها على بلوغ الغرض الذي يعيش من أجله ، بإذلا في ذلك جهده ، وذلك
الغرض هو اصلاح الدين . وكان يعتمد حينئذ في الوصول اليه على
وسيلة كان يلوح له انها هي القادرة على رفع ذلك البناء ، وتلك الوسيلة
هي الازهر . تولدت في ذهنه فكرة توجيه الاصلاح في هذا السبيل الجديد ،
فكان يريد أن يجعل الازهر واسطة في هداية العالم الاسلامي وتبصيره بدينه ،
وان يجرد هذا الدين مما يحول دون معرفته من الصعوبات ومن الآراء
الفاصلة التي حشاها بها الجهل . وللوصول الى هذه الغاية ، فكر في أن
ينشئ له مجلسا أي محكمة عليا دينية - ان صح تسميتها كذلك - لإدارة
شؤونه وبث نور العرفان في عقول الأمة لمصلحة الاسلام الكبرى ، وهي
غاية نبيلة جليلة ، وبفضل عنايته شكل المجلس ، وكان هو من اعضائه
وكذلك الشيخ عبد الكريم سلمان صديقه من الصغر الذي كان موافقا له في
آرائه وافكاره .

« وقد حصل له بتشكيل هذا المجلس ، الأمل ببلوغ غايته بلا عائق ،
فانشأ يحدد ما رث من أصول الدين ، وينفخ في المسلمين روح العرفان ،
ويرشدهم الى العلوم والفنون وجميع الامور الجليلة والافكار العظيمة
التي كانت في سالف الايام زينة الخلفاء .

« وانه ليسوؤنا أن نقول انه مع مساعدات المخلصين التي تيسر له
الحصول عليها ، لم تات النتيجة مطابقة لما كان يرجوه تمام المطابقة ، فقد
قام روح معاكس له ، فعوق العمل الكبير الذي كان يباشره بكثير من النزاهة
والاخلاص والاقدام ، نوعا من التعويق .

« وهو على بدل جل همته في تحصيل الفبطة والسعادة للعقول ، لم
يغفل السعى في تحصيل الراحة والرفاهية للأبدان ، فلم ينس الفقراء
والبائسين ، لعلمه حق العلم ان البؤس في الأمم مدعاة الى اضمحلال
العقول ، فأسس الجمعية الخيرية التي كان هو روحها الذي به تقوم .
والفضل في بقاء هذه الجمعية ونجاحها راجع الى همته التي لا تغفل ،
واخلاصه الذي لا يتغير .

« ولما عينته الحكومة مفتيا للديار المصرية ، أثبت في هذا المنصب أيضا
كفاءته للقيام به . وكان من مقتضيات توليه ان صار له حق الجلوس في
مجلس الشورى ، فكان عضوا في كل لجنة من لجانه ، وكان هو المرشد
الثقة لرفقائه في بحث جميع القوانين واللوائح أو اعدادها .

» وكان في مجلس الاوقاف الأعلى هو المدافع عن الحقوق والأصول المقدسة التي بنيت عليها .

« وقد كان فوق ما تقدم كما قلنا ، شديد الحب لوطنه ، مخلصا في اسلامه . واذا كان قد وجد له عيابون قاذحون ، ربما كان عيبيهم مبنيا على الحكم بالظواهر ، فان مادحيه والمعجبين به أوفر منهم عددا وهم ينصفوا به ويعرفون له قدره .

« وسيلذكر من عاشروه أو دأونه فقط ، جميل محاضراته ، وحسن تطفه ، وجاذب ابتسامه الدال على سلامة طويته . بل انه كان يعظ اصداقاه ويوصيهم بلين الجانب والتلطف ، وكان له في ذلك كلمة تؤيد هذه الوصية وهو قوله : انك لتضطاد من اللباب بملقعة من العسل ، أكثر مما تضطاده ببرميل من الخل »

« وكان الشيخ محمد عبده نهما في الاطلاع والتعلم ليكون أصوب حكما واسد رايًا ، وإليك ساح كثيرا في بلاد أوربا وبلاد المشرق ، باحثا ابنما حل عما عساه ينفع للعمل الجليل الذي ابتدأه . وكان يدرس غير متشيع الى مذهب ، أخذوا بضروب الحضارة والاخلاق عند جميع الأمم ، بحرية الفكر وجولان في الرأي يندر وجودهما في هذه الايام . وجوابه البليغ على مقالات المسيو هانوتو في الاسلام ، دليل على اننا سائرون في سبيل التقدم ، فقد كشف هذا الجواب النقاب عن سعة علمه واطلاعه وتسامحه الذي استطاع أن يدهش الناس به لوقوعه في جانب التهجم الذي حصل من المسيو هانوتو .

« وقد ترك كتابات كثيرة تيسر للمطلع عليها أن يجد في جميعها ، المبادئ التي كان يسير عليها في حياته ، وهي الآن مبادئ تلامذته الذين تتبعوا طريقته ، وسيتنافسون في حفظ ذكراه .

« اني كنت اعرف الرجل معرفة ذاتية ، فانا اشد تأثرا لفقده ممن لم يعرفوه ، ومثل غيري من معارفه الكثيرين في هذا التأثر ، فقد كان شديد الحب لوطنه ووطننا . وفي هذا المقام أرفع له واجب المدح مع مزيد الحزن والاسف على فراقه ، وأرجو أن يوجد في هذه البلاد التي بث فيها كثيرا من الافكار الصالحة الشريفة ، عقول وهمم أخرى تستأنف السير على النهج الواضح الذي اختطه لها .

« بينما كنت أخط هذه الأسطر ، اذ تلقيت رسالة برقية من بلدة « اسيا » ببلاد بلجيكا ، تنعى لى الدكتور سدننى سميث ، وهو موسر أمريكى واسع الادراك والفكر ، محب للاسلام ، ومعجب بالشيخ محمد عبده الذى كان من اصدقائه .

« لا تقع مصيبة وحدها ، فقد انطفأ نبراسا هدين العقلين فى يوم واحد ، وهما على تباعدهما فى المنشأ ، قد تقاربا بالاشتراك فى الأفكار والآراء .

« وسيدنى سميث هذا الذى جمعتنى واياه اللفة الاكيدة ، كان هو الاستقامة المجسمة ، وكان له عندى فوق ذلك الخصيصة الكبرى ، وهى محبته لبلادى ودينى وذوده عنهما ، فانه كان تعلم كيف يعرف الدين الاسلامى ، ولهذا ترانى أجد وقع مصابه مضاعفا ، وليس فى وسعى ان امدحه باكثر من اشراكه فى السلام الذى اهديه من قلبى الحزين الى فقيدنا الذى هو نفسه كان يطرية ويعجب به كثيرا »

وبعد :

الا فليرحم الله طلعت حرب ، ولينبت من بنى مصر نبئا من طرازه ، فى رجاخة عقله ، وأصالة وطنيته ، وقوة عزمته ، وإخلاصه لعمله ، وإيثاره مصلحة الوطن العليا ، على كل مصلحة سواها ، ولو كانت مصلحته هو نفسه ، كما صنع وافتدى البنك بشخصه ، لبقى .

وسيجل طلعت حرب أيضا - وليس البنك وحده - باقيا فى ضمير هذه الأمة قمة شامخة ، ونبراسا لأجيالها ، جيلا بعد جيل .

المراجع

- التطور الاقتصادى فى مصر
للاستاذ محمد رشدى
- الاصول التاريخية للرأسمالية المصرية
وتطورها
للدكتور محمود متولى
- تقابات التعاون الزراعى فى مصر واوروبا
للاستاذ عبد الرحمن الرافعى
- بنك مصر بين الرأسمالية الوطنية
والتحوال الاشتراكى
للاهram الاقتصادى
- تقديم الاستاذ أحمد فؤاد
للدكتور ابراهيم عبده
- رجال المال والاعمال
تذكار طلعت حرب
للمقتطف
- مجموعة خطب طلعت حرب
فى المرأة
أصدرتها مطبعة مصر
- مذكرات شخصية للمؤلف
الشيخ عبد العزيز البشرى



الشيخ عبد المجيد اللبان زعيم الإسكندرية

منهجه في التربية: الحوار المرن

كان مرتبه في الشهر ١٠٠٠ مليم

أعاد إلى الإسكندرية مصرتها

في جميع المجالات

قدوة حسنة في الوطنية

والشجاعة والمراحة

اعتقلت السلطات العسكرية البريطانية المحتلة ، سعد زغلول وصحبه ، محمد محمود باشا واسماعيل صدقي باشا وحمد الباسل باشا ، عصر يوم السبت ٨ مارس من عام ١٩١٩ ، بسبب اصرارهم على السفر الى باريس - حيث يعقد مؤتمر الصلح بعد انتهاء الحرب العالمية الاولى - للمطالبة بحق مصر في الاستقلال التام ، وباتوا ليلتهم في الشكنات الانجليزية

بقصر النيل - مكانها اليوم مقر الجامعة العربية وفندق هيلتون النيل - وفي اليوم التالي سيقوا الى بور سعيد بقطار خاص برح القاهرة قبل الظهر ، ومنها حملتهم باخرة انجليزية الى جزيرة ماطة ، وقد اختارتها السلطات الفاشية المحتلة معتقلا لهم ومنفى .

في صباح اليوم التالي ٩ مارس ، اعتقلت هذه السلطات وطنيا آخر في العاصمة الثانية ، الاسكندرية ، هو الشيخ عبد المجيد اللبان المدرس بمعهد الاسكندرية الديني ، لانه عقد اجتماعا سياسيا في داره في مساء اليوم السابق ندد فيه بما اقدمت عليه السلطات البريطانية من اعتقال سعد وصحبه ، فأعد له في الطابق العلوى من قسم بوليس « باب شرقى » معتقل ، زود بماء للوضوء وبسجادة للصلاة ، وبمجموعة نفيسة من كتب العلم والدين ..

لقد كانت السلطات البريطانية تعرف بواسطة جواسيسها وعيونها ، الصلة بين الشيخ اللبان وبين زعيم الثورة سعد زغلول - وسيجىء في صفحات مقبلة ، انهما كانا صديقين قبل الثورة بسنوات طوال - وتحتفظ له بملف ضخيم يحوى انباء نشاطه السياسى ، ومواقفه الجريئة في مناهضة السياسة الانجليزية خلال الحرب العالمية .

وفي صباح يوم ٧ ابريل ، اى بعد شهر ، افرجت هذه السلطات عن الشيخ ، وفي عصر ذلك اليوم - اى بعد ساعات من الافراج عنه - اصدر

اللورد اللنبى نائب ملك انجلترا فى مصر ، وحاكمها المطلق ، المتصرف فى امرها ، لا معقب لحكمه ولا راد لمشيئته . . أصدر منشورا وزع فى أرجاء القاهرة ، وفى جميع أنحاء البلاد ، جاء فيه :

« بالاتفاق مع حضرة صاحب العظمة السلطان ، أعلن أنه لم يبق حجر على السفر ، وإن جميع المصريين الذين يريدون مبارحة البلاد ، تكون لهم هذه الحرية . وقد قررت علاوة على هذا ، أن كلا من : سعد زغلول باشا واسماعيل صدقى باشا ومحمد محمود باشا وحمد الباسل باشا ، يطلقون من الاعتقال ويكون لهم كذلك حق السفر » .

فمن هو الشيخ عبد المجيد اللبان ؟

إن لمصر أبناء بررة ، خدموها أجل الخدمات ، فى صمت وسكون ، دون إعلان من أنفسهم ، أو توجيه الانظار الى ذواتهم ، أو ضجيج حول اسمائهم ، لأنهم إنما يبذلون ما يبذلون من جهد وصحة ومال ، وكل عزيز وغال ، فى سبيل الله والوطن ، خالصا من المباهاة والفخر والزهو .

خدموا وطنهم ، ومضوا الى ربهم ، فلم يعرف كثير من مواطنيهم فى مصر ، أو اخوانهم فى الوطن الأكبر ، الوطن العربى ، عنهم شيئا .

من هؤلاء المخلصين الصامتين ، هذا الذى اتحدث عنه . وأروى للناس سيرته ، وما أعطرها من سيرة ، بين سير المجاهدين الاتقياء الشرفاء .

فى مدينة جرجا بالصعيد ، كانت تقيم أسرة « اللبان » . ومنذ أكثر من قرن من الزمان ، كانت الأسرة تعمل فى التجارة بين الوجهين : البحرى والقبلى . لكن فريقا منها سافر الى الوجه البحرى ، واستقر فى قرية « سنديون » التابعة لمركز فوه بمديرية الغربية — هى الآن تابعة لمحافظة كفر الشيخ — ومن هذا الفريق كان الحاج ابراهيم اللبان ، يحيا حياة هادئة رغدة ، فقد حباه الله الغنى والجاه والمنزلة الحسنة بين أهلها ، عاملا فى التجارة وفى الزراعة معا .

وفى يوم ١٤ يوليو من عام ١٨٧١ ، رزق الرجل الطيب ، وليدا سماه « عبد المجيد » حتى اذا اكتمل نموه ونضج عقله ، ألحقه بـ « كتاب » الشيخ عبد ، فحفظ القرآن الكريم ، وتعلم القراءة والكتابة ، وأخذ يعاون والده فى أعماله — تجارية كانت أم زراعية — راضيا بهذه الحياة الوادعة الهادئة ، قائما بما يقضى الله عليه وعلى أبيه من رزق وفير ، وخير كثير ، فاذا أشرف على السابعة عشرة من عمره ، عزف عن هذه الحياة ، طامحا الى حياة أرقى وانفع — فى نظره — متأثرا فى هذا بحادثين صغيرين رأهما ، فوقعا من نفسه وقعا عظيما .

لقد رأى والده ينحنى على يد شيخ شاب فيقبلها ، محتفلا به مرحبا ،
لأنه نال شهادة « العالمية » من الأزهر الشريف . .

ففكر وقدر ، أكون لهذه الشهادة من النفاسة والقداسة ، ما يدفع والده
المسن الوقور ، الى تقبيل يد هذا الشاب ؟

ثم . . .

بعد أيام رأى الاهالى وقد تركوا أعمالهم ، وهجروا منازلهم ، وخلفوا
وراءهم حقولهم ، وهرولوا جماعات وأفرادا الى مسجد القرية ، ليستمعوا
الى موعظة دينية يلقيها شيخ من شيوخ الأزهر ، اسمه الشيخ الحداد ،
فتحلقوا من حوله ، ملقين اليه آذانهم وأفتدتهم ، فى خشوع وسكون
واعجاب . فاذا انتهى من موعظته ، تسابقوا الى تقبيل يده ، وفى اطراء وعظله
والثناء عليه والدعاء الى الله أن يزيده علما وتشريفا .

فما لعبد المجيد وهذه الحياة الريفية التى يحيها فى القرية ؟ ولم لا يسعى
الى الأزهر ينهل من نهر علمه ، حتى يفقدو شيخا عالما مبجلا ، كهذين
الشيخين ؟

لكن فتانا ، كان من عمد الأسرة ، يحمل من مسئولياتها العبء الأكبر ،
فهل يرضى والده اذا فاتحه فى هذا الذى جاش بصدرة ، أن يدعه يسلك
هذا الطريق الكى اختار ؟

نعم . لقد كان الوالد سعيدا عندما حدثه ابنه برغبته فى الالتحاق
بالأزهر ، وأمدته بالنصح والرشاد ، وزوده بالدعوات الصالحات . . وأصبح
عبد المجيد طالبا أزهريا - فى عام ١٨٨٨ - يجلس فى حلقة هذا الشيخ ،
وينتقل الى درس ذلك العالم . وكلما تقدمت به السنون فى طلب العلم ، زاد
نجمه اشراقا ، وزادت مكانته لدى أساتذته وزملائه من الطلاب ، فقد تفوق
فى العلوم التى يدرسها جميعا ، وعكف على الأدب يدرسه كذلك ، فاتقن
الكتابة والخطابة ، وشارك فى الحياة الاجتماعية ، فكان دائب الاتصال
بمباديها ، وكذلك برز بين أقرانه . .

حتى اذا حل عام ١٣١٨ هـ - أى بعد ثلاثة عشر عاما قضاه طالبا -
رأى فى نفسه - وكان قد بلغ الثلاثين - القدرة على التدريس بالأزهر ، وعلى
النجاح فى « العالمية » ، وكانت يومذاك من ثلاث درجات : أولى ، وثانية ،
وثالثة ، طبقا لقانون صدر فى عهد الخديوى اسماعيل فى عام ١٨٧٢ ، لتنظيم
الأزهر .

فلأدع شيخ الأزهر ، الشيخ سليم البشري ، يتحدث عن امتحان عبد
المجيد ، في « إعلان من مشيخة الجامع الأزهر » ، إلى حضرة الشيخ عبد
المجيد اللبان بن إبراهيم بن محمد الشافعي مذهبا ، من ناحية سندیون
بمديرية الغربية .

« انه بناء على المكاتبة المقدمة من حضرتكم الى مشيخة الأزهر بطلب
امتحانكم واذن لكم بالتدريس بعد ذلك ، قد استعلم ممن يوثق به في مثل
ذلك ، من حضرات أفاضل العلماء المدرسين بالأزهر ، فشهدوا بتلقيكم
العلوم ، وأهليتكم واستعدادكم لتدريسها بالأزهر ، وبحسن سيرتكم وسيركم ،
ثم عقد لكم مجلس من حضرات الاساتذة الأفاضل : الشيخ حسن داود
والشيخ محمد طومر المالكيين ، والشيخ محمد بخيت والشيخ محمد راضي
البحراوي الحنفيين ، والشيخ محمد حسن الابريزي والشيخ سليمان العبد
الشافعيين ، وامتحانتم بحضورنا في يوم الأربعاء ٧ ربيع الأول سنة ١٣١٨ ،
في الأحد عشر علما المعينة بقانون الامتحان ، الصادر عليه الأمر العالي بتاريخ
٢١ رجب سنة ١٣١١ نمرة ٢ ، وأديت من حضراتهم الشهادة الانتهائية
بإستحقاقكم للدرجة (الثالثة) ، طبقا للمنصوص في المادة الثامنة من ذلك
القانون . فلهذا كله قد اذناكم بالتدريس في الجامع الأزهر وفوضنا لكم
تدريس الكتب من علم النحو على التدريج لغاية شرح ابن عقيل ، ومن بقية
العلوم ما يضاهاى تلك الكتب حسب ما يناسب درجتكم ، وبذلك صرتم من
مدرسي الأزهر الشريف . ولما كتب لنظارة الداخلية بتاريخ ١٢ ربيع الأول
سنة ١٣١٨ نمرة ٥٠٢ للعرض عن ذلك منها على الحضرة الخديوية ليصدر
« البيورلدى » العالى - هو ما يعبر عنه اليوم بالمرسوم - بالدرجة التى
تحصلتم عليها من لدن المرحم السنينة ، وردت افادتها بتاريخ ٣ جمادى
الثانية سنة ١٣١٨ نمرة ٦١٥ ، ومعها « بيورلدى » عال باسم حضرتكم مؤرخ
٢٤ جمادى الأولى سنة ١٣١٨ ، مؤذنا بانكم من ارباب الدرجة (الثالثة) ،
وما هو مرفق مع هذا لحفظه عندهم . وقد نبهنا بقيد ذلك في دفاتر الجامع
الأزهر ، حفظا لما صار . ونسأله تعالى التوفيق لأقوم طريق ، وحسن الختام
بجاء المصطفى عليه الصلاة والسلام . »

تحريرا في ١٥ جمادى الثانية سنة ١٣١٨

الفقر سليم البشري المالكي
خادم العلم بالأزهر
(ثم ختم الشيخ)

فماذا جاء في « البيورلدى » :

هو مؤلف من ستة أسطر كتبت بخط الرقعة - مائلة من الشمال الى
أعلا ، وبين كل سطر وآخر يياض نحو خمسة سنتيمترات ، وفي أعلاها الى
اليمن ختم بالحبر الأزرق للخدوي « عباس حلمي » ، واليك نصه :

« المدرس الفاضل والعالم الكامل حضرة الشيخ عبد المجيد اللبسان
الشافعي بن ابراهيم بن محمد ، من سندیون غربية ، زيد فضله وكماله .

« ورد لدينا شهادة من حضرة شيخ الجامع الأزهر ، ذروة الاعلام ، بأنه
صار امتحانكم بمجلس مشكل من حضرات السادة الافاضل القادة : الشيخ
محمد بخيت والشيخ محمد راضي البجراوى الحنفيين ، والشيخ سليمان
العبد والشيخ محمد حسين الابريرى الشافعيين ، والشيخ حسن داود
العدوى والشيخ محمد طوم المالكين ، وانهم شهدوا لكم بما تلقيتموه من
العلوم والفنون ، بالبراعة والاتقان ، واستحقاقكم الدرجة الثالثة بين العلماء
ذوى الفضل والعرفان . ولما كان السعى في كسب المعارف من شرف الهمة ،
سيما علم الشريعة الذى يعظم به قدر الأمة ، ومن موجبات النجاح في تزكية
الاخلاق وكمال الصلاح ، وكان مرضيا لدينا تجملكم بأوصاف الوقار ،
واستعدادكم بموجب من التشكر والفخار ، اصدرنا هذا المرسوم ، معلنا
بالدرجة الثالثة ، معنونا بالافضال ، باعثا بكم على الاجتهاد في الترقى الى
٢٤ جمادى الاولى سنة ١٣١٨

وتعتبر المدة التى قضاها الشيخ طالبا ازهريا حتى فاز بالعالية ، وهى
ثلاث عشرة سنة ، مدة قصيرة قياسية ، اذا قيست بما كان يقضيه الطلبة
في تلك الأيام ، فان بعضهم كان يظل طالبا ربع قرن أو يزيد . .

وكان من أساتذته : الشيخ محمد البحرى في فقه الامام الشافعى ،
والشيخ سليم البشرى في التفسير والحديث ، والاستاذ الامام الشيخ محمد
عبد في البلاغة والتفسير أيضا .

اما العلوم الحديثة ، فقد تلقاها عن محمد ادريس بك مدرس الرياضة
بدار العلوم العليا ، واسماعيل على بك صاحب كتاب « الجغرافيا الازهرية »
والشباب حسن صبرى الذى وصل بعد ذلك الى منصب رئاسة الوزارة في
٢٧ يونيو من عام ١٩٤٠ ، وظل شاقله الى ان توفى في يوم ١٤ نوفمبر من
العام نفسه ، وهو يلقي خطبة العرش في مجلس النواب .

ولعله من المفيد أن أذكر أنه في عام ١٢٨٢ هـ أرسلت رئاسة الحكومة الى مشيخة الأزهر تسألها عن العلوم التي تدرس فيه ، لتبعث بيانا بها الى لجنة معرض باريس . فقلت المشيخة : أن ما يدرس من العلوم هو «الفقه والاصول والتفسير والحديث (رواية ودراية) والتوحيد والنحو والصرف والمعاني والبيان والبديع ومتن اللغة والعروض والقافية والحكمة الفلسفية والتصوف والمنطق والحساب والجبر والفلك والهيئة » .

ثم قالت المشيخة : « هذه هي العلوم المتداولة في الأزهر ، يقرأها العلماء لطلبتهم بحسب مراتبهم ، وما عداها كالهندسة والطبيعة والموسيقى والتاريخ وغيرها ، يقرأونها لمن لهم اقتدار على تداولها ، إلا أن المشتغل بها قليل لعدم رغبة الطلبة فيها » .

وكان كثير من العلماء يجيدون العلوم العقلية والطبية وغيرها ، زيادة على العلوم الدينية واللغوية . أذكر منهم على سبيل المثال الشيخ أحمد عبد المنعم الدمهوري المتوفى سنة ١١٩٢ هـ . فقد جا في سند أجازته ما ملخصه : أنه تلقى في الأزهر العلوم الآتية ، وله تأليف في كثير منها و ، وهي : الحساب والميقات والجبر والمقابلة والمنحرفات وأسباب الأمراض وعلاماتها وعلم الاسطرلاب والزيج والهندسة والهيئة وعلم الارتماطيقى وعلم المزاويل وعلم الأعمال الرصدية وعلم المواليد الثلاثة وهي الحيوان والنبات والمعادن وعلم استنباط المياه وعلاج البواسير وعلم التشريح وعلاج لسع العقرب وتاريخ العرب والعجم . . . ١

كان النظام الذي يسير عليه الأزهر ، منذ أصبح مدرسة جامعة ، نظاما سهلا ، يكاد يكون فطريا ، أساسه التقوى ، وقوامه احترام الدين وأهله .

وكان شيخ الجامع الأزهر هو المرجع الأعلى لمن فيه ، من اصغر طالب ، الى اكبر عالم . كلمته هي العليا ، وإشارته حكم ، وقوله الفصل في كل ما يختلف عليه . يوزع الاحباس والهبات ، ويعجز العلماء والمدرسين . وكان اذا أشكل عليه أمر استشار فيه اكابر العلماء .

وكان الطالب يدخل الأزهر مختارا بلا قيد ولا شرط ، ويختلف الى من أراد من العلماء لتلقى العلم عنه ، ويبقى بين جذرائه ما شاء ان يقيم . فاذا آتس من نفسه علما كافيا ، وملكة يتمكن بها من افادة غيره ، استأذن اساتذته ، وجلس للتدريس في المكان الذي يجده خاليا ، ويعرض نفسه على الطلبة ، فاذا لم يجدوا فيه الكفاية انفضوا من حوله ، واذا وجدوه على علم استمروا في تلقيه عنه . . . ههنا يجيزه شيخ الأزهر نهائيا .

فلم يكن للأزهر قانون ينظم الدراسة بنظام معين ، فلما كثر الطلاب وتقدمت الدراسة وتنوعت العلوم كما رأيت ، واتسع نطاق الأزهر ، مست الحاجة الى سن قوانين وانظمة لضبط كل هذا ، فصدر أول قانون للأزهر في عهد الخديوى اسماعيل باشا في سنة ١٨٧٢ء ، وقد اشترت اليه في صفحة سابقة ، وكان شيخ الأزهر وقتذاك ، الشيخ محمد العباسى المهدي .

* * *

ما كاد نبا نجاح الشيخ عبد المجيد وفوزه بالعالية يديع ، حتى اقبل عليه الطلبة راجين منه ان يقرأ لهم دروسهم ويلقنهم علومهم ، فنهج في القائها نهجا جديدا لم يالفه الازهريون ، من دقة في العرض ، وسهولة في الشرح ، محلا معضلات الكتب الازهرية في يسر مقبول . وسلك في الوقت نفسه مسلكا تربويا عماده الحوار المهدب ، سعيا وراء الحقيقة ، مما لم يكن للأزهر به عهد ، فاتسعت حلقة درسه ، وأصبحت في صف حلقات دروس كبار الشيوخ من أساتذته ومعلميه ، اذ كانت تضم المئات من الطلبة المصريين والعرب من جميع أقطار الاسلام .

ولعل حادثة عرضت له في أثناء طلبه العلم ، هي التي مالت به الى سلوك هذا المسلك التربوي الذي حبيب فيه الطلبة وقربه الى قلوبهم . ذلك أن جدلا ثار بينه وبين استاذة الامام الشيخ محمد عبده ، في درس التفسير حول « القضاء والقدر » ، غضب بسببه الامام فأقصاه عن حلقة درسه . . لكنه لم يلبث أن دعاه الى منزله بالمطرية ، وأعرب له عن رضاه عنه وعن تقديره له ، بعد أن تبين له أن هذا الجدل البريء ، لم يكن بتحريض من خصومه ، وكان خصوم الامام يومذاك لا يحصى لهم عدد .

ظل الشيخ اللبان في القاء دروسه عامين ، لم يقيض عنهما راتبا ! ! بعدهما قررت له المشيخة مائة مليم في الشهر ، أى والله عشرة قروش لم تزد ! ثم أخذ هذا الراتب — ان كان يستحق أن يوصف بهذا — يزيد ويزيد ، حتى أصبح خمسة وسبعين قرشا ، مع أنه كان يدفع أجرا لسكنى منزله ، مائة وعشرين قرشا ! ! ولقد سمعته وهو يتحدث عن أيامه تلك ، انها كانت أسعد أيام حياته . .

بعد أربع سنوات آخر ، درس فيها — وفي العامين السابقين ، أى في ست سنوات — لطلبته كتاب « الاثمونى في النحو » ، وكتاب « العقائد النفسية » في التوحيد ، وكتابا في الفقه .

وكان من تلاميذه في تلك المرحلة ، الشيخ عبد المجيد سليم الذي شغل منصبى الافتاء ومشيخة الازهر ، والشيخ فتح الله سليمان الذى كان رئيسا للمحكمة الشرعية العليا ، وغيرهما من اعلام الشيوخ .

في ذلك الاوان كان الاسكندريون يطالبون الحكومة بانشاء معهد دينى في مدينتهم ، فانها ، كما يرون ، احق به من مدن طنطا ودسوق واسيوط ، التى كان في كل منها معهد يسير على النظام القديم للازهر ، فلبت الحكومة طلبهم وانشأت معهدا في مدينتهم في سنة ١٩٠٦ ، ارادت ان تجعل منه نموذجا لاصلاح التعليم الازهرى على نحو جديد، يجمع بين خصائص القديم والحديث معا ، فاختارت له مشيخة الازهر صفوة ممتازة من العلماء الشبان النابهين ليطبقوا النظام الجديد ، فكان شيخنا فى طليعة من اختيروا لهذه المهمة الخطيرة الجليلة ، واختاره اخوانه ليكون قاضيا يفصل بين الطلاب اذا تخاصموا ..

كانت الاسكندرية تعاني نقصا نسبيا في الثقافة الدينية والعربية ، وفي حاجة ملحة الى قبس من هذه الثقافة يضيء مجتمعيها ، فلم يكن بها من مصادر الثقافة العامة غير ثلاث مدارس اميرية ، وبعض المدارس الاهلية المتواضعة ، ومن مصادر الثقافة الدينية والعربية لم يكن بها سوى معهد دينى صغير هو « جامع الشيخ » يتعلم فيه عدد محدود من الطلبة ، كانوا يعملون بعد مغادرتهم له اثر انتهاء حلقات دروسهم ، ائمة بمساجدها ، او مدرسين للعربية في مدارس بعض الجاليات الاجنبية ، التى لم يكن يعنىها اشتراط ثقافة معينة في مدرس العربية بها .

ولهذا اثلج صدور الاسكندريين ظهور الشيوخ والطلبة في شوارع المدينة بزيهم الدينى ، وبدأ المجتمع السكندري يتفاعل معهم ويمتزج بهم .

في ذلك الحين نهض مصطفى كامل بدعوته الوطنية الى آفاق شتى ، وانعقدت للشيخ معه ومع زملائه من رجال الحزب الوطنى ، صلات وثيقة نمت وترعرعت فيما بعد ، لا سيما صلته بكل من الشيخ عبد العزيز جاويش وعبد اللطيف الصوفانى بك .

فماذا كان عليه المجتمع السكندري في مطلع هذا القرن ؟

او بعبارة اكثر شمولاً : كيف كان حال الاسكندرية عاصمة القطر الثانية في ذلك الاوان ؟

في ظل السيطرة البريطانية والامتيازات الأجنبية - التي سمى الوفد المصري الى الفائتها في مؤتمر دولي عقد في مدينة « مونتريه » بفرنسا في عام ١٩٣٧ وكان رئيس الوزارة مصطفى النحاس باشا - استطاع الاجانب الاستيلاء على ثروات البلاد وخيراتنا ، واختار معظمهم ميناء الاسكندرية ميدانا لنشاطهم ، فهي ميناء الاستيراد والتصدير ، وهي مقر بنك التجارة والاستثمار والتسليف ، وهي الى جانب هذا ، موطن الاكثريه العظمى من ابناء جنسهم .

وفي نهاية القرن الماضي وأوائل هذا القرن ، أصبحت مصائر الامور في الشغل المصري ، في يد الجاليات الأجنبية ذات النفوذ المالى والتجارى والصناعى . وكان الاجانب يهيمنون على الهيئات النيابية المحلية التى تملك سلطة التشريع فى الشئون البلدية والمحلية ، اذ كان لهم معظم المقاعد فى « القومسيون البلدى » - المجلس البلدى بعد ذلك - وكان الاختصاص القضائى السائد فى المعاملات التجارية والعقارية للمحاكم المختلطة ، واكثر قضاتها من الاجانب ، وكانت سلطات الامن والبوليس بيد الحكمدار الانجليزى ، وكذلك الشأن فى مصالح البريد والجمارك و « الكورنتينات » - ومقرها جميعا فى الاسكندرية يومذاك - فان جميع مديريها وكبار موظفيها من الاجانب او من المتمصرين . . حتى الوظائف الدنيا ، مثل محضرى المحاكم المختلطة وكتابها ومفتشى الترام ومحصلى ضرائب البلدية واجور الماء والكهرباء ، كان مرتزقة الاجانب ينافسون المصريين عليها !!

وكانوا يستغلون بورصتى العقود والاوراق المالية لصالحهم ، دون المصريين !!

كان لتلك الجاليات انديتها الخاصة بها ، وجمعياتها الخيرية والثقافية ، ومدارسها ومعاهدها لتثقيف ابنائها ، وزادت بعض جمعياتهم الخيرية ، فأنشأت مدارس داخلية مجانية ، وملاجئ لليتامى والمحرومين ، وقبلت ابناء فقرائها فى مدارسها بالمجان .

ولم يكن للوطنيين من المدارس الاميرية غير مدرسة ابتدائية واحدة ، واخرى ثانوية بحى رأس التين ، ثم انشئت المدرسة العباسية الثانوية فيما بعد ، فكانوا يضطرون الى ارسال ابنائهم الى تلك المدارس الاجنبية المتعددة ، رغم ما كان يسود منهاجها الدراسية من انحراف دينى وقومى معا .

كان لأولئك الأجانب معظم المباني العالية والعمارات الشاهقة ، ولهم قصورهم التي يعيشون فيها عيشة الأثرياء المترفين ، بل الأمراء الناعمين ، وهي قصور ما يزال بعضها قائما الى اليوم ، تميزت بها الاسكندرية على غيرها من المدن . اما استغلال المرافق العامة كالنور والماء والمواصلات، وتجارة الصادر والوارد ، فقد كانت : اما ملكا لأفراد منهم ، أو احتكارا لشركاتهم . وكان المساهمون في هذه الشركات وأعضاؤها ومديريها وكبار موظفيها منهم ، ولهم النفوذ المطلق في البورصتين ، الأوراق المالية والعقود ، يحركون الاسعار فيهما صعودا أو هبوطا لمصلحة أسهمهم وتجارتهم .

كانت مكاتبهم التجارية تملأ اهم شوارع المدينة ، وهي تعمل في تصدير محاصيل البلاد ، وأهمها القطن عماد الثروة الأهلية ، وتستورد كل ما يحتاج اليه القطر من مواد ضرورية استهلاكية أو كمالية ، وتنقلها الى داخل البلاد . . . كانت مخازنهم مليئة بالسلع العادية وبالسلع الفاخرة . . . كان تجار التجزئة منهم يزحمون الشوارع والحارات والأزقة ، يبيعون للمواطنين أكثر ما يأكلون ويشربون ويلبسون . . . كان بعض هذه الجاليات يتجر فيما هو محرم شرعا ، أو ممنوع قانونا ، فمنهم عصابات تحترف الاتجار بالمخدرات وبالرقيق الأبيض . . . كانت لهم أساليبهم الخاصة في التهريب ، يمارسونها بعون من قناصلهم المشتركين معهم ، وبمساعدة جهاز البوليس الذي يشرف عليه الإنجليز .

ومع أن الاسكندرية لم تكن بلدا سياحيا من الدرجة الأولى بومذاك ، فقد فُصت بمجموعة من فنادق الدرجة الممتازة ، في مقدمتها فنادق « كلاريدج » و « ماجستيك » و « وسافواي » . . . هذه الفنادق الفخمة كانت مرتعا للهوهم وابعثهم ، ومجالا فسيحا لحباتهم المترفة الناعمة ، لا تضارعا لحياة الساكنين من الأغنياء على شواطئ فرنسا وإيطاليا .

كانت لهم صحافة عالية الصوت تخدم مصالحهم ، وتندفع عن امتيازاتهم . من هذه الجرائد اليومية : « بورس اجبسيان » و « الريفورم » و « البروجريه » و « الاجبشيان جازيت » و « الفردى الكسندري » و « المساجري » و « تاخودروموس » و « جورنال دى كير » ، وغيرها من الصحف الاسبوعية والشهرية عدا جريدة عربية لأسرة متمصرة هي أسرة رشيد شميل ، احتكرت بنفوذهم نشر اعلانات المحاكم المختلطة ذات الأجر المرتفع ، نحو أربعين عاما ، فاقتنى أصحابها العمارات ، وأسهموا مع الأجانب في الشركات !! .

أرأيت ؟

كان للاجانب في الاسكندرية ، دولة داخل الدولة ، ونادرا ما كنت تسمع اللغة العربية واللجة المصرية في شوارعها وطرقاتها ومنتدياتها ، المزدحمة بأولئك الضيوف الثقلاء ، والذين لا يتحدثون الا بلغاتهم وبلهجاتهم ، وبرطانتهم .. !!

أما اصحاب المدينة ، فكانوا مبعدين عن كل نشاط مالى أو اقتصادى أو صناعى يجرى على أرضهم .. يعيش الفن مناه على ايراد ثابت محدود من ريع بعض العقارات القديمة ، أو من ادارة واستغلال الاملاك الموقوفة على أسرهم ، أو من مزاولة بعض النشاط التجارى الثانوى . أما غيرهم من أبناء الطبقة الوسطى ، فيعملون فى الوظائف الصغيرة جدا فى مصالح البريد والجمارك « والكورنيتينات » و « القومسيون البلدى » وكانت ممارسة الأعمال التى تشبه أعمال السخرة فى الميناء وفى المرافق الأخرى ، فى ايدى « معلمين » يستخدمون فيها عددا كبيرا من الكادحين النازحين من الصعيد الى الاسكندرية ، فى طلب القوت .

وكانت اقامة الوطنيين مركزة فى الاحياء الوطنية القديمة ، فالأعيان والتجار والموظفون يقيمون بقسم الجمرك ، وأصحاب الحرف وعمال النقل والشحن فى ميناء البصل وميناء الاسكندرية يسكنون فى قسم كرموز ، الى أن تيسر للقادرين من الأهالى الانتقال الى قسم محرم بك أو ضاحية الرمل ، عند ما بدأ العمران يمتد إليها .

هذه هى الحال المؤلمة المحزنة التى كانت عليها الاسكندرية ، عندما وصل إليها الشيخ عبد المجيد اللبان ، للتدريس فى معهدىها الدينى الجديد فى عام ١٩٠٦ ، ورأى الأهالى يطوون جوانحهم على اللذل والمسكنة مكرهين ، يحاولون تحطيم هذا الحصار الذى فرضه عليهم الاستغلال الاجنبى الجشع الشره ، ليأخذوا مكانهم الطبيعى فى مدينتهم ، فلا يقوون . وحاولوا عبثا أن يحققوا لأنفسهم حياة كريمة ، تقوم - فى القليل - على المساواة بينهم وبين هؤلاء الوافدين الطامعين .

تشمر الشيخ عن ساعده ، وأقبل على معاونتهم لتحقيق هذه الآمال ، بإيمان وعزم صادقين . فعمل أولا على هدم ما يقوم بين السياسة ورجال الدين من حواجز ، وشرع يشاطر الأهلين كفاحهم فى سبيل اصلاح مدينتهم ، ثم كفاحهم فى تحرير الوطن من المحتل ، مع كفاحهم لاسترداد المدينة من ايدى هؤلاء الفاصبين من الاجانب . وكان للشيخ من ثقافته

العلمية الواسعة ، ومن اتصالاته العديدة بكثير من المواطنين المخلصين ، ومن شجاعته الأدبية النادرة ، ما أهله ليحتل مقام الصدارة والتوجيه ، في كل نضال نهض به شعب العاصمة الثانية في جميع الميادين والمجالات ، فأصبح فيما بعد ، زعيم الاسكندرية ، أو شيخ السكندريين .

كانت أول خطوة خطاها في هذا السبيل ، ان جعل من داره الكبيرة التي اشتراها في صميم الاحياء الوطنية ، مقرا لندوات سياسية وثقافية ودينية ، تضم كبار العلماء والعبان المدينة وموظفيها ومثقفوها من ذوى المهن الحرة كالاطباء والمحامين والتجار وغيرهم ، هادفا بهذا الى ايجاد رابطة وثيقة بينهم جميعا ، بالتعرف على بعضهم بعضا ، ثم بالتعاون على خير المدينة واهلها . وكان يحضر بعض هذه الندوات من وفد على الاسكندرية من رجال العلم والسياسة والادب من القاهرة . في هذه الندوات كانت تعرض المشكلات المحلية أو العامة للمناقشة ، فاذا انتهى النقاش الى رأى معين في مشكلة ما محلية ، كلف كل فريق من الحاضرين بحل ما يتصل به من جوانبها . ثم خطا الشيخ خطوة ثانية ، فأسس « جمعية ارشاد الخلق الى الحق » لدعوة الناس الى التمسك بالدين والعمل باحكامه في امور دنياهم وآخرتهم ، وكانت امور الدنيا تشمل الواجبات الوطنية المفروضة على كل مصرى ، وما هو مطلوب منهم بدله في سبيل استقلال الوطن .

لقد ضمت هذه الجمعية مع اعضائها من العلماء ، اعضاء من جميع الطوائف - وكان من وعاظها ودعائها تلميذه الشيخ عبد المجيد سليم - وكانت توضع لها في كل اسبوع برامج مفصلة تشمل اسماء المحاضرين وموضوعات المحاضرات ومكان القائها ، كان بعضها يلقي في المساجد الكبيرة في مساء بعض الايام وعقب صلاة كل جمعة ، والبعض الآخر كان يلقي في سرادقات فسيحة يدعى اليها أبناء المدينة دعوة عامة ، ولم يكن المحاضرون أو الخطباء من العلماء وحدهم ، بل كان منهم المحامون والمثقفون لقافة عالية من الموظفين والادباء .

ثم خطا الشيخ خطوته الثالثة ، فأتجه الى ميدان البر والاحسان المنظم ، بعد ما هاله نشاط الأجانب في جمعياتهم الخيرية وبرهم بطوائفهم ، فأسس « الجمعية الخيرية لسكان قسم الجمرك » ، كمثال لما يجب ان تقوم عليه جمعيات البر في كل قسم من اقسام المدينة ، وعلى غرارها تأسس في معظم الاقسام جمعيات مماثلة ، فكانت أول جمعية من نوعها في مصر .

ولم يكن الغرض من تأسيسها جمع المال - ولا سيما في شهر رمضان -
وتوزيعه على المحتاجين ، أو المساعدة في تعليم أبناء المدينة الفقراء ، أو
توزيع الكسب عليهم في المناسبات والاعياد فحسب ، بل كان همه الأول من
تأسيسها ، هو تدريب الشعب على أعمال البر المنظم ، واشاعة حبه في
النفوس .

ولا يزال بعض هذه الجمعيات قائما يؤدي رسالته بنجاح إلى اليوم
ماذا كانت نتيجة هذه الخطوات الثلاث ، لا سيما الخطوتان الأولى ،
التي كان لهما دور كبير في ثورة سنة ١٩١٩ الخالدة ؟
اسمع ياسيدى ..

الف محمد سعيد بك رئيس نيابة الاسكندرية - وكان من رواد
ندوات الشيخ ومن أعضاء جمعياته ، ثم كان رئيسا للوزارة مرتين الأولى
في عهد الخديوى عباس حلمي في ١٣ فبراير سنة ١٩١٠ الى ٥ ابريل
سنة ١٩١٤ والثانية في عهد السلطان أحمد قواد في ٢٠ مايو سنة ١٩١٩
الى ٢٠ نوفمبر من السنة نفسها - رابطة من الأهالي للقيام بالاصلاح
الداخلي الذي يتطلع اليه السكندريون ، والسعى للفوز بحقوقهم المشروعة
.. فأسسوا أولا ناديا لهم سموه « النادى الخديوى » ليكون مقرا
لاجتماعهم ، بعد ما احتل الأجانب فرع نادى محمد على بالمدينة . ثم
أسسوا « جمعية العروة الوثقى » لنشر التعليم بين أهل الثغر ، فأنشأت
بعض المدارس الابتدائية والثانوية ، ثم مدرسة محمد على الصناعية ،
وملجأ الأيتام الصناعى في حي الشاطبى .

وهكذا شعر المواطنون للمرة الأولى ، بأنه قد أصبحت لهم مؤسسات
خيرية وتربوية مصرية تضارع مثيلاتها من المؤسسات الأجنبية .

واذ جنى المواطنون ثمر تضافرهم ، نظموا صفوفهم لخوض غمار
انتخابات « القومسيون البلدى » ، لشغل كراسى الملاك ودافعى الضرائب ،
لينضموا الى زملائهم الوطنيين المعينين بحكم وظائفهم ، ففاز بمثلهم في
الانتخابات ، ولهذا قوى الراى الوطنى في « القومسيون » ، واستطاع
الأعضاء الوطنيون أن يحدوا من تجاهل الأجانب ، حق الأحياء الوطنية في
مشروعات الاصلاح والتعمير .

ثم خطوا خطوة اخرى ، لكنها واسعة ، فتعاونوا على اصدار جريدة
يومية تكون صوت الاسكندرية الناطق عن أهلها ، أمام طغيان الامتيازات
الأجنبية ، سموها « الأهالى » .

وكان هناك فريق من شباب الموظفين ، نجحوا في أسلوب انتهجو ، هو الالتحاق بالوظائف مهما كانت صغيرة ، ثم متابعة الدراسة الليلية للفوز بالشهادات العالية ، ثم السعى الحثيث الدؤوب لشغل المناصب اللائقة بمؤهلاتهم الجديدة ، وقد وفّوا كل التوفيق في أسلوبهم هذا ، ووصل بعضهم الى مناصب المديرين في الجمارك وفي البريد ، منهم المرحومون : محمد فهمى عبد المجيد بك - والد الاستاذ عصمت عبد المجيد مندوب مصر في الامم المتحدة - وحسين فهمى بك وفد ولى وزارة المالية في ١٥ يناير سنة ١٩٤٩ في وزارة ابراهيم عبد الهادى باشا ، وعبد الرازق ابو الخير بك ، وعبد الرحمن زهدى بك .

ثم فكر محمد سعيد بك في انشاء ناد للموظفين ، فانشأ « نادى موظفى الحكومة » ، ولم يلبث اعضاؤه ان انضموا الى القائمين بحركة الاصلاح الداخلى لمدينتهم ، ومن هذا النادى ، انبثقت « جمعية المؤاساة الاسلامية » المشهورة بمسئشفاتها العظيمة .

اما التجار المصريون ، فانشأوا اول غرفة تجارية لهم ، فكانت نواة اصلاح وتجديد في الميدان التجارى ، ثم صدرت جريدتا « التجارة » و « الجريدة التجارية المصرية » ، لخدمة التجارة الوطنية .

ارأيت ماذا فعلت ندوات دار الشيخ اللبان وجمعياته « ارشاد الخلق الى الحق » ، في شباب الاسكندرية وأهلها ؟

لقد اعاد الرجل الى المدينة مصريتها ، بعد ان عراها منها الاجانب ، في كل مجال ، وفي كل ميدان .

نعم ، لقد مصرها من جديد ، ويث في اهلها روح الثقة بالنفس ، والاعتداد بالحق ، والشجاعة والاصرار في طلبه .

ولم يصرف السكندريين اهتمامهم بالاصلاح الداخلى لمدينتهم ، عن القيام بدورهم في معركة الاستقلال ومحاربة المستعمر ، بل ان هذا الاهتمام زادهم خبرة في نضالهم ، جعلت دورهم في المعركة الكبرى حاسما وف

ومنذ قيام حركة مصطفى كامل الى شوب ثورة سنة ١٩١٩ التى قاد الزعيم العظيم سعد زغلول ، أدت الاسكندرية الواجب عليها في ميدان الجهاد الوطنى بصدق واخلاص ، قدرهما فيها مصطفى كامل ، فجعل منها منبرا أعلن من فوقه مبادئ حزبه الوطنى من خلال خطاب سياسى ضاف القاه فيها في يوم ٢٢ اكتوبر سنة ١٩٠٧ .

في تلك الحقبة ، صدرت بالاسكندرية ، الى جانب جريدة « الأهالي »
التي كان يحررها الاستاذ عبد القادر حمزة - وهو من اعلام الصحافة في
ثورة ١٩١٩ الذين تفخر بهم مصر وتعتز ، فقد انتقل الى القاهرة وانشأ
بها جريدة « البلاغ » ناطقة باسم الوفد المصري - جرائد « الأمة » ورأس
تحريرها الاستاذ محمد الهياوي من فحول الكتاب الذين انجبهم الأزهر
الشريف ، و « الشعب المصري » ورأس تحريرها الاستاذ سعد اللبان النجل
الأكبر للشيخ ، و « وادي النيل » ورأس تحريرها الاستاذ محمد الكلزة .
ومع انها كانت تصدر كلها في وقت واحد ، هو الصباح ، الا انها كانت
واسعة الانتشار .



ميدان آخر جليل الخطر ، اسهم فيه الشيخ بجهوده ، وناضل فيه
ماوسعه النضال الكريم الشريف ، دفاعا عن الدين وعن شريعة المسلمين
ففي الربع الأول من هذا القرن ، بدت في المجتمع المصري ظاهران
خطيران :

الأولى : موجة الالحاد التي حمل ميكروبها بعض العائدين من الخارج
بعد ما اتموا دراساتهم ، متأثرين بأراء فجة استهواهم بريقها ، ودعايات
مسمومة لبعض المستشرقين انطلى عليهم زيفها ، فآخذوا ينشرون هذه
الدعايات في الصحف ، ويذيعونها في الاندية المشبوهة في محاضرات معبأة
بالشك في الاسلام وفي نبي المسلمين عليه الصلاة والسلام ، فتصدى لهم
المؤمنون بدينهم ، الواعون حقيقته ، داعين هؤلاء الشبان المفتونين الى
العودة الى دينهم القويم ، خير دين انزل على خير نبي . . كانت مقالات
الشيخ اللبان تحتل صدر صحيفة « الأهالي » ، مكان مقالها الافتتاحي ،
في كل صباح ، والمفتونون يردون على ما يكتب ، فيأخذ بتلابيبهم ، حتى
الزمهم الحججة ، فصلح حالهم ، وعادوا مسلمين ، بل من أفضل المسلمين
تقى وورعا وايمانا .

وهنا لابد لي من انوه بما كان من عمل مشكور للانبا يوانيس - بطريرك
القبط الارثوذكسي فيما بعد - فقد آزر الشيخ ووقف الى جانبه ، حينما
انتهزها بعض القبط فرصة ، فحاولوا النيل من الاسلام ، حتى خبفت
الفتنة ان تشيع بين المسلمين وبين اخوانهم الاقباط ، لكنهما بتضافرهما ،
حفظا وحدة الأمة من التصدع والانهييار .

الثانية : تمثلت في ذلك النشاط الجريء الذى كان يبدیه المبشرون الأجانب ، بما يصدرونه من مؤلفات تتناول بالنقد وبالتجريح كثيرا من المسائل الدينية الحساسة عند المسلمين ، كمسائل الميراث وتعدد الزوجات ، وتجاوز بعضهم الى الطعن الصريح فى الاسلام والمسلمين ، فى عظاتهم الاسيوعية فى كذائهم ، وتجرا آخرون فاستهوا بختلهم وخذاعهم شبانا وشابات من ذوى الفهم السقيم والعقل المريض ، فحاولوهم من الاسلام الى المسيحية .

لم يقف الشيخ وزملاؤه العلماء متفرجين ، بل هبوا لمقاومة هذه الظاهرة الخبيثة ، بالرد على ترهات المبشرين والوعاظ الخادعين ، لانقاذ ضحايا الجهل والفقر من ايديهم ، بعد أن اشتروا منهم أنفسهم ودينهم يدرهم معدودات .

وكان العلماء ينتظرون مؤازرة من الحكومة لاختتام هذه الفتنة الجامحة ، فلما لم تفعل ، أعلنوها صراحة فى بيان صريح شديد ، كان أول من وقعه شيخنا اللبان : « انه اذا لم يكف المبشرون عن التفرير بالضحايا من ضعاف العقيدة ، فان علماء الاسلام ، وقد التزموا حتى هذا الوقت الصمت ، احتراماً لمبادئ الاسلام التى تقرر حرية العقيدة لأهل الكتاب .. سينزلون الى الميدان ، وحينئذ يعلم المبشرون ان ستكون الغلبة ، وسيهزم حقنا باطلهم ، وسينصرنا الله عليهم ، ولينصرن الله من ينصره ، ان الله لقوى عزيز » .

وكان لجماعة « ارشاد الخلق الى الحق » دور فعال فى هذه المحنة التى وقى الله الاسكندرية ، ومصر كلها ، شرها ، فكان أعضاؤها من العلماء يغشون مجتمعات المبشرين ويناظرونهم ويفندون مزاعمهم ، ويكشفون زيف تخرصاتهم أمام الجميع ، حتى أخدمت الفتنة ، وسكنت حركة المبشرين ، وعادوا الى صوامعهم ، مؤثرين المسألة على ما تورطوا فيه من شر بعد كفاح مرير ، لكنهم فى الوقت نفسه ، أرسلوا الى الخديوى والى حسين رشدى باشا « رئيس النظار » شاكين باكين ، فدعا رشدى باشا الى مقابله ، شيخ معهد الاسكندرية ، الشيخ أبو الفضل الجيزاوى - شيخ الأزهر فيما بعد - وحديثه فى الأمر بلهجة عنيفة ، مؤنبا العلماء فى شخصه ، على تكدير صفو الضيوف الأجانب !

فأجابه الشيخ الجيزاوى بصوت عال صارخ بالاحتجاج ، قائلا له :

— ان أمركم لعجيب يا باشا ! تتركون المبشرين يعيشون فى أرضنا فسادا . ضد ديننا الحنيف ، ثم تحظرون على العلماء أن يهبوا لنصرة دينهم ، هذا ما لا ينبغى أن يكون ..

وفادى مكتب رئيس النظار غاضبا .

ورفع الأمر الى الخديوى ، فطلب مقابلة رئيس هذه الجماعة التى تصدت للمبشرين ، جماعة « ارشاد الخلق الى الحق » ، فذهب اليه الشيخ اللبان ومعه أربعة عشر كتابا مما نشره المبشرون طعنا فى الاسلام وأهله ، مما كان له تأثير قوى وحسن فى نفس الخديوى ، فقال لرشدى باشا :

— لا تتعرض للعلماء ، دعهم يؤدوا الواجب عليهم نحو ديننا ، ما دام هذا الاداء فى حدود القانون .

وذاع أمر هاتين المقاتلتين فى الناس جميعا ، فارتفع شأن الجماعة ، وشد من ساعدها ، وشجعها على العمل بدأب ونشاط فى تثقيف الأهالى وتعليمهم ، واكد السكندريون زعامة الشيخ لمدينتهم ، بوفود احتشدت بها داره ، معترفين بفضلها ، شاكرين جهوده فى سبيلهم ، وكلما زادوه اقبالا ، زادهم عملا وجهدا ، وبذل لهم من وقته وصحته ، ماخلد له فى الاسكندرية ذكرا عطرا لن تمحوه الأيام .

وتقديرا من اولى الأمر لجهوده ، صدر قرار بتعيينه عضوا بمجلس ادارة المعهد فى ٥ اكتوبر ١٩١٣ .

وفى اغسطس سنة ١٩١٤ اندلعت الحرب العالمية الاولى ، واعلنت الاحكام العرفية بمصر ، وفرضت بريطانيا حمايتها عليها كما هو معروف ، وتخرجت الأمور ، وساور القلق النفوس ، وازداد السخط على البريطانيين لعسفهم وطغيانهم ، فقد اشتطوا فى تسخير موارد البلاد لخدمة مجهودهم الحربى ، وازدادوا عسفا فجنّدوا العمال والفلاحين واستخدموهم فى اعمالهم المدنية ، بعدما غصبوا خيولهم وحميرهم ، واستولوا على محصولات البلاد الزراعية واقوات الشعب لتموين جيوشهم .

وكما يعلم القارىء ، انضمت تركيا الى المانيا ضد انجلترا وحلفائها ، فكان من الطبيعى ان يؤيد المصريون تركيا وناصروها ، لما كان يربطهم بها من صلات مشهورة ، غير منكورة ، ولانهم كانوا يريدون الخلاص من الاحتلال الانجليزى ، على يد المانيا وحليفها تركيا .

وقدر الترك : انه اذا لم يستطيع المصريون ان يقدموا لهم فى هذه الحرب العالمية المساعدات التى افوها منهم ، فى حروبهم ، وكانت تتمثل فى مساعدهات مادية تجمع من تبرعات سخية ، وخدمات صحية يؤديها الهلال الاحمر المصرى ، كما حدث فى حروبهم مع ايطاليا فى ليبيا ، ومن قبل فى حروبهم مع اليونان والصرب والبلغار ، وهى الحرب المعروفة بـ « حرب البلقان » . فان فى استطاعتهم ان يقدموا لدولة الخلافة الاسلامية من المساعدات ما هو اكثر تأثيرا فى الحرب ، من المعونة المادية . . . ان حركة شعبية مضادة يقوم بها المصريون ، سوف تضر بالمجهود الحربى البريطانى وتلحق به اقدح الضرر ، ومن شأن حركة كهذه ان تفيد تركيا اعظم فائدة . .

فاعلم سلطان تركيا وخليفة المسلمين الجهاد ، واذاغ بياناً حضهم فيه عليه ، لانه جهاد فى سبيل الله ، وتأييد لدولة الخلافة الاسلامية فى حربها المقدسة ، وطلب منهم التطوع فى جيشها ، او مدها بالمساعدات ، او الثورة على اعدائها فى بلادهم . ووزع هذا البيان فى جميع اقطار العالم الاسلامى ، ووصلت منه الى مصر الوف من النسخ ، رغم الرقابة المفروضة على المطبوعات ، الداخلى منها او الخارج . .

وخافت بريطانيا ان تلبى مصر النداء ، فترفع علم الجهاد وتنور عليها ، فتفسد عليها امرها ، وهى فى حرب ضروس ، ولم يكن باستطاعتها ان تصنع فى مصر شيئاً تفتت به تأثير هذا البيان ، فكلفت قاضى قضاة السودان ، العالم المصرى المرحوم الشيخ محمد مصطفى المراغى - شيخ الازهر فيما بعد - ان يرد على البيان بفتوى دينية تقعد بالمسلمين عن تلبية نداء خليفتهم ، فنهض الشيخ بالتكليف ، فافتى بأن زعم الجهاد الدينى - فى رايه - قد انتهى ، وزاد فقال « ان باب الجهاد فى الفقه الاسلامى ليس من ابوابه الاصلية ، وان احكام الجهاد وضعت استجابة لنزوات الملوك والخلفاء لافراض سياسية وحربية ، وليس لها اصل فى الدين ، ولولا خوف الاثمة من بطش الخلفاء بهم ، ماكتبوا حبراً فى باب الجهاد » .

ونشرت جريدة « السودان » في الخرطوم ، هذه الفتوى ، وطبعت السلطات البريطانية الوفا منها وزعتها في البلاد الاسلامية التي يحكمها الانجليز وحلفاؤهم ، ونشرتها يومذاك في مصر جريدة « المقطم » وحدها .

عندئذ زلزل الراى العام ، وغضب العلماء وهاجوا ، لما فى الفتوى من افتراء على الأئمة ، وتشكيك صريح فى حكم من احكام الدين ، وكتب الشيخ اللبان مقالا مسهبا فند فيه هذه الفتوى « السياسية » ، بل حطمها ، ودفع عن الأئمة والعلماء الضعف والاستخذاء فى أمور دينهم ، وأبان كيف تعرض بعضهم للسجن وللتعذيب على يد بعض الخلفاء ، لينزلوا على رأيهم الباطل فى محنة القول بخلق القرآن ، وأوضح حقيقة الجهاد فى التشريع الاسلامى وما تستند اليه احكامه من الأدلة .. وأرسل المقال كعادته الى جريدة « العلم » التى كان يصدرها الحزب الوطنى بعد تعطيل « اللواء » ، فأعاده اليه صديقه الاستاذ أمين الرافعى رئيس التحرير ومعه كتاب رقيق قال له فيه : ان نشر هذا المقال معناه تعطيل الجريدة ، واعتقال الكاتب والناشر ، ومحاكمتها عسكريا .

ولكن أحد تلاميذ الشيخ ، هو المرحوم الشيخ عبد الحميد النحاس ، وكان من الأدباء والشعراء البارزين فى ثورة ١٩١٩ ، تحمس لنشر المقال ، فنسخ بخطه صورة منه وذيله بامضائه وبعث به الى « الجريدة » ، فضبطت رقابة البريد المقال ، واعتقل مرسله ، وحاول المحققون العسكريون الانجليز ان يعرفوا منه الكاتب الحقيقى للمقال ، لأنه غير معقول أن يستطيع شاب فى مثل سنه كتابته ، فأصر على أنه هو كاتبه ، فقرروا نفيه الى مالطة ، فسيق اليها وبقي بها أربع سنوات ، حتى انتهت الحرب فاطلق سراحه .

وما لبثت السلطات البريطانية أن عرفت من عملائها ، صلة الشاب بالشيخ ، وتردده على داره ، فوقفوا على السر الذى عنه يبحثون ، فوضعوا الشيخ تحت الرقابة العسكرية الخفية طوال مدة الحرب

ومن الطريف أن الشيخ كشف بالصدفة أمر هذه الرقابة ، وعرف أشخاص المكلفين بها . ففى صباح ياكرو هو فى طريقه الى مسجد أبى العباس ليلقى فيه درسه اليومى ، اقترب منه شاب - كان يلحظه دائما قريبا منه - وقبل يده ورجا منه الصفع والمغفرة ! فسأله عن أمره ، فقال أنه « المخبر السياسى » الجديد المكلف بمراقبته ، وكان له زميل قام بالمراقبة قبله ، فقد طفليه واحدا بعد الآخر ، فى خلال ثلاثة أشهر ، « فاعتقد أن هذا انتقام من الله لقيامه بهذا العمل ضد فضيلتكم » فاستقال من البوليس

السياسى ، وعينت بدلا منه منذ اسبوعين . واليوم أصبح طفلى الوحيد مريضا ، وأخاف أن أفقده ، فقررت أن أطلعكم على أمرى ، راجيا منكم الصفح والمغفرة !!

فطيب الشيخ خاطره ، ونصحه بأن يكون أمينا فيما ينقله من أخباره، وله بعد ذلك أن يطمئن الى رضاه عنه وعطفه عليه . وشفى الطفل بإذن الله ، وبقي هذا « المخبر » ألزم للشيخ من ظله ، بل كان يحمل عنه ما قد يشتريه فى طريقه من سلع ، أو حافظة كتبه وأوراقه ، وكثيرا ما دعاه الى الغداء على مائدته

لقد أرادت هذه السلطات البريطانية أن تنفى الشيخ الى مالطة ، فاعزت الى القائمقام أحمد فؤاد بك من كبار رجال ضباط القلم السياسى، بتعقبه وكتابة تقرير ضده ، على أساسه ينفذ النفى . وكتب التقرير وعاد الى بيته مهموما ، فسأله صهره والد زوجته إبراهيم رفعت باشا عن سر همه ، فأنبأه بما حدث وزاد فقال له انه غير مطمئن الى ما كتبه ، فنهره وقال له : الا تعلم اننا - الشيخ وانا - كشقيقين يحب كلانا صاحبه الحب كله ويرجو له كل خير ؟ ذلك لان زوجتى - حماتك - ابنة الشيخ طوم - تعتبر نفسها من أبناء الشيخ للصلة القوية التى كانت تربطه بوالدها . فاذهب واكتب تقريرا آخر ، سد فيه كل المسالك والشفرات التى يمكن أن ينفذوا منها الى سبب لنفى الشيخ . وصنع احمد فؤاد ما أرشده اليه صهره ، ومزق التقرير الاول ، وقدم التقرير الثانى ، فلم يجد الانجليز فيه من الاسباب ما يبرر النفى ، فعدلوا عنه

ولقد حدث فى سنة ١٩١٠ حادث كان الاول من نوعه ، اذ أصدر الشيخ سالم السحراوى قاضى المدينة الشرعى ، حكما بفرض نفقة على زوج لزوجتين له ، فأطلق الرصاص من مسدس ، كان يخفيه فى جيبه ، على القاضى ليقتله وهو فى مجلس القضاء ، ونشرت الصحف الحادث ، فكان مثار تعليقات وآراء حول دوافعه وأسبابه ، وألح بعضهم على « ناظر الحقانية » - وكان سعد زغلول باشا - أن يصدر تشريعا يحرم به تعدد الزوجات ، أو وضع قيود تحد من هذا التعدد ، حتى لا يتكرر مثل هذا الحادث ، ولز بعضهم الشريعة الاسلامية فى بعض ما كتب . فانبرى الشيخ اللبان مدافعا عن الشريعة السمحة ، ونشر مقالا فى جريدة « المؤيد » عنوانه « لا تستظهروا على الاسلام » فند فيه آراء أولئك

الكتاب ، مظهرا زيفها وباطلها ، ثم أوضح وجهة نظر الاسلام في اباحة التعدد .. كل هذا في بيان شاف رصين ، وحجة ساطعة وأسلوب مقنع ، وطلب الى الوزارة الا تصفى الى هؤلاء الصائحين بالفساد والعبث ، فلا تقدم على تقييد الاحكام الشرعية ، لان فيها سعادة الناس جميعا لو كانوا يعقلون

كانت هذه المقالة اول اتصال للشيخ بالصحافة .. قراها سعد فأعجب بها . ودعا صاحبها اليه ليتعرف عليه ، فكان هذا اول لقاء بين الرجلين ، اعجب فيه كل منهما بأخيه

ولما قام سعد قومته الكبرى في سنة ١٩١٩ ، كان الشيخ في مقدمة الدين وقفوا الى جانبه ينصرونه ويؤيدونه ، فكان بيته في الاسكندرية « بيت الامة » ، فيه عقدت الاجتماعات الوطنية ، وفيه ألفت اول لجنة مركزية للوفد مثلث فيها طبقات الشعب جميعا . ولهذا حينما خلى الانجليز سبيله ، في اليوم الذي خلوا فيه سبيل سعد وصحبه من مالطة ، غادر المعتقل الى بيته في موكب شعبي كبير ، وتألفت في انحاء الشجر مظاهرات ضمت الألوف تهتف بالاستقلال وبحياة مصر وبحياة سعد وبحياة الشيخ ، كانت بداية العمل الثوري الكبير الذي نهض به الشعب الاسكندري فيما بعد

وفي العام الاول من الثورة - عام ١٩١٩ - وبعد هبوبها بأشهر قلائل ، وسعد يجاهد في أوربا ويناضل ويرفع صوت مصر مطالبا باستقلالها التام ، حدثت في الاسكندرية فتنة عمياء بين الأرمن والوطنيين ، سقط فيها عشرات القتلى من الفريقين ، كالفتنة التي حدثت في القاهرة في الوقت نفسه

فاستغل أعداء الوطن هذه الفتنة اشنع استغلال ، والقوا في روح الأقليات والأجانب انهم معرضون للانتقام والأذى من المصريين ، وخشى الأرمن على انفسهم ، فجمعوا جموعهم في كنيستهم ، واحتموا بها في حراسة جند من الانجليز ، ومد الشيطان رأسه وقودا للفتنة .. وهنا ظهر الشيخ اللبان في الميدان ، ليقد رأس الشيطان ، وليطفيء نيران الفتنة ، فدعا قساوسة الأرمن وبطارقتهم وكبراءهم الى الاجتماع في داره ، فلبوا الدعوة والفرع يأكل أفئدتهم ، فأمنهم الشيخ على انفسهم وعلى طائفتهم ، قائلا لهم : ان الوطنية المصرية أجل وأكبر من أن تحقد على مصرى مهما كان

أصله أو ملته . ثم غادر الدار وهو يتوسطهم ، فطاف بهم المدينة ، وزار معهم كبراءها وأهل الثقة فيها ، فزادوا من اطمئنان الأرمن . وبهذا اجتشت جذور الفتنة ، وهدأت المدينة تماما . ثم صورت صورتان : صورة للعلماء مع زعماء الأمن ، وصورة لهم مع قساوستهم ، كرمز لاتحاد عناصر الأمة

وكان عبد الخالق مذكور باشا - كبير تجار العاصمة يومها - في طريقه الى أوروبا سنتئد ، فأودعه الشيخ اللبسان هاتين الصورتين ليسلمهما الى الزعيم سعد زغلول في باريس . . واجتمع سعد بأعضاء لجنة ملنر في لندن قبل مجيئها الى مصر ، وعلى لسان أعضائها ألح الانجيلز في طلب حماية الاقليات ، واحتجوا بفتنة الأرمن في الاسكندرية ، فأراهم سعد الصورتين ، فافحمهم ولزمتهم الحجة

لهذا لم يفت سعدا أن يذكر هذا الصنيع للشيخ ، فيشكره عليه في أول خطبة له بالاسكندرية فور عودته من الخارج

ووصلت لجنة ملنر الى القاهرة بعد ظهر يوم الأحد ٩ ديسمبر سنة ١٩١٩م ونزلت في فندق سميراميس ، فأثار وصولها هياجا واضطرابا ، وتآلفت المظاهرات ضدها في جميع أنحاء البلاد ، سقط فيها مئات من المصريين ، سرعى وجرحى ، واحتجبت جميع الطوائف على قدومها ، حتى السيدات المصريات اجتمعن في دار البطيركية المرقسية وأصدرن بيانا شاداكن فيه طوائف الأمة الاحتجاج ، والفن مظاهرة كبيرة سارت من دار البطيركية الى شارع كامل (الجمهورية الآن) فميدان الأوبرا فشارع عابدين ، حيث اعترض طريقهن الجنود البريطانيون ، طالبين منهم التفرق ، فصوبوا البنادق الى صدورهن ، فازددن اصرارا على المضي بمظاهراتهن حيث يردن . فغنجل الانجليز ، ودعوهن ، فسن في بعض الشوارع والجمهور يحييهن وينظم اليهن ، ثم تفرقن بارادتهن

وبعد ثلاثة اسابيع من وصول اللجنة ، أصدرت بيانا بمهمتها ، قالت فيه ان اللجنة أوفدت من قبل الحكومة البريطانية بموافقة البرلمان البريطاني ، للتوفيق بين أمانى الأمة المصرية ، والمصالح الخاصة التي لبريطانيا العظمى في مصر ، مع المحافظة على الحقوق المشروعة لجميع الأجانب القاطنين في البلاد

ثم قالت اللجنة : « ونحن على يقين من انه يمكن الوصول الى هذا الغرض مع توافر حسن النية من الجانبين . واللجنة ترغب رغبة صادقة في أن تكون العلاقات بين بريطانيا العظمى ومصر ، قائمة على اتفاق ودي يزيل أسباب الاحتكاك ، ويمكن الأمة المصرية من صرف كل مجهوداتها الى ترقية شؤون البلاد في ظل أنظمة حكم ذاتي »

لقد لقي هذا البيان استياء من جميع الهيئات وطوائف الأمة بلا استثناء ، فرد عليه الوفد المصري ، ورد عليه الحزب الوطني ، ورد عليه امراء البيت المال في يوم ٣ يناير سنة ١٩٢٠ ببيان اختلفت فيه الآراء ، وقد قالوا فيه ،

— « أبناء مصر ، مواطنينا الأعزاء

» يوم اقتضت الارادة الصمدانية ابداع مصر مصر ، بين يدي من كان خالق مصر الحديثة وخادمها ، منقلد المصري ومرشده ، الا وهو جدنا الاكبر وسيدنا الاعظم المرحوم محمد علي الأول ، وجمعت القدرة الالهية في شخص هذا البطل العظيم الحكمة والشجاعة في أعماله ، مع الصدق والولاء نحو مصر ، فجعلت المشيئة الربانية أن يعقب هذا الشخص الجليل ، ذرية تقطن هذه الأرض الطاهرة ، مغمورة بنعمها .. فرض الله علينا بهذا خدمة مصر واخواننا المصريين ، والسير على اثر جدنا الاكبر لتحقيق آماله الشريفة ، ولتتميم أعماله النافعة لبلادنا ، والمطالبة بحقوق مصر والمصريين . وحيث أن الأمة المصرية الشريفة ، التي هي سبب عظمتنا ، وشوكتنا وفخارنا ، قد قامت بالواجب عليها قياما يجعل لها ولنا أعظم منزلة نتفاخر بها في العالم بأسره ، وبما انه لم يبق من جميع طبقات امتنا العزيزة ، طبقة الا نادت بأعظم صراحة وأجلى بيان ، مطالبة بحقوقها الشرعية المقدسة والحقة ، فقد جئنا نحن أولاد محمد علي ، لا لنشارك امتنا في أمانيتها ومقاصدها فقط ، بل لنضم صدورنا الى صدر أفرادها ، ونجعل أيدينا في أيديهم ، حيث أننا لسنا الا روحا واحدة ، حتى تكون لجسما لا يبتز ، وقوة لا تقهر ، فنطالب بحقوق وطننا ، نطالب بحقوق امتنا ، نطالب بحقوقها الشرعية ، نطالب باستقلال مصرنا استقلالاً تاماً مطلقاً ، بلا قيد ولا شرط »

ووقع على هذا البيان الامراء : عمر طوسون وكمال الدين حسين ومحمد علي ابراهيم ويوسف كمال واسماعيل داود ومنصور داود

وأرسلوا في اليوم نفسه مذكرة الى اللورد ملتر رئيس اللجنة ،
تضمنت ما جاء في البيان

وبعد أربعة أيام ، وبعد ما ناز لفظ وجدل ونقاش حول هذا البيان
مع صراحته ، نشرت « الاهرام » حديثا دار بين الأمير طوسون وبين الشيخ
اللبان ، قال فيه :

« لما كانت الأمة المصرية تحفظ لسمو الأمير الجليل عمر طوسون
باشا ، آثاره النافعة في خدمة البلاد ، وتقدر جهاده الصادق في سبيل
تحقيق أمانى الوطن ، وتعترف له بالسبق في سبيل المكرمات وتعظيم
المشروعات النافعة ، وكانت كل دعوة تصدر من سموه تقابل من الأمة
بالاهتمام اللائق بمقامه الكريم ، كان لبلاغ حضرات أصحاب السمو الأمراء
الآخرين ، حركة فكرية ظهر أثرها على صفحات الجرائد ، وعلى الساحة
الخطباء ، وتناول بعض الكتاب البلاغ للنظر في أسلوبه ومعناه ، وفي
الظروف التي صدر فيها ، بعناية كبير كادت تبعد بهم عن النظر في مشروع
الاتفاق ، وتحول بعض الجهود المهمة عن الاتجاه النافع

« ولما كنت اعتقد ما يعتقده كل مصرى ، من أن وفرة اخلاص سمو
الأمير وشغفه الزائد بان تنال البلاد حقوقها كاملة ، هما اللذان حملاه على
التقدم بهذا البلاغ الى الأمة ، ورأيت بعض الناس قد بعدوا عن فهم المراد
من هذا البلاغ ، انتهزت فرصة عودتى الى الاسكندرية ، والتشرف بزيارة
سمو الأمير ، فحدثت سموه فيما يقصده حضرات أصحاب السمو الأمراء
من هذا البلاغ ، الذى فهم منه بعض الناس أنه قصد به التأثير فى الراى
العام لحمله على خطة معينة . فأجابنى حفظه الله بأنه يقدر جهاد العاملين
حق قدره ، وتسرد نهضة الأمة واحتفاظها بحقوقها . وأنه وإن كان رايه
الخاص الذى يتمسك به كل التمسك ، هو وجوب حصول البلاد على
حقوقها كاملة غير منقوصة ، فهو يحترم راي الأمة ، لأنه راي الجماعة
التي يتحتم احترام رأيها ، وإن بلاغ الأمراء إنما هو مجرد ابداء لرأيهم
كأفراد مصريين يودون لامتهم نهاية الكمال ، وأنه لا يقصد به التأثير
فى الراى العام أو تحويل اتجاهه ، وإن كل راي تراها الأمة فهو يحترمه
ويجمله ، وإن شعاره سيظل دائما النهوض بمصر والعمل لابلغها السعادة
التي يجب أن يتمتع بها الشعب المصرى العريق ، وأن هذا المعنى هو الذى
تشير اليه خاتمة بلاغنا ، حيث أسندنا الأمر فى النهاية الى الأمة ، وجعلنا
لها الكلمة العليا فى مشروع الاتفاق

« فشكرت لسموه هذا الاخلاص السامى ، وتلك الغيرة المحموده ، واستاذنته فى اذاعة هذا ، حتى يدرك جمهور الأمة المرمى الحقيقى الذى قصد مر. هذا البلاغ ، فاذن سموه بذلك وأقره

« تلك هى العاطفة الجليلة التى دعت حضرات أصحاب السمو الامراء الى التقدم بابداء رأيهم الذى هو غاية الاخلاص ونهاية الرغبة الاكيدة فى خدمة البلاد ، مع احترام رأى الجماعة والنزول على حكمها . وذلك مظهر من أجل مظاهر الديمقراطية الصحيحة ، نضيفه مآثره أخرى الى مآثرهم الخالدة

« فالى الشعب المصرى الناهض الذى يقدر اخلاص العاملين وجهاد المجاهدين قدره . والى الأمة المصرية الكريمة الراغبة فى الحياة الحرة ، أعلن هذه الحقيقة الناصعة ، احقاقا للحق وازهاقا للباطل ، سائلا المولى عز وجل أن تنجح مقاصدنا ، وان يديم هذا التساند والتعاقد بين الأمة وامرائها . العاملين الأحرار ، وان يوفق الساعين لخلاص البلاد الى أقوم سبيل انه سميع مجيب »



ولقد ساهم الشيخ فى معارضته لمشروع لجنة ملنر ، فى اجتماع كبير عقد فى دار البلدية وخطب فيه كثيرون ، كان آخرهم شيخنا الجليل ، فنهض معارضا المشروع ، مبديا عليه « تحفظات » ، كان أول من نادى بها ، وتبنّاها المفاوضون فيما بعد

ان خواطر المصريين لم تهج لقدوم اللجنة الى القاهرة ، بل لقد فرحت يوم أعلنت لندن نبأ تأليفها فى يوم ٢٢ سبتمبر سنة ١٩١٩ ، فعمت مظاهرات الاحتجاج القطر كله ، من الاسكندرية الى اسوان ، وفقد الإنجليز وعيهم ، فأطلقوا رصاصهم على المتظاهرين ، فقتلوا مئات من الشباب والفتيات والشيوخ ، راحوا ضحية جنون المستعمر وفقدانه عقله ووعيه

وفى يوم الجمعة ٢٤ أكتوبر تزعم الشيخ اللبان مظاهرة كبرى خرجت من مسجد أبى العباس المرسى عقب صلاة الجمعة - وقد أم فيها المصلين - وانضم اليها الأهالى حتى بلغ عدد السائرين فيها نحو عشرين ألف متظاهر ، ساروا فى شوارع المدينة ، هاتفين بالاستقلال التام أو الموت الزؤام ، صائحين بسقوط لجنة ملنر ، فتصدى لهم رجال البوليس المصرى ، ثم

الانجليز بفصيلة من جيشهم ، اعملت رصاصها في الوطنيين العزل ، فسقط خمسة قتلى ونحو عشرين جريحاً ، عدا بعض ضباط البوليس الذين اصابتهم جروح ايضا

كان لهذه الفعلة صدى قوى في أنحاء البلاد ، فاستقال محافظ الاسكندرية حسن عبد الرزاق باشا ، ودعا الشيخ اللبان اعيان المدينة وكبراءها الى اجتماع في داره ، حيث وقعوا مذكرة شديدة باحتجاجهم على استعانة رجال البوليس المصرى برجال الجيش الانجليزى ، وذهب بها وفد منهم الى محمد سعيد باشا في داره ، وكان في الاسكندرية يومذاك ، فاعتذر عن عدم مقابلتهم ، فأرسلوا اليه برقية احتجاج صارخ على هذا الاعتذار

وكان الوفد مؤلفا من الشيخ اللبان والاستاذ محمد صادق ابو هيف والاستاذ محمد حسين العراجى والدكتور أحمد عبد السلام والشيخ عبد الحميد احمد باشا واليوزباشى أحمد نبيه قيودان

وتضمنت المذكرة هذه الطلبات :

- ١ - سحب الجنود البريطانيين من المدينة
- ٢ - الافراج عن جميع المعتقلين في الحوادث التى حدثت
- ٣ - التحقيق لمعرفة من المسؤول عن دعوة فصيلة الجيش البريطانى
- ٤ - اباحة حرية الاجتماعات
- ٥ - اعانة عائلات القتلى
- ٦ - نقل مأمور قسم الجمرك واحالته الى مجلس تاديب

فلنكمل الشوط مع الشيخ في مراحل حياته الحافلة
لامر ما لفى القسم العالى بمعهد الاسكندرية في عام ١٩٢٣ ، فنقل مدرسا بالقسم العالى بالازهر ، فمفتشا عاما للمعاهد ، رئيسا لقسم الوعظ ، فشيخا للقسم الثانوى ، ثم شيخا للقسم العالى .

في تلك السنة ، صدر الدستور المصرى ، وأجريت الانتخابات لأول برلمان مصرى ، فرشح نفسه لعضوية مجلس النواب عن دائرة « عزب أبو مندور » بمديرية الغربية ، ففاز بها ، واشترك في النادى السعدى - نادى الوفديين انصار سعد زغلول - ودفع خمسين جنيها هي قيمة الاشتراك السنوى في النادى ، كما يرى في الصورة الزنكوغرافية التالية لا يصلح المبلغ

البيان الشَّعْبِيّ

شركة مدينة رأس المال المدفوع

مقسمة إلى

حصة قِيَمَة كُل حِصَّة جنية مصر

تأسس بموجب قانون النادي الصدوق عليه من الجمعية العمومية

بتاريخ ٢٧ مايو سنة ١٩٢٤

مستند يبلغ جنية قِيَمَة حِصَّة واحدة

باسم مصر ما ستفيد منه مديري الادارة

غرفة التجارة

تحريراً في ٢٩ بابه سنة ١٩٢٤

شبرا النصارى

ابن الجندرية

وفي ١٩ سبتمبر سنة ١٩٢٦ صدر أمر ملكي بتعيينه عضواً في مجلس
إدارة الأزهر

وفي ٤ ديسمبر سنة ١٩٢٩ صدر أمر ملكي بتعيينه شيخاً لمعهد
الاسكندرية ، وكان شيخه شيخاً لعلمائها

وفي ٣ أغسطس سنة ١٩٣٠ صدر أمر ملكي ثالث بتعيينه عضواً في
هيئة كبار العلماء ، مع الانعام عليه بكسوة التشريفة العلمية من الدرجة
الأولى

وفي هذا العام بدا لبعض المثقفين من اخواننا القبط أن يحاولوا التصغير
من شأن الاسلام ، وتحقير تعاليمه ومبادئه ، في محاضرات القوها في بعض
الأندية ، وكادت أن تكون فتنة طاغية جارفة ، وإذا بالشيخ اللبان يرسل
الى غبطة بطريرك الأقباط الأرثوذكس ، الكتاب التالي ، أنقله بحروفه
« حضرة صاحب الغبطة الحبر الجليل ، الانبا يؤانس بطريرك الأقباط
بمصر

« أهديك التحية اللائقة بمقامك ، وأرجو لك ما تحب من الصحة
والعافية ، وبعد : فاني أكتب اليك في موضوع خطير يهمنا جميعاً . وأنا

ممن يقدرّون فيك صفات الرجال ، ويعتقدون أنك ممن يزنون الحوادث
بميزان الحكمة والتبصر

« لقد عملنا سويا أيام كنا بالاسكندرية على اتحاد عنصري الأمة
العزيزة ، وكان لعملنا اثره في مصلحة الطائفتين : الاسلامية والقيبطية »
فجنت البلاد من وراء هذا الاتحاد ، ما حفظ كرامتها وأبقى على نهضتها .
وانه لمن دواعي الأسف الشديد لدى ، ان أرى اليوم فريقا متهوسا ممن
ترعاه الكنيسة المرقسية ، يعمل على هدم ما بناه العقلاء ، ويدبر الحملات
الطائشة ضد الاسلام ، دين الدولة للرسمى ، معرضا بذلك قضية الوطن
لأعظم الاخطار ، فان أكبر ما أخشاه أن يقابل المسلمون عمل هؤلاء المفترين
بمثله ، بل لا أنكر عليك ان من بينهم من حدثته نفسه فعلا بذلك ، وهم
برد كيد المعتدين ، رغم ما يأمر به ديننا في مثل هذا الشأن ، اذ يقول الله
في نهى المؤمنين عن سب آلهة المشركين : « ولا تسبوا الدين يدعون من دون
الله ، فيسبوا الله عدوا بغير علم »

« وثق انه لولا ما تعلمه من شدة معارضتى ، لنزل الى ميدان العمل
كثير ممن جاشت نفوسهم وثار عواطفهم ، غير مكترئين بالعواقب

« والراى عندى ان خير الطرق لاطفاء الفتنة واعادة الصفاء الى
النفوس ، أن تقوموا من جهتكم بما يفهم هؤلاء المعتدين وغيرهم ، ان في
عملهم خروجا عن حدود اللياقة ، وتعاليم المسيح عليه السلام ، فانها تخرم
الافتراء والكذب خصوصا على الاديان المقدسة

« يا صاحب الغبطة : هذا كتاب صاحبك القديم ، بدموك به الى ان
تقوم بقسطك من العمل على دوام الصفاء بين الفريقين ، فان الأمة في حاجة
اليه ، في هذا الوقت الذى تجتاز فيه اشد مراحل حياتها خطورة . وانى
لاود ان أعلم منك برجوع البريد ، ما اعتزمت عليه ، والسلام على من اتبع
الهدى

« وختاماً تقبلوا احتراماتنا »

١٨ العقدة سنة ١٣٤٨

١٧ ابريل سنة ١٩٣٠

عبد المجيد اللبان

بالاسكندرية

هذه هي الوطنية في اسمى معانيها ، وهذا هو حب الوطن في أدوم صورته .

لم يطلب احد من الشيخ أن يصنع شيئا ، ولكنه يدافع من غيرته على بلاده وعلى دينه ، كتب الى البطريق هذا الكتاب العظيم

لقد طلب منه الشيخ أن يرد عليه برجوع البريد . . فهل ابى البطريق طلبه ؟

نعم . فلقد أرسل رده عليه في ١١ برمودة سنة ١٦٤٦ : الموافق ١٩ ابريل سنة ١٩٣٠ ، وقد قال له فيه : ما أنقله هنا بحروفه أيضا :

« حضره صاحب الفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ عبد المجيد اللبان

« أهديك تحياتي وسلامي ، وأتمنى لك كل صحة وقوة ، ويعد : فقد جاءني كتاب فضيلتك ، واشكر لك صادق ودك وحسن ظنك . والواقع ان هذا الموضوع الذي كتبت لى عنه ، يهمنى كما يهمنىكم ، فانا أحرص الناس على وحدتنا الوطنية ، التى تعبنا معا ، فى الاسكندرية ، فى توثيق عراها ، وبذل كثير من أبناء العنصرين جهودا شريفة فى سبيل توطيد دعائهما ، فاذا وجد فرد أو افراد يعملون لهدم هذه الوحدة المقدسة بالظعن فى الدين الاسلامى الذى هو دين اخواننا ومواطنينا الكرام ، وتقوم الأدلة على اثبات جرمهم . فانهم يكونون من شر الجنة على الوطن ، وانا أول من يستنكر عملهم ، ويستفزع جريمتهم بلا جدال ، فان الدين المسيحى لا يجيز هذا الاعتداء على الاطلاق ، بل هو بالعكس يحض على محبة الاعداء ، فكيف بالمسلمين وهم اخواننا فى الوطن ، وشركاؤنا فى سراء الحياة وضرائها ، وتجب علينا محبتهم واحترامهم واجلال دينهم ؟

« على انه قد يهم فضيلتك ان تعرف ان الشخصين اللذين اتهمنا أخيرا بالظعن فى الدين الاسلامى ، وباتا رهن المحاكمة ، وفضيلتك تشير اليهما بالطبع فى كتابك ، ليسا من الأقباط الأرثوذكس كما ظننت ، وليس معنى ذلك ان أى طائفة أخرى من الطوائف المسيحية تبيع الظعن فى الاسلام ، فان الدين الذى ندين به ، هو بعينه الذى تدين به تلك الطوائف وهو يأمرها كما يأمرنا بالمحبة والسلام ، وينهاها عن كل ما يخالفهما ، ولا سيما اذا كان جارحا لاقدس العواطف ، واعنى بها العاطفة الدينية

« وكن على ثقة يا فضيلة الأستاذ ، انه لا يجرؤ على الظعن فى الاسلام وهدم الوحدة الوطنية من الأقباط الأرثوذكس الذين هم تحت رئاستنا ،

ومن غيرهم من الطوائف الأخرى ، إلا أحد اثنين : إما مدخول في عقله
لا يقدر عاقبة فعله ، أو مدسوس على المسيحيين محرض من فئة مفرضة
لاثارة فتنة ، والقانون لكليهما بالمرصاد

« وانما كتبت لك هذا لتكون على يقين لا يخالطه ريب ، من انى
استهجن كل الاستهجان ، الاقدام على الطعن في الدين الاسلامى الكريم ،
وانا عالم ان جميع ابنائى الاقباط الارثوذكس يقرون كل كلمة مما في كتابى
هذا

« وتقبل شكرى واحترامى »

يوانس

بابا وبطريرك الكرازة المرقسية

وكما قال البطريرك في كتابه ، فان المتهمين بالطعن في الدين الاسلامى،
دعيا للتحقيق معهما واحيلا الى المحاكمة ، والحمد لله فقد خيب الله
املهما ، ولم تقم الفتنة التى كانا يبغيانها

اعود الى الشيخ فاقول انه صدر امر ملكى رابع فى ١٢ يونيو سنة
١٩٣١ بتعيينه شيخا لكلية اصول الدين ، وكان قد صدر القانون رقم
٤٩ لسنة ١٩٣٠ بانشائها ، وبدأت الدراسة بها فى ٣ اكتوبر سنة ١٩٣١ ،
وافتحها الملك فؤاد رسميا فى يوم الثلاثاء ٢٨ مارس سنة ١٩٣٣ - ١٢
ذو الحجة سنة ١٣٥١ هـ

ففى صباح ذلك اليوم ، ازدحمت ساحة الكلية - وقد اتخذت دارا
لها مدرسة الخازندارة بشبرا التى شيدتها خديجة هانم بنت محمد راغب
اغا معتوق الخديوى عباس الاول، وأوقفتها فى سنة ١٩١٢ - سنة ١٣٣٣ هـ
على دراسة الدين والقرآن - بالعلماء والوزراء والشيوخ والنواب والكبراء،
فى انتظار الملك لافتتاحها رسميا فى الساعة الحادية عشرة قبل الظهر

ووصل الملك ، واستقر به المقام بعد مراسم الاستقبال فى السراى
المعد للاحتفال ، ووقف بين يديه شيخ الأزهر فضيلة الشيخ محمد احمدى
الفلواهرى ، فخطب خطبة ضافية قال فيها :

- « ... العناية يا مولاي بالأزهر الشريف ، هى العناية بالدين
الاسلامى وبالمسلمين اينما كانوا وحيثما وجدوا ، فهو قلب الاسلام النابض،

وعلمه الحقائق ، ومصباحه الوهاج ، الذى تعاقت عليه الأجيال والقرون ، وهو يرسل أشعة الايمان والتقى ومكارم الأخلاق الى مشارق الأرض ومغاربها ، وهو كعبة العلوم الدينية والعربية التى تحج إليها الوفود الاسلامية من جميع القارات ، ليتفقهوا فى الدين ولغة القرآن الكريم ، وينشروا ذلك فى قومهم اذا رجعوا اليهم

« ولقد كان من اجل مظاهر هذه العناية الملكية ، ان اشترى باعادة تنظيم الازهر على وجه يحقق آمال المسلمين فيه ويتناسب مع تاريخه المجيد ، ويعد خريجه للقيام بالواجب الملقى على عاتقهم فى هذا العصر ، على احسن وجه ويجعلهم رجالا عاملين فى أسرة العلم ، ذوى عقلية راجحة ، ملمين بما ينبغى ان يعلم من المعارف وشئون الحياة ، كى يستعينوا بما وصلت اليه العلوم والفنون فى تقدمها ، على كشف ما جاء فى القرآن الكريم والحديث الشريف ، من حقائق تكلم عنها الاسلام ، قبل ان تعرض فى الناس بأكثر من ثلاثة عشر قرنا .

« ولقد عودكم الله التوفيق فى جميع اعمالكم ، فاصدريهم جلالتم الفانون رقم ٤٩ لسنة ١٩٣٠ ، وافيا بهذه الاغراض السامية ، مع المحافظة على صبغة الازهر الدينية والعربية .

« وكان من أكبر مزايا هذا القانون ان انشأ كليات : أصول الدين ، والشريعة ، واللغة العربية ، وجعلت ابوابها مفتحة لجميع الطلاب المسلمين على اختلاف جنسياتهم ، واستدرك ما كان فى القوانين السابقة من نقص فى مواد التعليم على اختلاف مراحله ، فجعل من مواد الدراسة فى الكليات : تاريخ التشريع الاسلامى ، ومقارنة المذاهب ، وفن الحديث دراية ورواية ، وآداب اللغة العربية وتاريخها ، وفقه اللغة ، وتاريخ الامم الاسلامية ، وعلم النفس ، والفلسفة مع الرد على ما يكون منافيا منها للدين ، وما الى ذلك من مواد لم تكن تدرس فى القسم العالى من قبل .

الى ان قال :

« ... وهذه يا مولاي كلية أصول الدين التى غايتها تخريج الوعاظ والمرشدين ، وتحقيق قوله تعالى : « ولتكن منكم امة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون » .

« وقد اجتمع فى هذه الكلية ، الى أساتذة التوحيد والتفسير والحديث ، أساتذة علم النفس والأخلاق والفلسفة والتاريخ وسنن الله الكونية ، يتعاونون

على تزويد الطلاب بما يعدهم للقيام بواجب الوعظ والارشاد على اتم وجه يليق بهذا العصر » .

ثم بدأ الملك زيارة بعض فصول الدراسة ، واستمع الى ما يلقي فيها من محاضرات ، وانتهى الى مكتب شيخ الكلية ، الشيخ اللبان : فكتب في دفتر الزيارات كلمة أعرب فيها عن اعجابه بما رأى وبما سمع . ثملقى الشيخ كلمة بين يديه ، قال فيها :

« أحمد الله تعالى اليكم ، وأسأله جل شأنه دوام النعمة عليكم ، وارفع الى مقام جلالته اسمى آياته الحمد والاجلال : واخلص معانى الشكر والاعتراف بالجميل ، على تفضلكم بافتتاح كلية أصول الدين ، احدى مظاهر النظام الحديث للازهر الشريف .

« وان الازهر المعمور الذى ظل منار العالم الاسلامى عشرة قرون كاملة ، يبعث النور فى جوانبه ، ونشر الهداية والارشاد فى أقطاره ، والذى يسر بفضل رعايتكم اسباب العلم لابنائهم ، ومهد سبيل الثقافة الاسلامية للوافدين منهم على مصر ، ليعتز اليوم بهذه الزيارة المباركة ، ويعتبرها تكريما للرسالة العظمى التى يؤديها للمسلمين .

« فاذا وقف اليوم بين يدي جلالته شيخ كلية أصول الدين واساتذتها وموظفوها وطلابها ، يرفعون الى جلالته آيات الشكر على ما أوليتهم من الشرف الرفيع بهذا العطف السامى ، فانما يقفون ومن ورائهم كافة الامم الاسلامية التى نصرت دينها ، وعمرت مساجدها ، ونشرت كتابها ، وقمت حارسا عليه ، يرددون جميعا آيات الشكر لجلالته على ما تبذلون فى خدمة الاسلام وتثبيت قواعده ، واعلاء كلمته ، ويبتهلون الى الله تعالى ان يحفظ لمصر مليكها المؤمن ، ملاذ المسلمين وقبلة آمالهم ومعقل رجائهم .

« وها هى كلية أصول الدين التى ارجو ان تؤدى مهمتها بما يرضى الله تعالى وينال عطفكم ، ينتهز رجالها فرصة هذا اليوم السعيد ، ليعاهدوا جلالته على أنهم لا يدخرون جهدا فى سبيل القيام بواجبهم الذى اضطلعوا به لخدمة دين الله ونشر تعاليمه » .

وكان من عادة الشيخ ان يلقي خطابا فى اليوم الاول من كل عام دراسى ، يتخذ الاساتذة والطلبة نبراسا ينير لهم السبيل الى ما ينفعهم ويعود عليهم وعلى الدين وعلى المسلمين بالخير والنفع .

ولبت الشيخ عميدا للكلية التي جمعت طلبة من شتى الاقطار الاسلامية، الى ان احيل الى التقاعد ، لكنه ظل هاديا ومرشدا الى الحق والى الطريق القويم . الى ان دعاه الله الى جواره الكريم في ١٣ نوفمبر من عام ١٩٤٢ ، فلبى الدعوة راضيا مرضيا ، مخلفا رسالتين في الأخلاق الدينية ، ورسالة في السيرة النبوية ، وكان قد شرع في وضع كتابين في التفسير والاصول ، ولم يتمهما لصعود روحه الى يارثها الأعلى .

ولعله من المصادفات الغريبة ، انه وهو المجاهد الوطنى كما رايت ، ان يلقى ربه في يوم تاريخى في حياة مصر ، بل هو مفتاح ثورتها الكبرى ، ثورة ١٩١٩ ، هو اليوم الذى ذهب فيه سعد زغلول وعلى شعراوى وعبد العزيز فهمى الى المعتمد البريطانى مطالبين بالاستقلال ، وكان يوم ١٣ نوفمبر سنة ١٩١٨ ، وكان يطلق عليه « عيد الجهاد الوطنى »

وارى واجبا على قبل ان اضع القلم ، ان اذكر له حادنين هامين يدلان على شجاعته في ابداء رأيه ، وهى خصلة ما أحوج علماءنا اليها في هذا العصر .

الأول : بعد ما نجح الانجليز في اثاره الشريف حسين على الحكم التركى، وانسحبت الجيوش التركية من البلاد العربية الخاضعة له ، نصبوه ملكا على الحجاز ليكون أداة طيعة لتنفيذ سياستهم في المنطقة العربية ، ثم فكروا في دعم مركزه فجعلوا منه خليفة للمسلمين ، واقترحوا على حلفائهم وعلى الحكومات الخاضعة لسلطانهم ، مبايعته بارسال وفود من علمائها الى مكة في موسم الحج تعلن في اثنائه هذه المبايعة في حفل دينى كبير يقام في المدينة المقدسة ، فطلبوا الى السلطان حسين كامل - الذى نصبوه سلطانا على مصر تحت حمايتهم في اولى أيام الحرب العالمية الأولى - تأليف وفد دينى لهذا الغرض . فطلب السلطان الى المرحوم الشيخ محمد بخيت مفتى الديار المصرية لذلك العهد ، ان يختار له عالما يجمع الى علمه ورعا و « دبلوماسى » ولباقة ، ليرأس الوفد المصرى ، فرشح له الشيخ اللبان قائلًا للسلطان : انه خير العلماء صلاحية لهذا الامر .

ودعى الشيخ لمقابلة السلطان في قصر رأس التين بالاسكندرية - وكان قد عرف بأمر هذا الوفد ومهمته من صديقه الصحافى الكبير المرحوم الاستاذ امين الرافعى - فلبى الدعوة - فدار بينهما الحوار القصير التالى ادونه كما سمعته من الشيخ نفسه :

السلطان : أنا طول عمرى اتوقع ان تقوم لى بخدمة كبيرة ، وقد آن الاوان لتقوم بهذه الخدمة . أريد منك ان تذهب على رأس وفد الى مكة لمبايعة الحسين خليفة .

الشيخ اللبان : وانا كذلك كنت اتطلع الى فرصة تسنح لى لخدم فيها عظمه مولانا السلطان ، ولكن يؤسفنى ان صحتى فى الوقت الحاضر لا تساعدنى على السفر ، وقد قرر لى الأطباء ذلك . الى هذا فان دينى يمنعنى من مبايعة خليفة نصبه غير مسلمين ، هم الانجليز . ان الخليفة يجب ان يكون مستقلا وقادرا على حماية نفسه والدفاع عن رعيته ، والحسين غير مستقل ، فهو محمى من الانجليز ، ولا يستطيع الحماية ولا الدفاع .

السلطان : طاوعنى ، وخليك تحت « البنديرة » (اى العلم) .
الشيخ : لا استطيع .

السلطان : قم ، يظهر ان دماغك ناشفة !!

وانصرف الشيخ راضيا عما صنع . وبعد اشهر قليلة ذهب السلطان ليصلى الجمعة فى جامع أبى العباس المرسى ، وكان الشيخ من الحضور ، واتفق ان جلسته جاءت خلف السلطان مباشرة ، فالتفت اليه وقال له :

— يا شيخ عبد المجيد ، وجدت لك بلد توافق صحتك ، وهى اسيوط !
فقال الشيخ : اى بلد اؤدى فيها عملى ..

فلماذا اختارت الحاشية الدساسة ، مدينة اسيوط لينقل اليها الشيخ ؟
لان معهد اسيوط لم يكن به سوى السنة الاولى الابتدائية ، والشيخ كان يدرس طبعة السنة النهائية او السنة الثانية عشرة كما يسميها الازهريون ، ومعنى هذا الانتقاص من قدر الشيخ الجليل .

لكن الله لم يرد به الا خيرا ، فظل كما هو بمعهد الاسكندرية ، لأن السلطان بعد هذا الحديث فى المسجد ، مرض اياما انتقل بعدها الى رحمة الله .

اما الحادث الثانى ، فتمثل فى ذلك الحفل العظيم الذى دعا الشيخ الى حضوره فى مستهل عام ١٩٣٠ فى أرض الجمعية الزراعية الملكية — المعارض اليوم — بالجزيرة « للاستماع الى خطاب هام » ولبى الدعوة اليه الوف من الازهريين والمثقفين من جميع المعاهد والطبقات والطوائف ، فخطب فيهم خطابا شديدا محتجا فيه على ابعاد الشيخ المراغى — رحمه الله — عن مشيخة الازهر باذ سبب — وكان اللبان مرشحا ليخلفه — وأعلن انه كمصرى وكرجلى دين يعتز بكرامته ، لا يقبل أن يعامل شيخ الازهر وشيخ الاسلام هذه المعاملة التى ياباها الحر الكريم ، واقترح على الحاضرين ، وكانوا عدة الوف ، ارسال برقية احتجاج الى ولاة الامر ، فوافقوا على اقتراحه ، وارسلت البرقية ، وتلقاها المسئولون ، فعدلوا طبعاً عن ترشيحه ، وعينوا بدلا منه المرحوم الشيخ محمد الاحمدى الظواهرى .

ومع هذا كان دعاة الفرقة والسعى بالعداوة والبغضاء بين المتحابين ،
يذيعون ان كلا من الشيخين : اللبان والمراغى خصم لصاحبه ، بسبب تلك
الفوى الى ورد ذكرها . ولكنى أشهد الله انى ما سمعت من كليهما الا كل
خير وحسن فى اخيه ، بل لقد كان المراغى يتلقى العزاء فى وفاة الشيخ اللبان
مع انجاله . وهو مكوم ، موزع القلب حشرات ، على صديقه الذى رحل
وخلفه وحيدا .

فادا اردت ان ازيدك حديثا عن الشيخ قلت : لقد شملته عناية الله فزادته
بسطة فى العلم والجسم ، وسعة الرزق والجاه ، لا يمارى ولا يداجى ، يقول
الحق فى جلاء ووضوح وصراحة ، متواضع ، يحترم الصغير ويوقر الكبير ،
عاش للناس أكثر مما عاش لنفسه ، لم يضق صدره بصاحب حاجة ، بل
يبدو سعيدا اذا قضاها له وانصرف سعيدا مسرورا ، وكان مع تقدم سنه
يحمل قلبا فتيا ، وعزما قويا ، تحلى برجولة كاملة عاملة ، كان دالبا على
عمله منصرفا اليه ، فلم يغيب عن مكتبه فى الكلية طوال سنوات عمله بها ،
الا اياما تعد على اصابع اليدين .

انعم الله عليه بذرية صالحة ، فأنبتها نباتا حسنا ، ونشأها تنشئة
كريمة ، وجهد فى تعليمهم وثقيفهم ، حتى كان منهم الوزير والسفير والقاضى
والمربى الكامل الفاضل .

لقد انجب طيب الله ثراه ، الأستاذ سعد اللبان - رحمه الله - من وزراء
المعارف والأوقاف السابقين ، والدكتور ابراهيم اللبان - مد الله فى عمره -
عميد دار العلوم العليا الأسبق ، ومحمد الشافعى اللبان - رحمه الله -
القاضى السابق وأول رئيس لمجلس ادارة بنك الائتمان العقارى بعد أن رأس
مجالس ادارات بنوك أخرى ، ومحى الدين اللبان - رحمه الله - وكبل قلم
قضايا الاوقاف السابق ، وكمال اللبان - رحمه الله - مستشار السفارة
المصرية فى لندن السابق ، ومحمد عبد الشافى اللبان - مد الله فى عمره - وكيل
وزارة الخارجية وسفير مصر فى سويسرا السابق .

* * *

وبعد : فانى لأرجو ان أكون قد جلوت صفحة رجل كريم ، عاش لوطنه
ولدينه ، عزيز الجانب ، موفور الكرامة ، لم يسع الى شهرة ، ولم يبيع الا
رضى الله ورسوله . . راجيا أن يتأسى بسيرته شيوخنا وعلمائنا الاجلاء .

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا
وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ
صَدَقَ اللَّهُ الْعَظِيمُ

الثلثم ٢٥٠ قرشا